نفح الطيب

من

غصن الأندلس الرطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

حققه

الدكتور إحسان عباس

المجلد السابع

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق بريد ١٠ — بيروت

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

نفح الطيب

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس

(تتمة)

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

وأمّا مُوَشّحاته وأزجاله فكثيرة ، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعضَ كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه [1] : وأما أهل الأندلس فلمّا كثر الشعر في قُطْرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخّرون منهم فنّاً منه سَمّوْه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويُسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددُها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد ، وتجاوزوا [2] في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ وحمده [3] الخاصّة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترعُ

---

١ انظر مقدمة ابن خلدون : ١٣٢٧ وأصل هذا النص نفسه ورد في «المقتطف من أزاهر الطرف» لابن سعيد ، وراجع أزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ .

٢ المقدمة : وتجاروا .

٣ المقدمة والأزهار : جملة .

لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربّه صاحب العقد ، ولم يُذكر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشّحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة ، وقد ذكر الأعلم البَطَلْيَوْسي أنّه سمع أبا بكر ابن زُهْر يقول : كلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تَمّ شمس ضُحى غصن نَقا مسك شَمّ
مـا أتمّ مـا أوضحا ما أوْرَقا ما أنمّ
لا جَرَم مَنْ لمَحـا قَدْ عَشِقا قد حرم

وزعموا أنّه لم يسبق عبادة وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلّياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطلة ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول :

العودُ قد ترنمْ بأبدعِ تلحينْ وشقّتِ المذانبْ رياضَ البساتين

وفي انتهائه حيث يقول :

تَخْطِرولم تسلّمْ عَساكَ المأمون مُرَوِّع الكتـائبْ يحيى بن ذي النون

ثمّ جاءت الحَلْبة التي كانت في مدة الملثّمين فظهرت لهم البدائع ، وفُرْسان حلبتهم[1] : الأعمى التطيلي ، ثمّ يحيى بن بَقي ، وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله[2] :

---

1 المقتطف : وفرسا رهان حلبتهم .
2 ديوان الأعمى : ٢٧٢ .

كيفَ السّبيلُ إلى صبري وفي المعالم أشـــجانُ
والركبُ وَسْطَ الفَلا بالخُــرَّدِ النواعم قَدْ بانوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل[1] هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنّقَ فيها، فتقدم الأعمى التُّطيلي للإنشاد. فلمّا افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جُمان سافر عَنْ بَدْرِ
ضاقَ عَنْهُ الزمان وحَوَاهُ صـــدري

خرّق ابنُ بقي موشحته وتبعه الباقون[2].

وذكر الأعلم البَطَلْيَوْسي[3] أنّه سمع ابن زُهْر يقول: ما حسدت قطُّ وشّاحاً على قول إلاّ ابن بقي حين وقع لَهُ[4]:

أمـــا ترى أحمـدْ في مَجْدِهِ العالي لا يُلْحَق
أطلَعـــهُ المَغْربْ فأرِنـــا مثْلَـــــهُ يا مَشرق

وكان في عصرهما من الوشّاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض، وكان في عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة.

ومن الحكايات المشهورة أنّه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت[5] صاحب سَرَقُسْطة فألقى عليه بعض موشّحته

---

١ المقتطف: وسمعت غير واحد من الأشياخ ... إلخ.
٢ راجع هذه القصة في المجلد ٢: ٤٠٤.
٣ المقتطف: وسمعت الأعلم البطليوسي يقول ... إلخ.
٤ انظر هذه الموشحة في ديوان التطيلي: ٢٧٠ — ٢٧٢ وهي في دار الطراز: ٦٣ منسوبة لابن بقي.
٥ المقتطف: أنه لما ألقى على بعض قينات ابن تيفلويت ... إلخ.

جرّر الذيـلَ أيّما جرِّ [وصِلِ السكرَ منك بالسكرِ][1]

فطرب الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقـــد الله رايـــةَ النصرِ لأمـــيرِ العـــلا أبي بـــكْرِ

فلمّا طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح : واطرباه ! وشقّ ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشي ابنُ باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحّدين محمد بن أبي الفضل بن شرَف ، إلى أن قال : وابن هردوس[2] الذي له :

يا ليلةَ الوصلِ والسعودِ بــــاللهِ عـــــودي

وابن مؤهل[3] الذي له :

ما العيدُ في حلّةٍ وطاقٍ وشمِّ طيبْ
وإنّما العيدُ في التلاقي معَ الحبيبْ

وأبو إسحاق الزويلي[4] .

---

١ زيادة من المقتطف .

٢ ترجم له في المغرب (٢ : ٢١٠) وسماه أحمد بن هرودس بتقديم الواو على الدال ؛ وكنيته أبو الحكم ؛ وفي التحفة (٥٤) أنه إبراهيم بن علي بن هرودس ؛ وقال إنه من أهل حصن مرشانة من عمل المرية وتوفي بمراكش سنة ٥٧٢ ؛ وسماه في التكملة أيضاً إبراهيم (ص : ١٥٤) وأورد له صاحب المغرب موشحة (٢ : ٢١٥) هي التي أورد هنا مطلعها ؛ وأغلب الظن أن الصواب في نسبه « هردوس » بتقديم الدال وهي لفظة بربرية ترمز إلى المجهولة . والأرجح أن اسمه « أحمد » لقوله يخاطب أحمد بن عبد الملك بن سعيد « يا سميي » (انظر النفح ٤ : ٢٠١) .

٣ ذكره في المغرب ٢ : ٣٩٠ باسم « ابن موهد » وأورد له موشحة وقال إنه شاطبي سكن مرسية ومدح ابن مردنيش .

٤ في المقدمة والأزهار : الدويني ؛ وما أثبتناه هو ما ورد في المقتطف .

قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : إنّه دخل على ابن زُهْر ، وقد أسنّ ، وعليه زيٌّ البادية ، إذ كان يسكن بحصن سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس [1] ، وجرّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيهـا :

كحلُ الدجى يجري من مقلةِ الفجرِ على الصباحْ
ومعصمُ النهــرِ في حُلَلٍ خضرِ منَ البطاحْ

فتحرك ابن زُهْر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبر ، قال : ومن تكون ؟ فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتك .

قال ابن سعيد: وسابقُ الحَلْبة التي أدركتُ هو أبو بكر ابن زُهْر ، وقد شرّقت موشّحاته وغرّبت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهْر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

مـا للمـولّـه من سكره لا يُفيق يا لَـهُ سكران
[مِنْ غَيرِ خمر ما للكئيب المَشُوقْ يندُبُ الأوطان]

هَـلْ تُستعادْ أيّامُنــا بـالخليج ولَيـاليـنـــا
إذْ يُســتفادْ مِنَ النّسيم الأريج مسكُ دارينـا
وإذْ يـكـادْ حسنُ المَكانِ البَهيج أنْ يُحَيِّينـا

نهـر أظَـلّـه دَوح عَلَيْـهِ أنيق مُؤنق فينـان
والمـاء يَجْري وعـائِمٌ وغـريـق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون ؛ إلى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرْسية ، ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه ، فأنشده موشّحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموشّح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ، فقال :

---

١ المقتطف : فجلس حيث وجد .

على مثل ماذا ؟ فقال : على مثل قولي :

يا هاجري هَلْ إلى الوصالِ منْكَ سَبيلْ
أو هَلْ يرى عَنْ هَوَاكَ سالِ قلبُ العليلْ

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة ، قال ابن سعيد : كان والدي يعجب بقوله :

إنَّ سَيلَ الصباح في الشرقِ عادَ بحراً في أجمع الأفقِ
فتداعَتْ نوادبُ الوُرْقِ أتراها خافَتْ من الغرقِ
فبكَتْ سَحرةً على الورقِ

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن ابن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده : سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الوشّاحين الفضل ، بقولك :

واحسرتي لزمان مضى عشيّة بانَ الهوى وانقضى
وأفردْتُ بالرغم لا بالرضى وبِتُّ على جمرات الغضا

أعانق بالفكر تلك الطلولْ وألثمُ بالوهم تلك الرسومْ

قال : وسمعت أبا بكر ابن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدبّاج موشّحاته غير ما مرّة فما سمعته يقول « لله درّك » إلا في قوله :

قسماً بالهوى لذي حِجْرِ ما لليل المشوق من فجرِ
خَمَدَ الصبحُ لَيْسَ يطردْ
ما لليلي فيما أظنُّ غَد
صَحَّ يا لَيْلُ أنّك الأبد

أو تقضَّتْ قَوادمُ النسرِ فنجومُ السماءِ لا تسري

ومن موشّحات ابن الصابوني قوله :

ما حالُ صبٍّ ذي ضنًى واكتئابْ　　أمرضَهُ يا ويلَتاهُ الطَّبيبْ
عامَلَهُ محبوبُهُ باجتنابْ　　ثمَّ اقتدى فيهِ الكرى بالحبيبْ

جفا جفُوني النومُ لكنَّني　　لَمْ أبْكِهِ إلاّ لفقد الخيال
وذو الوصالِ اليوم قَدْ غرَّني　　منهُ كما شاء وشاء الوصال
فلستُ باللائم مَنْ صدَّني　　بصورة الحقِّ ولا بالمحال

واشتهر ببر العُدْوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشّحة المشهورة :

يد الإصباحْ　　قَدْ قدَحَتْ　　زنادَ الأنوار　　من مجامرِ الزهرِ

وابن خزر البجائي ، وله من موشحة :

ثغرُ الزمانِ موافقْ　　حيَّاكَ منهُ بابتسامْ

ومن محاسن الموشّحات موشحةُ ابن سَهْل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها [1] :

هل دَرَى ظَبْيُ الحمى أنْ قد حمى　　قلبَ صبٍّ حلّه عن مكْنَسِ
فهو في حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما　　لعبت ريحُ الصَّبا بالقبَسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبُنا الوزيرُ أبو عبد الله ابن الخَطيب شاعِرُ الأندلس والمغرب لعصره فقال :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمى　　يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكنْ وصلُكَ إلا حُلُما　　في الكَرَى أو خِلْسةَ المختلسِ

---

١ انظر ديوان ابن سهل : ٢٨٣ وهي الموشحة التي شرحها الأفراني في كتاب سماه « المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل » . يقول الأفراني : وقد وقفت على أزيد من اثني عشرة موشحة مما عورض به توشيح ابن سهل .

إذ يقود الدهر أشتات المنى   يَنْقلُ الخطوَ على ما يَرْسُمُ
زُمَراً بَــينَ فُرادى وثُنا   مثلمــا يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيا قد جَلّل الروضَ سنا   فثغورُ الزهرِ مِنهُ تبسمُ

وروى النعمانُ عن ماء السّما   كيف يروي مالكٌ عن أنَسِ
فَكَساهُ الحسنُ ثوباً مُعْلَما   يزدهي مِنهُ بأبهى ملبسِ

في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى   بالدجى لولا شموسُ الغُرَرِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهَوَى   مستقيمَ السيرِ سَعْدَ الأثرِ
وَطَرٌ ما فيه من عيبٍ سوى   أنّهُ مرَّ كلمحِ البصرِ

حينَ لذَّ الأنسُ شيئاً أو كما   هجم الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارتِ الشُّهبُ بنا أو ربما   أثّرت فينا عيونُ النرجسِ

أيُّ شيءٍ لامرىءٍ قد خلَصا   فيكُونُ الروضُ قد مُكّنَ فيهِ
تنهبُ الأزهارُ منه الفُرَصا   أمنتْ من مكرهِ ما تتّقيه
فإذا الماءُ تناجَى والحَصى   وخَلا كلٌّ خليلٍ بأخيهِ

تبصرُ الوردَ غيوراً بَرِما   يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآسَ لبيباً فهِما   يَسْرِقُ السَمْعَ بأُذْنَيْ فرسِ

يا أُهيل الحيِّ من وادي الغَضا   وبِقَلْبي سَكَنٌ أنتم بِهِ
ضاقَ عن وجدي بكم رحبُ الفضا   لا أُبالي شَرْقَهُ مِن غَرْبِهِ
فأعيدوا عَهْدَ أُنسٍ قد مضى   تُعْتقوا عانيكُمْ من كربِهِ

واتقوا اللهَ وأحيوا مُغرما   يتلاشَى نَفَساً في نَفَسِ
حبس القَلْبَ عليكم كرما   أفترضونَ عَفَــاءَ الحبسِ

وبقلـــبي منـــكــم مقتربُ بأحاديثِ المُنى وَهْوَ بَعيدْ
قَمَرٌ أطْلَعَ مِنـهُ المغربُ شقوةَ المُغْرَى به وهو سعيدْ
قَدْ تَساوى محسنٌ أو مذنبُ في هَواهُ بينَ وعْدٍ ووعيدْ

ساحرُ المُقْلَةِ مَعْسولُ اللَّمى جالَ في النَّفْسِ مجالَ النَّفَسِ
سدَّدَ السهمَ وسَمّى ورمى فَفُؤادي نُهْبَــةُ المفترسِ

إن يكُن جار وخابَ الأملُ وفؤادُ الصبِّ بالشوقِ يذوب
فهو للنفسِ حبيبٌ أوّلُ ليس في الحبّ لمحبوب ذنُوب
أمــرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتثلُ في ضلوعٍ قد بَراها وقلوب

حكّم اللّحظَ بها فاحتكما لم يراقبْ في ضعافِ الأنفُسِ
منصف المظلوم ممّن ظلما ومجازي البَرِّ منها والمُسي

ما لقلبي كلّما هَبّتْ صَبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوحِ لهُ مكتتبا قوله : « إنَّ عذابي لَشَديد »
جلب الهَمَّ لَـــهُ والوصَبا فهوَ للأشجانِ في جَهْدٍ جَهيد

لاعجٌ في أضلعي قد أضرما فهي نارٌ في هَشيمِ اليبسِ
لم يدعْ في مُهجتي إلا ذَما كبقاء الصبحِ بعد الغلسِ

سلّمي يا نفسُ في حكمِ القضا واعمري الوقتَ برُجْعى ومتاب
دعكِ من ذكرى زمانٍ قد مضى بين عُتْبى قد تقضّتْ وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضي ملهم التوفيقِ في أمِّ الكتاب

الكريم المُنتَهى والمُنْتَمى أسدِ السَّرْجِ وبدرِ المجلسِ
ينزلُ النصرُ عَلَيهِ مثــلما ينزلُ الوحي بروحِ القُدُسِ

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدري لِمَ لَمْ يكملها ، وتمامها قوله :

مصطفى الله سَمِيُّ المُصطفى الغني بالله عَنْ كلِّ أحدْ
مَنْ إذا ما عَقَدَ العهدَ وَفى وإذا مـا فُتِحَ الخطبُ عقدْ
من بني قيسِ بن سعدٍ وكفى حيثُ بيتُ النصرِ مرفوعُ العَمَدْ

حيثُ بَيْتُ النصرِ محميُّ الحمى وجَنى الفضلِ زكيُّ المغرسِ
والهوى ظلٌّ ظَليلٌ خيّما والنّدى هبَّ إلى المغترسِ

ها كها يـا سبطَ أنصار العُلا والذي إن عَثَرَ الدهرُ أقالْ
غادةً ألبسها الحسنُ مُلا تبهرُ العينَ جِلاءً وصقالْ
عارضتْ لفظاً ومَعنى وحلى قول من أنطقهُ الحبُّ فقالْ :

« هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صَبَّ حلَّه عن مكْنَسِ »
« فهو في خفقٍ وحرٍّ مثلمـا لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقبَسِ » .

ثمَّ قال ابن خلدون : وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانَوْهُ من الموشحات ، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وأوّلها :

[يا] حبيبي ارفعْ حجابَ النور عَنْ العذار
تَنْظُرِ المسْكَ عَلى كافور في جلّنار

كلّـلي يا سُحْبُ تيجانَ الرُّبى بالحُلي
واجعَلي سِـوارهـا منعطفَ الجدولِ

ولمّا شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق

كلامه وتصريع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منْواله ، ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً [1] ، واستحدثوا فنّاً سمّوه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأوّل من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس [2] ، لكن لم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رَشاقتها ، إلا في زمانه ، وكان لعهد الملثّمين ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مرويّة ببغداد أكثر ممّا رأيتها بحواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن ابن جَحْدر الإشبيلي [3] إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمّة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عَرِيش ، وأمامهم تمثال أسد من رُخام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

وعريشْ قد قامْ على دكّان　　بحالْ رواقْ
وأسدْ قد ابتلعْ ثعبان　　من غلظْ ساقْ
وفتحْ فمو بحالْ إنْسان　　بِهِ الفُواقْ

وانطلقْ من ثَمّ على الصفّاح　　وألْقى الصياح

---

١ يؤخذ من هذا أن ابن خلدون يرى أسبقية الموشح على الزجل ، وهو أمر يخالف طبيعة الأشياء ، لأن الزجل في أصله أغنية شعبية ، وإنما يعني ابن خلدون أن الزجل أحرز « مكانة أدبية » بعد شيوع الموشح .

٢ ظهر من الزجالين ابن نمارة وابن راشد قبل ابن قزمان ولكنه خالف طريقة القدامى – كما يسميهم – واختار العودة بالزجل إلى سهولة الأغنية الشعبية ورقتها .

٣ هو علي بن جحدر (المغرب ١ : ٢٦٢ واختصار القدح : ١٧٢) قال ابن سعيد : أكثر اشتهاره بالانطباع في الزجل ، وجالسته كثيراً بإشبيلية ، وطال عمره حتّى جاوز التسعين ومات سنة ٦٣٨ .

وكان ابن قزمان مع أنّه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، وينتاب نهرها .

إلى أن قال ابن خلدون : وجاءت بعدهم حلْبة كان سابقها مدغليس[1] ، وقعت لهُ العجائب في هذه الطريقة ، فمن قوله في زجله المشهور :

وردادْ دقْ ينـزلْ وشعاعْ الشمسْ يضربْ
فترى الواحدْ يفضّضْ وترى الآخرْ يذهّبْ
والنباتْ يشربْ ويسكرْ والغصونْ ترقصْ وتطربْ

وتريـد تجي إلينـــا ثمّ تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

لاح الضيّا والنجوم سكارى

ثم قال : وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جَحْدر الذي فضل على الزجالين في فتح ميُورقة بالزجل المشهور الذي أوّله :

مِن يُعاند التوحيدْ بالسيف يمحق أنا بري ممّن يعاندْ الحق

قال ابن سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع[2] صاحب الزجل المشهور الذي أوّلهُ :

ليتني إنْ ريْت حبيبي أفتلْ أذنو بالرسيلا
لش أخذ عنقْ الغزيّلْ وسرَقْ فمّ الحُجَيْلا

---

١ اسمه أحمد بن الحاج ، وكان في دولة بني عبد المؤمن ، وهو شيخ الزجالين بعد ابن قزمان (المغرب ٢ : ٢١٤) وقد أورد له ابن سعيد (٢ : ٢٢٠) زجلين وله في العاطل الحالي أزجال (١٨ – ٢٥) وأخرى منقولة عن سفينة ابن مباركشاه (العاطل ٢٠٤ – ٢١٤) وانظر النفح ٣ : ٣٨٥ .

٢ ق : اليعيع .

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سَهْل بن مالك إمام الآداب ، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافَع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواسْ واملالي نُجَدّد   ما خَلِق المالْ إلاّ أن يُبَدّد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم :

بين طلوعْ وبين نزولْ   اختَلَطَتْ الغزولْ
ومضى من لَمْ يكُنْ   وبقي مَنْ لم يزولْ

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعْدْ عَنّك يا ابني أعظمْ مصايبي   وحين حَصَلْ لي قربك سَيّبْتْ آقاربي

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا المقصد ، ولَمْ أرد إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلّق الغرض به ، وفيما ذكرته منه كفاية لتعلّقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنّه شاعر الإسلام غير مدافَع ، وأنّه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيحية .

[ترجمة ابن باجة من القلائد]

وأبو بكر بن باجّة الذي أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر ابن الصائغ التُّجيبي السَّرَقُسْطي ، الذي قال في حقّه لسان الدين في « الإحاطة » : إنّه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب « القلائد » معاداة فلذلك هجاه في القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصّه[1] : الأديب أبو بكر ابن الصائغ ، هو رَمَدُ عين[2] الدين ، وكَمَدُ نفوس

١ القلائد : ٣٠٠ — ٣٠٦ .   ٢ القلائد : جفن .

المهتدين ، اشتهر سُخْفاً وجنوناً ، وهَجَرَ مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرّع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهّرَ من جَنابة ، ولا أظهر مَخيلة إنابة ، ولا استنجى من حَدَث ، ولا أشجى فؤاده بتَوارٍ في جَدَث ، ولا أقر بباريه ومصوّره ، ولا قرّ عن تباريه في ميدان تَهوّره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتابَ الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ثانيَ عِطْفِه ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهيئة ، وأنكر أن تكون لَهُ إلى الله تعالى فَيْئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى ﴿ إنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعاد﴾ (القصص : ٨٥) فهو يعتقد أن الزمان دَوْر ، وأن الإنسان نبات أو نَوْر ، حِمامه تمامه ، واختطافه قِطافه ، قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رَسْم ، ونسي الرحمنَ لسانُه فما يمرّ له عليه اسم ، وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت ، ونفت ﴿ اليَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ﴾ (غافر : ١٧) ، فقصر عمره على طَرَب ولهو ، واستشعر كلّ كبر وزهو ، وأقام سوق الموسيْقَى ، وهام بحادي القطار وَسْقا ، فهو يعكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلن بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسلس مَقاد ، مع منشإ وَخيم ، ولؤم أصل وخِيم[1] ، وصورة شوّهها الله تعالى وقبحها ، وطَلْعة إذا أبصرها الكلب نبحها ، وقذارة يؤذي البلاد نفَسُها ، ووضارة يحكي الحدادَ دَنَسُها ، وفند لا يعمرُ إلا كنفَه ، ولدد لا يقوّم إلا الصّعادُ جَنَفَه ، وله نظم أجاد فيه بعضَ إجادة ، وشارف الإحسان أو كاده ،

---

١ - الخيم : الطبيعة والأصل .

فمن ذلك ما قاله في عبد حبشي كان يهواه ، فاشتمل عليه أسْرٌ سعّر حشاه[1] ، ونقله إلى حيث لم يعلم مَثْواه ، فقال :

يا شائقي حيثُ لا أسطيعُ أدركُهُ ولا أقولُ غداً أغـدو فألْقاهُ
أمّا النهارُ فليلي ضمٌّ شملتـه على الصّباحِ فأولاهُ كأخراهُ
أغـرّ نفسي بآمالٍ مـزوَّرة مِنْهـا لقاؤكَ ـوالأيّامُ تأباهُ

وله فيه لمّا بلغه موته ، وتحقّق عنده فَوْته :

ألا يا رزقُ والأقــدارُ تجري بمـا شاءت نَشا أو لا نشاء
هل أنتَ مُطارحي شجوي فتدري وأدري كيفَ يحتمل القَضـاء
يقولون الأمورُ تـكونُ دوراً وهـذا فقــده فمتى اللّقاء

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم قدس الله تعالى تربته ، وآنس غربته ، مدائح انتظمت بلبّات الأوان ، ونظمت على كل شتيت من الإحسان ، فمن ذلك قوله :

توضَّحَ في الدجى طرفٌ ضريرُ سنًا بلوى الصريمـةِ يستطيرُ
فيا بأبي ولم أبذل يسـيراً وإن لم يكفِهم ذاك الكثير
بريقٌ لا تقلْ هو ثغـرُ سلمى فتـأثم ، إنّه حُوبٌ وزور
فكيف وما أطلّ الليلُ منه ولا عبقت بساحته الخمور
تراءى بالسـدير فؤاد قلبي من البرحاء ما شاء السدير
فلولا أنّ يومَ الحشرِ يقضي عليَّ بحكمِ مولى لا يجـور
دعوتُ على المشقّر أن يجازَى بما تجزى به الدار الغَرور

---

[1] القلائد : جواه .

ومنها :

لقد وسع الزمان عليه عدوى وضرٍّ بشِبْلِهِ الليثُ الهَصُورُ
وقلّبنا الزمان فلا بُطُون تضمنتِ الوفاء ولا ظهور
سوى ذكرٍ أطارحه فلولا الا ميرُ لقَد عَفا لولا الأمير
همامٌ جوده يصفُ السّواري وسطوتـه يُعَيِّرُهـا الهجير
وقُلنا نحن كيفَ وراحتاه بحورٌ يلتظي فيها سعير
فهَلْ فيما سمعت بهِ خصام يكون الخصم فيهِ هو العذير

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المانّةَ ويراها ، ويَجُود أبداً ثَراها ، فلمّا ولي الثغر والشرق لم يغفله من رَعْي ، ولم يَكِلْه [1] إلى شفاعة وسَعْي ، وحمله على ما كان يعتقده فيه من المقت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خُلُقُ الوقت ، من إقامة الوعد [2] ، وتسويغه كل نعيم رَغْد ، وتغليب حجّة داحضة ، وإنهاض عَثْرة غير ناهضة ، فتقلد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوَسْميّ المبتكر ، وأهدى من النجم في الليل المعتكر ، وألويته تميسُ زَهْواً مَيْسَ الفتاة، ورعيته تبتهج بملكه ابتهاجَ حيي بابن الموماة [3] ، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها ، وكتائبه لا يكاد العدو يعشرها ، فجاش إليه وانبرى ، وراش في تنكيلهم وبَرى ، وأقطعهم ما شاء من مُقابحته ، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتحته ، فوغِرَتْ

١ القلائد : لم يغفلها . . . ولم يكلها ؛ والضمير عائد على « المانة » .
٢ القلائد : من إقامة كل وغد . ق : من إقامة وعد .
٣ كذا ؛ وفي القلائد : ابتهاج جابر بعهد البوباة ، وفي النصين خطأ في اسم العلم ، أما البوباة والموماة فيدلان على شيء واحد هو الأرض المتسعة ؛ وأرى أن الإشارة إلى من اسمه « جرير » وهو المشهور باسم « المتلمس » إذ يقول في ذكر البوباة :

لن تسلكي سبل البوباة منجدة ما عاش عمرو وما عمرت قابوس

والبوباة هنا ثنية في طريق نجد .

صدورهم السليمة ، واعتلّتْ صحةُ ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ، ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولا يَدَع ، ويعلن به ويصدع ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد الدولة من وُلاتها ، وجرّدها من حُماتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشرى ، وزأر منهُ على سَرَقُسْطة ليث شَرَى ، ولما رأى الشر قد ثار قَتامهُ، وبدا من ليلهِ إعتامه ، ارتحل واحتمل ، وقال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل ، وأقام ببلنسية يشفي نفسه ، ويستوفي أنسه ، ونجوم سعدها كل يوم غائرة ، والعدو يتربص بها أسوأ دائرة ، ويروم منازلتها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيأ لذلك الملك السريّ ، والليث الجريّ ، وفي خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المطاولة ، عاجل الأميرَ أبا بكر حِمامُهُ ، واستسرَّ فيها تمامه[1] ، وأجنّه الثرى ، وحاز منه بدر دُجُنّة وليث شَرى ، فعطلت الدنيا من علاء وجود ، وأطلّتْ عليها بفقده حوادث أجدبت تهائمها والنجود ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيعاً ، ويبيت به الأسى لسامعه ضجيعاً :

أيّها الملك قد لعمري نَعَى المجـ ـدَ نَواعيك يَوْمَ قمن فنحنا
كم تقارعتَ والخطوبَ إلى أن غادرتك الخطوبُ في التّرب رهنا
غيرَ أنّي إذا ذكرتك والدهـ ـرُ إخالُ اليقينَ في ذاكَ ظنّا
وسألنا متى اللّقـاء فقيل الـ ـحشرُ قُلنا : صبراً إليه وحزنا

وكثيراً ما يُغير هذا الرجل على معاني الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء ، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب ، ويعوضهم منها كل هم ناصب ، فهذا ممّا أطال به كد أبي العلاء وغمه ، فإنّه أخذه من قوله يرثي أمه[2] :

[1] يريد أنه كان بدراً كاملا فأصابه السرار .
[2] شروح السقط : ١٤٦٠ ، ١٤٦٨ .

فيا ركبَ المنونِ ألا رسولٌ   يبلّغُ روحَها أرَجَ السلامِ
سألتُ متى اللّقاء فقيلَ حتّى   يقومَ الهامدونَ من الرّجامِ

ولما فاتت سرقسطة من يد الإسلام ، وباتت نفوس المسلمين فَرَقاً منهم في يد الاستسلام ، ارتاب بقبح أفعاله ، وبرىء من احتذائه بتلك الآراء وانتعاله ، وأخافه ذنبُه ، ونبا عن مضجع الأمنِ جَنْبُه ، فكرَّ إلى الغرب ليتوارى في نواحيه ، ولا يتراءى لعين لائمه ولاحيه ، فلمّا وصل شاطبة حضرة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفينَ وَجَدَ باب نفاذه وهو مُبْهَم ، وعاقه عنه مدلول [1] عليه مُلْهَم ، فاعتقله اعتقالاً شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ، وفي ذلك يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستاسد :

خفّضْ عليك فما الزمانُ وريبُهُ   شيء يدومُ ولا الحياةُ تدومُ
واذهبْ بنفسٍ لم تضعْ لتحلها   حيثُ احتللتَ بها وأنتَ عليم
يا صاحبي لفظاً ومعنى خلتَهُ   من قبلُ حتى بُيِّنَ التقسيم
دعْ عنك من معنى الإخاء ثقيلَهُ   وانبذ بذاك العبء وهوَ ذميم
واسمحْ وطارحني الحديثَ فإنّه   ليلٌ كأحداث الزمان بهيم
خذني على أثر الزمان فقد مضى   بؤسٌ على أبنائه ونعيم
فعسى أرى ذاك النعيمَ وربَّهُ   مرحٌ وربُّ البؤس وهو سقيم
هيهات ساوتْ بينهم أجداثُهم   وتشابه المحسودُ والمحروم

ولمّا خلص من تلك الحبالة ونجا ، وأنار من سلامته ما كان دَجا ، احتال في إخفاء ماله ، واستيفاء آماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالرثاء له والتأبين ، وتداهيه في ذلك واضحٌ مستبين ، فإنّه وصل بهذه النزعة من الحماية إلى حرم ،

---

[1] القلائد : شيحان مدلول .

وحصل في ذمة ذلك الكرم ، واشتمل بالرَّعْي ، وأمن من كلّ سَعْي ، فاقتنى قِياناً ، ولقنهن أعاريضَ من القريض وركّب عليها ألحاناً أشجى من النَّوْح ، ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبَوْح ، فسلّك بها أبدع مسلك ، وأطلعها نيرات ما لها غير القلوب من فَلَك ، فمن ذلك قوله :

إنّ غراباً جرى بِبَيْنِهِمُ جاوَبَه بالثنيّـة الصُّرَدُ
طاروا فها أنت بعدهم جسدٌ قد فارق الروحَ ذلك الجسدُ
واكتتموا صُبْحَةً ببينهمُ فبئس والله ما الذي اعتمدوا

وكقوله :

سلامٌ وإلمامٌ ووسْمِيُّ مزنةٍ على الجدَثِ النائي الذي لا أزورهُ
أحقّاً أبو بكر تقضّى فلا يُرى تردُّ جماهيرَ الوفود ستوره
لئن أنِسَتْ تلك القبورُ بلحده لقد أوحشت أنصاره وقصوره

ومن قلّة عقله ونزارته ، أنّه في مدة وزارته ، سَفَر بين الأمير أبي بكر رحمه الله تعالى وبين عماد الدولة بن هود رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها ، وذخائر كانت له على يديه أتلفها ، فوافاه أوْغَرَ ما كان عليه صَدْراً ، وأصغر ما كان لديه قدراً ، فآل به ذلك الانتقال ، إلى الاعتقال ، فأقام فيه شهوراً يغازله الحِمام بمقلة شوهاء ، وتُنازله الأوهام بفطرته الوَرْهاء ، وفي ذلك يقول :

لعلّكَ يا يزيدُ علمتَ حالي فتعلمَ أيَّ خطبٍ قد لقيتُ
وإنّي إن بقيتُ بمثل ما بي فمن عجبِ الليالي أن بقيتُ
يقولُ الشامتون شقاء بختٍ لَعَمْرُ الشامتين لقد شقيتُ
أعندهُمُ الأمانُ من اللّيالي وسالمهم بها الزمنُ المقيتُ
وما يدرون أنهمُ سَيُسْقَوْا على كره بكأسٍ قد سُقيتُ

وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، وألزم المرقبين به التحيُّلَ على خَتْله ، فنمي إليه الأمر الوَعْر ، وارتمى به في لجج اليأس الذعر ، فقال :

أقولُ لنفسي حينَ قابلَها الردى فراغَتْ فراراً منه يُسْرَى إلى يمنى
قِري تَحمدي بعضَ الذي تكرهينه فقَدْ طالما اعْتدتِ الفِرار إلى الأهنا

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ، ويمهل الفاجر حكمةً من الله تعالى وعلماً و ﴿ إنَّما نُمْلي لهُمْ ليَزْدادُوا إثماً ﴾ (آل عمران : ١٧٨) ؛ انتهى نص القلائد .

[ثناء الفتح على ابن باجة]

وأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ، وبرهــان علم لـكل حجة قاطع ، تتوّجت بعصره الأعصار ، وتأرَّجَتْ من طيب ذكره الأمصار ، وقام أوانُ المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فَنَناً وتهدّل ، وعَطّل بالبرهان التقليد ، وحقّق بعد عدمه الاختراع والتوليد ، إذا قدح زَنْدُ فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإنْ طما بحر خاطره فهو لـكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصَوْنها ، وبُعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يودُّ عُطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبّات والنحور ، وتدّعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، وقد أثبتُّ منه ما تهوى الأعين النُّجْلُ أن يكون إثمدها ، ويزيل من النفوس حزنها وكَمدها ، فمن ذلك قوله يتغزل :

أسكَّانَ نَعْمانِ الأراكِ تَيقّنوا بأنكُمُ في ربع قلبيَ سُكّانُ

ودوموا على حفظِ الودادِ فطالمـا ... بُلينا بأقوام إذا استُحفظوا خانوا
سلوا الليلَ عنّي إذ تناءتْ دياركم ... هل اكتحلتْ لي فيه بالنومِ أجفان
وهل جُرِّدت أسيافُ برقِ سمائكم ... فكانتْ لها إلا جفونيَ أجفان

وله :

أتأذنُ لي آتي العَقيقَ اليَمانيا ... أُسائلُهُ ما للمعـالي وما ليا
وهَلْ داركم بالحزن قفراء إنّني ... تركتُ الهوى يقتاد فضل زماميا
فيا مَكْرِعَ الوادي أما فيك شَرْبَةٌ ... لقد سالَ فيك الماءُ أزرقَ صافيا
ويا شجراتِ الجزعِ هل فيكِ وقفةٌ ... وقد فاء فيكِ الظلُّ أخضرَ ضافيا

وأوردَ له في «المطمح» أنّه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محجوباً، فقال :

مَن مُبلغٌ خيرَ إمامٍ نشا ... ذا عزةٍ وسامياً قَدْرا
قولَ امرىء لَوْ قاله للصفا ... أنبتَ فيهِ ورقاً خضرا
عبدكَ بالبابِ له خجلةٌ ... لَوْ أنّها بالنرجسِ احْمرّا

وحكي غير واحد أنّه مات له سَكَن كان يهْواه ، فبات مع بعض أصحابه عند ضريحه ومَثْواه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ، فزوّر في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتّى إذا كان قبيل وقت الكسوف بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجي ، واللحن يسوق الشوق ويُزْجي ، وهما :

شقيقك غُيّب في لحدِهِ ... وتُشْرِقُ يا بدرُ من بعدِهِ
فهلاّ كسفْتَ فكان الكسوفُ ... حداداً لبستَ على فقدِهِ

فكسف القمر في الحال ، وعُدّت هذه من نوادره التي جيدُ الأخبار بفرائدها حال ، سامحه الله تعالى .

ثم رأيت في « الإحاطة »[1] نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ، الوادي آشي ، يكنى أبا عبد الله .

حاله – شاعر مفلق، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القرين منها في الموسيقى ، مضطلع بفك المعمّى ، سكن المرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صُمادح ، وقال ابن بَسّام : كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة ، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المتهلّل ، وضرب فيها بقدح ابن مُقْبل[2] ، إلى جلالة مقطع ، وأصالة مَنْزِع ، ترى العلم ينم على أشعاره ، ويبين في منازعه وآثاره .

تأليفه – ديوان شعره كبير معروف ، وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية .

بعض أخباره – حدّث بعض المؤرخين ممّا يدل على ظَرْفه أنّه فقد سكناً عزيزاً عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلمّا حضر الندماء ، وكان قد رصد الخسوف القمري ، فلمّا حقق أنّه ابتدأ أخذ العود وغنى « شقيقك غُيّبَ – إلى آخره » وجعل يرددها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف ، وعظم من الحاضرين التعجب .

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره : وقال[3] :

أقبلن في الحبرات يقصرن الخطا ... ويُرينَ في حُلَلِ الوَرَاشينِ القطا[4]
سرب الجوى لا الجوّ عوّد حسنه ... أن يرتعي حَبَّ القلوب ويلقطا

١ الإحاطة ٢ : ٢٥٠ .
٢ ينسب القدح إلى الشاعر ابن مقبل لأنه أجاد وصفه (ديوانه : ٢٨ – ٢٩) .
٣ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة ؛ وهي في الذخيرة ١/٢ : ٢١٩ .
٤ الوراشين : جمع ورشان وهو من الطيور المفردة .

مالت معاطفهنّ من سُكْرِ الصّبا ميلاً يخيفُ قدودَها أن تسقطا
وبمسقَطِ العَلَمين أوضحُ معلَم لمهفهف سَكن الحشا والمسقطا
ما أخْجَلَ البدر المُنير إذا مَشَى يختالُ والغصنَ[1] النضير إذا خطا

ومنها في المدح :

يا وافدَيْ شرقِ البلادِ وغربها أكرمتما خيلَ الوفادة فاربطا
ورأيتما ملكَ البريةِ فاهنآ[2] ووردتما أرضَ المريّة فاخططا
يدمي[3] نحور الدارعين إذا ارتأى ويذلُّ عزّ العالمين إذا سَطا

انتهى المقصود منه ، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أولها :

حديثكِ ما أحلى ، فزيدي وحدثي

وهي طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيخي أبي جعفر ابن خاتمة بالمرية في سنة خمس وستين وسبعمائة ؛ قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القبابَ على أقاحي روضةٍ خطرَ النسيمُ بها ففاحَ عبيرا
وتركْتُ قلبي سارَ بينَ حُمُولهم دامي الكلومِ يسوقُ تلك العيرا
هلاّ سألتَ أميرهم هل عندهم عانٍ يُفكُّ ولو سألت غيورا
لا والذي جعل الغصونَ معاطفاً لهمُ وصاغ الأقحوانَ ثغورا
ما مرَّ بي ريح الصَّبا من بعدهم إلا شهقتُ لَهُ فعاد سعيرا

---

١ الذخيرة : والخوط ، ق : والخود .
٢ الذخيرة : قاطباً .
٣ الذخيرة : يرمي .

وتوفّي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموماً في باذنجان بمدينة فاس ، وهو تُجِيبِي بضم التاء وفتحها ، وباجّة : بالباء الموحدة ، وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهي القصة بلغة الفرنج ، وسَرَقُسْطة – بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة – مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة »[١] إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف في الرياضات والمنطق ، وإنّه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَقُسْطة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف ابن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وإن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتّاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموماً ؛ انتهى .

وأنشد له بعضهم :

هُمُ رحلوا يومَ الخميسِ عشيّةً ... فودّعتُهم لمّا استقلّوا وودعوا
ولمّا تولّوْا ولّتِ النفسُ معْهُمُ ... فقلتُ : ارجعي قالت : إلى أين أرجع
إلى جَسَدٍ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ ... وما هوَ إلا أعظُمٌ تتقعقَع
وعينين قد أعماهما كثرةُ البُكا ... وأُذنٍ عَصَتْ عُذّالها ليس تسمع

وقد ذكر بعضهم في تعزيز بيتي الحريري : أنّه لابن الصائغ الأندلسي ، وليس هو بهذا فيما أعلم :

انقدّ مَهوى أزرِهِ فانثنى ... مَهْ يا عذولي في الذي انقدَّ مَهْ
مندمةٌ قَتْلُ المعنّى فلا ... ترسلْ سهامَ اللحظِ تأمَنْ دمَهْ

---

[١] هو تاريخ كبير مرتب على حسب السنين انتهى فيه إلى سنة ٧٢٤ ؛ وتوفي ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري سنة ٧٢٥ .

[ترجمة الفتح عن الإحاطة]

رجع إلى ابن باجّة — وقد ذكر لسان الدين في « الإحاطة » سببَ العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولنذكرها بنصّه فنقول [1] : قال رحمه الله تعالى : الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تُعرف بقلعة الواد [2] من قرى يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويُعرف بابن خاقان .

حاله — كان آية من آيات البلاغة لا يُشَق غُباره ، ولا يُدْرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعوباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب الحلى والصفات ، إلا أنّه كان محارفاً مقدوراً عليه ، لا يمل من المعاقرة والقَصْف ، حتى هان قَدْرُه ، وابتذلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس إلا ودخله مسترفداً أميرَه واغلاً في عليته ، قال الأستاذ في « الصلة » : وكان معاصراً للكاتب أبي عبد الله ابن أبي الخصال ، إلاّ أن بطالته أخلدت به عن مرتبته . وقال ابن عبد الملك [3] : قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض مخمراً ، فتنسم بعضُ حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ، فاستثبت [4] وحَدّهُ حداً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بـ « قلائد العقيان » ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهي نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تُنسى ، وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت

---

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٥٣ .

٢ الإحاطة : بصخرة الولد ، وبهامش إحدى نسخ الذيل والتكملة : من قرية شرقي قلعة يحصب تعرف بشجرة الولد . ق : بقرية الواد .

٣ قلت انظر الذيل والتكملة ٥ : ٥٣٠ .

٤ الذيل : فاستثبت في استنكاهه ؛ وفي الإحاطة : فاستتابه .

فيه مَنْ هو مثلُه ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ، فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر ، قال : فتبين ذلك ، وعلم صحته وأقر اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجة أبي بكرٍ آخِرِ فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به وتكذيبه إيّاه في مجلس إقرائه ، إذ جعل يُكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حلياً ، وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون – زعموا – فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التي على شاربك ؟ فثلبه في كتابه بما هو معروف ؛ وعلى ذلك فأبو نصر نسيجُ وَحْدِه ، غفر الله تعالى له .

مشيخته – رويَ عن أبوي بكر : ابن سليمان بن القصيرة وابن عيسى ابن اللبانة ، وأبي جعفر ابن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن ابن سراج ، وأبي خالد ابن بشتغير ، وأبي الطيب ابن زرقون ، وأبي عبد الله ابن خلصة الكاتب ، وأبي عبد الرحمن ابن طاهر ، وأبي عامر ابن سرور ، وأبي محمد ابن عبدون ، وأبي الوليد ابن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه – ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس والمطمح أيضاً » ، وترسيله مدوّن ، وشعره وسط ، وكتابته فائقة .

شعره – من شعره قوله ، وثبت في قلائده ، يخاطب أبا يحيى ابن الحاج [1] :

أكعبةَ علياءٍ وهَضْبَةَ سُؤددٍ ... ورَوْضةَ مجدٍ بالمفاخر تُمْطَرُ
هنيئاً لملك زار أفقَكَ نورُهُ ... وفي صفحتيه من مَضائك أسطرُ
وإنّي لخفَّاق الجناحين كلّما ... سَرَى لك ذكرٌ أو نسيمٌ مُعَطَّرُ
وقد كان واشٍ هاجنا لتهاجُرٍ ... فبتُّ وأحشائي جوًى تتفطَّرُ

---

[1] انظر أيضاً القلائد : ١٨٠ والمطرب : ١٨٩ .

فهل لك في ودٍّ ذَوَى لكَّ ظاهراً وباطنه يَنْدى صــفاء ويقطرُ
ولست بعلِقٍ بيع بخساً وإنّــني لأرفعُ أعلاقِ الزمانِ وأخطرُ

فروجع عنه بما ثبت أيضاً في قلائده ممّا أوّله :

ثنيتَ أبا نصرٍ عناني ، وربما ثنتْ عزمةَ السهم المصمم أسطرُ

نثره – ونثره شهير ، ونثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيراً كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشُّرَط ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته : كتاب تأكيد اعتناء ، وتقليد ذي منة وغَناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيّده الله تعالى ، لفلان ابن فلان ، صانه الله تعالى ، ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ، ويَضْرَح[1] ما تكاثف من العُدْوَان في جَنَبَاتها ، تنويهاً أحظاه بعلائه ، وكساه رائق مُلائه ، لما علمه من سنائه ، وتوسّمه من غَنائه ، ورجاه من حسْن مَنابه ، وتحققه من طهارة ساحته وجَنابه ، وتيقن – أيده الله تعالى – أنّه مستحق لما ولاه ، مستقل[2] بما تولاه ، لا يعتريه الكَسَل[3] ، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسَل ، ولم يَكِل الأمرَ منه إلى وَكل ، ولا ناطهُ بمناط عجز ولا فَشَل ، وأمره أن يراقب الله تعالى في أوامره ونواهيه ، وليعلم أنّه زاجرُه عن الجور وناهيه ، وسائله عمّا حكم به وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمْرُ يَوْمَئِذٍ لله ﴾ (الانفطار : ١٩) فليتقدم إلى ذلك بحزم لا يخمد توقّده ، وعزم لا ينفد تفقّده ، ونفس مع الخير ذاهبة ، وعلى مَتن البر والتقوى راكبة ، ويقدّم للاحتراس مَنْ عرف اجتهاده ، وعلم أرقه في البحث وسُهاده ، وحُمدت أعماله ، وأمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحذو حذوهم ، ويقفو شأوهم ،

١ يضرح : يزيل ويغسل ؛ وفي ق : ويصوح .
٢ مستقل : حامل العبء ؛ وفي الإحاطة : مشتغل .
٣ الإحاطة : الكلل .

ممّن لا يستراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه ، وأن يُذْكي العيون على الجُناة ، وينفي عنها لذيذ السِّنات ، ويفحص عن مكامنهم ، حتى يغص بالريق[1] نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ، ولا يفر منهم خب ولا مُوضِع ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال في مواضع تصرفه ومواطنه ، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء ، وتعدّاها البغي والافتراء ، نَكّله بالعقوبة أشدّ نَكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ، بعد أن يبلغ إناه ، ويقف في طرفه مَداه ، وحدّ له أن لا يكشف بشرة إلا في حد يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور ، وأن لا يسمع من مكشوف في مستور ، وأن يسلك السَّنن المحمود ، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود ، وإذا انتهت إليه قصّة مشكلة أخّرها إلى غده ، فهو على العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت ، والمعاجلة[2] بالعقوبة من المَقْت ، وأن يتغمد هفوات ، ذوي[3] الهيئات ، وأن يستشعر الإشفاق ، ويخلع التكبر فإنّه مَلابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله تعالى اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مَقاده ، وأن يعاقب المجرم قدر زلته ، ولا يعتز عند ذِلّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزيَّن له مَثْوَاه ، فليشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية ، وألبسه من ملابسها الضافية ، ويذكره جلَّ وعلا في جميع أحواله ، ويفكر في الحشر وأهواله ، ويتذكر وعداً ينجز فيه ووعيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خيرٍ مُحْضَراً وما عمِلَتْ مِنْ سوء تودُّ لو أنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ أمَداً بَعيداً﴾ (آل عمران : ٣٠) والأمير أيده الله تعالى ولي له ما عدل وأقسط ، وبرىء منه إن جار وقَسَط ، فمن قرأه فليقف عند حدّه ورَسْمه ، وليعرف له حق

---

١ الإحاطة : ينهض بالروع .
٢ الإحاطة : والعجل .
٣ الإحاطة : أولي .

قطع الشرّ وحَسْمه ، ومن وافقه من شريف أو مشروف ، وخالفه في نهي عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبَال خَبْله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وكتب في كذا .

وفاته — بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة[1] وعشرين وخمسمائة ، ألفي قتيلاً ببيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعُبث به ، وما شُعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ؛ انتهى نص الإحاطة .

[ترجمة الفتح عن المغرب]

وقال في « المغرب » ما ملخصه[2] : فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، صاحب « القلائد » و « المطمح » ، ذكره الحجاري في المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طَبّقَ الآفاق ضياؤها ، وعمّ الشرقَ والغربَ سناها وسناؤها ، وكان في الأدب أرفعَ الأعلام ، وحسنة الأيام ، وله كتاب « قلائد العقيان » ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبو الحسن ابن بَسّام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قُسٌّ وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابنَ بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلّقاً وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به ممّا عُرف من أجله بابن خاقان ، لكان أحَد كتّاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان ، وإنّما أخلّ به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بذم

---

١ الإحاطة : سبعة .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٤ وبين ما أورده المقري وما جاء في المغرب اختلاف كبير ، هذا مع أن المقري يصرح بأنه يلخص .

أولي الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتّاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجّة ، فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبَحَه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه ، وتركه مقتولاً وفي دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات في المدح :

إلى أين تَرْقى قد علوتَ على البدرِ وقد نلتَ غاياتِ السيادةِ والقدرِ
وجُدْتَ إلى أن ليس يُذْكرُ حاتمٌ وأغنيتَ أهل الجدبِ عن سَبَلِ القطرِ
وكم رام أهلُ اللومِ باللومِ وقفةً وبحركَ مَدٌّ لا يؤول إلى جزرِ
ولو لَمْ يكن فيكَ السماحُ جِبِلّةً لأثّر ذاكَ اللوم فيك مع الدهرِ

وذكره ابن الإمام في «سمط الجمان» وأنشد له :

للهِ ظبيٌ من جنابك زارني يختالُ زهواً في مُلاءِ مراحِ
ولي التماسك في هواه كأنّه مروانُ خافَ كتائبَ السفّاح
فخلعتُ صبري بالعَرا ونبذته وركبتُ وجدي في عنان جماح
أهدى ليَ الوردَ المضعَّفَ خدُّهُ فقطفته باللحظِ دون جُناح
وأردتُ صبراً عن هواه فلم أُطقْ وأريتُ جِدّاً في خلال مزاح
وتركت قلبي للصبابة طائراً تَهْفُو به الأشواق دون جَناح

وذكره ابن دِحْية في «المطرب» ونعته بابن خاقان ، قال : والشيخ أبو الحجاج البياسي ينكر هذا ، وقيل : إنّما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجاري، وقال ابن دحية: إنّه قُتل ذبحاً بمسكنه في فندق بيبت من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين .

وقال أبو الحسن ابن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس يتقدون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده « الحمد لله الذي راض لنا البيان حتّى انقاد في أعنّتنا ، وشاد مثواه في أجنّتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب ممّا تضمنته الفقرة الثانية ، والصواب ضد ذلك ؛ انتهى .

وقال ابن الأبار في « معجم أصحاب الصدفي »[1] : إنّه لم يكن مرضياً ، وحذفه أولى من إثباته ؛ انتهى . ولذا لم يذكره في التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنّه لم يُعْرَف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب . وما حكاه في « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنّه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به .

وحكى ابن خلكان[2] قولاً آخر أنّه توفّي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، قيل : وهو خطأ ، على أنّه حكى القول الآخر أيضاً .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخي إبراهيم الذي ألف برسمه « قلائد العقيان » .

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ؛ والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنّه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعلّه الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ومن تأليف الفتح « راية المحاسن وغاية المحاسن » ومجموع في ترسيله ، وتأليف صغير في ترجمة ابن السِّيد البَطَلْيَوْسي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد[3] .

---

١ انظر المعجم : ٣٠٠ (رقم : ٢٨٥) .
٢ وفيات الأعيان ٣ : ١٩٤ .
٣ هذا التأليف نقله المقري في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ – ١٤٩ ؛ وذكر ابن عبد الملك له مؤلفاً اسمه « حديقة المآثر » ولم أجده مذكوراً عند غيره .

١ – ومن بديع إنشاء الفتح المذكور سامحه الله تعالى قوله : أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجلّ ، عتادي الأسْرَى ، وزنادي الأوْرَى ، وأيامه أعياد ، وللسعد في زمانه انقياد ، أمّا أنا – أدام الله تعالى عزّه – فجوّي عاتم ، وأعيادي مآتم ، وصُبْحي عِشاء ، وما لي إلاّ من الخطوب انتشاء ، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مُسَهَّد ، نائي المحلّة من مزار العُوَّد ، حين لا أرى الروض المنوّر ، ولا أحس سُهَيْلاً إذا لاح ثم تَهَوَّر [١] ، وقد بعدت دار إليّ حبيبة ، ودنت مني حوادثُ بأدناها تؤذَى الشبيبة ، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يَريمُها ، حتى ألفه ريمُها ، قد رمته النوائب فما اتّقى ، وارتقت له الجوائح في وُعُور المرتقى ، يُواصل النوى ولا يهجر سيراً ، ولا يزجر في الإراحة طيراً ، قد هام بالوطن ، هيام ابن طالب بالحوض والعطن ، وحنّ إلى تلك البقاع ، حنينه إلى أثَلات القاع [٢] ، ولا سبيل أن يَتَشعّبَ صدر بينه شاعب ، أو تكلّمه أحجار للدار وملاعب ، وليس له إلى أين يجنح ، ولا يرى أمله يَسْنَح ، قد طوى البلاد وبسطها ، وتَطرّقَ الأرضَ وتوسطها ، ولم يُلْفِ مَقيلاً ، ولا وجد مُقيلاً ، إلى الله أشكو ما أقاسي وأقاصي ، وبيده الأقدامُ والنواصي ، ولقاؤه موعد كلّ موعد ، وكل معمر سيدركه يوماً حِمام الموعد ، وأنفذته وقد صدرتُ عن فلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكالٍ سُقيتها ، وسفر لقيت منه نَصَباً ، وكَدَر أعقبني وصَباً ، وإلى متى يعترلني السعد؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ انتهى .

---

١ ق : تنور ، وصوابه « تغور » .

٢ يشير إلى يحيى بن طالب الحنفي حين اغترب عن وطنه اليمامة إلى العراق وافتقر ، وهو يقول في الحنين إلى أثلات القاع :

أيا أثلات القاع من بطن توضح حنيني إلى أفيائكن طويل

وقد شرح ياقوت قصته في معجم البلدان (قرقرى) .

٢ – وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدي لا علمتَ ارتفاقاً ، ولا حُرمتَ تكيفاً من السعد واتفاقاً ، أنا الآن مشتغلُ البال ، لا أُفرّق بين الإعراضِ والإقبال ، وعند تفرغي أوجّه لك ما حضر ، ومثلُك أرجأ الأمر وأنظر ، وفي علم الله تعالى لو أمكنني لحملتك على كاهل ، وأوردتك منه أعذبَ المناهل ، وأبحت لك السعد ثغراً ترتشفه ، وخلعته بُرْداً عليك تلتحفه ، لكن الزمانِ لا يجد ، وصروفه لا تنجد ، وعلى أي حال فلا بد أن تجد قِراك ، وتحمد سُرَاك ، إن شاء الله تعالى .

٣ – وكتب إلى أبي بكر بن علي[١] عند ولايته إشبيلية : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر للأرض يتملكُها ، ويستدير بسعده فلَكُها ؛ استبشر الملك وحق له الاستبشار ، وأومأ إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتّفق له من توليتك ، وخفَق عليه من ألْويتك ، فلقد حُبِيَ منك بملك أمضى من السهم المسَدَّد :

طويل نجاد السيف رَحْب المقلَّد

يُقْدِم حيث يتأخّر الذابل ، ويكرم إذا بخل الوابل ، ويحمي الحمى كربيعة ابن مُكَدَّم ، ويسقي الظُّبي نجيعاً كلون العَنْدَم ، فهنيئاً للأندلس لقد استردت عَهْدَ خلفائها ، واستمدَّتْ تلك الإمامة بعد عفائها ، حتى كأن لم تمر أعاصرها ، ولم يمتْ حكَمُها ولا ناصرُها ، اللذان عمرا الرُّصافة والزَّهْرا ، ونكحا عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية مَهْرا ، والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عَصْرُكَ أعجب من عصرهم ، ونصرُك أعزَّ من

---

١ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين أكبر أبناء علي وكان يعرف ببكور (تصغير تحبب) ، نشأ في إشبيلية ، وكان مؤدبه أبو مروان ابن زهر ، وقد ولي أمر المدينة سنة ٥١٨ وعزل عنها سنة ٥٢٢ .

نصبرهم ، والسلام ؛ انتهى .

٤ — وقال بعضهم : من أحسن ما رأيت له قوله : معاليك أشهر رُسُوماً ، وأعطر نَسيماً ، من أن يغرب شهاب مَسْعاها ، أو يجدب لرائد مَرْعاها ، فإن نبهتك فإنّما نبهت عُمَرَاً[1] ، وإن استنرتك فإنّما أستنير قمراً ، والأمير أيّده الله تعالى أجلُّ من أعتصم في ملكه ، وأنتظم في سلكه ، فإنّه حسام بيد الملك ، طلاقته فِرِنْدُه ، وشهامته حـدُّه ، وقضيب ، في دوحة الشرف رطيب ، بشره زَهَره ، وبرُّه ثَمَره ، وقد توسّمت نارك لعلّي أفوز منها بقَبَس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس ، وعسى الأمل أن تعلو بكم قِداحُه ، ويشف من أفقكم مصباحُه ، فجرِّد — أيدك الله تعالى — صارم عزم لا تُفلّ غروبُه ، واطلعْ كوكبَ سعدٍ لا يخاف غُروبُه ؛ انتهى .

ولنذكر بعض كلامه في « المطمح » لغرابته في هذه البلاد المشرقية بخلاف « القلائد » فإنّها موجودة بأيدي الناس فيه .

[نماذج من تراجم المطمح]

١ — قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي[2] :

إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوْضَحَ منها كل إبهام ، وفضح دون الجهل بها محل الأوهام ، وكان أحد ذوي الإعجاز ، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز ، نَجَمَ والأندلس في إقبالها ، والأنفس أول تَهَمُّمها بالعلم واهتبالها ، فنفقت له عندهم البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحَكَمُ بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار « العين » للخليل ، وهو معلوم

---

١ أخذه من قول بشار في مدح عمر بن العلاء :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لهــا عمراً ثم نم

٢ المطمح : ٥٣ — ٥٥ .

النظير والمثيل ، و « لحن العامة » و « طبقات النحويين » وكتاب « الواضح » وسواها من كل تأليف مُخْجِل لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ، كأنّما يتفجر من خاطره يَنْبُوع ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ، فمن ذلك قوله :

كيف بالدَّيْنِ القديمِ | لكَ من أمٍّ تميمِ
ولقَد كانَ شفاءً | من جوى القلب السقيم
يُشْرِقُ الحسنُ عليها | في دجى الليلِ البهيم

وكتب مراجعاً :

أغْرقتني في بحورِ فكرٍ | فكدتُ منها أموتُ لمّا[1]
كَلّفتني غامضاً عويصاً | أرجمُ فيه الظنونَ رجما
ما زلت أسرو السجوفَ عنه | كـأنّني كاشفٌ لظَلْما
أقْربُ من ليلِهِ ، وأنأى | مستبصراً تارة وأعمى
حتى بدا مشرقُ المحيّا | لمّا اعتلى طالعاً وتمّا
للهِ مِنْ منطقٍ وجيزٍ | قد جَلَّ قدراً وجلَّ فهما
أخلصتَ للهِ فيهِ قولاً | سلّمتَ لله فيهِ حُكما
إذ قلتَ قولَ امرىء حكيمٍ | مراقبٍ للإلهِ علما
اللهُ ربّي وليٌّ نفسي | في كل بوسٍ وكلِّ نُعْمى

وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيراً[2] لسانه ، مقفراً من المعالم جنّانه :

---

١ المطمح : غما .
٢ المطمح : متشراً .

أبا مسلم ، إنّ الفتى بفُؤاده ومِقْوَله لا بالمراكب واللّبسِ
وليس رُواء المرء يغني قُلامة إذا كان مقصوراً على قصر النفسِ
وليس يفيدُ الحلم والعلم والحجى أبا مسلم طول القعود على الكرسي

واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع ، فأمرع من آماله ما أمرع ، فلمّا طالت نَوَاه ، واستطالت عليه لَوْعَتُه وجَوَاه ، وحَنّ إلى مستكنّه بإشبيلية ومَثْواه ، استأذنه في اللحوق بها فلوّمه ولَوَاه ، فكتب إلى من كان يألفه ويهواه :

ويحكِ يا سَلْمَ لا تُرَاعي لا بدّ للبين من مساعِ
لا تحسبيني صبرتُ إلاّ كصبرِ ميتٍ على النزاع
ما خلق الله من عذابٍ أشدّ من وقفة الوداع
ما بينَها والحِمام فرقٌ إلا المناحات في النواعي
إن يفترقْ شملُنا وَشيكاً من بعد ما كان في اجتماع
فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ وكلُّ شَعْبٍ إلى انصداع
وكلُّ قربٍ إلى بعادٍ وكلُّ وصلٍ إلى انقطاع

٢ — وقال — سامحه الله تعالى — بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صُمادح ما نصّه : ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله [١] ، فتى الراح المعاقِرُ لدنانها ، المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها ، المهجّر لفلاة الظّباء والآرام ، المشهّر في باب الصّبابة والغرام ، نشأ في حِجْر أبيه نديم قَهْوَة ، ومُديم صَبْوة ، وخديم شَهْوة ، لا يريم كاساً ، ولا يروم إلا اقتضاء وانتكاساً ، ما شهد قَتْلاً ولا قتالاً ، ولا تقلد صارماً إلا مختالاً ، قد أمن منه جَنانُ الجبان ، وعدّت له غصون البان ، وما زال مرتضعاً لأخلاف البَطالة ، مقتطعاً ما شاء من إطالة ، متوغلاً

---

١ لم ترد هذه الترجمة في المطمح المطبوع .

في شعاب الفُتّاك ، متغلغلاً في طريق الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عندما بدت له وجوه الفتنة تُسْفِر ، ومَعاهد الهدنة تَقْفر ، مع أكامل أصحبهم نُقْصانه ، وذوي أديان جعلهم خُلْصانه ، يسمعون بوادر بَذاذته ، وينظرون مناكر لذاذته ، فآلت سَفْرته إلى الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كالمهر لا يعرف لجاماً ، وصار حبيسَ قوم لا يألونه استعجاماً ، وحين شالت نَعامته ، وسالت عليه ظلامته ، كتب إلى أبيه :

أبعدَ السنا والمَعالي خمولُ ... وبعد ركوبِ المَذاكي كُبُولُ
ومن بعد ما كنتُ حرّاً عزيزاً ... أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ
حللتُ رسولاً بغرناطة ... فحلَّ بها فيَّ خطبٌ جَليلُ
وثُقِّفْتُ إذ جئتها مرسَلاً ... وقبليَ كان يُعَزُّ الرسولُ
فقدتُ المريةَ أكرمْ بها ... فما للوصولِ إليها سَبيلُ

فراجعه أبوه بقطعة منها :

عزيزٌ عليَّ ونوحي دليلُ ... على ما أقاسي ودمعي يسيلُ
وقَطَّعَتِ البيضُ أغمادها ... وشُقّتْ بُنُودٌ وناحَتْ طبولُ
لئن كنتُ يعقوبَ في حزنه ... ويوسف أنتَ فصبرٌ جَميلُ

ولم يزل يتحيّل في تخلّصه ، وأخذه من يد مُقْتَنِصه ، فسُرِق وحراسه منه بمكان السلك من النحر ، وطرق به على ثَبَج البحر ، فوافي المَرِيّة ، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية ، فهنيء المعتصم بخلاصه ، وبقي مستقرّاً بعِراصه ، إلى أن أخلوها ، ومضوا لطلبة ما نووها ، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمّة كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سمير لهوه ، وأمير سهوه ، إلى أن انقرض أمَدُه ، وطواه سرورُه لا كمدُه ، فلم يُرَ إلا

خالعاً لعِذاره ، طالعاً في ثنيّات اغترّاره ، غير مكترث باتّضاعه ، ولا منحرف عن ارتشاف الغيّ وارتضاعه ، وبدا منه في هذه الحال ندى كاثَرَ به السحاب ، وظاهر بسببه الصِّحاب ، وتخدّم الأوطار ، وتقدم لذوي الرتب فيها والأخطار ، [تقدماً] حَسّن من ذكره ، وأولع الألسن بشكره ، فارتفع عنه الكَدْح ، وشَفَع له في الذم ذلك المدح ، وكان نظمه بديعَ الوصف ، رفيعَ الرَّصْف ، وقد أثبتُّ لهُ ما يشهد بإجادته وإحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه .

أخبرني ابن القطان أنّه ساير الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طُلَيْطلة في جيوش فاضتْ سَيْلاً ، وخاضت المطايا قتامَها لَيْلاً ، وكان ملكاً لم يُعْقَد على مثله لواء ، ولم يحتوِ على شِبْهِهِ حواء[1] ، جمال مُحَيّا ، وكمال عَلْيا ، وحسن شيَم ، وبُعد هِمَم ، أغنى العُفاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعبَ ابن مامة وابن أبي دُوَاد ، فلمّا شارف طُلَيْطلة وكشفها ، واشْتَفَّ بلالتها وارتشفها ، وضرب بكنفها مَضاربَه ، وأجال بساحتها زَنْجَه وأعاربَه ، سقط أحَدُ ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطائفة تفاءلت ، وطائفة تطيرت ، وفرقة ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لَمْ ينكسرْ عودُ اللّواء لطِيرَةٍ يُخْشَى عليكَ بها وأن تتأوّلا
لكن تحقّق أنّه ينذقُّ في نحر العِدا ولدى الوغى فتَعجّلا

وأخبرني أخوه رفيعُ الدولة أن ابن اللبانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ، وقصر بوسه ، وكدر صفاءه ، وغدر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى أفنان وُجُوده ، قوله[2] :

يا ذا الذي هزَّ أمداحي بحليته وعَزَّه أن يهزَّ المجد والكرما

---

١ الحواء : مضرب الأعراب .

٢ مر البيتان وجوابهما في النفح ج ٣ : ٣٩٦ .

واديك لا زرعَ فيه اليومَ تبذله فخذْ عَلَيْهِ لأيام المُنى سَلَما

فدَعَتْه دواعي الندى ، وأولعته بالجدا في ذلك المدى ، فتحيل في برّ طبعه ، وكتب معه :

المجدُ يخجل من تقديك في زمنٍ ثَناهُ عن واجبِ البرّ الذي علما
فَدُونكَ النزرَ مِنْ مُصْفٍ مودّته حتى يوفّيكَ أيامَ المُنى سَلَما

٣ – ابنه الثاني : رفيع الدولة أبو يحيى ابن المعتصم :

من بيت[١] إماره ، والى السعد طوافه[٢] بها واعتماره ، عمرت أنديته ، ونشرت به رايات العزّ وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ، فتفرقوا أيادي سَبا ، وفرقوا من وقع الأسنّة والظّبي ، وفارقوا أرضاً كأرض غسّان ، ووافقوا أياماً كيوم أهل اليمامة مع حَسّان ، بعدما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق ، وأمّهُمُ الناس من كل مكان سحيق ، وانتجعوا انتجاع الأنواء ، واستطعموا في المحْل واللأواء ، وصالوا بالدهر وسَطَوْا ، وبين النهي والأمر فيه خَطَوْا ، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح ، وضوء ذلك المصباح ، وغصن تلك الدَّوْحَة ، ونسيم تلك النفحة ، لم يمتهن والدهر قد بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خَذله ، فالتحف بالصَّوْن وارتدى ، وراح على الانقباض واغتدى ، فما تلقاه إلا سالكاً جَدَداً ، ولا تراه إلا لابساً سُوددا ، وله أدب كالروض المَجُود إذا أزهر ، ونظم كزهر التهائم والنجود بل كالصبح إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على النسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ، فمن ذلك قوله[٣] :

---

١ المطمح : ثنية .
٢ المطمح : حجه .
٣ انظر أيضاً بعض هذه المقطعات في الحلة ١ : ٨٣ – ٨٤ .

ما لي وللبدر لم يسمح بزورته ... لعلّهُ تركَ الإجمالَ أو هَجَرا
إن كان ذاك لذنب ما شعرت به ... فأكرمُ الناس من يعفو إذا قدرا

وله أيضاً :

يا عابدَ الرحمنِ كم ليلةٍ ... أرّقْتَني وجداً ولَمْ تشعرِ
إذ كنت كالغصنِ ثَنَتْه الصَّبا ... وصحن ذاك الخدّ لم يشعرِ

وله أيضاً :

وأهيفَ لا يلوي على عتبِ عاتبِ ... ويقضي علينا بالظنونِ الكواذبِ
يحـكم فينـا أمرهُ فنطيعه ... ونحسب منهُ الحكم ضربة لازبِ

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعَلِقْتهُ حلوَ الشمائل ماجناً ... خنثَ الكلامِ مرنّحَ الأعطافِ
ما زلتُ أنصفه وأوجبُ حقَّه ... لكنَّهُ يأبى من الإنصافِ

وله أيضاً :

حبيبٌ متى ينأى عن العين شخصهُ ... يَكادُ فؤادي أن يَطير من البينِ
ويسكن ما بين الضلوع إذا بَدا ... كأنَّ على قلبي تمائم من عَينِ

وله أيضاً :

أفدّي أبا عمرٍو وإن كان جانياً ... عليَّ ذُنوباً لا تُعدَّدُ بالعتْبِ[1]
فما كان ذاكَ الود إلا كبارقٍ ... أضاء لعيْنَي ثمَّ أظلم للقلبِ[2]

---

١ المطمح : بالبهت .
٢ المطمح : في الوقت .

وله وقد بلغه موتي ، وتحقق عنده فوتي[1] :

مثلي الوزارة قد أودى فما فعلتْ ... تلكَ المحابرُ والأقلامُ والطُّرُسُ
ما كنت أحسبُ يوماً قبلَ ميتته ... أن البلاغةَ والآداب تختلَسُ

واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع ، وأبهى مطلع ، وجوانب حَفَدَه بين يديَّ محتلة ، وسحائب رفده علـيَّ مُنْهلَّة ، وكان أجمل مَنْ مُقْبِلَ ، وأكمل مَنْ مِنَ المهد إلى سرير الملك قد نُقِلَ ، وكتب إليَّ يهنيني بقدوم من سفر :

قدمتَ أبا نصرٍ على حال وَحْشَةٍ ... فجاءت بك الآمالُ واتصلَ الأنسُ
وقرّت بكَ العينانِ واتّصل المُنَى ... وفازت على يأسٍ ببغيتها النفسُ
فأهْلاً وسهلاً بالوزارة كلّها ... ومن رأيُهُ في كلِّ مظلمة شمسُ

٤ ــ وقال في المطمح في ترجمة الوزير أبي الوليد ابن حزم[2] : واحدٌ دونه الجمع ، وهو للجلالة بصر وسمع ، روضَةٌ علاه رائقة السنا ، ودوحة بهاه طيِّبة الجنى ، لم يتَّزر بغير الصَّوْن ، ولم يشتهر بفسادٍ بَعْدَ الكون ، مع نفس برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، مع عفاف التَّحف به بُرُوداً ، وما ارتشف به ثغراً بَرُوداً، فعَفَّتْ مواطنه ، وما استرابت ظواهره ولا بواطنه ، وأمّا شعره ففي قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلقى ويبلغ ، وكتب إليه ابن زُهْر :

أأبا الوليد وأنتَ سيد مَذْحج ... هلاّ فككتَ أسيرَ قبضة وَعْدِهِ
وحَيَاةِ مَنْ أمَدُ الحيـاةِ بوصله ... وذهابُها حتماً بأيسرِ صَدِّهِ

---

١ لم ترد في المطمح .
٢ المطمح : ٣١ – ٣٤ .

لأقاتلنَّكَ إن قطعت بمُرْهَفٍ مِنْ جَفْنِهِ وبصَعْدةٍ من قدِّهِ

فراجعه أبو الوليد :

لبّيكَ يا أسدَ البرية كلّها من صادقٍ عبث المطالُ بوعده
يمضي بأمرك ساء أو سرَّ القضا ويَفُلُّ حدَّ النائبات بحده
إيه ووافقت الصبا في معرض ذهب المشيب بهزله وبجده

٥ – وقال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني ، ما صورته[1] :

صليب العود ، مَهيب الوعود ، لو دعي له الأسد الوَرْد لأجاب ، ولو رمي بذكره الليلُ البهيم لانجاب ، ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرك سكونها ، ولو عصته الطيور ما آوتها وُكونها ، مع وقار تخاله يَذْبُلا ، وفخار يفضح يُلبُلا ، وشيَم لو كانت بالروض ما ذَوَى ، أو تقاسمت في الخلق ما رمد أحد بعدما شوى ، وسجايا تنجلي عنها الظلماء ، كأن مزاجها عسل وماء ؛ انتهى .

وهذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن وقد عرَّف به في « الإحاطة » فليراجَع ثمة .

٦ – وقال أيضاً في المطمح ما صورته : أبو عامر ابن عقال[2] .

كان له ببني قاسم تعلق ، وفي سماء دولتهم تألّق ، فلمّا خوت نجومهم ، وعفَتْ رسومهم ، انحط عن ذلك الخصوص ، وسقط سقوط الطائر المقصوص ، وتصرف بين وجود وعدم ، وتحرف قاعداً حيناً وحيناً على قَدَم ، وفي خلال حاله ، وأثناء انتحاله ، لم يدع حظّه[3] من الحبيب ، ولا ثنى لحظه

---

١ لم ترد هذه الترجمة في المطمح المطبوع .
٢ المطمح : ٨٦ – ٨٧ وكتبه فيه « ابن عقال » وقد مر في غير موطن من هذا الكتاب « ابن عيال » ويتصحف كثيراً « ابن غتال » . . . إلخ .
٣ المطمح : حظاً .

عن الغزال الربيب ، ولم يزل يطير ويقع ، والدهر يخرق حاله ويرقع [1] ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى رَبْوَة [2]، وأراه [3] أبهى حُظْوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا ، وترك الدهر قَلِقَ الحشا ، وتسنم منزلة لا يتسنمها إلاّ من تطهر مَن درَنِه ، وجمع إحسانه في ميدان حرنِه ، والحظوظ أقسام لا تُسام ، والدنيا إنارة وإعتام [4] :

ولو لم يَعْلُ إلا ذو مَحَلٍّ　　　تعالى الجيش وانحطَّ القَتامُ [5]

وقد أثبتُّ عنه بعض ما انتقيته ، والذي أخذته مباين لما أبقيته ، فمن ذلك قوله :

يا ويحَ أجْسام الأنا　　　مِ لما تطيقُ من الأذى
خُلِقَتْ لتقوى بالغذا　　　ء وسقمها ذاكَ الغذا
وتنالُ أيامَ السلا　　　مَةِ بالحياةِ تلذذا
فإذا انقضى زمنُ الصِّبا　　　ورمى المشيبُ فأنفذا
وجد السقامُ إلى المفا　　　صلِ والجوانحِ منفذا
ويقولُ مهما يُعطَ شيـ　　　ئاً ناولوني غير ذا

وحذا في هذه القصيدة حذْوَ الصابي في قوله [6] :

وجعُ المفاصل وهو أيْـ　　　سَرُ ما لقيتُ من الأذى
رَدَّ الذي استخسنتهُ　　　والناس من حَظّي كذا
والعمرُ مثلُ الكاس يرْ　　　سُبُ في أواخرها القذى

---

١ المطمح : يخفض . . . ويرفع .
٢ المطمح : إلى أسمى ذروة .
٣ المطمح : ورداه .
٤ زاد في المطمح : وصفاء يتلوه قتام .
٥ البيت للمتنبي (شرح الواحدي : ١٦٢) .
٦ اليتيمة ٢ : ٣٠٠ .

وله يعتذر عن زيارة اعتمدها ، ومواصلة اعتقدها ، فعاقَتْه عنها حوادثُ لَوَتْه ، وعَدَتْه عن ذلك وثَنَتْه :

بَيْنما كنتُ راجياً للقائـهِ   والتشفّي بالبِشر من تِلقائـهِ
وترقبتُ مِنْ سماء نزاعي   قمرَ الأنس طالعاً من سمائـهِ
إذ دهاني اعتراضُ خطبٍ ثناني   عَنْ غمامٍ يشفي الغليلَ بمائـهِ
فتدلّهتُ وانزويْتُ حَيـاء   منهُ والعذر واضح لسنائهِ

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة : وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جَوازُه – أيده الله تعالى – من مرسى جزيرة طَريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ، وسَهُل بعد أن رأى الشامخ من هضابه ، وصار حَيُّه مَيْتاً ، وهدره صَمْتاً ، وجبالُه لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً ، وضعف تعاطيه ، وعَقَد السلم بين مَوْجه وشاطيه ، فعبر آمناً من لهَواته ، متملّكاً لصَهواته ، على جواد يقطع الجوّ سَبْحاً ، ويكاد يسبق البرق لَمْحاً ، لم يحمل لجاماً ولا سَرْجاً ، ولا عهد غير اللجَّة الخضراء مَرْجاً ، عِنانه في رجله ، وهُدْبُ العين يحكي بعض شكله ، فللّه هو من جَواد ، له جسم وليس له فؤاد ، يخرق الهواء ولا يَرْهَبُه ، ويركض الماء ولا يشربه .

٧ – وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني [١] ، ما نصّه :

من ثَنيّة شرف وحَسَب ، ومن أهل حديث وأدب ، إمام في اللغة متقدم ، فارعٌ لرُتَب الشّعر مُتَسَنّم ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد

---

١ المطمح : ٥٠ .

وقد توّج بالمعارف المفرِق ، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها ، ومتسنماً لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدوَل ، وتصطفيه أملاكها الأول ، ما زال فيها مقيماً ، ولا برح عن طريق أمانيها مستقيماً ، إلى أن اغتيلَ في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولاً في فراشه ، مذهولاً كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه ، وقد أثبتُّ من محاسنه ما يعجب السامع ، وتُصْغي إليه المسامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعفَ ما بالقلبِ يومَ رحيلهمْ على ما به منهم حنينُ الأباعرِ
وأصبرُ عن أحبابِ قلبٍ ترحّلوا ألا إنّ قلبي سائرٌ غير صابرِ

ولمّا رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم ، فلمّا رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة ، قال :

إنّي إذا حضرتْني ألفُ محبرةٍ يكتبن حدّثني طوراً وأخبرني
نادتْ بمفخريَ الأقلامُ معلنةً هذي المفاخر لا قَعْبانِ من لبنِ

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون :

أبا الوليد وما شَطّتْ بنا الدارُ وقلّ منّا ومنك اليومَ زوّارُ[1]
وبيننا كلُّ ما تدريه من ذِمَمٍ وللصِّبا ورقٌ خضرٌ وأنوارُ
وكلُّ عتبٍ وإعتابٍ جرَى فله بدائعٌ حلوةٌ عندي وآثارُ
فاذكر أخاكَ بخير كلّما لعبَتْ بهِ الليالي فإنّ الدهر دوّارُ

٨ — وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد ربه[2] :

---

١ سقط هذا البيت من ق .
٢ المطمح : ٥١ — ٥٣ وبعض مقطعات ابن عبد ربه وردت في الأجزاء السابقة .

عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس به من الحظوة ما اقتبَس ، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شَرَرَ الذكاء فكره ، وكانت لَهُ عناية بالعلم وثقة ، ورواية له مُتّسِقة ، وأمّا الأدب فهو ــ كان ــ حُجّتُه ، وبه غمرت الأفهامَ لجتُه ، مع صيانة وورَع ، وديانة ورَدَّ ماءها فكرَع ، وله التأليف المشهور الذي سمّاه بـ «العقد» ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنّه أبرزه مُثَقَّف القَناة ، مُرْهَف الشَّباة ، تقصُر عنه ثواقب الألباب ، وتبصر السحر منه في كل باب ، وله شعر انتهى منتهاه ، وتجاوز سِماك الإحسان وسَماه .

أخبرني ابنُ حزم أنّه مرَّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبَّه ، وألهب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشَّ بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا مَنْ يضِنُّ بصوت الطائرِ الغردِ ... ما كنت أحسبُ هذا الضنَّ في أحدِ
لو أنَّ أسْماعَ أهْلِ الأرض قاطبة ... أصغتْ إلى الصوت لم ينقصْ ولم يزد
فَلا تضنَّ على سمعي ومُنَّ بهِ ... صوتاً يجولُ مجالَ الروح في الجسد
أمّا النَّبيذ فإنّي لست أشربه ... ولا أجيئكَ إلاّ كِسرتي بيدي

وعَزَم فتى كان يتألّفُه ، وخامره كَلَفُه ، على الرحيل في غَدِه ، فأذهبت عزمته قوى جلَدِه ، فلمّا أصبح عاقته السماء بالأنواء ، وساقته مكرهاً إلى الثّواء ، فاستراح أبو عمر من كمَدِه ، وانفسح له من التواصل ضائق أمَدِه ، فكتب إلى المذكور ، العازم على البكور :

هَلاَّ ابْتكرتَ لبينٍ أنْتَ مبتكرُ ... هيهات يأبى عليكَ اللهُ والقَدَرُ
ما زلتُ أبْكي حِذارَ البينِ ملتهباً ... حتى رثى ليَ فيك الريحُ والمطرُ
يا بَرْدَهُ من حَيا مُزْنٍ على كبدٍ ... نيرانها بغَليلِ الشوقِ تستعرُ
آليتُ أن لا أرى شمساً ولا قمراً ... حتى أراك فأنْتَ الشمسُ والقمرُ

ومن شعره الذي صَرَّح به تصريحَ الصب ، وبرّح فيه وقائع اسم الحب ، قوله :

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلدٍ يا وحشةَ الروح بل يا غربةَ الجسدِ
إن تبكِ عيناك لي يا مَنْ كلفتُ بِهِ من رحمةٍ فهما سهماكَ في كبدي

ومنه قوله :

وَدَّعَتْني بِزَفْرة[1] واعتناقِ ثمَّ نادتْ متى يكونُ التلاقي
وبدتْ لي فأشرق الصبحُ منها بينَ تلك الجيوبِ والأطواقِ
يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سقمٍ بينَ عيْنيكَ مصرع العشاقِ
إنَّ يومَ الفراقِ أفظعُ يومٍ ليتني متُّ قبلَ يوم الفراقِ

وله أيضاً :

يا ذا الذي خَطَّ الجمالُ بخدِّه خطَّين هاجا لوعةً وبلابلا
ما صحَّ عندي أنَّ لحظكَ صارمٌ حتى لبستَ بعارضيك حمائلا

وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد ابن عيال[2] حج ، فلمّا انصرف ، تطلّع إلى لقاء المتنبي واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، ورحلة فخر لا يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلاً ، ثمّ قال : أنشدني لمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يَسْبي العقولَ أنيقا ورشاً بتقطيع القلوبِ رفيقا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِهِ دراً يعودُ من الحياء عقيقا

---

١ المطمح : بزورة .
٢ كذا هنا وفي بعض أصول المطمح : ابن عقال .

وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهه أبصرتَ وجهك في سناه غريقا
يا مَنْ تقطّع خَصرُهُ من رقّةٍ ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقا

فلمّا أكمل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربّه ، لقد تأتيك العراق حَبْواً .

وله أيضاً :

ومُعَذَّر نقَشَ الجمالُ بخطّهِ خداً له بدمِ القُلوبِ مضرَّجا
لمّا تيقّنَ أنَّ سيفَ جفونه من نرجسٍ جعل النِّجادَ بنفسجا

وله أيضاً :

وساحبة فَضْلَ الذيولِ كأنّها قضيبٌ من الريحانِ فوقَ كثيبِ
إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبي أطعني وخُذْ مِن وصْلها بنصيبِ

وله أيضاً :

هيّجَ الشوقُ دواعيَ سقمي وكسا الجسمَ ثيابَ الألمِ
أيّها البينُ أقِلْني مرّةً فإذا عُدْتُ فقد حلَّ دمي
يا خليَّ الذّرعِ نَمْ في غبطةٍ إنَّ من فارقته لم ينمِ
ولقد هاجَ بجسمي سَقَماً حُبُّ من لو شاء داوى سقمي

وبلغ سنَّ عَوْف بن مُحلّم [1] ، واعترف بذلك اعتراف متألم ، عندما وَهَتْ شدته ، وبليت جِدّتُه ، وهو آخر شعر قال ، ثم عثر في أذيال الردى وما استقال :

---

١ هو القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

كِلاني لما بي عاذليَّ كفاني طويتُ زماني بُرهةً وطواني
بَليتُ وأبليتُ اللّيالي مُكرهاً وصرفــانِ للأيــام معتوران
وما ليَ لا أبلى لسبعين حجّة وعشرٍ أتت من بعدها سَنَتانْ
فلا تسألاني عن تباريح علّتي ودونكما منّي الذي تريان
وإنّي بحول الله راجٍ لفضلهِ ولي من ضمانِ الله خير ضمان
ولستُ أبالي من تباريح علّتي إذا كان عقلي باقياً ولساني

وفي أيام إقلاعه عن صَبْوته ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوْبَتِه ، وانثنائه عن مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ، ونصل من قوادمها وخوافيها ، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة التي أوّلها :

هلاَّ ابتكرتَ لبينٍ أنت مبتكرُ

محصها بقوله :

يا راقداً لَيْسَ يعفو حينَ يقتدرُ ماذا الذي بعد شيبِ الرأس تنتظرُ
عاينْ بقلبكَ إنَّ العينَ غافلةٌ عن الحقيقةِ واعلمْ أنّها سَـقرُ
سوداءُ تزفرُ من غيظٍ إذا سفرتْ للظالمين فـلا تُبقي ولا تذرُ
لو لم يكنْ لك غيرُ الموتِ موعظةً لكانَ فيه عن اللّذات مُزْدَجَرُ
أنْتَ المقولُ لهُ ما قلتُ مُبتدئاً : هلاّ ابتكرتَ لبينٍ أنت مُبتكرُ

٩ — وقال في ترجمة **أبي القاسم المنيشي** ، ما صورته [١] :

أبو القاسم المنيشي ، أحد أبناء [٢] حضرة إشبيلية المقلّين ، الناهضين بأعباء

١ المطمح : ٨٨ والنص مختلف عما أورده المقري .
٢ المطمح : أنساء .

الضرائر المستقلّين ، لم يزل يعشو لكل ضوء ، وينتجع مصاب كل نوء ، فيوماً يخصب ويوماً يُجدِب ، وآونـة يفرح وأخرى ينتدب ، إلى أن صدقت مخايله ، فرمقت بخونه وتحايله ، وأتى من العجب ، بمنسدل الحُجُب ، ومن الأشَر ، ما لم يأت من بَشَر ، وما تصرف إلاّ في أنزل الأعمال ، ولا تعرّف إلاّ بأخوَن العمال ، لم يَفْرَعْ رَبْوَةَ ظهور ، ولم يقرع باب رجل مشهور ، وله أدب ولَسَن ، ومذهب فيهما يُستحسَن ، لكنّه نكب عن المقطع الجزل ، وذَهَب مذهب الهزل ، إلا في النادر فربما جَدّ ، ثم أخلق منه ما استجدّ ، وعاد إلى دَيْدَنه ، عودة أبي عباد[1] إلى واواته ومُدنه ، وأخذ في ذلك الغرض ، وليس شرط كتابي بذاءه ، ولا أن يقف حذاءه ، وقد أثبتّ له ما هو عندي نافق ، ولغرض كتابي موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْضَةً باتت الأنداءُ تخدمُها ... أتى النسيمُ وهذا أوّلُ السَّحَرِ
إن كانَ قدُّكَ غصناً فالثَّراء بـه ... مثلُ الكمائم قد زُرَّتْ على الزهَرِ
اربأ بخديْكَ عن وردٍ وعن زهَرٍ ... واغنَ بقرطيك عن شمسٍ وعن قمرِ
يا قاتَلَ الله لحظي كم شقيتُ بـهِ ... من حيثُ كان نعيمُ الناسِ بالنظرِ

وله من رثاء في والدتي رحمة الله عليها :

يا ناصحي غيرَ مفتاتٍ ولا شجنٍ ... على النَّصائح والنُّصّاح مفتاتُ
لا أستجيبُ ولو ناديتَ من كَثَبٍ ... قد وقَدَتْني تعلاّتٌ وعلاّتُ
إن كانَ رأيك في برّي وتكرمتي ... بحيث قد ظهرتْ منه علاماتُ
لا ترضَ لي غيرَ شجوٍ لا أفارقهُ ... فذاكَ أختارهُ والناسُ أشتاتُ

ومنها :

يا ذا الوزارة من مثنى وواحدةٍ ... للهِ ما اصطنعتْ منكَ الوزاراتُ

---

[1] أبو عباد هو معبد المغني ، ومدنه ألحان له تسمى حصون معبد .

لله منك أبا نصرٍ أخو جــلدٍ   إذا ألمّتْ ملمّـات مهمّاتُ
أستودعُ اللهَ نوراً ضمّه كفنٌ   كما تُوَاري بدورَ التمّ هالاتُ
قضتْ وليت شبابي كان موضعها   هيهات ؛ لو قُضيتْ تلك اللُّبانات
مضتْ ولمّا يقمْ من دُونها أحدٌ   هلاّ وقد أغذرتْ فيها المروءاتُ

وله يصف زرزوراً

أمنبرٌ ذاكَ أم قضيبُ   يفرعُهُ مِصْقعٌ خطيبُ
يختالُ في بُردتي شبابٍ   لم يتوضحْ بها مشيبُ
كأنّما ضَمّخَتْ عليه   أبرادَه مسكةٌ وطيبُ
أخرسُ لكنهُ فصيحٌ   أبــلهُ لكنّهُ لبيبُ
جَهْمٌ على أنّه وسيمٌ   صعبٌ على أنّه أريبُ

١٠ — أبو الحسن البرقي [١] :

بلنسي الدار ، نفيسيّ المقدار ، ما سمعت له بشرف ، ولا علمت له بسلف ، ولا اطلعت منه على غير سرف ، ورد إشبيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة [٢] ، واتصل بابن زُهْر ، فناهيك من حظ في أكنافه جال ، ومن لحظ فيما أراده أجال ، ومن أمل استوفر ، وحظ مسك أذفر ، ومن وجه جاه له أسفر ، سلك به ساحة الرغائب ، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب ، وقال فما نبذت مقالته ، وأقال فما قُيِّدَتْ إقالته ، وكان حلو المجالسة ، مجلوّ المؤانسة ، ذا نَشَب وافر ، ومذهب في المساهمة سافر ، إلاّ أنّه كان كلفاً بالفتيان ، مُعَنَّى بهم في كل الأحيــان ، ونيّف على السبعين وهو برداء الصبوة مرتــد ، وبعترتها معتد ، مع أدب زهرته تَرِفٌ ، وكأنّه بحر والألباب منه تغترف ، وقد أثبتُّ له بعض

---

١ المطمح : ٨٩ .
٢ المطمح : سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ما وجدت لـه في الغلمان ، وأنشدت له في تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرتَ العقيقَ هاجك شوقٌ رُبَّ شوق يهيجُـهُ الادّكارُ
يا خليليَّ حدِّثاني عن الرّكـ ـبِ سُحيراً أأنجدوا أم أغاروا
شـغلونا عَنِ الوداعِ وولوا ما عليْـهِـم لو ودّعوا ثمَّ ساروا
أنا أهـواهُمُ على كلِّ حالٍ عدلوا في هـواهمُ أم جاروا

وعلق بإشبيلية فتى يُعرف بابن المكر ، وبات من حبّه طريحاً بين أيدي الوساوس والفكر ، لا يمشي إلاّ صبّاً ، ولا يفشي إلا غراماً وحُبّاً ، وما زال يقاسي لوعته ، مقاساة يناجي بها صرعته ، ويكابد جواه ، ويلازم هواه ، حتى اكتسى خدّه بالعذار ، وانمحت عنه بهجة آذار ، فسلا من كلفه ، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفه ، فقال :

الآنَ لمَّـا صوَّحَتْ وجناتُـهُ شوكاً وأضحتْ سـلوةَ العشاقِ
واستوحشتْ منه المحاسنُ واكتستْ أنوارُ وجهك واهنَ الأخلاقِ
أمسيتَ تبذلُ لي الوصالَ تصنّعاً خلقُ اللئيم وشيمةُ المَـذّاقِ
هلاّ وصلتَ إذ الشمائلُ قهوةٌ وإذ المحيّا روضـةُ الأحداقِ
يا كم أطَلْتَ غرامَ قلبٍ مُوجَعٍ كم قَدْ ألبَّ إليكَ بالأشواقِ
ما كنتَ إلا البدرَ ليـلةَ تمِّه حتى قضتْ لكَ ليْلَةٌ بمحاقِ
لاحَ العِذارُ فقُلْتُ وجدٌ نازحٌ إنَّ ابنَ داية[1] مؤذنٌ بِفراقِ

وله فيه مناقضاً لذلك الغرض ، معارضاً للوعة سلوه الذي كان عرض :

يلومون في ظبيٍ تزايدَ حُسْنُهُ بخطّين خطّا لوعتي وغراميا

---

١ ابن داية : الغراب .

وقد كنتُ أهوى خدَّه وهوَ عاطلٌ فكيفَ وقد أضحى لعينيَ حاليا

وله أيضاً في مثله :

أُجيلُ الطرفَ في خدٍّ نضيرٍ يرددُ ناظري نظري إليـهِ
إذا رَمِـدَتْ بحمرته جفوني شَفاها منهُ إثمدُ عارضيهِ

١١ – أبو الحسن علي بن جودي[١] :

بَرَّز في الفَهْم ، وأحرز منه أوفر سَهْم ، وعانى العلوم بقريحة ذكيّة ، وواخى بنفس في المعارف زكية ، وله أدب واسعٌ مَداه ، يانع كالروض بلّله نَداه ، ونظمٌ أرقُّ من دمع العاني ، ولطيف المعاني ، وأعْبَق من نفَس الخمائل ، في أكفّ الصَّبا والشمائل ، ونثر كالزهر المَطْلُول ، أو السلك المحلول ، إلا أنّه سَها فأسرف ، وزها بما لا يعرف ، وتصدى إلى الدين بالافتراء ، ولم يراقب الله تعالى في ذلك الاجتراء ، واشتهرت عنهُ في ذلك أقوال سَدَّد إلى الملّةِ نصالها ، وأبدى بها ضَلالها ، فعَظُمت به المحنة ، وكنت له في كل نفس إحْنَة ، وما زال يتدرَّج فيها وينتقل ، حتى عثر وما كاد يستقل ، فمر لا يُلْوي على تلك النواحي ، وفرّ لا ينثني إلى لوائم ولواحي ، وما زال يركب الأهواء ويَخُوضها ، ويذلل النفس بها ويَرُوضُها ، حتى أسمحت ببعض الإسماح ، وكَفَّت عن ذلك الجماح ، واستقر عند أبي مالك فآواه ، ومهَّد له مَثْواه ، وجعله في جملة من اختص من المبطلين ، واستخلص من المعطلين ، فكثيراً ما يصطفيهم ، ولا يدري أيدّخرهم أم يقتنيهم ، وقد أثبتُّ لهُ ما يبهر سامعاً ، ويظهر برقاً لامعاً ، فمن ذلك قوله :

أحنُّ إلى ريحِ الشمالِ فإنّها تذكرنا نجداً وما ذِكْرُنا نجدا
تمُــرُّ على رَبعٍ أقام به الهوى وبدَّلَ منْ أهْليهِ جائمةً رُبْدا

١ المطمح : ٩٠ وبين النصين اختلاف .

فيا لَيْتَ شعري هل تُقَضَّى لُبانةٌ   فأرتشفَ اللَّمْيا وأعتنقَ القَدّا
خليليَّ لا والله ما أحملُ الهوى   وإن كنتُ في غير الهوى رجلاً جَلْدا

وقوله أيضاً :

سلِ الركبَ عن نجدٍ فإنَّ تحيّةً   لساكن نجد قد تحمَّلها الركبُ
وإلا فما بالُ المطيِّ على الوجى   خفافاً وما للريح مرجعُها رَطْبُ

وقوله أيضاً :

إذا ارتحلت غربية فاعرضا لها   فبالغرب من نهوى له البلد الغربا
لقد ساءنا أنّا بعيدٌ وأنّنا   بأرضين شتّى لا مزاراً ولا قربا
يفجّعنا إمّا بعادٌ مبرّحٌ   وإمّا أمورٌ باعثاتٌ لنا كربا
ظعنّا على حكم اللّيالي وخطبها   فيا ليت لم ندرِ اللّيالي ولا الخطبا
وكنتُ أرجّي الدهر بعد الذي مضى   دياراً وقرباً والأصادق والصحبا
أحقّاً يسيرُ الركبُ لم ترتحلْ بنا   إليكَ ولَمْ تحدُ الحداةُ لنا ركبا

وقوله أيضاً :

لقد هيّج النيرانَ يا أمَّ مالكٍ   بتدميرَ ذكرى ساعدتها المدامعُ
عشيّةَ لا أرجو لقاءك عندها   ولا أنا أن يدنو مع الليل طامعُ

وقوله أيضاً :

حننتُ إلى البرقِ اليماني ، وإنّما   نعالجُ شوقاً ما هنالك هانيا
فيا راكباً يطوي البلادَ تحمَّلَنْ   تحيتنا إن كنتَ تلجأ لاقيا
ليالينا بالجزع جزعِ محجّرٍ   سقى الله يا فيحاء تلك اللياليا
وما ضرَّ صحبي وقفةٌ بمحجّرٍ   أحيّي بها تلكِ الرسوم البواليا

وله أيضاً :

خليليَّ من نجدٍ فإنَّ بنجدهم مَصيفاً لبيت العامريِّ ومَرْبَعا
ألا رجّعا عنها الحديثَ فإنّني لأغبطُ من ليلى الحديثَ المرجَّعا
عزيزٌ علينا يا ابنةَ القوم أنّنا غريبان شتّى لا نطيقُ التجمّعا
فَريقُ هوى منّا يمانٍ ومُشْئمٌ يحاولُ يأساً أو يحاول مطمعا
كأنّا خُلقنا للنوى وكأنّما حرامٌ على الأيامِ أن تتجمّعا

ووجدت له في بعض نسخ « المطمح » قوله أيضاً [١] :

سقى دارك اللائي ببطنِ مُحَصَّبٍ مثاكيلَ من وفدِ الغمام المرنّحِ
ألَمْ تعلمي يا فتنةَ القلبِ أنّني تطارحتُ من حي لكم كلَّ مطرحِ
إذا نعبتْ غربانُ دارٍ وجدتني وشوقي مقيمٌ بين ناءٍ ونُزَّحِ

وله أيضاً :

ألا خبر وللبلوى ضروبُ وفيك لكلّ مشتاق حبيبُ
حَباكَ الله بالنعمى فنوناً وجرَّ لكم مع النعمى خطوبُ
متى تقضي بخسفتك الليالي وتعصفُ فيكمُ ريحٌ هبوبُ
فإنّكمُ تجرّون المنايا وتعمرُ من مجانيكم قلوبُ

وقد ذكر في « المطمح » له تخميساً جارياً على ألسنة الناس إلى الآن ، وهو :

أيا ساكنين بأرضِ اللوى وصالكُم لسَقامي دَوا
وعافاكُمُ الله من ذا الجوى ملكتمْ فؤادي فصار الهوى
عليّ رقيبٌ رقيبٌ رقيبْ

[١] وردت هذه القطعة في ق بعد القطعة التي أولها « إذا ارتحلت غربية ... » .

ولمّا تبـدّتْ لهم حالتي   وما حرّك الهجرُ من زفرتي
بكَوا رحمةً ليَ من ساعتي   فقلتُ متى الوصلُ يا سادتي
فقالوا قريبٌ قريبٌ قريبْ

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنّه مطروق بالمغرب عند أهل التلاحين وغيرهم .

ولنذكر بعض نص خطبة المطمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أمّا بعد حمد الله الذي أشعرنا إيماناً[1] وإلهاماً ، وصير لنا أفهاماً ، ويسّر لنا بزود آداب ، ونَشَّرَنا للانبعاث لإثباتها والانتداب ، وصلّى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة ، ونبّأه منة منه ونعمة ، وسلّم تسليماً ، فإنّه كان بالأندلس أعلام ، فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل تحيّة وسلام ، فشعشعوا البدائع وروّقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هَوَوْا في مهاوي المنايا ، وانطووا بأيدي الرزايا ، وبقيت مآثرهم الحسان ، غير مثبتة في ديوان ، ولا مجملة في تصنيف تجتلي فيه العيون ، وتجتني منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ، واتصال صدورها بأعجازها ، فحللت من الوزير أبي العاصي حكم بن الوليد عند من رَحّبَ وأهّلَ ، وأعَلّ بمكارمه وأنهل ، وندبني إلى أن أجمعها في كتاب ، وأدركني من التنشط إلى إقبال ما نَدّب إليه ، وكتابة ما حث عليه ، فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لَبّته ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخليد عليائها ، وأمْلَيْتُ منها في بعض أيام ، ثلاثة أقسام ، القسم الأول : يشتمل على سَرْد غرر الوزراء ، وتناسق درر الكتّاب والبلغاء . القسم الثاني : يشتمل على محاسن أعلام العلماء ، وأعيان القضاة والحكماء . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن الأدباء ، النوابغ النجباء ؛ انتهى .

[1] إيماناً : سقطت من ق والمطمح .

وهذه خطبة «المطمح الصغير»، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب، على أنّنا نقلنا بعضاً من الصغير أيضاً، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب، ومن له أدنى ممارسة، وليراجع من الترجمة الفرقَ بين كلامه في الصغير وغيره، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس، ووصف أيام الأنس، وليس الخبر كالعيان، وقد سردنا بعض كلامه في «القلائد» وفي «المطمح».

[قطعة من الموشحات]

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدده من أمر التوشيح، فنقول: وتمام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله:

هل درى ظبيُ الحمى أن قد حمى ... قلبَ صبٍّ حلّه عن مكنسِ
فهو في حَرّ وخَفْقٍ مثلما ... لعبت ريح الصَّبا بالقبَسِ

يا بدوراً أطلعتْ يومَ النوى ... غُرراً تسلك بي نهج الغرَرَ
ما لقلبي في الهوى ذنبٌ سوى ... منكم الحسنُ ومن عيني النظر
أجتني اللذاتِ مكلومَ الجوى ... والتذاذي من حبيبي بالفكر

كلّما أشْكُوهُ وجداً بَسَما ... كالرُّبى بالعارضِ المنبجسِ
إذ يقيمُ القطرُ فيها مأتما ... وهي من بهجتها في عُرُسِ

غالبٌ لي غالبٌ بالتؤدهْ ... بأبي أفديه من جافٍ رقيق
ما رأينا مثلَ ثغر نَضَّدَهْ ... أقحواناً عُصِرَتْ منه رحيق
أخذتْ عيناه منهُ العربَدَهْ ... وفؤادي سكره ما إن يفيق

فاحمُ الجمّةِ معسولُ اللمى أكحلُ اللحظِ شهيُّ اللعَسِ
وجهه يتلو «الضحى» مبتسما وهو من إعراضه في «عبسِ»

أيّها السائلُ عن ذُلّي لديه لي جزاء الذنبِ وهو المذنبُ
أخذت شمسُ الضحى من وجنتيه مشرقاً للصبّ فيه مغربُ
ذَهبَتْ أدمعُ أجفاني عليه وله خدّ بلحظي مذهبُ

يطلعُ البدرُ علَيْهِ كلّما لاحَظَتْهُ مقلتي في الحُلَسِ
ليت شعري أيّ شيء حرّما ذلك الوردَ على المغترسِ

كلّما أشكو إليهِ حُرَقي غادرتني مقلتاه دنِفا
تركتْ ألحاظُهُ من رَمَقي أثرَ النملِ على صُمّ الصفا
وأنا أشكرهُ فيما بقي لستُ ألحاهُ على ما أتلفا

فهو عندي عادلٌ إن ظَلَما وعَذولي نطقُهُ كالخرسِ
ليس لي في الحبّ حكمٌ بعدما حلّ من نفسي محلّ النَّفَسِ

منهُ للنّار بأحشائي اضطرامْ يلتظي في كل حين ما يشا
وهي في خديهِ بَردٌ وسلامْ وهي ضرٌّ وحريقٌ في الحَشا
أتّقي منهُ على حكمِ الغرامْ أسَدَ الغاب وأهواه رَشا

قلت لمّا أن تبدّى مُعْلما وهو من ألحاظه في حرَسِ
أيّها الآخذُ قلبي مغنما اجعلِ الوصلَ مكان الخُمُسِ

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال .

يا عُرَيْبَ الحيّ من حيّ الحمى أنتمُ عيدي وأنتم عُرُسي
لم يحلْ عنكم ودادي بعدما حُلتمُ لا وحياةِ الأنفُسِ

مَن عذيري في الذي أحببته ... مالكٌ قلبي شديدُ البرحا
بدرِ تمّ أرسلَتْ مُقلتُهُ ... سهمَ لحظٍ لفؤادي جرحا
إن تبدّى أو تثنّى خلته ... غصنَ بانٍ فوقه شمسُ ضُحى

تَطْلُعُ الشمسُ عشاء عندما ... تنجلي منهُ بأبهى ملبسِ
وترى الليلَ أضا منهزما ... وترى الصبحَ أضا في الغلَسِ

يا حياةَ النفسِ صِلْ بعدِ النوى ... والهاً مُضْنًى شديدَ الشغفِ
قد براه السقمُ حتى ذا الهوى ... كادَ أن يُفْضِي به للتلفِ
آه من ذكرِ حبيبٍ باللوى ... وزمانٍ بالمُنى لم يسعفِ

كنت أرجو الطيفَ يأتي حلما ... عائداً يا نفسُ من ذا فايأسي
هل يعودُ الطيف صبّاً مغرما ... ساهراً أجفانه لم تنعسِ [1]

همْتُ في أطلال ليلى وأنا ... ليس في الأطلال لي من أرَبِ
ما مرادي رَامَــةٌ والمنحنى ... لا ولا ليلى وسعدى مطلبي
إنّما سؤلي وقصدي والمُنى ... سيّدُ العُجم وتـاجُ العَربِ

أحمدُ المختــار طهَ من سما ... الشريف ابن الشريف الكيّسِ [2]
خاتمُ الرسلِ الكريمُ المنتمى ... طاهرُ الأصلِ زكيُّ النفَسِ

وقال في مباراة هذه الموشحات السابقة :

لا تلمني يا عذولي تأثما ... ما ترى جسمي بسُقمٍ قد كُسي
مثلمـا شرحُ غرامي علمـا ... حيثُ أشكو وحشة من مؤنسِ

---

١ ق : هل يرى في جنح ليل الغلس .
٢ ق : وحظي بالنور لما أن كسي .

ظبيُ أُنسٍ عن فؤادي نفرا   وفؤادي مكتوٍ من صدّهِ
وعذولي في هوى الحبّ فرَى   بملام مذ نهى عَن ودّهِ
أنت أعمى يا عذولي ما ترى   يانعَ الورد بدا من خدّهِ

ولهُ ثغرٌ إذا ما ابتسما   كبروقٍ أومَضَتْ في الغلسِ
وثناياه كدُرّ نُظما   فضياها في الدُّجى كالقبسِ

كم ترى سحراً بجفنيهِ بدا   لفؤاد في الهوى أضحى كَليمْ
ليس سحرٌ مقلتي هذا سدى   يا فؤادي إن شفى السحرُ السقيمْ
خيفةٌ أوجَسَ قلبي ، وغَدا   راحلاً صبري ، وها شوقي مقيمْ

يا إلهَ العرشِ يا ربّ السما   يا عليماً بضَميرِ الأنفُسِ
قلبيَ الولهانُ يَشْكو ألما   من جفَا ظبي أغنّ أكيسِ

أغيَدٌ يسبي البرايا بالمقلْ   أدعجُ الجفن بعينيه حَوَرْ
لو رأته الشمس أضحتْ في خجلْ   وهو للبدرِ بوجهٍ قد قمرْ
من معاني حسنه رَقّ الغزلْ   في غزالٍ قد غزاني بالنظرْ

آخذٌ بالروح مني كُلّما   رمق الصبَّ بطرف أنعسِ
يقنصُ الأسْدَ بلحظٍ قد رمى   أسهماً تفتك من غيرِ قسِي

يا رعى الله زماناً سلفا   بلويلاتٍ تَقَضَّتْ بانْشراحْ
مثلَ دينار وها قد صرفا   في ألذّ العيش مع حبّ وراحْ
فاعذروا القلبَ الذي قد شغفا   بحبيبٍ ما لَهُ عنه بَرَاحْ

بدرُ تمّ أهيفٌ حلوُ اللمى   ريقُهُ شهدٌ شهيُّ اللّعَسِ
كسُلافٍ عهدها قد قدما   تنجلي في كأسها كالعُرُسِ

قهوةٌ بكرٌ عجوزٌ عتقتْ زمناً في دنها من قبلِ نوحْ
هي لمّا في زجاج أشرقتْ شمس رُاحٍ غرّبتْ في كل روحْ
جددتْ بسطاً وكم قد مزّقتْ قلبَ صبٍّ في غبوقٍ وصبوحْ

حلفَ الخمّــارُ عنها قسما أنها بالمكث كادت تنتسي
فاسقني صِرْفاً ولا تمزجْ بما راحه كم أذهبتْ من عبسِ

في رياض قد شدا شحرورُهُ عاطفيها بينَ أكناف الشجرْ
وانظم الشملَ ودع منثورَهُ حـول وردٍ وأقاح وزَهَرْ
وإذا الطلّ بدا شــبّوره كلّلَ الأوراقَ منهُ بالدررْ

ما ترى الريحانَ عبداً خدما حيثُ أضحى واقفاً في المجلسِ
جلس النسرينُ لكنْ ربّما إستَحَتْ منه عيونُ النرجسِ

فتنزّهْ في رياضٍ خُضُرِ وغصونٍ غرّدتْ فيها هزار
وانتشقْ عَرْفَ زهورٍ عطِرِ ياسمين زيّنتــهُ الجلّنـار
وشذا الزهرِ كمسك أذفَرِ واقبل العذر لابن البزدار

طامعٌ في رحمةِ الله وما خابَ عبدٌ طامعٌ لم ييأسِ
يا إلهي جُــدْ علينا كرما يا كريماً قبل أخــذ الأنفُسِ

رجع إلى مُوَشّحات ابن الخطيب :

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : وممّا قلته من الموشّحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها[1] :

---

١ ـ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٢١٤ وهي في مدح السلطان يوسف أبي الحجاج .

رُبَّ ليلٍ ظفرتُ بالبدرِ ونجــومُ السماء لم تدرِ

حفظ اللهُ ليلنا ورعى
أيَّ شملٍ من الهوى جمعا
غفل الدهرُ والرقيبُ معا

ليت نهرَ النّهارِ لم يجرِ حكَمَ الله لي على الفجرِ

علِّل النفسَ يا أخا العربِ
بحديثٍ أحلى من الضَّرَبِ
في هوى مَنْ وصالهُ أربي

كلّما مرَّ ذكر مَنْ تدري قلتُ يا بَرْدهُ على صدري

صاحِ لا تهتمْ بأمرِ غدِ
وأجزْ صَرْفَها يَداً بيدِ
بينَ نهرٍ وبلبلٍ غَـردِ

وغصونٍ تميلُ من سُكْرِ أعلنَتْ يا غمامُ بالشكرِ

يا مُرادي ومنتهى أملي
هاتها عَسْجَدِيةَ الحللِ
حلَّت الشمس منزل الحملِ

وبرودُ الربيع في نَشْرِ والصَّبا عنبريةُ النَّشْرِ

غرةُ الصبحِ هذه وضحتْ
وقيانُ الغصونِ قد صَدحَتْ
وكأنَّ الصَّبا إذا نفحَتْ

وهفا طيبها عن الحَضَرِ   مدحة في علا بني نَصْرِ

هم ملوك الورى بلا ثُنْيا
مهّدوا الدين زيّنوا الدنيا
وحمى الله منهم العَلْيا

بالإمام المرفّعِ الخَطَرِ   والغمام المبارك القَطْرِ

إنّما يوسفٌ إمام هُدى
حاز في المعلواتِ كلّ مَدى
قُل للدهرِ بملكهِ سعدا

افتخرْ جملةً على الدهرِ   كافتخار الربيع بالزهرِ

يا عماد العَلاء والمجدِ
أطلع العيدُ طالعَ السعدِ
ووفى الفتحُ فيهِ بالوعدِ

وتجلّت فيهِ على القصرِ   غُرَرٌ من طلائعِ النصرِ

فتهنّا من حسنه البَهِجِ
بحياة النفوسِ والمهجِ
واستمعها ودع مقال شجي

قسماً بالهوى لذي حِجْرِ   ما لليْلِ المشُوق من فجرِ

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله[1] :

---

[1] الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٢١٥ — ٢١٦ .

كم ليوم الفراقِ من غُصَّة ْ في فؤاد العميـــد ْ
نرفعُ الأمرَ فيه ِ والقصة ْ للوليَّ الحميـــد ْ

رحل الرَّكبُ يقطعُ البيدا بسفـــين النّيــاق
كلُّ وَجْناء تُتلعُ الجيدا وتبـــذُّ الـــرفاق
حسبَتْ ليلةَ اللّقا عيدا فهي ذاتُ اشتياق

صائماتٌ لا تقبل الرُّخصه ْ قَبْلَ فطرٍ وعيد ْ
فَهي مُذْ أمَلتَهُ مختصه ْ بجهـــادٍ جَهيـــد ْ

ومنه في آخره :

يا إمامَ العَــلاء والفخرِ ذا السّنا المبهجِ
ها كَها لا عدمْتَ في الدهرِ آمـــلاً يَـــرتجي
عارَضَتْ قولَ بائع التمرِ بمقـــالٍ شـــجي

غَرَّبوك ِالجمالُ يا حَفْصَه ْ مِنْ مَكان ٍبعيـد
من سجلماسةٍ ومن قَفْصَه ْ وبـلاد الجـــريد[1]

وقد ألف – رحمه الله تعالى – في هذا الفن كتابه المسمى ﺑ « جيش التوشيح » وأتى فيه بالغرائب ، وذيّلَ عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العَلم الشهير المنفرد في عصره بحيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي – رحمه الله تعالى – بكتاب سمّاه « مَدَد الجيش »[2] واستهلّه بقوله : حمداً لمن أمَدَّ جيش محمد بعترته . وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ،

---

١ هذه الخرجة قد تقرأ معربة وغير معربة .
٢ انظر روضة الآس : ١٦٢ .

وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسني — رحمة الله تعالى ورضوانه عليه — ما زاده زَيْناً ، وأخبرني — رحمه الله تعالى — أنّه ذُكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ثلاثمائة موشّح ، ولا حرج في إيراد بعضها هنا ، فمنها قولُ أحد الوافدين من أهل مكّة على عتَبَة السلطان مولانا المنصور [1] ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل ابن محمد العقاد » وقد عارض بها موشّحي لسان الدين وابن سهل السابقتين [2] :

لَيْتَ شعري هل أُروّي ذا الظما من لَمَى ذاكَ الثُّغَيْر الألعسِ
وتَرى عينايَ ربّاتِ الحمى باهياتٍ بقُدُودٍ مُيّسِ

يُدْخلون السّقْمَ من دار اللوى كَلّمَ الهجرُ فؤادي وأسر
هدَّ من ركن اصطباري والقوى مُبدلاً أجفانَ نومي بالسّهر
حين عزَّ الوصلُ عن وادي طُوَى هملَتْ أعينُ دمعي كالمطر

فعساكم أن تجودوا كرما بلقاكم في سوادِ الحِنْدِسِ
وتداووا قلبَ صبٍّ مُغرما من جراحاتِ العيون النُّعَّسِ

كلّما جنَّ ظلامُ الغَسَقِ هزّني الشوقُ إليْكُم شغَفا
واعتراني مِنْ جفَاكم قلقي مُذ تذكرتُ جياداً [3] والصفا
وتناهتْ لوعتي من حُرَقي ثمَّ زادَ الوجدُ فيّ التلفا

---

[1] يعني السلطان أحمد المنصور الذهبي أبا العباس ابن محمد الشيخ المهدي السعدي ، وهو من أعظم سلاطين السعديين ؛ انتصر على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن سنة ٩٨٦ وفتح السودان ، واهتم ببناء المساجد والمستشفيات وشجع العلوم ؛ توفي سنة ١٠١٢ (راجع مناهل الصفا للفشتالي ، والجزء الخامس من الاستقصا والأعلام للشيخ العباس ابن إبراهيم) .
[2] وردت الموشحة في روضة الآس : ١٤ .
[3] جياد : يعني جبل أجياد بمكة .

فانعموا لي ثم جودوا لي بما يُطْفِ[1] نيران الجوى ذي القبسِ
ساعةً لي من رضاكم مغنما وتداوي جنّتي مع نَفَسي

كنت قبلَ اليوم في زهوٍ وتيه مع أحبابي بسلحٍ ألعبُ
ومعي ظبيٌ بإحدى وجنتيه مشرقُ الشمسِ وأخرى مغربُ
فرماني بسهامٍ من يديه ضاربُ البينِ فقلبي متعبُ

لستُ أرجو للقاهم سلّما غير مدحي للإمام الأرأسِ
أحمد المحمود حقّاً من سما الشريف ابن الشريف[2] الكيّسِ

ومنها قول بعض المراكشيين[3] :

واخجلتا للصّباحِ والشمس إذ لاحَ جؤذَرْ
ساقٍ يديرُ الكؤوسا تضيء خمراً وتزهرْ

تقادمَتْ في الدنانِ من عهدِ نوحٍ تُرَوّقْ
في لونها اليهرماني[4] تُدار فينا وتعبَقْ
قَدْ أطلقت من عنانِ مَنْ عن صبُوحٍ يرقّقْ

يسعى بها من ملاحٍ مَن كان باللحظِ يُسكِرْ
بالحسنِ يُصبي الجليسا ويستخفّ الموقّرْ

---

١ خرج عن الإعراب ضرورة .
٢ الروضة : الكريم ابن الكريم .
٣ انظر روضة الآس : ٢٩ .
٤ ق والروضة : البرهماني .

بثيرُ كامنَ وجدِ في قلبِ كلِّ متيم
يَسْطو علَيْنا بقدٍّ يزري بِغُصن قويم
أشقى بعشقي ووُدّي في جنّةٍ ونعيم

من ذي الوجوهِ الصِّباحِ يا شادناً غنِّ واذكر
وهات لحناً نَفيسا نرويه عَنْكَ ونأثر

في مدحِ مَنْ سادَ طفلا هذي البرايا وفاقا
من حاز مجداً وفضلا بينَ الأنامِ وفاقا
في عدله قال قولا يسري فيَعدو العراقا

في أحمدٍ ذي السماحِ في الشرقِ والغربِ يُنصَر
أحيا الهدى والنفوسا وذلّ ملّةَ قيصر

تراه سلماً وحربا من رأيه في جنوده[1]
يختالُ لم يبغِ عُجبا مِنْ عزّه في بروده
يهوى المعاليَ كسبا ويقتنيها بجوده

فخارُ أهلِ البطاحِ وعزَّ من قد تمصّرْ
ثناهُ يملا الطروسا عن صورة المجدِ عبّرْ

ملكٌ بنى في البديعِ منازلاً كالدراري
فيا لَهُ من صنيعٍ الروض والماء جاري
فقُلْ بصوتٍ رفيعٍ إذ بانَ فجرُ النّهارِ

---

[1] قافية هذا الغصن دون هاء في الروضة .

أهدى نسيمُ الصباحِ مسكاً شَميماً وعنبر
وجيء بهـا خندريسا من خدّ ساقيهِ تُعصر

ومن موشّحات السلطان المنصور المذكور[1]

ريّانُ من ماء الصِّبا أهْيَفْ وممتلي البردِ

كالغصنِ هزته الصَّبا فوقَ الرُّبى الشُّهبِ
قد قلتُ لمّا أن سبي بحُسْنهِ يسبي
من عينه سَلَّ ظُبي وغمدها قلْبي

أسرَني ماضي الشّبا أوْطَفْ مرنّحُ القدِّ

يا فاضحَ الروض سنا بل مخجلَ البدرِ
وقاطعي ظلماً عنا ومَنْ مقرُّهُ صدري
إن لم تكن شمسَ دُنا فإنّها تجري

علّقْتهُ مِنَ الظّبا أسجفْ يسطو على الأسدِ

قلتُ لهُ وقد نَهَدْ وجَدَّ في حربي
وغلَبَ الظبيُ الأسدْ ففازَ بالغلبِ
الشمس برْجُها الأسدْ فاسْعَ إلى قلْبي

ولم يحضرني الآن تمامها .

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني[2] :

١ روضة الآس : ٥٦ .
٢ روضة الآس : ٥٧ .

وليالي الشعور إذ تسري ما لنهرِ النهار من فجرِ

حبّذا الليلُ طال لي وحدي
لو تراني جعلتُه بُردي
فاطميّاً في خلعة الجعدي

هي ليلى أختُ بني بشرِ فأين أنْت يا أبا بدرِ

كم سقطنا ألطفَ من طلٍّ
واجتمعنا وما درى ظلّي
واسترحنا من كاشحٍ نذلِ

ربّ ليلٍ ظفرت بالبدرِ ونجوم السماء لَمْ تدرِ[1]

وبنفسي مهفهفٌ ألمى
ومطيع وغرّني لمّا
سألته[2] وقانِعي ممّا

في رباط قسمتي صدري لحَنين وناظري بدرِ

وهلالٍ في حسنه اكتملا
هو شمسٌ وأضلعي الحملا
قام يشدو وينثني في ملا[3]

قسماً بالهوى لذي حِجْرِ ما لليلِ المشوق من فجرِ[4]

---

١ هذا القفل للسان الدين .
٢ الروضة : يا عفافي ، وسقطت اللفظة من ق .
٣ الروضة : في علا .
٤ هذا القفل لابن الصابوني

[من مقطعات المنصور]

ثم عنّ لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور ممّا تلقيناه عنهُ أيام كوننا في إيالته الشريفة ؛ فمن ذلك قوله زاداً على من قال في ابن أبي الحديد[1] :

لقَدْ أتى بارداً ثقيلاً ... ولم يرِثْ ذاكَ من بعيدِ
فهو كما قد علمتَ شيء ... أشهرُ ما كان في الحديدِ

ما صورته :

لقد أتى صارماً صقيلاً ... ولم يرِثْ ذاكَ من بعيدِ
شديدَ بأس متى يعادي ... وشدةُ البأسِ في الحديدِ

ومن نظمه قوله[2] :

لله ثغـــرٌ طيّبٌ ... وافى على البشرى انطوى
يا حُسْنَـــهُ مجتمعاً ... يحلُو لَنـا بلا نوى

وقوله معمّياً في « قمر » على طريقة الاكتفاء :

مُعذبي أعجـــزني نيلُـهُ ... من لي بمَن مسكنُهُ في السما
لَمْ أنسَ إذ قالَ ألا تكتفي ... قلتُ بمَن بالطرف قلبي رمى

وقوله :

تبدّى وزندُ الشوقِ تقدحُهُ النوى ... فتوقِدُ أنفاسي لظاه وتضرمُ
وهَشّ لتوديعي فأعرضتُ مشفقا ... على كبدٍ حرّى وقلبٍ يقسمُ

---

1 قال المقري إنهما لمؤلف «طي الفلك الدائر على المثل السائر» ولكنه لا يتذكر اسمه (الروضة : ٤٧).
2 أكثر هذه المقطعات وردت في روضة الآس : ٣٦ — ٥٢ وفي مناهل الصفا ٢ : ٢٠٧ — ٢١٤ .

ولولا ثواه بالحشا لأهنتها ولكنّها تُعزى إليه فتكرمُ
فاعجبْ لآسادِ الشرى كيف أحجمتْ[1] على أنّه ظبيٌ الكناسِ ويقدمُ

وقال قدس الله تعالى روحه مورياً :

إنّ يوماً لناظري قد تبدّى فتملّى من حُسْنِهِ تكحيلا
قالَ جفني لصنوه لا تلاقي إنّ بَيْني وبينَ لقياك ميلا

وقد تبارى خُدّام حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين ، ومن أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه الله تعالى ، وكان يصلي بالسلطان التراويح :

ورقيبٍ بــــردّدُ اللحظَ ردّا ليس يرضى سوى ازديادي بُعْدا
ساءه الطرف مذ جنى الخدّ وردا إنّ يوماً لناظري قَدْ تَبَدّى
فتملّى من حُسْنِهِ تكحيلا

وتصدى مِنْ فحشهِ في استباقِ يَمْنَعُ اللّحظَ من جنًى واعتناقِ
أيأس العينَ من لحاظِ ائتلاقِ قال جفني لصنوه لا تلاقي
إنّ بَيْني وبين لقياك ميلا

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوّليات شعره ، قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبه :

ووردةٍ شَفَعَتْ لي عند مرتَهِني راقتْ وقد سجدتْ لفاترِ الحدَقِ
كأنّ خضرتَها من فوقِ حمرتِها خالٌ على خده من عنبرٍ عَبِقِ

وقال أيضاً من أوّلياته :

---

[1] الروضة : كيف تحجم .

شادن نَمَّ عليهِ عَرْفُهُ[1] ما خلاصي من سهام كامنَهْ
أحَلالٌ فيه أنّي خائفٌ وغزالي بعدَ خوفي آمنَهْ

وقال في وصف رقيب ملازم :

رقيبي كأنَّ الأرضَ مرآةُ شخصِهِ فأين تَوَلَّى الطرفُ مني[2] يراه
مقيمٌ بوجهِ الوصلِ حتّى كأنّما وصالي هلالٌ والسوادُ صداه

وقال :

أيا روضةً ضَنَّتْ عليَّ بزهرها ولَمْ يتلقَّ ناظراي سواك[3]
أبيحي لنَفسي من شَذاكِ بقاءها إذا فُتَّ طرفي علَّ الأنفَ يراك

وقال أيضاً :

على جَدْوَلٍ غطّتْ عليهِ بشعرها لئلا يرى الشمسَ الرقيبة لي طرَفْ
فبتُّ أرى في جدولٍ بدرَ وجهها غريقاً ونقطاتِ العبير بهِ كَلَفْ

وقال :

طرقتُ حِماهُ والأسودُ خَوَادرٌ به فتولّى بالظُّبى وهو يبعدُ
فعلّمتُ آسادَ الشرى كيف تقدمُ وعلّم غزلانِ النقا كيف تشردُ

وقال :

لمّا نأى المحبوبُ رقَّ ليَ الدُّجى وأتى يعلّلني برَعْي كواكبِهْ
أولىَ غراب البينِ ردك يا حشا والبينُ مُزْنيٌّ الصباحِ كواك بهْ

---

١ الروضة : نفحه .
٢ اقرأ بخطف الياء وجعلها حركة كالكسرة على النون .
٣ الروضة : سناك .

وقال معمّياً باسم حَظِيته الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » :

يا هلالاً طلوعُهُ بينَ جفني   وغزالاً كناسُهُ بينَ جنبي
إنَّ سهماً رمَيْتَ غادر هَمّاً   لو تناهى ما شكَّ آخرُ قلبي

ورأيت بخطّه على هذا المحل ما صورته : قولي « إنَّ سهماً » تنصيص ، و « غادر همّاً » إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط « همّاً » من هذا الاسم ، وقولي « لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعني به الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ، والآخر والمنتهى والختام ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولي « لو تناهى » معناه أنّه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الميم من همّاً ، وقولي « ما شك آخر قلبي » انتقاد أيضاً ، وأردت بآخر قلبي الياء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .

واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم[1] بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات ، ويسمى العمل « التذييلي[2] » . انتهى كلامه على البيتين في اسم نسيم .

وقال في اسمُ « غزال » وقد جمع تعميتين ولغزاً :

وأملَدَ مطويّ الحشا زال ردفه   فلا خصر إلاّ إن تصورته وهما[3]
بنصف اسمه يرمي القلوبَ وعكس ما   بقي أبداً أُذنَ المحبّ به أصمى

---

١ الروضة : الكلمة .
٢ ق : التذييل .
٣ سقطت اللفظتان من ق ، وأثبتناهما من الروضة .

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت به بعمل الترادف غصن ، و « مطوي الحشا » انتقاد ، و « زال ردفه » قضيت به غرضين ، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طيّ الصاد التي بوسطه ، وأثبته – أعني « زال » – في موضعها : أي النون من غصن ، والحال أن الصاد محذوفة ، وذلك بعمل الانتقاد ، وأوضحت ذلك بقولي « فلا خصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لئلا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية ؛ انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى .

ويعني بقوله « بنصف اسمه يرمي القلوب » غز ، لأنّه نصف غزال ، ويعني بقوله « وعكس ما بقي إلى آخره » لفظة « لا » لأنّها مقلوب ما بقي وهو « ال » .

وقال في اسم « سلاف » على منهاج ما تقدم :

وأحْوَرَ وَسْنانِ الجفونِ كأنّما ... سقي لحظَه من ريقِ فيهِ بقرقفِ
نضا صارماً لا فُلَّ صارم لحظه ... تزايد فيه منذ سل تلاه في

وفسره بقوله : قولي « تلاه في » من طريق التسمية ، و « في » من العمل التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها ، وهي من المحسنات كما سبق .

وقال في اسم « آمنة » من التعمية أيضاً :

من شقائي قنصته وهو خِشْفٌ ... في رضاه عن الملوك ابتدلْتُ[1]
أمْلدٌ منهُ مذ تحلّل خصرٌ ... وتثنّي عن حبه ما عدلتُ

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت الألف بعمل التشبيه ، و « خصر منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » وتحلله : أن ينحل السكون الذي على النون ، وقولي « وتثنى » أي الألف من التثنية ، لا التثني ، فتم الاسم

---

[1] الروضة : لم أقل ف آن قلت فات فهمت .

بحركاته وعدده ؛ انتهى تفسيره .

وقال وقد لبس منصورية من النوع الذي يقال له «قلب حجر» ، والمنصورية : نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصَفُوا اشتياقي للحبيب وسَرَّهم قولُ الحبيبِ أنا أنا فيهِ
قلبي له حجرٌ ، فقلت مغالطاً للعاذلِ المؤذي أنا فيهِ

قال : وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب المسمى بالملفق ، وحدُّهُ : بأن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين ، وهذا هو الفرق بين الملفق وبين المركب ، وقَلَّ مَنْ فرق بينهما ، ومنها الانسجام ، ومنها الاستخدام . وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيظمي تعرض إلى شرحهما بكراسة . والتعمية في هذين البيتين بالعمل[1] الحسابي وهو كثير ، إلاّ أن هذا العمل أحسبني أبا عذرته إذ لم أره لغيري ، ومادة التعمية فيه «أنا أنافيه ، قلبي له حجر» فقولي «أنا أنافيه» معناه أن تضرب «أنا» في ه ، وقولي «في ه» نص في الضرب ، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقّك ، وقولي «قلبي لهُ حجر» بعمل القلب يصير «رجح» فصار المجموع «هيماني وحقّك يرجح» ، وفيه التورية ، و «هيماني وحقك» الخارج من هذا الضرب فيه تهكم بالواشي ، فهو من المحسنات أيضاً ، أعني قوله «وحقّك» ، ويصلح أن تسمى هذه التعمية بالافتنان ، لأن الافتنان عندهم أن يفتن الشاعر فيأتي بفنّين متضادين من فنون الشعر في بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة واحدة ، فظاهر «أنا أنافيه» يضاد «هيماني وحقّك يرجح» الذي يخرج بطريق الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي «أنافيه» ؛ انتهى .

---

[1] الروضة : بالعد .

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله « أنا فيه » أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأمّا المعنى الثاني لقوله « أنا فيه » فظاهر .

وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن النرجس :

وافى بها البستانُ صنوكَ وردةً ... يقضي بها لمّا مَطَلْتَ وعودا
أهدى البَهار محاجراً وأتى بها ... في وقته كيما تكونَ خدودا
فبعثتها مرتادةً بنسيمها ... تثني من الروضِ النضيرِ قُدُودا

وقال :

لي حبيبٌ يأتي بكلّ غريبٍ ... هو عندي مُنَكَّر ومعرَّفْ
لستُ أشكو لصيرفيٍّ ونحوي ... أنّه بي نَحا وفيَّ تصرَّفْ
فعلهُ فيَّ لازمٌ متعدٍّ ... ومزيدٌ مجرَّدٌ ومضعَّفْ

وقال :

لا وطيفٍ علّم السيفَ فقد ... في قوامٍ كقَنا الخط نَهَدْ
ووميضٍ لاح لَنا بسمتْ ... فأرتْنا منهُ دُرّاً أو بَرَدْ
ما هلالُ الأفقِ إلاّ حاسدٌ ... منهُ حسناً وعلاءً وغيَدْ
ولذا عاش قليلاً ناحلاً ... كيف لا يَفْنَى نحولاً مَنْ حسدْ

وقد ضمَّن قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال :

قَسَماً بالبيت والركن الذي ... طابَ حجّاً واستلاماً للأبدْ
« ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ ... منهُ حسناً وعلاءً وغيد »

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنّه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والعقاد المكي

السابق والشريف المدني ، وهو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف ، فقال إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التي تُشَدّ إليها الرحال شَدّ أهلُها إليك الرحال : هذا مكيّ ، وذاك مدنيّ ، وأنا مَقْدِسيّ ، ثم أنشد[1] :

إنّ أمير المؤمنين أحمد بحرُ الندى وفضله لا يُجحَدُ
فطيبةٌ ومكةٌ أهلهما والمسجدُ الأقصى بذاك شهدوا

رجع إلى نظم المنصور ، وقال :

وكيفَ بقلبٍ في هواه مقلّبٍ وأنّى له بين الضلوعِ مقامُ
فيا شادناً يرعى الحشا أنتَ بالحشا أما لمحلٍ أنتَ فيهِ ذِمامُ

وقال يخاطب رئيس كتّابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفشتالي السابق الذكر :

يا كاتباً ألفاظه تغرس[2] روضاً ذا فنن
إنّ جوابي للذي يشكو دناه اردد حزن

وقال مُورياً بمصانعهِ الثلاثة : البديعِ ، والمسرةِ ، والمشتهى :

بستانُ حسنك أبدعَتْ زهراته ولكم نهيتُ القلبَ عنه فما انتهى
وقوامُ غُصنك بالمسرةِ ينثني يا حسنه رمانةً للمشتهى

ولولا خوف الإطالة المُملة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور — رحمه الله تعالى — بعضَ ما أؤدي به حقّه ، سقى الله تعالى عِهادَه ، وقد بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي « روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وأطال الكلام على ترجمته صاحبُنا

---

١ الروضة : ١٤ .
٢ الروضة : إذا كتب يغرس .

الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي في كتابه المسمى بـ « مناهل الصفا في فضائل الشُّرَفا » وعهدي به أكملَ منه ثمانيَ مجلدات ، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه ، وألف كاتبُ أسراره الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى فيه كتاباً سمّاه « الممدود والمقصور من سَنا السلطان المنصور » وهذه التسمية وحدها مطربة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى التوشيح :

كتب إليّ بعضُ أذكياء الأصحاب الأعيان موشّحاً يمدحني به في آخره عارض به موشّح لسان الدين السابق الذي أوله :

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى   يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ

ونصّه :

عَطّرَ الأرجاءَ لمّا نَسَمَا   شَمألٌ للصبحِ عندَ الغلَسِ
وأتت شمسُ الضحى تنسخُ ما   يقرأُ الليلُ لنا من عَبَسِ

طافَ بالكأسِ من الزهرِ فتى   مُولَعٌ بالصدِّ عني مذ فَتي
فتن الألبابَ لمّا التفتا   واحتمى منهُ ببعضِ الشفةِ
وأنا ما بينَ حتّى ومتى   صَدّه تيهُ الهوى عن ألفتي

وكؤوسُ الراحِ بينَ الندما   أرّجَتْ بالعَرْفِ أفقَ المجلسِ
خمرةٌ صفراء في البلورِ ما   أشبهَ الحانَ بروضِ النرجسِ

بادرِ اللذّةَ واجمعْ شملَها   بمدامٍ وغلامٍ مُطْرِبِ
ذي عُيونٍ ناعساتٍ كم لها   من فنونِ السحرِ ما يلعبُ بي
وافرِ الأردافِ عانَى حملَها   ناحلِ الخصرِ ، وذا من عجبِ

كلّما أترعَ كأساً قال ما   أنت بالشاري حياةَ الأنفسِ
فابذِلِ الجهدَ وكنْ مغتنما   لنفيسِ النفس طيبَ الأنفسِ

فُرَصُ الأيامِ كنْ منتهزاً   مبتداها قبلَ حذفِ الخبرِ
ورحابَ الأنسِ لُجْ منتجزاً   قبلَ أن تمضي كلمحِ البصرِ
واجنِ من زهرِ الهوى محترزاً   من جناياتِ هجوم الكبرِ

لا تخفْ لوماً ويمم حيثما   لاحتِ اللّــذاتُ كالمختلسِ
ما مضى أنسٌ ووافى مثلمــا   كان ذا الدهر لنا بالحرسِ

للرياضِ اذهبْ ترى بُلْبلها   لاشتياقِ الوردِ مثلَ الثّكلِ
وخدودُ الورد قد كللها   دمعُ طَلٍّ لاشتياق البلبلِ
وقدودُ البــانِ قد قام لها   مانعُ الوصلِ بحــدٍّ الأسلِ

والرُّبى فاحت تحاكي خدَما   وعــليهن ثيــابُ السندسِ
جيبها زُرِّرَ بالزهرِ كما   زُرَّ بالفضةِ ثوبُ الأطلسِ

وجــلا الروضُ لنا أشجارَه   مــائســاتٍ في قَبــاءٍ أخضرِ
وترى في جيدِها نُوّاره   يتــــلألا كعقودِ الجوهــــرِ
خلع الليلُ به أطماره   فغدا كالصبحِ باهي المنظرِ

وبقاياهُ زهتْ فيه أما   في شفاهِ الغيد حُسْنُ اللّعَسِ
كعِذارٍ في محيّا علّمــا   فبــدا للغــيرِ لا المــلتمسِ

حبّذا الصبوةُ أيامَ الصِّبا   وعيونُ الشيب في سَهْوِ الوسن
فإذا أيقظها دهرٌ صبا   لصروفٍ حدُّ شفريها وسن
جرَّدَ الشيبُ لنا بيضَ الشبا   واقتفى شرخَ شبَابٍ وظعن

وغدا الإنسانُ شيخاً هَرِما واعتراه لاعجٌ من وَجَسِ
فاتَ إذ مات فيقضي ندما واغتنامُ الوقتِ شغل الكَيِّسِ

لا تدعْ عُمركَ يمضي هَدَرا أنْتَ إذ ذاك جبّانٌ غافلُ
وارْقَ بالجهدِ من السؤلِ الذرا واجتهدْ والضرعُ ضخمٌ حافلُ
إنّما الأيام أمثال الشّرى والجريءُ الشهمُ ليثٌ باسلُ

ووحوشُ الإنسِ تسعى مغنما بارداً للأسَدِ المفترسِ
تركَ الوهمَ وخاضَ الظُّلَما ولَهُ العزمُ أضا كالقبسِ

ليسَ يحظى بالمُنى إلاّ الذي كابَدَ الأهوالَ حتّى ظفرا
كانَ للراحةِ كالمنتبذِ مِن وراءِ الظهر أنّى ظهرا
مثلما قد باتَ ذا طرفٍ قَذي يقطعُ الليلَ جميعاً سهرا

في طِلابِ العلم حتّى علما أنّه يملا بروح القدسِ
أحمد الناصب فينا علما للتقى فاز به مَنْ يأتسي

حَلّ في مصرَ وإن كان العُلا قد عفتْ لما اعتراها في خَلَلْ
ورياضُ الفضل لمّا أن علا نَقْعُ جهلٍ جفّ منهن البلل
ازدَرَتْ أغْصانها حتّى خلا قاعُها منْ عَذب ما يَشفي العلل

نفرت إذ حلّ فيها كالسما وهو بدرٌ بكمال مكتسِ
حوله الطلابُ كالشُّهب سما قدرُها من نورهِ المقتبسِ

أيّها الطالبُ للعلم اتئدْ لَيْس إلا بابَهُ ينفعكا
إن ترم نَيْلَ المرجّى فاجتهدْ في اتّباع للذي يرفعكا
عِلْمُ مَنْ يعملُ إكسيرٌ فزد منهُ واتركْ حاسداً يدفعكا

والزمِ الأعتابَ وانزلْ بالحمى خالعَ الربْقَةِ من قولِ المسي
باعتقادٍ فازَ من قد لثما نعله والكبرُ شأنَ المُبْلِسِ [1]

مذ خبَرْتُ الناسَ طرّاً نظرا لمناطِ الأمر في هذا الزمان
لم أجدْ إلاّ مقالاً صدرا عن دعاوٍ أخلفتْ عند العيان
غيرَ ما يمليه فانظرْ لترى دُرَرَ الألفاظِ في سِمْطِ البيان

ببديعِ النّطقِ لمّا نظما بُهِتَ المنطيقُ مثلَ الأخرسِ
وأتى يخضعُ جمعُ العلما نحوَ ذا المفردِ في الملتمسِ

إنّما المجدُ الرفيعُ الممتطي أرؤسَ الآسادِ قسراً مثل ذا
يَدَعُ المرفوعَ كالمنهبطِ ثم للنازلِ يُعلي منفذا
ناظراً في أمره بالأحْوَطِ خافض الطرف على حرّ القذى

كلّ من أمَّ حماهُ قد حمى بحُسام العزم هشّ الملمسِ
فإذا جرّد منهُ انفصما جلْمدُ الصخرِ بذاك الميسِ

حبّذا المغربُ قطراً بالسنا فضلُهُ يَبْهرُ بَدْرَ الأفقِ
قطرُهُ الشامخُ قد أهدى لنا سيّداً قد فاق شمسَ المشرقِ
كلّ من فاتَتْهُ أسبابُ المُنى بعُـــلاه للثريا يرتقي

قل لمن يَرْجو سوى المذكور ما ينبتُ الزهرُ بأرضِ اليبسِ
لا ، ولا النّاسُ سواء إنّما رأيُ مَنْ سوّاهمُ في هوسِ

لُذْ بشهمٍ فازَ مَنْ أمّلهُ بنوالٍ فاقَ سَحَّ الهاملِ
أثقلَ السؤدد إذ حمّلَهُ وَقْرَ فضل مستبينٍ شاملِ
وَحِماه الأمنُ ، من أمَّ له بلغ القصدَ ، فبشرى الآملِ

---

[1] ق : الملبس .

بحره الوافرُ بالعـلم طما   كاملَ الأمـدادِ لم يحتبسِ
نال منهُ الناسُ حتّى عمما   مشرقاً والغربَ للأندلسِ

رجع إلى مُوَشّحات لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ، فمن المنسوب إلى محاسنه قوله :

قد حرّكَ الجلجلُ بازي الصباح   والفجرُ لاح
فيا غراب الليلِ حُثَّ الجناح

وهذا مطلع موشّح بديع له لم يحضرني الآن تمامه ؛ لكوني تركته وجملة من كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى عليّ ، وهو معارض للموشّح الشهير الذي أوله :

بنفسجُ الليلِ تذكّى وفاح   بَينَ البطاح
كأنّه يسقى بمسك وراح

وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمالُ ابنُ نُباتة [1] إذ قال مادحاً لجلال الدين الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ما سَحَّ محمرٌ دموعي وسـاحْ   على الملاح
إلاّ وفي قلْبي المعنّى جراح

بي منْ بَني الأتْراك حلوُ الشّبابْ   مُرُّ السّطا
عَشِقتـهُ حينَ عدِمتُ الصَّوابْ   مِنَ الخطا
تَشْكُو حشـا الغزْلانِ منهُ التهابْ   إذا عَطـا
وربّما تَشْكُو الغصُونُ اكتئابْ   إذا خطـا

1 هو محمد بن محمد بن محمد ابن نباتة الفارقي وله ترجمة مسهبة في الوافي 1 : 311 – 331 ولم ترد الموشحة هنالك أو في ديوانه .

مَا ماسَ ذاكَ الغصنُ بَيْنَ الوشاح إلاّ وراح
قَولُ عَذُولي كلّــهُ في الرياح

آهاً لصبٍّ دمعــه حَيْثُ كانْ دمعٌ أريق
هـذا أسيرٌ في وجوهِ الحسانْ وذا طَليـق
أرَّقَ جِسمي بالضُّنى يومَ بانْ بدرُ الفريق
فهـا أنـا اليــومَ لهُ يا فُلانْ عبدٌ رقيق

يَــزيدُ أجْفاني نَدى وارتيــاح تَهْمي اللّوّاح
مِثْل جـلال الدينِ يَوْمَ السّماح

حبرٌ لــهُ في الخَلْقِ ذكرٌ جَميل[1] لا يُفْتَرى
ماحٍ عَلى غيظِ الغمــام البَخيل مَحْلَ الثرى
ما رأتِ العينُ لهُ من مَثيل ولا . ترَى
يوقــدُ في أوطانيــهِ للنّزيل نارَ القِـرى

شَرارها في الكيسِ حمرٌ صحاح لها اقتداح
لـكنّها في القلب عذبٌ قراح

يا مالكَ العِلْمِ وفيضَ الندى جُزْتَ المدى
فابْقَ وكلٌ العالمـين الفِـدا دع ِ العِـدا
أنْتَ الـذي أصبَحَ غَيْثَ الجَدا صبحَ الهدى
كم يُقْتَفى منكَ وكَمْ يُقْتَدَى ويُجْتَـدى

عــلمٌ جليٌ ونـوالٌ صُرَاح صفو مُبَاح
يَروي بهِ راوي الرّجا عَن رباح

---

١ ق : جليل .

وَمُغرمٍ لا يَختَشي مِنْ رَقيبْ ولا عذولْ
معلّق القَلْب بشجوٍ عَجيبْ ولا وصولْ
يَسكرُ لكنْ بصفاتِ الحَبيبْ لا بالشَّمولْ
لمّا رنا الظبي وماسَ القَضيبْ أضحى يقولْ

كم ينتضي جفنُكَ وعطفُكَ صِفاحْ على رماح
ما ذي مَحاسِنٌ ذي خزاينٌ سلاح

ومن الموشّحات الصادرة من المشارقة المعارضة للمغاربة قولُ عثمان البَلَطي[1] يمدح القاضي الفاضل :

وبلاهُ من روّاغْ بِجوره يقْضي
ظبيٌ لَهُ إغذاذْ منهُ الجفا حظّي

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :

عقاربُ الأصداغْ في السوسنِ الغضّ
تَسْبي تُقى من لاذ بالنسكِ والوعظِ

مِنْ قبل أن يَعْدو عليَّ لَمْ أحسبْ
أن تَخضع الأسْدُ لجؤذر الربربْ
ظبيٌ لَهُ خدٌّ مُفَضَّضٌ مُذهبْ
وشادنٌ يَبْدو في صدغه عَقْربْ

١ في ق : الملطي والتصويب عن معجم الأدباء (١٢ : ١٤١) وقال نسبة إلى بلط التي تقارب الموصل وذكرها في معجم البلدان بالياء . وعثمان بن عيسى البلطي انتقل إلى دمشق وعلم في الزبداني ولما فتح صلاح الدين مصر انتقل إليها وفيها توفي سنة ٥٩٩ بعد أن كان يدرس النحو ويقرىء القرآن ؛ وقد أورد ياقوت موشحته ص : ١٤٧ كما أوردها ابن شاكر في الفوات ٢ : ٦٧ في ترجمة البلطي .

رقّةُ زهرِ الباغْ[1] في جِسمهِ الفضي
وقسوةُ الأفلاذْ في قلْبِهِ الفظّْ

مهفهفٌ بِدْعُ أصبحتُ مغرًى بهْ
قلْبي لَهُ رَبْعُ لو كنتُ في قلْبهِ
أصابني صَدْعُ مُذْ لجَّ في عَتْبهِ
السّهْدُ والدمعُ حظّيَ مِنْ قربه

والعينُ لا ينساغْ لها جنى الغمضِ
والدمعُ ذو إغذاذْ ناهيكَ مِنْ حظّْ

ومن أحسن ما للمشارقة من التوشيح قولُ الشهاب العزازي يعارض أحمد ابن حسن الموصلي[2]

يا ليلة الوصلِ وكأس العقار دُونَ استتار
علّمتماني كيفَ خلع العِذار

اغتنم اللذّات قبْلَ الذّهاب
[وجُرَّ أذيالَ الصِّبا والشّباب][3]
واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

على خُدود تنبتُ الجلنار ذاتَ احمرار
طرَّزها الحسنُ بآس العِذار

---

١ الباغ : الحديقة .
٢ انظر المنهل الصافي ١ : ٣٤٤ وتوشيع التوشيح : ١٠٩ .
٣ سقط هذا الشطر من ق .

الرّاح لا شكّ حياة النفوس
فحلّ منها عاطلات الكؤوس
واستجلها بين الندامى عروس

تُجلّى على خطّابها في إزارْ من النُّضارْ
حَبابُها قام مقام النِّثارْ

أما ترى وجه الهنا قد بدا
وطائر الأشجار قد غرّدا
والروض قد وشّاه قطر الندى

فكمّل اللّهو بكأس تُدار على افترار
مباسم النوّار غبّ القطار

اجنِ من الوصلِ ثمارَ المنى
وأوصلِ [1] الكأس بما أمكنا
مع طيّبِ الريقةِ حلو الجنى

بمقلةٍ أفتكَ من ذي الفقار ذاتِ احورار
منصورة الأجفان بالانكسار

زارَ وقدْ حلّ عقودَ الجفا
وافترّ عنْ ثغر الرضى والوفا
فقلتُ والوقتُ لنا قد صفا

يا ليلةً أنعمَ فيها وزار شمسُ النهار
حُيّيتِ من بينِ الليالي القصار

---

[1] المنهل : وواصل .

ويعجبني من موشحات العزازي المذكور قوله[1] :

ما عَلى   مَنْ هامَ وَجْداً بذوات الحلى
مبتـلى   بالحدق السّود وبيض الطُّلى

باللّوى   مَلِيٌّ حسنٍ لديوني لَوَى
كَمْ نوى   قَتْلي وكَمْ عذَّبني بالنّوى
قَدْ هوى   في حُبّهِ قَلْبي بحكمِ الهوى

واصطلى   نارَ تَجَنّيهِ ونارَ القِلَى
كيفَ لا   يَذوبُ من هامَ بريمِ الفلا

هَلْ تُرى   يَجْمَعُنا الدهرُ ولَوْ في الكرى
أم تَرَى   عيني مُحبّاً مَن لجسمي برَى
بالسُّرى   يا حاديَيْ ركبٍ بِليلي سَرَى

عـلّلا   قَلْبي بِتذكار اللّقا عـلّلا
وانـزلا   دونَ الحمى ، حيَّ الحمى منزلا

بي رَشـا   دَمْعي بسرّي في هَوَاه فَشا
لو يَشـا   بَرَّدَ مِني جَمَراتِ الحشا
ما مشى   إلاّ انثنى في سكره وانتشى

عطّـلا   مِنَ الحميّا يا مديرَ الطّلا
ما حَـلا   إذا أدار الناظرَ الأكْحَلا

---

1 المنهل الصافي ١ : ٣٤٥ .

هَلْ يُلامْ	مَنْ غلَبَ الحُبُّ عليْهِ فهام
مُستهـــامْ	بفاترِ اللّحظِ رشيقِ القوام
ذي ابتسامْ	أحسن نظماً من حبّاب المدام

لو مـــــلا	من ريقِهِ كأساً لأحيا المـــلا
أو جـــلا	وجهاً رأيْت القمر المُجتلى

لو عفـــــا	قلْبُكَ عمّن زلّ أو من هفا
أو صفـــــا	ما كان كالجلْمَدِ أو كالصفّا
بالـــــوفا	سَلْ عَنْ فتى عذّبته بالجفا

هَلْ خــلا	فؤادهُ مِنْ خطرات الولا
أو ســـــلا	أو خانَ ذاكَ الموثق الأوّلا

وقوله أيضاً يعارض الموصلي[١] :

ما سُلّتِ الأعينُ الفواترْ	من غمدِ أجفانها الصفاح
إلاّ أسالت دَمَ المحاجرْ	من غيرِ حربٍ ولا كفاح

تالله ما حرّكَ السواكنْ	غيرُ الظّبـــــاء الجــآذر
لمّا استجاشت بكلّ طاعنْ	مـــن القُـــدودِ النواضر
وفوّقت أسهمَ الكنائنْ	من كلّ جفنٍ وناظر

عُرْبٌ إذا صحنَ يا لعامر	بينَ سَرَايا من الملاح
طلّت علينا مِنَ المحاجر	طلائعٌ تَحْملُ السّلاح

١ المنهل الصافي ١ : ٣٤٧ .

أحبِبْ بما تطلع الجيوبُ منهـا وما تُبْرز الكلَلْ
من أقمُرٍ ما لهـا مغيبُ وأغصُنٍ زانَها الميَلْ
هيهات أن تعدلَ القلوبُ عَنْها ولو جارتِ المُقَلْ

لمّـا توشحن بـالغـدائر سَفَرْنَ عن أوجُه صِباح
فانهزم الليلُ وهو عاثر بذيْله[1] واختفى الصباح

وأهيفٍ ناعِمِ الشمائلْ تهزّهُ نَسْمَةُ الشمال
فينْثني كالقضيب مائلْ كما انثنى شاربٌ ومال
لهُ عِذارٌ كالنّدّ سائلْ للهِ كَمْ من دمٍ أسال

شُقّتْ على نبتِه المرائرْ من داخلِ الأنفس الصحاح
تكلّ في وصفه الخواطرْ وتخرس الألسن الفصاح

ظبيٌ إلى الإنسِ لا يميلُ الشمسُ والبدرُ من حُلاه
الحسنُ قالوا ولم يقولوا مَبْداه منـهُ ومنتهاه
وطرفه الناعسُ الكحيلُ هيهات من سيفه النّجاه

أذلّ بالسحر كلّ ساحرْ فهو لهُ خافِضُ الجنـاح
يجول في باطنِ الضمائر كما يجولُ القضا المُتاح

أما ترى الصبحَ قد تطلّعْ مُذْ غمضت أعينُ الغسقْ
والبدرَ نحو الغروب أسرعْ كهاربٍ نالَـهُ فَرَقْ
والبرقَ بينَ السحابِ يلمعْ كصـارم جـبينَ يمتشقْ

وتحسبُ الأنجمَ الزواهر أسِنّةً ألْقَت الرماح
فانهزم النّهرُ وهوَ سائر فدرّعَتْهُ يَـدُ الرياح

---

١ المنهل : في ذيله .

وموشحة الموصلي التي عارضها العزازي هي قوله[1] :

رنا بأجفانه الفواتـر لمَّا انثنى واحِدُ الملاح
فسَلَّ من طرفه بواتر وهزَّ مِن عِطْفِهِ رماح

ناظـره جرَّد المهنَّدْ وغمده مِنّيَ الحشا
وعامل القدّ فهو أملد يطعنُ للقلبِ[2] إن مشى
والعارض القائم المزرد لفتنة الناسِ قد نشا

والحاجبُ القوسُ، بالفواتر لنَبْله في الحشا جراح
ومشرفُ الصدغِ فهو جائر سُلطانُه للدما أباح

فجفنُهُ الفاتكُ الكِناني من ثُعَلٍ[3] رَاش لي نبال
وهو الخفاجيُّ قد غزاني ووجهه من بني هلال
عَبْسيُّ لحظٍ له سباني جسم زبيديّ بالدلال

والردفُ يُدعى من آل عامر وواضح الصَّلْت من صباح
وخصره من هَشيم[4] ضامر يدور من حوله وشاح

فوجههُ جنّـة وكوثر رُضابه العذب لي حلا
والنار في وجنتيه تسعر حيالها خاله[5] اصطلى
عجبتُ من خاله المعنبر إذ يعبدُ النار كيف لا

---

١ المنهل الصافي ١ : ٣٥٠ .

٢ المنهل : في القلب .

٣ المنهل : من مقل ؛ وثعل : قبيلة مشهورة بالرماية .

٤ المنهل : هتيم .

٥ ق : وأخال خيالها .

يُحرِّقُ بالنارِ وهو كافر   وما سقى ريقه القراح
كاملُ حسنٍ معناه وافر   بسيطُ وصفٍ كالمسكِ فاح

ما اخضَرَّ نبتُ العذار إلا   بآسه سُيِّج[1] الشقيق
وهو كنملٍ سعى وولَّى   ولَم يجدْ للجنى طَريق
من ريقةِ البدر إذ تجلَّى   في هالة العارضِ الأنيق

لمّا تبدَّى بالوجه دائر   وحيَّر العقلَ حين لاح
شقَّ على خدِّه المرائر   وقطّعَ الأنفُسَ الصِّحاح

ورُبَّ يومٍ أتى وحيّا   كالشمس والنجمِ والقمر
بالكأس والراح والمحيّا   ثلاثةٌ تفتِنُ البشر
وقال قمْ يا نديمُ هيّا   اقضِ بنا لذةَ الوطر

فالخمر تُجلى على المزاهر   من اغتباقٍ إلى اصطباح
وطافت الراحُ بالمجامر   من عنبر الزهر في البطاح

وممّا يُطْرِبني من الموشحات قولُ بعضهم[2] :

ما بي شمولْ إلاّ شجون   مزاجُها في الكاسْ دمعٌ هتونْ

لله ما بَذّر   مِنَ الدُّموع
صبٌّ قَدِ استعبر   مِنْ الولوع
أودى بهِ جؤذَر   يوم الطّلوع[3]

---

١ المنهل : يبهج .
٢ هذه الموشحة لابن بقي (دار الطراز : ٦٧) .
٣ دار الطراز : يوم البقيع .

فهوَ قتيل لا بل طَعين بين الرجا والياسْ لَهُ سنون [1]

جرحت للحَيْنِ كَفي بكفي
وحيلَ ما بيني وبَينَ إلْفي
لا شكَّ بالبَينِ يَكون حَتْفي

حال الرحيلْ ولي ديون إن رَدَّها العباسْ فهوَ الأمين

أما ترى البدرا بدر السّعود
قد اكتسى خُضْرا مِنَ البرود
إذا انثنى نضرا مِنَ القُدود

أضْحى يقول متْ يا حَزين قد اكتسى بالآس الياسمين

قُلتُ وقد شرّد النومَ عني
وأيأس العُوّد السّقمُ مني
صدَّ فلمّا صد قرعْتُ سِني

جسمي نحيل لا يستَبين يطلبُهُ الجلاّسَ حيثُ الأنين

تجاوز الحدّا قلبي اشتياقا
وكلفَ السّهدا من لا أطاقا
قُلتُ وقَدْ مدّا لَيْلي رواقا

لَيْلي طَويل ولا معين يا قلب بعضِ الناس أما تَلين

---

[1] دار الطراز : منون .

الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون ،
وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحوُ الستين ، وكلّها في غاية البراعة ، بحيث إنّه لم يأت أحـد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمناً ببعض تغيير :

تَصانيفُ الوزيرِ ابنِ الخطيبِ ألذُّ من الصِّبا الغَضِّ الرَّطيبِ
فأيةُ راحـــةٍ ونعيمِ عيشٍ توازي كتبـه أم أيُّ طيبِ

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته[1] :

التواليف : « التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى » ، و[« الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة »][2] ، و « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » ثم « النقاية بعد الكفاية » هـذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد ، و « طرفة العصر في دولة بني نصر » في أسفار ثلاثة ، و « بستان الدول » موضوع غريب ما سُمع بمثله ، قلَّ أن شذَّ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات

١ الإحاطة ، الورقة : ٣١٢ .
٢ سقط ذكر الكتيبة الكامنة من ق ، وهو الأصوب لأن المقري سيستدرك ذكره من بعد بين الكتب التي لم تذكر قبلا .

عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة الشرطة والحِسْبة ، ثم شجرة العمل ، ثمّ شجرة الجهاد ، وهي فرعان : أسطول ، وخيول ، ثمّ شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجّمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين ، ثمّ شجرة الرعايا ، وتقسيم هذا كلّه غريب يرجع إلى شعَب ، وأصول ، وجراثيم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهراتٍ مثمرة ، وغير مثمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصبغ اسم الفن المراد به ، وبرنامجه صورة بستان ، كل منه نحو من ثلاثين سفراً ، ثم قطعَ عنه الحادثُ على الدولة ، وديوان شعري في سفرين سميته « الصيّب والجهام والماضي والكهّام » ، والنثر في غرض السلطانيات كثير ، والكتاب المسمى بـ « اليوسفي في صناعة الطب» في سفرين كبيرين ، كتاب ممتع ، و « عائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير ، في سفرين ، وكتاب « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » كتاب كبير في أسفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » في سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كياد الدولة « نُفاضة الجراب في علالة الاغتراب » موضوع جليل في أربعة أسفار ، وكتاب « عَمَلُ مَنْ طَبَّ لمن حب » ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لا نظير له ، ومن الأراجيز المسمّاة « رقم الحلل في نظم الدول » والأرجوزة المسمّاة بـ « الحلل المرقومة في اللمع المنظومة » ألفية من ألف بيت في أصول الفقه[1] ، والأرجوزة المسماة بـ « المعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم

---

١ ـ ق : اللغة .

إذا أُضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص ، والأرجوزة المسمّاة بـ « المعتمدة في الأغذية المفردة » والأرجوزة « في السياسة المدنية » ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز « في عمل الترياق الفاروقي » ، و « الكلام على الطاعون المعاصر » ، و « الإشارة » ، و « قطع السلوك » ، و « مُثْلى الطريقة في ذم الوثيقة » حتى في الموسيقى والبيطرة والبيزرة ، هذر كَشُفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تيل بين الرد والقبول والنفي والإيجاب ، ولله در القائل – وهو المؤلف[1] – :

والكونُ أشراكُ نفوسِ الورى طُوبى لنفسٍ حرةٍ فازت
إن لم تحزْ معرفةَ اللهِ قد أورطها الشيءُ الذي حازت

وكلٌ ميَسّرٌ لما خُلق له ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ انتهى ما له في آخر « الإحاطة » بحروفه .

قلت : ولنذكر ما تأخّر تأريخه عن الإحاطة أو أُشير إليه فيها مجملاً فنقول : من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب « ريحانة الكتّاب ونُجْعَة المنتاب » في عدة مجلدات ، وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة : والنثر في غرض السلطانيات كثير ؛ وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض شتّى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خُطَبَ بعض كتبه ، وفي آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره ، وغير ذلك ، وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابه .

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في كتابه « نثير فرائد الجمان فيمن نظمني وإيّاه الزمان » ما صورته[2] : لابن الخطيب

---

[1] وهو المؤلف : زيادة من ق ، لم ترد في الإحاطة .
[2] نثير فرائد الجمان : ٢٤٤ وأزهار الرياض : ١٨٩ .

الأوضاع المصنفات ، التي آذانُ إحسانها هي المُقَرَّطات المُشَنَّفات ؛ منها في التصوف ، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ انتهى ، وسَرَدَ غير هذا الكتاب ممّا قدمنا ذكره وغيره .

وهذا الكتاب — أعني « روضة التعريف » — غريب المنزع ، وعارض به « ديوان الصبابة » لابن أبي حجلة صاحب « السكردان » ، وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العُجاب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطْلَقة ، وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ، ونَسَبُوه إلى مذهب الحلول وغيره ، ممّا ذكره يطول حسبما ألمعنا بذلك فيما سبق ، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر فوقها ، ولم أر في فنّه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ؛ فإنّه في الحب الشريف الرباني ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مالقة وسلا » و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما في الريحانة بنصهما ، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » في مجلد ، و « الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » و « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور على السَّنَن المشهور » و « الزبدة الممخوضة » و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة في تفضيل الشريعة » و « تقرير الشبه وتحرير الشبه » و « استنزال اللطف الموجود في سر الوجود » و « أبيات الأبيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر ، و « فُتات الخوان ولقط الصوان » في سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، و « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ، و « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك

من شجون الكلام » و « المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية » و « خلع الرسن في أمر القاضي ابن الحسن » وتدوين شعر شيخه ابن الجياب ، وجمع نثر المذكور وسمّاه « تافه من جمّ ونقطة من يمّ » وشرحه لكتاب نفسه « رقم الحلل في نظم الدول » ؛ فهذا ما حضرني علمه من تواليف لسان الدين رحمه الله تعالى ، فأما « البيزرة » ففي مجلد ، وأما « البيطرة » فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغير ذلك ، وأما « رجز الأصول » فقد شرحه قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأمّا « رقم الحلل في نظم الدول » فهو في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة ، وقد كنت بالمغرب أحفظ أكثره ، فنسيته الآن ، وابتداؤه بقوله :

الحمدُ للهِ الذي لا ينكره ... من سَرّحَتْ في الكائنات فكَره

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد :

ثمّ الوَليدُ بنُ يزيدَ العائثُ ... قد نُقلت من فعلهِ خبائثُ

وفي آخر دولة بني أمية قوله :

وصارَ قصْر الملك من أميّهْ ... أقفَرَ رَبعاً من ديار ميّهْ

وفي الأمين :

باعَ العُلا بشادنٍ وكاسِ ... وصحبةِ الشيخ أبي نُواسِ

وفي المعتصم :

وهو الذي تألّفَ الأتراكا ... فَتَصَبّوا لقومهِ الأشراكا

ومن أبيات هذا الكتاب قوله :

وَيَفْسُدُ الملك بالاحتجابِ كذاك بالزَّهْوِ وبالإعجابِ

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

وأقفرتْ من ملكه أوطانُهُ سبحانَ من لا ينقضي سلطانه

[معلومات عن كتاب الإحاطة]

وأمّا كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب ، والمشارقة أشد إعجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلّته في هذه البلاد المشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي [1] ، وسمّاه « مركز الإحاطة في أدباء غرناطة » وهو في مجلدين بخطّه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال في آخره ما نصّه : هذا آخر ما أردت إيراده ، وفوَّقْتُ أبرادَه ، من كل طرفة وتحفة وفائدة أدبيـة ونادرة تاريخية ، في كتاب « الإحاطة بتاريخ غرناطة » ، ولما كان المعول عليه ، والباعث الداعي إليه ، ذكر أدبائه ، ومآثر علمائه ، سميته « مركز الإحاطة بأدباء غرناطـة » والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقيرُ إلى عفو ربّه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بمنّه وكرمه ، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .

وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلّد ، إذ هو في مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل في ثمانية مجلّدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها .

ولمّا وقف سلطان الأندلس من كتاب « الإحاطة » نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابنُ عاصم حجةَ الوقفية بخطّه ، ولنثبتها لما فيها من الفوائد ، قال

---

1 هو محمد بن إبراهيم بن محمد أبو البقاء بدر الدين الأنصاري البشتكي الدمشقي الأصل المتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٠ (انظر الضوء اللامع ٦ : ٢٧٧ وطالع البدور ١ : ٨٠) .

الأديب الفقيهُ أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان المحروسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة بتاريخ غرناطة » المحبّسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضي الجماعة ، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة ، صَدْر البلغاء ، وعَلَم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظّم أبي يحيى ابن عاصم — رحمة الله تعالى عليه — ما نصّه : الحمد لله الجاعل الاستدلالَ بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقولُ الراجحة والأحلام ، وهو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عَرَضت الأوهام ، وحَسْبُك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة ، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلّة ، فحقيق أن يتلقى هذا النوعُ من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقَبُول ، ويستنبل المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ؛ وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلّة سالك على سواء سبيل ، ومُنْتَمٍ من صحة النظر إلى أكرم قَبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب — رحمه الله تعالى — من أثر هذه الدولة النّصْرية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولي الألباب وذكرى لذوي الأبصار ، أما الأول فلأن الأنباء التي أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجّتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعدها ، إنّما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حمَلة السيوف والأقلام ، وأفذاذ حَفَظة الدّين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، وينتظم نظمَ الجُمان في ذلك السلك ، من حصانة قلعتها ، وأصالة منعتها ، وقديم اختطاطها ، وكريم جهادها ورباطها ، وحسن ترتيبها ووَضْعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس آهلُ رَبْعها ، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممّن انتابها

من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ، ومُبْدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوّة ، إنّما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النّصْرية الكريمة ، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدِّيمة ، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الانصاف ، فأخْلافُ هذه المكارم النصرية أرضعته ، وعناياتها الجميلة أسْمَتْه فوق الكواكب ورَفَعَتْه ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشريفها اكتسب ، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قَدْره ، بل أُفُقُه الذي أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التي فتقت اللُّها باللُّها ، وأحلَّتْ من مراقي العز فوق السها ، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق ، وطوّقت المنن كالقلائد في الأعناق ، وقلدت الرياسة والأقلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهرت أنواعُ المحاسن ، ووَرِدَ معينُ البلاغة غيرُ المطروقِ[1] ولا الآسن ، وبرعت التواليف في الفنون المتعدّدة ، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكّدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتمه الإجمال ، فَلْنُفْصِح الآن بما قَصَد ، ولنحقق من أنجم السعادة ما رَصَد ، وذلك أن لمولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين ، أيده الله ونصره ، وسنّى له الفتح المُبين ويَسّره ، مآثِرَ لم يُسْبَق إليها ، ومكارم لم يجر أحد ممّن وسم بالكرم عليها ، لجلالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذي أثِرَ لها كالكتاب المذكور وسواه ، ممّا هو واحد في فنّه وفذ في معناه ، عقَدَ في جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة في اثني عشر سفراً متفقة الخط والعمل ، اكتتب هذا

---

[1] المطروق : الماء الذي بالت فيه الدواب .

على ظهر الأول منها ، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة ، عرف الله تعالى بركته بمنّه ؛ انتهى .

وكان لسان الدين ابن الخطيب – رحمه الله تعالى – أرسل في حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلّد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي – نفع الله تعالى به – عن موكّله مصنّفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السّلماني – فسّحَ الله تعالى في مدّته ، وفتح لنا وله أبواب رحمته ، ومنحنا وإيّاه من رِفْده وعطيته ، وأسكننا وإيّاه أعالي جنّته – جميعَ هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره ، وهو أنّه فوّض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلّها ، وشؤونه جميعها ، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضاً تامّاً على العموم والإطلاق ، والشمولِ والاستغراق ، لم يستثن شيئاً ممّا تجوز النيابة فيه إلاّ أسنده إليه ، وهو ثابت على سيّدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر الإسكندرية المحروس – أدام الله تعالى أيامه – كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجّة عام سبعة وستين وسبعمائة ، وقفاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونَسْخاً ومطالعة ، وجعل مقرّه بالخانقاه الصالحية [1] سعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنّه صائر إلى ربّه الكريم ، أن يبطله ولا شيئاً منه ،

---

١ ق : الصلاحية .

ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنّما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومَنْ أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوطَ جماعة من العلماء ، فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقريزي المؤرخ ، ونصّه : انتقى منه داعياً لمؤلّفه أحمدُ ابن علي المقريزي في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

وما رقمه الحافظُ السيوطي ونصّه : الحمد لله وحده ، طالعته على طبقات النحاة واللغويين ، وكتبه عبدُ الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمائة ؛ انتهى

وبعد هذين ما صورته : انتقى منهُ داعياً لمؤلّفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبعده ما صورته : أنهاه نظراً وانتقاء علي الحموي الحنفي ، لطف الله به .

وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد البكري الصديقي ما نصّه : طالعته مبتهجاً برياضه المونقة ، وأزهار معانيه المشرقة ، مرتقياً في دَرَج كلماته العذاب سماء الاقتباس ، مقتنياً من لطائفه درراً وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس ، كتبه محمد الصديقي غفر الله له ؛ انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابةَ جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن دُقْماق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف أبي الحسن علي [ابن] الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ، والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني ، والنحوي الراعي ، والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسي شارح الألفية وصاحب التآليف ، وغير هؤلاء ممّن يطول

تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم .

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدّم إلى ما يتعلّق بكتاب « الإحاطة » في جملة كلام نصّه : وتلقينا ممّن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسباً ، البارع أدباً ، أبا عبد الله ابن جُزَي وفَد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جنابه ، وكمل من تقريبه واصطناعه آرابه ، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي ، وصاح بمن عذَله :

أيا وَيْحَ الشجيّ مِن الخلي

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شيء من الكلام إلاّ قال الإحسان وأنا معه ، استوعب ما شاء ، وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعراً أو إنشاء ، لكن سابقَ أجله منَعَ من الإمتاع بمجمله ومُفَصّله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدّنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرّة شوّال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكائنة خاص الدولة ورئيس الجملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ ابن جُزَي على شاطىء نهر فياض ، وانتشق من ورَقاته أزاهرَ رياض ، وحمله النظر في بدائعه على أن يأخذ في جَمْع كتابه المسمىّ بـ « الإحاطة فيما تيسّر من تاريخ غرناطة » ووجد لذلك موجباً أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجّة الشاعر المفلق أبا إسحاق ابن الحاج وَفَدَ على الأندلس بعد جَوْبه في الآفاق ، وترحله إلى ما وراء الشام والعراق ، وإعلامه أنّه يذهب في بدأة تاريخ مذهب ابن جُزَي وغيره ، وكان وحيداً في فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتّاب ، وبحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وجَدَ الحاجبَ الخطير أبا

النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى ، وبأن وقفه دون طُموحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فأنتج الانتباذ من تلك الرياسة الخطيبية أن ألفى الخطبة على جلالة مقدارها ، وتوضُّح أنوارها ، في مرتقى إجلالها وإكبارها ، وأخذ في تأليف « الإحاطة » مستدعياً تصحيح الموالد والوفَيات ، والأسماء والمسميات ، ومستكثراً من طُرَف المصنّفات ، ليتم قصده من الإطناب ، ونقله العيونَ الرائقةَ من كلّ كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة معلم الجملة منا كتابَ الله وسنةَ رسوله صلى الله عليه وسلّم أبي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه ، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سنّ الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نَقْله ، وأحكم جنسه وفَصْله ، واختم على مجلدات ستة . ولما عاد ابنُ الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفُروع من كتاب « الإحاطة » بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوَعْدَ المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتمّمة من اثني عشر سفراً ؛ انتهى كلامه

وقد علمت أن المكتوب في الوقفيّة كما مر ثمانية مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والكاتب أبو عبد الله ابن جُزَي الذي أشار إليه قد عرّفنا به فيما سبق فليراجَع .

[ترجمة ابن الحاج النميري]

وأمّا العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري ، ويُعرف بابن الحاج الغرناطي ، قال

في الإحاطة[1] : نشأ على عفاف وطهارة ، وبر وصيانة ، وبلغ الغاية في جودة الخط ، وارتسم في كتّاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مع حسن سمت ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر[2] ، ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة ، مليح الدعابة ، طيب الفكاهة ، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طرفة ، وقفل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب ببجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بتربة الشيخ أبي مدين مؤثر الخمول ، ذاهباً مذهب العكوف بباب الله تعالى ، حجّة على أهل الحرص والتهافت ، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان ، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس ، وتلقّيَ ببرّ وتنويه وعناية ، وولي القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتهال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ في رحلته عن ناس شتّى ، وألف تواليف منها « إيقاظ الكرام بأخبار المنام » وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و « نزهة الحدق في ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحبة في جمع طرق المتصوفة » المدعي أنّه لم يجمع مثله ، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالمشرق ، وجزء في الأحكام الشرعية سمّاه بـ « الفصول المقتضبة في الأحكام المنتخبة » ورجز في الجدَل ، ورجز صغير في الحجب والسلاح ، ورجز صغير سمّاه بـ « مثالث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين » ، مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وامتُحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثمّ فكّه الله تعالى ؛ انتهى ملخصاً .

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب « التحفة » وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطّه ،

---

١ الإحاطة ١ : ١٩٣ والمقري ينقل ملخصاً .
٢ الإحاطة : وهو في أثناء هذه الحال يقيد ولا يفتر .

وقد أتى فيه بالعجب العُجاب ، وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق ، لأنّه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي ، وناهيك بالثلاثة ، وغيرهم ممّن يطول تعداده ، وله النظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحافظ جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي ، وقد أبصره على أسِرَّة دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمالُ الدينِ للإقراء يعلو ... أسرَّته إذا اصطفَّ الرجالُ
فمذ جُليَتْ محاسنُه بدا لي ... مُحَيّا في أسرَّته الجمالُ

ضمن قول المعرّي[1] :

أهَلَّ فبشَّرَ الأهلين مِنْهُ ... محيّا في أسرَّته الجمالُ

وقوله في الحافظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي :

نوى النّوَى علمُ الدين الرضى فأنا ... من بعدِ فرقته بالشام ذو ألم
فلا تَلُمني على حبي دمشقَ فقد ... أصبحتُ فيها زماناً صاحبَ العَلَم

وقال فيه أيضاً :

نوى النوى علمُ الدين الرضى فذكتْ ... نارُ اشتياقيَ حتى استعظموا ألمي
فقلت : إنّيَ من قومٍ شعارُهُمُ ... جودٌ ، فلا تنكروا ناري على العَلَمِ

وقال في الحافظ شمس الدين الذهبي :

رَحَلْتُ نحو دمشقِ الشامِ مبتغياً ... روايةً عن ذوي الأحلامِ والأدبِ
ففزتُ في كتب الآثار حين غدتْ ... تُرْوَى بسلسلةٍ عظمى من الذهب (ي)

---

١ شروح السقط : ١٧١٧ .

وقال في الحافظ المزي أيضاً :

جَمالُ الدين أضحى في دمشقٍ   إماماً نحوه طالَ الذميلُ
فلَمْ أعدم بمنزلـه جَميـلاً   فحيثُ هُوَ الجمالُ هُوَ الجميلُ

وقال حين يُدُوره على الأمير الصالح المحدّث الجليل قطب الدين أبي إسحاق إبراهيم ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ابن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد الله النوري صاحب الموصل ليروي عنه :

إلى قصْد قُطْبِ الدين وافيتُ عِنْدَما   أقمتُ على الترحال في الشرقِ والغربِ
وأصبحتُ كالأفلاك في السير والسُّرى   فها أنا في مصرٍ أدورُ على القطبِ

وقال في قاضي القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندي ، وهو ممّن أخذ عنه بثغر الإسكندرية :

ولمّا اختبرتُ ذوات الورى   تعجّبْتُ من حسن ذات العمادْ
فتلكَ التي لَمْ أكنْ مبصرا   مَدَى عُمُري مثلَها في البلادْ

وقال في القاضي وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجي :

أضحى وجيهُ الدين أسبقَ سابقٍ   في العلم والعلياء والخلق النبيهْ
عجب الورى من سبقه وتعجبوا   فأجبتهم لا تنكروا سبق الوجيهْ

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

قد قارب العشرينَ ظبي لَمْ يكنْ   ليَرَى الورى عن حبّه سُلوانا
وبَدا الربيعُ بخـدِّه فكأنّما   وافى الربيعُ ينادم النُّعمانا

وقوله :

وعارضٍ في خـدِّهِ نباتهُ   بحسنه بينَ الورى يَسْحَرُنا
أجرى دموعي إذ جرى شوقاً لَهُ   فقلت ﴿ هذا عارضٌ ممطرنا ﴾

وقال وقد توفّي أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص عمر بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوَى الملكَ غاصباً   وإخوتُه أولى وقد جاء بالنُّكْرِ
فقُلْتُ لهم كفُّوا فما رَضِيَ الورى   سوى عمرٍ مِنْ بَعْدِ موتِ أبي بكرِ

وقال :

أتوني فَعابوا من أُحِبُّ جمالَهُ   وذاك على سمع المحبِّ خفيفُ
فَما فيهِ عيبٌ غيرَ أنَّ جفونهُ   مِراضٌ، وأنَّ الخصر منه ضعيفُ

وقال[1] :

أيا عجباً كيفَ تهوى المُلوكُ   محلّي ومَوْطِنَ أهْلي وناسي
وتحسُدُني وهي مخدومةٌ   وما أنا إلاّ خديمٌ بفاسِ

وقال :

ليَ المدحُ يروى منذ كنتُ كأنّما   تصوّرتُ مدحاً للورى وثَناء
وما لي هجاءٌ فاعجبنَّ لشاعرٍ   وكاتبِ سرٍّ لا يقيمُ هجاء

وقال في حقّه القاضي أبو البقاء خالد البلوي[2] : نقلت من خط سيدي ورفيقي وصديقي إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبي إسحاق ابن إبراهيم بن عبد الله بن الحاج وأكثره ممّا كان أنشدنيه قديماً من نظمه في التورية قوله :

ومَهاةٍ تقولُ إن هيَ كلّتْ   ودعا للمزاح خِلٌّ ممازج

---

١ انظر أيضاً تاج المفرق ، الورقة : ٢٢١ .

٢ عندما عاد البلوي من رحلته ووصل قسنطينة (سنة ٧٤٠) نزل عند صديقه ابن الحاج (تاج المفرق ، الورقة : ٢٠٩) .

وازِرِ الرِّدفَ إنَّ في الأُزْرِ مني رَمْـلَ يَبْرِين يا طبيبُ وعالج

وقوله :

وزوض ممحِل جَدْب المراعي سريع ِ القيظ وَقْداً والتهــابا
حكى ابن أبي ربيعة لا شُجُوناً ولـكن كونه يهــوى الربابا

وقوله :

وظبي طرَّ عارضُه وأعفى عذاراً بعدُ يزهو باخضرار
رأى سقماً بمقلتــه فوافى بآس ٍ عاد لكن من عِذار

وقوله :

أتوني بنمام ٍ من الروض ِ يانع ٍ سقتْه الغوادي كل أسْحَم مدْرار ِ
فلا غرو إن أصليته نار زَفْرتي وحكم على النمام الالقاء في النار ِ

وقوله :

هذه الشمسُ بالحجاب ِ توارتْ بَعْدَ نورٍ لها ورحب ٍ وبشر ِ
وأتى اللّيلُ بالنسيم عَليـلاً فهو يمشي من أفقه لابن زُهر ِ

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي ، فإنّه كان وحيد دهره في الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية .

وقال أبو إسحاق النميري المذكور :

أيا ضوء الصباح ِ ارْفُقْ بصَبّ ٍ تسيلُ دموعه في الخــدِّ سَيْلا
وكنتُ بليْلَة ٍ ليلاء طالت فها أنا في الورى مجنون ليلا[1]

---

1) كتبناها هكذا لتناسب التورية في « ليلاء » .

وقال يخاطب شيخَه سيف الدين :

لمولايَ سيف الدين في الفقه بيننا ... مقامُ اجتهادٍ ليسَ يلحقُهُ الحيفُ
فتقليده فرضٌ على أهلِ عصرنا ... ولا عَجَبٌ عندي إذا قُلِّد السيفُ

وقال :

رعَى اللهُ معطــارَ النّسيم فإنّه ... رأى من غصونِ البان ما شاء من عطفِ
وأبدى حديثَ الغيثِ وَهْوَ مُسَلْسَلٌ ... لذاكَ لعمري ليسَ يخلو من الضعفِ

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون « الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ، ولو في التزام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحاً » كما قرر في محله .

وقال رحمه الله تعالى :

نظرتُ إلى روضِ الجمالِ بوجهه ... وسَقّيته دمعاً بـه العينُ تكلفُ
فصحَّ حديثُ الحسنِ عن ورد خدّها ... وإن كانَ أضحى وهو راوٍ مضعفُ

وقال رحمه الله تعالى :

بَدا عارضُ المحبوبِ فاحمرَّ خجلةً ... وأهدى لنا ورداً بهِ الحسنُ ناهضُ
فقلتُ لهُ لا تنكرِ الوردَ ناضراً ... فقد سال في خَدَّيك من قبلُ عارضُ

وقال :

النومُ عن إنسانِ عيني نافرٌ ... كالوحشِ ليس يقاربُ الإنسانا
والدمعُ منها فاض طوفاناً فـلا ... عجبٌ إذا ما غرّق الأجفانا

وقال رحمه الله تعالى :

بكَتْ شجناً ففاض الدمع يحكي يتامى الدرّ إذ يَهْوِي تُؤاما
وسَلَّتْ من محاجرها سيوفاً فخفتُ على المحاجرِ واليتامى

وقال القاضي خالد البلوي رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبي إسحاق ابن الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحبَ ديوان الإنشاء الإمامَ جمالَ الدين إبراهيم ابن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه :

إلى ابنِ شهابِ الدين طالَ تغرّبي فلمّا سَرَتْ عِيسي لَهُ وركابي
رويتُ حديث الفضل عنهُ فصحّ لي كما شئت مروياً عن ابنِ شهابِ

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أشبهتَ والدكَ الرضى في فضلِهِ وأخذتَهُ عنهُ بخيرِ منابِ
وملكتني فحديثُ فضلكَ في الورى عَنْ مالكٍ يروى عن ابنِ شهابِ

وقال رحمه الله تعالى :

لعمركَ ما ثغره باسمٌ ولكنّهُ حَبَبٌ لاعبُ
ولو لم يكن ريقُهُ مسكراً لما دار من حوله الشاربُ

وقال رحمه الله تعالى ملغزاً في القلم :

سألتكَ ما واشٍ يراد حديثُهُ ويهوى الغريبُ النازحُ الدارِ إفصاحَهْ
تَراهُ مَدى الأيّام أصفرَ ناحلاً كمثل عَليلٍ وهوَ قَدْ لازم الراحَهْ

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعضِ الثغور وشرب منها :

تعجبتُ من ثغرِ هذي البلادِ ومَولايَ مِنْ عينها شاربُ
فللّهِ ثغرٌ أرى شارباً وعينٌ بَدا فوقَها حاجبُ

وقال :

وحمراء في الكأسِ مشمولةٍ تَحثّ على العودِ في كلّ بيتْ
فلا غرو أن جاءني سابقاً إلى الأنس خِلٌ يحثّ الكميتْ

وقال :

بروضتنا الظّمْياء طالَ اكتئابنا فللّهِ غيثٌ مَيْتَ آمالنا أحيْا
وأشبهَ مهياراً فهـا تلك عينه تفيضُ إذا شام البروقَ على ظميا

وقال :

اثنان عزّا فلم يظفر بنيلهما وأعوزا مَن هما في الدهر مَطْلبُهُ
أخٌ مودته في الله صادقـةٌ ودرهمٌ من حلالٍ طابَ مكسبُهُ

وقال مورياً بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أن أصح الأسانيد مالك عن نافع :

عن نافعٍ أسْنِدْ حديثَ أحبتي يا مالكاً رِقّي بحسنِ صنائعِ
فأجَلُّ إسنادٍ وخيرُ روايةٍ عندي روايةُ مالكٍ عن نافعِ

وقال :

إنّي لأعجبُ من فعالك في الهوى لمّا حللتَ بحسن ذاتك ذاتي
ونفيتَ نومي ثم أثبتَّ الأسى فجمعتَ بينَ النفي والإثبات

وقال :

ألا مُعصمٌ للصبّ من وَشْي مِعْصَمٍ أطَلْتُ إليـه نظرةَ المتوسّمِ
فأبقتْ به عيني حُلًى من سوادها وبعضَ سوادٍ وَسْطَ قلبي المتيَّمِ

وليس خضاباً ما علاه ، وإنّما جرى فيه بعد الدمع ما عزّ من دمي
ولم يعدُ منّي اللونَ لونُ سواده خلا أنّني أشقى وقيلَ له : انعمِ

وقال وقد جاء الشاعر المفلق أبو العباس أحمد بن عبد المنّان بيت الكتاب وفي عينه خضرة :

أبا أحمدُ المرتَضَى للعُـلا ومَنْ حاز في صنعه كلّ زينِ
تراءيتَ في العلم روضاً نضيراً فلا تنكرنْ خضرةً حولَ عينِ

ولـه فيه :

لك الخيرُ عُدْمُ السبك أبدل ناظري زمردةً مخضرةً من لجينـــهِ
فلا تنكروا ما راع من ذاك إنني لصائغُ تبرِ القولِ ناقدُ شينهِ
ولا عجبٌ إن أعوز السبكُ صائغاً فأوجبَ عدمُ السبك خضرةَ عينهِ

وقال فيمن يُعرف بالصهّال :

ألا ربَّ فرسانٍ توافوا فأدركوا مع الليل أوتاراً لهم دون إمهالِ
وأجْروا بصهّالٍ كميتاً كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهّالِ

ولما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد الله العزفي مداعباً :

يا عصبةً كلُّ فتى منهم علَمْ فرغتمُ من كتبكمْ رُدُّوا القلمْ

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أعرتم لفتيةٍ تكرّمكم بالصفح عن فعلهم قاضي
ولا تطمعوا في الردّ فالناس كلّهم رأوا أنّ مولانا له القلمُ الماضي

وقال الوادي آشي : نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارع الحاج

القاضي الناظم الناثر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج النميري ما نصّه : كتب إليّ الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان متمثلاً بقول المأمون :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عناني

فكتبت إليه في التورية :

هَنيئاً لك البُشرى بهنّ فدم كما ... تريدُ بنعمى للسعادة جامعَهْ
وإن كنتَ من أهل الصلاحِ فلا تكن ... بمائلِ قلبٍ منك عن حبٍّ رابعَهْ

فأجابني بقوله :

يا سيدي ذكّرتني بالرابعه ... لعلّها لكلّ خيرٍ جامعه
إنّي أخافُ أن تكونَ باقعه ... فتفركَ المغازلَ المطاوعَه

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لمن الخيامُ سَطَتْ ببيضِ صفاحِ ... وارتْ سواداً غال كلَّ صباحِ
إن مُزّقَتْ رُقعتْ بنقعِ كتائبٍ ... أو قُوِّضَتْ عُمدتْ بسُمرِ رماحِ

وله في رثاء الطبيب ابن عمار ، واقترح عليه ذلك ابن جُزَيّ :

ألا أسعدا عَيني على السهدِ والبكا ... فقد واصلَ السهد المبرِّحُ تذكاري
وأبدى الردى فتكَ ابن عبادَ آذ سطا ... فلا غرو أن أبكي لفقدِ ابن عمّارِ

وقال ممّا يُكتب في الترس :

أنا الترسُ قد أنشأتُ بالأمر عُدّةً ... ليوم جهادِ مُطلعٍ غُرّةَ النصرِ

فلاقوا بيَ الأعداء في زَحْفهم ولا تبالوا بقرع الزرقِ والبيضِ والسمرِ
ولا تنكروا ستري لمقتلِ حاملي ففي اسمي كما شاهدتمُ أحرفُ السترِ

وله يهني السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المَريني بالإبلال من المرض :

مَطالبُ إلا أنهنَّ مواهبُ قضى الله أن تقضى ، فنعم المطالبُ
شفاءُ أميرِ المؤمنين وإنّه لأكرمُ من تُحْدى إليه الركائبُ
وكم قلتُ غاب البدرُ والشمسُ ضلةً ورَانَتْ على قلبي الهمومُ النواصبُ
ولم يَغبِا لكن شكا الضرَّ فارسٌ وأوحش منهُ مجلسَ الملك غائبُ
لك الله يا خيرَ الملوك وخير مَنْ تحنُّ له حتى العتاقُ الشوازبُ
وقَلَّ لمن وافى بشيراً نفوسنا فما هي إلا بعضُ ما أنت واهبُ
أقول لجردِ الخيل قُبّاً بطونُها معقدةً منها لحرب سباسبُ
طوالعَ من تحتِ العجاج كأنّها نَعامٌ بكُثْبان الصّريمِ خواضبُ
مُحَجّلة غُرّاً كأنَّ رِعالها بحارٌ جرَتْ فيها الصَّبا والجنائبُ
من الأعوَجيّات الصّوافن ترتمي إذا رجفتْ يومَ القراع مقانبُ
هنيئاً فقد صحَّ الإمام الذي به تُفَلُّ السيوفُ المرهفاتُ القواضبُ
ومستأصلُ الفلِّ المُغِذِّ جيادَهُ لضربٍ كما ترغو الفحولُ الضواربُ
ومن حطّم السُّمْرِ الطوال كعوبَها بطعنٍ كما امتاح الركيّةَ شاربُ
وكرَّ على أرضِ العدا بفوارسٍ كأنّهمُ في الحربِ أُسْدٌ غوالبُ
كأنَّ ظُباهُم في الهياج أكفُّهم تجودُ وأرواحُ العُداة مواهبُ
كأنَّ رماحَ الخطِّ أحسابهم ، وما حوتْ من نفوسِ المعتدين مناقبُ
همُ ما همُ ، حدّثْ عن البحر أو بني مَرينٍ فنَهْجُ القول أبلجُ لاحبُ
من البيتِ شادت قيسُ عيلانَ فخره فطالَتْ معاليه وطابَتْ مناسبُ
وأحيا لهُ مُلْكُ الخليفةِ فارسٍ مآثرَ غالتها اللّيالي النواهبُ

كريمٌ فلا الحادي النجائبَ مخفقٌ ... لديه ، ولا المنضي الركائبَ خائبُ
أري بذله النعمى ففضَّتْ مكاسبٌ ... أري بأسه الأنضى ففضَّتْ كتائبُ
أنامله يُروي الورى صَوْبُ جَوْدِها ... فلولا دوام الرأي قلتَ السحائبُ
وكم خلتُ برقاً في الدجى نورَ بشره ... تَشيمُ سناهُ الناجياتُ النّجائبُ
فأخجلني أنّي أرى البرقَ خُلّباً ... فلاالصوبُهام لا ولا الجودُ ساكبُ
أعرني أميرَ المؤمنين بلاغــةً ... فإنّيَ عن عجزٍ لمدحك هائبُ
وأنطقْ لساني بالبيــان معلّماً ... فإنّيَ في التعليم للجود راغبُ
وكيف ترى لي بعدُ في الجودِ رغبةً ... وجودك لي فوق الذي أنا طالبُ
وقد شيّبَتِ الآمال إذ شبتُ ثم إذ ... تفقدتّها لم يدرِ ما شبَّ شائبُ
بلغتُ بكِ الآمالَ حتى كأنّها ... وقد صدقَتْ ما شئت صدقاً كواذبُ
عجبتَ وما تولي ، وأوليتَ مُعْجباً ... فلا بَرِحَتْ تنمو لديك العجائبُ
وحسبي دعاءٌ لو سكتُّ كُفيتُهُ ... كما قيل لكن في الدعاء مذاهبُ
وما أنا إلاّ عبدكَ المخلصُ الذي ... يراقبُ في إخلاصه ما يراقبُ
فخذها تبثُّ العذرَ لا المدحَ ؛ إنّه ... هو البحر قُلْ هل يجمع البحرَ حاسبُ
بقيتَ بقاء الدهرِ ملكُكَ قاهرٌ ... وسيبك فيّاضٌ ، وسيفُكَ غالبُ
وعوفيتَ من ضرّ وأُعطيتَ أجره ... ولا روَّعَتْ إلا عِداكَ النوائبُ

وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاثٌ جاء جبريلُ سائلاً ... لخير الورى عنها لآثَرْتُ فقداني
مقاماتُ إســلام أزيدُ بفعلــهِ ... ثواباً وإيمانٌ أُديمَ وإحساني

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني السلطانُ أميرُ المؤمنين أبو عنان فارس ابن أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمهما الله تعالى لنفسه :

يا ملمّاً بأرضِ تلكَ البلادِ حَيِّ فاساً وحَيِّ أهلَ الودادِ
إن تناءتْ بشخصها عن عياني فَحِماها مُصَوَّرٌ في فؤادي

[قصائد في مدح تلمسان وفاس]

قلت : تذكرت بهذا البحر والروي والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين أبي حَمّو موسى بن يوسف الزياني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أيّها الحافظون عهدَ الودادِ جدّدوا أُنسنا بباب الجيادِ
وصِلُوها أصائـلاً بليالٍ كلآلٍ نُظِمْنَ في الأجيادِ
في رياضٍ مُنَضَّدات المجاني بينَ تلكَ الرُّبى وتلك الوهادِ
وبروجٍ مُشَيَّدات المباني باديات السنا كَشُهْبٍ بَوادِ
رقَّ فيها النسيبُ مثلَ نَسيبي وصفا النهرُ مثلَ صفو ودادي
وزها الزهرُ والغصونُ تَثنَّتْ وتغنّتْ عَلَيْهِ وُرْقٌ شَوادِ
وانبرى كلُّ جدولٍ كحسامٍ عاريَ الغمدِ سندسيَّ النّجاد
وظلالُ الغصون تكتبُ فيه أحرفاً سُطّرت بغـير مداد
تُذْكر الوشمَ في معاصمِ خَوْدٍ نصبت فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المُنى تُدارُ علينا بجنى عفَّـةٍ ونَقْلِ اعتقاد
واصفرارُ الأصيل فيها مُدامٌ وصفيرُ الطيورِ نغمةُ شاد
كم غَدَوْنا بها لأنسٍ ورحنا جادها رائحٌ من المزن غاد
ولكَم روحةٍ على النوح كادتْ أن تريح الصّبا لنا وَهْوَ غاد
رقَّتِ الشمسُ في عشاياه حتى أحدثتْ منهُ رقةً في الجماد
جَدَّدَتْ بالغروبِ شجوَ غريبٍ هاجه الشوقُ بعد طولِ البعاد

يا حيّا المزنِ حيّها من بلادِ غرسَ الحبُّ غرسَها في فؤادي
وتعاهدْ معاهدَ الأنسِ منها وعهودَ الصبا بصوْبِ العِهاد
حيثُ مغنى الهوى، وملهى الغواني ومرَاد المُنى ، ونيل المراد
ومقرّ العُلا ، ومرقى الأماني ومجرُّ القنا ، ومُجرى الجياد
كلُّ حسنٍ على تلمسانَ وَقْفٌ وخُصوصاً على ربى العبّاد
ضحكَ النّورُ في رُباها وأربى كهفُ ضَحّاكها على كلّ ناد
وسَما تاجُها على كلّ تاجٍ ونما وَهْدُها على كلّ واد
يدّعي غيرها الجمالَ فيقضي حسنُها أنّ تلك دعوى زياد
وبشعري فهمتُ معنى عُلاها من حلاها فهمتُ في كلّ وادي
حَضْرةٌ زانها الخليفةُ موسى زينةَ الحلي عاطلَ الأجياد
وحَباها بكلّ بذلٍ وعدل وحماها من كلّ باغ وعاد
ملكٌ جاوز المَدى في المعالي فالنهاياتُ عنده كالمبادي
مَعْقِلٌ للهدى منيعُ النواحي مَظْهرٌ للعُلا رفيع العماد
قاتلُ المحلِ والأعادي جميعاً بغرار الظُّبى وَغُرِّ الأيادي
كلّما ضنّت السحائبُ أغنَتْ راحتاهُ عن السحابِ الغوادي
كم هباتٍ لَهُ وكم صدقاتٍ عائداتٍ على العُفاة بَواد
فأيادي خليفةِ الله موسى أبحرٌ عَذْبَة على الورّاد
ركّبَ الجود في بسيط يديهِ فتلافى بهِ تَلافَ العِباد
جلّ باريه ملجأً للبرايا كالحيا ضامناً حياة البلاد
جلّ مَنْ خصَّهُ بتلكَ المزايا باهراتٍ من طارفٍ وتلاد
شيَمٌ حلوةُ الجنى وسَجايا شهدَ المجدُ أنها كالشِّهاد
يا إمام الهدى[1] وشمسَ المَعالي وغمامَ الندى وبدرَ النادي

١ ق : العلا .

لكَ بَيْنَ المُـلوك سرٌّ خفيٌّ ليس مَعْناه للعقول بباد
فكأنَّ البلادَ كَفُّكَ مهما كان فيها من ينتمي لعناد
قبضتْ كفُّكَ البنانَ عَلَيْهِ فأتى بالاذعانِ حِلْفَ انقياد
بكمُ تصلحُ البـلادُ جميعاً إنَّ آراءكم صـلاحُ البـلاد
لَمْ تزلْ دائماً نحنُّ إليكم كحنـينِ السقيم للعُــوّاد
لو أعينَتْ بمنطقٍ شكرتكم مثلَ شكرِ العفاةِ للأجواد
قد أطاعتكم البـلادُ جميعاً طاعةَ أرغمت أنوفَ الأعادي
فأريحوا الجيــادَ أتعبْتُموها وأقِرُّوا السيوفَ في الأغماد
واهنأوا خالدين في عزّ ملك قائمِ السـعدِ دائمِ الإسعاد
وإليكم من مُذْهباتِ القوافي حِكَماً سَهّلت لِسـانَ المقاد
كلّ بيتٍ من النظامِ مشيدٍ عطّر الأفق بالثّناء المجـاد[1]
ذو ابتسام كزهر روض مجودٍ وانتظــام كسلك درّ مجـاد

ولأبي المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب « المقدمة الآجرومية » قصيدة في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع ، فلا ندري أيهما نسج على منوال الآخر : إذ هما متعاصران ، إلا أن ذاك قالها في تلمسان ، وهذا في مدينة فاس ؛ وهي :

أيها العارفون قَدْرَ الصَّبوحِ جَدّدوا أنسنا بباب الفتوحِ

يعني بباب الفتوح أحَدَ أبواب فاس ، كما أن باب الجياد في كلام الثغري أحد أبواب تلمسان .

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع :

---

١ ق : المشاد .

جدّدوا ثمّ أنسنا ثُمّ جدوا ... يَسْرح الطرفُ في مجالٍ فسيح
حيثُ شابَتْ مفارقُ اللوز نوْراً ... وتساقطن كاللُّجين الصريح
وبدا منهُ كلّ ما احمرّ يحكي ... شفقاً مزقتْهُ أيدي الريح
وكأنّ الذي تساقطَ منهُ ... نُقَطٌ لُحنَ من دمٍ مسفوح
وإذا ما وصلتمُ للمصلّى ... فتحلوا بموضع التسبيح
وبطيْفُورها فَطُوفوا لكيما ... تبصروا من ذَرَاه كلّ سطوح
ولتقيموا هناكَ لمحةَ طرف ... لتردّوا به ذَماءَ الروح
ثمّ حطوا رحالكم فوقَ نهرٍ ... كلّ في وصفه لسانُ المديح
فوقَ حافاته حدائقُ خضرٌ ... ليس عنها لعاشقٍ من نزوح
وكأن الطيورَ فيها قيانٌ ... هتفتْ بينَ أعجم وفصيح
وهي تدعوكمُ إلى قبة الجوْ ... زِ هلُمُّوا إلى مكان مليح
فيه ما تَشْتهون من كلّ نَوْرٍ ... مغلقٍ في الكمام أو مفتوح
وغصونٍ تهيجُ رقصاً إذا ما ... سمعت صوتَ كلّ طيرٍ صدُوح
فأجيبوا دعاءها أيّها السر ... بُ وخلّوا مقالَ كل نصيح
واجنحوا للمجون فهو جديرٌ ... وخليقٌ من مثلكم بالجنوح
وإخلعوا ثمّ للتصابي عِذاراً ... إنّ خلعَ العذارِ غيرُ قبيح
وإذا شئتمُ مكاناً سواه ... هو أجلى من ذلكم في الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو خليجٍ ... جاء كالصلّ من قفار فسيح
عطرت جانبيه كفّ الغوادي ... بشذا عَرْفِ زهرها الممنوح
قل لمهيارَ إن شممت شذاها ... قول مستخبرٍ أخي تجريح
أين هذا الشذا الذكيّ من القيـ ... صوم والرندِ والغضا والشّيح
حبّذا ذلك المهادُ مهاداً ... بين دانٍ من الربى ونزُوح
ثمّ من ذلك المهاد أفيضوا ... نحو هَضْبٍ من الهموم مريح

فيـــهِ للحسنِ دَوْحةٌ وروايا   وانشراحٌ لذي فؤادٍ قريح
وحجارٌ تدعى حجارَ طبولٍ   غيرَ أنَّ التطبيل غيرُ صحيح
تنثرُ الشمس ثَمَّ كلَّ غدوٍّ   زعفرانـاً مبلّـلاً بنضوح
وسوى مَنْ هناك يسبي عقولاً   ويجلّي لحاظَ طرفٍ طموح
وعيونٌ بها تقرّ عيـونٌ   وكلاها يأسو كلومَ الجريح
فرشت فوقها طنافسُ زهرٍ   ليس كالعهنِ نسجُها والمسوح
كلّما مرَّ فوقهنَّ طليحٌ   عاد من حسنهنَّ غيرَ طليح
فانهضوا أيّها المجنّون مثلي   لنرى ذاتَ حُسنها الملموح
هكـذا يربحُ الزمـان وإلا   كلّ عيش سواه غيرُ ربيح

وما أحسن قول الكاتب الثغري يمدح تلمسان والسلطان المذكور آنفاً :

تاهتْ تلمسانٌ بحسنِ شبابها   وبدا طرازُ الحسنِ في جلبابها
فالبِشر يبدو من حبابِ ثغورها   متبسّماً أو من ثغورِ حبابها
قد قابلتْ زُهرَ النجوم بزَهرها   وبروجَها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبي   حمو الذي يحمي حمى أربابها
ملكٌ شمائله كزهر رياضها   ونَداه فاضَ بها كفيضِ عُبابها
أعلى الملوك الصيّدِ من أعلامها   وأجلّها من صفوها ولُبابها
غارتْ بغرة وجهه شمسُ الضحى   وتنقبت خجلاً بثوبِ ضبابها
والبدرُ حينَ بدتْ أشعتها له   حسناً تضاءلَ نوره وخبا بها
للهِ حضرته التي قد شرّفتْ   خُدّامها فسَمَوْا بخدمة بابها
فاللثم في يُمْناه يُبلغها المُنى   والمدحُ في علياه من أسبابها

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو ،

ووصف بلاد تلمسان ، وأجاد فيها إلى الغاية ؛ وهي [1] :

قم مبصراً [2] زمنَ الربيع المقبلِ ... تَرَ ما يسرُّ المُجتني والمُجتلي
وانشقْ نسيمَ الروضِ مطلولاً وما ... أهداك من عَرْفٍ وعُرفٍ فاقبل
وانظرْ إلى زهرِ الرياضِ كأنّه ... درٌّ [3] على لبّات ربّاتِ الحلي
في دولةٍ فاضتْ يداها بالندى ... وقضتْ بكل مُنًى لكلّ مؤمل
بسطتْ بأرجاء البسيطةِ عدلها ... وسطتْ بكلّ معاندٍ لم يعـدل
سلطانها المولى أبو حمو الرضى ... ذو المنصبِ السامي الرفيع المعتلي
تاهتْ تلمسانٌ بدولتـهِ على ... كلّ البلاد بحسنِ منظرها الجلي
راقتْ محاسنها ورقَّ نسيمها ... فحلا بها شعري وطاب تغزُّلي
عرّج بمنعرجات بابِ جيادها ... وافتحْ بها بابَ الرجاء المُقْفَل
ولتغدُ للعبّاد منهـــا غـدوةً ... تصبحْ همومُ النفسِ عنك بمعزل
وضريحُ تاجِ العارفين شُعَيْبها ... زُرْهُ هناكَ فحبّذا ذاكَ الولي
فمزاره للدين والدُّنيا معـــاً ... تُمْحى ذنوبك أو كروبك تنجلي
وبكهفها الضحَّاك قفْ متنزهاً ... تسرحْ نفوسك [4] في الجمال الأجمل
وتمشَّ في جنباتها ورياضِهـــا ... واجنحْ إلى ذاكَ الجنابِ المخضل
تسليك في دَوْحاتها وتِلاعها ... نَغَمُ البلابلِ واطِّرادُ الجـدول
وبربوة العشاقِ سلوةُ عاشقٍ ... فتنت وألحاظ الغزال الأكحل
بنواسمٍ وبواسم من زهرها ... تُهديك أنفاساً كعَرْفِ المندل
فلو امرؤ القَيْس بن حجر راءها ... قدماً تسلّى عن معاهدِ مأسل

---

١ القصيدة في بغية الرواد ١ : ١٣ .
٢ البغية : نجتل .
٣ البغية : درر .
٤ البغية : جفونك .

أو حامَ حولَ فِنائها وظبائها ... ما كانَ محتفلاً بجومة حومل
فاذكر لها كلفي بسقطِ لوائها ... فهواي عنها الدهرَ ليس بمُنْسَل
كم جاد لي فيها الزمانُ بمطلب ... جادته أخلافُ الغمام المُسبل
واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً ... وبه تسلٍ وعنهُ دأباً فاسأل
وادٍ تراه من الأزاهر خالياً ... أحْسِنْ به عُطُلاً وغيرَ معطل
ينسابُ كالأيم انسياباً دائماً ... أو كالحسام جلاه كفُّ الصَّيْقل
فزلاله في كلِّ قلبٍ قد حَلا ... وجماله في كلِّ عين قد جُلي
واقصِدْ بيوم ثالث فوّارةً ... وبعذب منهلها المباركِ فانْهل
تجري على درّ لجيناً سائلاً ... أحلى وأعذبَ من رحيق سلسل
واشرف على الشَّرَفِ الذي بإزائها ... لترى تلمسانَ العليةَ من عَل
تاجٌ عليهِ من المحاسنِ بهجةٌ ... أحْسِنْ بتاج بالبهاء مكلَّل
وإذا العشيةُ شمسها مالَتْ فملْ ... نحو المصلّى ميلةَ المتمهل
وبملعب الخيلِ الفسيح مجالُهُ ... أجِلِ النواظرَ في العتاق الحفَّل
فلحلبة الأشرافِ كلَّ عشية ... لعبٌ بذاك الملعبِ المتسهل
فترى المجلّي والمصلّي خلفه ... وكلاهُما في جريه لا يأتلي
هـذا يكرّ وذا يفرّ فينثني ... عطفاً على الثاني عنانَ الأول
من كل طِرْف كلَّ طَرْف يستبي ... قيدِ النواظرِ فتنةِ المتأمِّل
ورْدٌ كأن أديمَهُ شَفَقُ الدُّجى ... أو أشهبٌ كشهاب رجم مرسل
أو من كُمَيْتٍ لا نظيرَ لحسنه ... سامٍ معمٍ في السوابقِ مُخْول
أو أحمرٍ قاني الأديمِ كعسجد ... أو أشقرٍ يزْهو بعرفٍ أشعل
أو أدهم كالليلِ إلا غُرَّةً ... كالصبح ، بورك من أغر محجَّل
جمع المحاسنَ في بديع شِياته ... مهما ترقّ العينُ فيه تسهل
عقبانُ خيلٍ فوقها فرسانها ... كالأسْد تنقضُّ انقضاضَ الأجدل
فرسانُ عبد الوادِ آسادُ الوغى ... حامو الذمارِ أولو الفخارِ الأطول

فإذا دنت شمسُ الأصيلِ لغربها | فإلى تلمسانَ الأصيلةِ فادخل
من بابِ ملعبها لبابِ حديدها | متنزهاً في كلّ نادٍ أحفـل
وتأنَّ من بعدِ الدخولِ هنيهةً | واعدلْ إلى قصرِ الإمام الأعدل
فهو المؤمَّلُ والديارُ كنايةٌ | والسرُّ في السكان لا في المنزل
فإذا أمـيرُ المؤمنين رأيتـهُ | فالثمْ ثرى ذاك البساطِ وقبِّـل
فالمجدُ لفظٌ في الحقيقـةِ مجمَلٌ | وحُلاه تفصيلٌ لذلك المجمَل
بشرى لعبدِ الواد بالملك الذي | خلصوا به من كلّ خطب معضل
بأعزّهم جاراً ، وأمنعهم حمًى | وأجلّهم مولى ، وأعظم موئل
بالعادل المستنصرِ المنصورِ والـ | مأمونِ والمهـديّ والمتوكّل
وكفاهمُ سعداً أبو حمو الذي | يحمي حماهم بالحسامِ الفيصل
وبحسن نيّته لهم وبجـده | وبسعـده وبسعيه المتقبّـل
ذو الهمّة العليا التي آثارها | حلّتْ به فوقَ السماك الأعزل
بحر الندى الأحلى وفخر المنتدى | وسنا الدجى الأجلى وزينُ المحفل
ينهلُّ منهُ لنا الجدا وبهِ الدجى | تُجلى بمُشْرِقِ وجهِهِ المتهلّل
هنيء به زمنَ الربيع وقلْ له | بشرى بأملحَ منْ حُلاكَ وأجمل
وعلى علاه من صنيعةِ فضلهِ | تردادُ نافحةِ السلامِ الأكمل

وكأنّه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرها ورويها في مدح مدينة فاس لبعض العلماء ، وأظنّه القاضي المزدغي ، وهي :

يا فاسُ حيّا الله أرضك من ثرًى | وسقاك من صَوْب الغمام المُسْبِلِ
يا جنّةَ الدنيا التي أربَتْ على | حمصٍ بمنظرها البهيِّ الأجملِ
غرفٌ على غرفٍ ويجري تحتها | ماء ألذُّ من الرحيقِ السلسلِ
وبَساتنٌ من سندس قد زُخرفتْ | بجداولٍ كالأيم أو كالفيصلِ
وبجامع القَرَوِينَ شُرِّفَ ذكره | أُنس بذكراه يهيج تململي

وبصَحْنه زمنَ المصيف عجائبٌ فمع العشيِّ الغرب فيه استقبلِ
واشرب بتلك البيلةِ[1] الحسنا به واكرعْ بها عنّي فديتك وانْهلِ

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل[2] :

بَلد أعارته الحمامةُ طوقها وكساه ريش جناحه الطاوُوسُ
فكأنّما الأنهارُ فيــهِ مُدامةٌ وكأنّ ساحات الديارِ كؤوسُ

وما أحسن قوله — أعني لسان الدين — في مدح تلمسان[3] :

حيًّا تلِمسانَ الحيا فربوعُها صدفٌ يجودُ بدرِّه المكنونِ
ما شئتَ من فضلٍ عميمٍ إن سقى أرْوَى ومَنٍّ ليس بالممنون
أو شئتَ من دين إذا قدح الهدى أورى ودُنيا لم تكن بالدون
ورَدَ النسيمُ لها بنشرِ حديقةٍ قَدْ أزهرَتْ أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أمُّ يحيى أنجبَتْ فلها الشفوفُ على عيون العِين

يعني بحبيبة أم يحيى عَيْنَ ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت جارية بالقصور السلطانية ، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء لله تعالى وحده .

وممّن مدح تلمسان الحاجُّ الطيبُ أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلالسي رحمه الله تعالى ، إذ قال[4] :

سقى الله من صوب الحيا هاطلاً وَبْلا ربوعَ تلِمسانَ التي قَدْرُها استعلى

---

١ قد شرحنا البيلة ، هامش : ١ مجلد : ١ ص : ٢٠٦ .
٢ مر البيتان والقول في نسبتهما ، المجلد : ١ ص : ١٦٩ وانظر مشاهدات لسان الدين : ١١١ .
٣ أزهار الرياض ١ : ٧ .
٤ أورد له صاحب بغية الرواد عدداً من القصائد والموشحات في الجزء الثاني ؛ وهذه القصيدة في الجزء الأول ص : ١٧ .

ربوعٌ بها كانَ الشبابُ مُصاحبي ... جررتُ إلى اللذاتِ في دارها الذيلا
فكم نلتُ فيها من أمانٍ قصيةٍ ... وكم منَحَ الدهرُ الضنين[1] بها النيلا
وكم غازلتني الغيد فيها تلاعباً ... وكم من عذولٍ لا أطيعُ له قولا
وكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنا عَلى رغمِ حاسدٍ ... ندير كؤوسَ الوصلِ إذ بالصفا تُملا
وكمْ لَيْلَةٍ بِتْنا بصفصيفها الذي ... تسامى على الأنهار إذ عدم المثلا
وكديةُ عشاقٍ لها الحسنُ يَنْتَهي ... يعود المسنّ الشيخ من حسنها طفلا
نَعَمْ ، وغديرُ الجوزةِ السالبُ الحجى ... نعمتُ بها طفلاً وهمتُ بها كهلا
ومنه ومن عينِ آم يحيى شرابنا ... لأنهما في الطيب كالنيل بل أحلَى
وعبّادها ما القلبُ ناسٍ ذمامــه ... به روضةٌ للخير قَدْ جُعلَتْ حِلاً
به شيخُنا المذكور في الأرضِ ذكره ... أبو مدينٍ أهْلاً بهِ دائماً أهلا
لها بَهْجَةٌ تُزري على كلِّ بلدةٍ ... بتاجٍ عليها كالعروس إذا تُجلى
فيا جنّةَ الدنيا التي راق حُسْنُها ... فحازت على كلّ البلاد به الفضلا
ولا عجبٌ أن كنتِ في الحسن هكذا ... وموسى الإمام المرتضى فيكِ قد حلاّ
ولاحَتْ لدينا فيكِ منهُ محاسنٌ ... كأنّ سناها حاجبُ الشمس إذ جلّى
مطاعٌ شجاعٌ في الوغى ذو مهابةٍ ... حسامٌ على الباغين في الأرضِ قد سُلاّ
كريمٌ حليــمٌ حــاتميٌّ نوالــهُ ... سعيدٌ حَميدٌ يصدقُ القولَ والفعلا
لَهُ راحةٌ كالغيث ينهلُّ وَدْقُها ... وصارمُ نصرٍ مرهفُ الحد لا فُلاّ
هــوَ الملك الأرقى هــو الملكُ الرضى ... هو الملكُ الأسنى هو الملك الأعلى
ومَنْ هذه الأوصافُ فيه تجمّعَتْ ... حقيقاً على كلّ المَعالي قد استولى
إمامٌ حبّاه الله ملكاً مؤزّراً ... فلا ملكٌ إلاّ لعزّتــهِ ذلاّ
مِنَ الزابِ وافانا عزيزاً مظفّراً ... يجرُّ من النصرِ المَنوطِ به ذيلا

---

[1] البغية : المنيف .

بدت للملك الغربِ شدةُ بأسِهِ … وإنعامه للمعتفين وما أولى
فبادَرَهُ بالصلحِ خوف فواتِهِ … وسالمَهُ إذ كانَ ذاكَ به أولى
فكان بحمدِ الله صلحاً مُهَنّاً … به طابَتِ الدُّنيا وجزنا بهِ السُّبلا
لَهُ في المَعالي رتبةٌ لا ينالها … سواه وكُتْبٌ في فضائله تُتْلى
لطاعته كلُّ الأنامِ تبادرتْ … فيا سعدَ من وافى ويا ويحَ من وَلّى
أحُسّادَهُ موتوا فإنَّ قلوبَكُم … بجمر الغضا ممّا بها أبداً تصلى
لقدْ جبّرَ اللهُ البلادَ بمُلكِهِ … به مُلئتْ أمناً ، به مُلئتْ عَدْلا
فلا زالَ هذا الملكُ فيهِ مخلداً … وصارمه الأمضى وخادمهُ الأعلى

وممّا مُدحت به تلمسان قولُ الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس الذي قدمنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلّق به ، وذكرنا أيضاً فيما مرّ بعض أمداحه لها[1] :

تلمسانُ جادتكِ السحابُ الروائحُ[2] … وأرسَتْ بِوَاديكِ الرياحُ اللواقحُ
وسحَّ على ساحاتِ بابِ جيادها … مُلِثٌّ يصافي تربَها ويصافحُ
يطيرُ فؤادي كلّما لاحَ لامعٌ … وينهلُّ دمعي كلّما ناحَ صادحُ
ففي كل شفرٍ من جفونيَ مائحٌ … وفي كلّ شطرٍ من فؤاديَ قادحُ
فما الماء إلاّ ما تسحُّ مدامعي … ولا النارُ إلا ما تُجِنُّ الجوانحُ
خليليَّ لا طيفٌ لعلوةَ طارقٌ … بليلٍ ولا وجهٌ لصبحيَ لائحُ
نظرتُ فلا ضوءٌ من الصبح ظاهرٌ … لعيني ولا نجمٌ إلى الغربِ جانحُ
بحقكما كُفّا الملامَ وسامحا … فما الخلُّ كلُّ الخلِّ إلاّ المسامحُ
ولا تعذلاني واعذراني فقلّما … يردُّ عناني عن عُليّةَ ناصحُ

---

١ وردت القصيدة في بغية الرواد ١ : ١١ .
٢ البغية : الدوالح .

كتمتُ هواها ثم برَّحَ بي الأسى ... وكيفَ أطيقُ الكتمَ والدمعُ فاضحُ
لساقيةِ الروميّ عندي مزيّةٌ ... وإن رغمتْ تلك الرواسي الرواشحُ
فكَمْ لي عليها من غدوٍ وروحة ... تُساعدني فيها المُنى والمنائحُ
فطرفٌ على تلك البساتين سارحٌ ... وطرفٌ إلى تلك الميادين جامحُ
تَحارُ بها الأذهانُ وهي ثَواقبٌ ... وتهفو بها الأحلامُ وهي بوارحُ
ظباءُ مغانيها عوَاطِ عواطفٌ ... وطيرُ مجانيها شوادٍ صوادحُ
تقتّلهُم فيها عيونٌ نواظرٌ ... وتبكيهمُ منهمْ عيونٌ نواضحُ
على قريةِ العبّاد منّي تحيّةٌ ... كما فاحَ من مسك اللطيمة فائحُ
وجادَ ثرَى تاجِ المعارفِ ديمةٌ ... تَغَصُّ بها تلك الرُّبى والأباطحُ
إليك شعيب بن الحسين قلوبُنا ... نوازعُ لكنَّ الجسوم نوازحُ
سعيتَ فما قصَّرتَ عن نيل غاية[1] ... فسعيُكَ مشكورٌ وتجرُكَ رابحُ
نسيتُ وما أنسى الوريطَ ووقفةً ... أنافحُ فيها روضَهُ وأفاوحُ
مطلاًّ على ذاكَ الغديرِ وقد بدت ... لإنسانِ عيْني مِنْ صَفاهُ صفائحُ
أماؤكَ أم دِمعي عشيةَ صَدَّقت ... عليّةُ فينا ما يقولُ المُكاشحُ
لئن كنتَ ملآناً بدمعيَ طافحاً ... فإنّيَ سكرانٌ بحبّكَ طافحُ
وإن كان مُهري في تلاعكَ سائحاً ... فذاكَ غزالي في عُبابك سابحُ
فراح أتي ينصبُّ من رأس شاهق ... بمثلِ حلاه تستحثُّ القرائحُ
أرقَ من الشوقِ الذي أنا كاتمٌ ... وأصفى من الدمع الذي أنا سافحُ
أما وهوَى من لا أسمّيه إنّني ... لعرضي كما قال النصيحُ لناصحُ
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي ... يُقال فلانٌ ضيّقُ الصدر بائحُ
لبعتُ رشادي فيه بالغيّ ضلّةً ... وكم صالحٍ مثلي غدا وهو طالحُ
وأيُّ مقامٍ ليسَ لي فيه حاسدٌ ... وأيُّ مقالٍ ليْسَ لي فيه مادحُ

[1] البغية : رغبة .

ألا قُلْ لفرسانِ البَلاغةِ أسرجوا فقد جاءكم منّي المكافي المكافحُ
أيخمل ذكري عندهم وهو نابهٌ ويُغمَطُ شجوي عندهم وهو شائحُ
بدورٌ إذا جنّ الظّلامُ كواملٌ وأُسْدٌ إذا لاحَ الصباحُ كوالحُ
تركتكَ سوق البزّ لا عن تَهاون وكيف وظبيٌ سانحٌ فيك بارحُ ؟
وإنّي وقَلْبي في ولائكَ طامعٌ وناظرُ وَهْمي في سماطكَ طامحُ
أيا أهلَ ودّي والعشيرُ مؤمّنٌ أتقضى ديوني أم غريمِيَ فالحُ
وهل ذلك الظبيُ النصاحيُّ للذي يقطّع من قَلْبي بعينَيهِ ناصحُ
كنيتُ بها عَنْهُ حياءٌ وحشمةٌ ووجهُ اعتذاري في القضيّةِ واضحُ

[تعريف بتلمسان]

وتلمسان هذه هي مدينتنا التي عُلّقت بها التمائم ، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقّري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين ، الذي دعا لَهُ ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء ، حسبما قال ابن مرزوق :

يكفيك منها ماؤها وهواؤها

وقال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمّو الشامخة الأطواد » بعد كلام في شأن البربر ، ما صورته[1] : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ، كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي ، رحمه الله تعالى ، وكان

---

١ بغية الرواد ١ : ٩ / ١٩ .

حافظاً بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » ، وهو أيضاً مركّب من « تلم »[1] ومعناه لها ، و « شان » أي لها شأن ، وهي مدينة عريقة في التمدن ، لذيذة الهواء ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودُوَيْن[2] رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب ، عروساً فوق منصّة ، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها[3] على فحص أفْيَحَ معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى ، وتبقر في بطونه عند تلميث الغمائم بطون العذارى[4] ، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، ممّا زخرفت عروشه ، ونمقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأخجل الرصافة ، وعبث بالسّدير . وتنصبّ إليها من عَلٍ أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة[5] خلالها ، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقي ريعهُ[6] خارجها مغارس الشجر ومنابت الحَب ، فهي التي سحرت الألباب رُواء ، وأصبت النُّهَى جمالاً[7] ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إيّاه عندي[8] :

ما جنّةُ الخلدِ إلا في منازلكُم وهذه كنتُ لو خُيِّرتُ أختارُ

---

١ البغية : تل .
٢ البغية : ودون .
٣ البغية : تطل منه .
٤ البغية : العدارى . والعذارى : الأراضي التي لم توطأ .
٥ المكفورة : المستورة .
٦ البغية : بساتينها .
٧ جمالا : سقطت من البغية .
٨ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .

لا تَتَّقُوا بعدها أن تدخلوا سقَراً   فليس تُدْخَلُ بعد الجنَّة النارُ

وتوسطت قطراً ذا كُوَرٍ عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب ، مَرِيعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلاحة ، زاكية الإصابة ، فربما انتهت في الزَّوْجِ الواحد منها إلى أربعمائة مد كبير ؛ ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور .

ومما يُنسب للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته : تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنّها ملك على رأسه تاجُه ، وحواليه من اللوحات حَشَمه وأعلاجُه ، عبّادها يدها وكهفها كفها ، وزينتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها بَرُود صَرِيد ، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب ، فلا نُحولَ فيها ولا شحوب ؛ خزانةُ زرع ، ومسرح ضَرْع ، فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع ؛ إلاّ أنّها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصَّيْدَ في جوف الفرا ، مغلوبة للأمرا ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلاّ فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، إلا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلا فيما بينَ الأقارب ، ولا شطارة ، إلا فيمن ارتكب الخطارة ؛ انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتاباً ممتعاً أسمّيه « أنواء نيسان في أنباء تلمسان » وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدُّ الرّواق ، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز ، وها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية ، وفي علم الله تعالى ما لا نعلم ، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم ، والله تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيّه ومصطفاه صلى الله عليه وسلّم .

وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلتُ عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف ، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبْتُ منها إلى مصر أواخر شوّال من العام ، وشرعت في هذا المؤلف بالقعدة من العام .

[ترجمة أبي مدين]

وقد تخرّج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضبط ، ويكفيها افتخاراً دَفْنُ وليّ الله سيدي أبي مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمّد ابن التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان[1] الشيخ سيدي أبو مدين فرداً من أفراد الرجال ، وصدراً من صدور الأولياء الأبدال ، جَمَعَ الله له علم الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هادياً وداعياً للحق ، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلي وغيره أنّه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصاً مقام التوكّل ، لا يُشَق غباره ، ولا تُجهل آثاره ، قال التادلي : كان مبسوطاً بالعلم ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنّه رآه

---

١ انظر نيل الابتهاج : ١٠٧ فأكثر هذه الترجمة منقول عنه .

في آخر الرمق يقول : الله الحق . وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ، خصوصاً جامع الترمذي ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبي ذر ، وكان يلازم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت ، ولَهُ مجلس وعظ يتكلّم فيه ، فتجتمع عليه الناسُ من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلّم فتقف تسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيراً ما يموت بمجلسه أصحابُ الحب ، تخرّج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلاً ، ويخصّه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبي الحسن ابن حرزهم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن ابن غالب.

وذكر عنه أنّه قال : كنت في أوّل أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أتخذه مأوى للعمل بما فُتح به عليّ ، فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأوي إليّ وتؤنسني[1] ، وكنت أمرُّ في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حولي ، ويبصبصون لي ، فبينا أنا يوماً بفاس إذا برجل من مَعارفي بالأندلس سلّم علي ، فقلت : وَجَبَتْ ضيافته ، فبعت ثوباً بعشرة دراهم ، فطلبت الرجل لأدفعها له ، فلم أجده هنالك ، فخليتها معي ، وخرجت لخلوتي على عادتي ، فمررت بقريتي ، فتعرض لي الكلاب ، ومنعوني الجواز ، حتى خرج من القرية مَنْ حال بيني وبينهم ، ولمّا وصلت لخلوتي جاءتني الغزالة على عادتها ، فلمّا شمّتني نفرت عنّي ، وأنكرت علي ، فقلت : ما أوتي علي إلاّ من أجل هذه الدراهم التي معي ، فرميتها ، فسكنت الغزالة ، وعادت لحالها معي ، ولمّا رجعت لفاس جعلت الدراهم معي ، ولقيت الأندلسي ، فدفعتها إليه ، ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة ، فدار بي كلابُها وبصبصوا على عادتهم ، وجاءتني الغزالة فشمتني من

---

[1] انظر أيضاً التادلي : ٣٢٠ .

مفرق لقدمي ، وأنست بي كعادتها ، وبقيت كذلك مدّة ، وأخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ ، وكراماته يتداولها الناس وتُنقل إليّ ، فملأ قلبي حبّه ، فقصدته مع جماعة الفقراء ، فلمّا وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني ، وإذا حضر الطعامُ منعني من الأكل معهم ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجْهَدَني الجوع ، وتحيرت من خواطر ترد عليّ ، ثم قلت في نفسي : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان ، فقام ، ومرغتَ وجهي فقمت وأنا لا أبصر شيئاً ، وبقيت طول ليلتي باكياً ، فلمّا أصبح دعاني وقرّبني ، فقلت له : يا سيدي ، قد عميت ولا أُبصر شيئاً ، فمسح بيده على عيني ، فعاد بصري ، ثم مسح على صدري ، فزالت عني تلك الخواطر ، وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء الفريضة ، فأذن لي وقال : ستلقى في طريقك الأسد فلا يَرُعْك فإن غلَب خوفُه عليك فقل له : بحرمة يدنور[1] إلا انصرفت عني ، فكان الأمر كما قال . فتوجّه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوارُ الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرَّف في عرَفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني ، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيراً من أسراره ، وحلاه بملابس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعدّه أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت في النوم قائلاً يقول : قل لأبي مدين : بُثَّ العلم ولا تُبالِ ، ترتع غداً مع العوالي ، فإنّك في مقام آدم أبي الذراري ، فقصصتها عليه فقال لي : عزمت على الخروج للجبال والفيافي حتّى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم ، وتأمرني بالجلوس ، فقولك « ترتع غداً مع العوالي » إشارة لحديث «حلق الذكر مراتع أهل الجنّة» ، والعوالي: أصحاب عليين ، ومعنى قوله « أبي الذراري » أن آدم أعطي قوّة على النكاح

---

١ التشوف : يلنور .

وأمر به ، ولم يجعل له قوّة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببثّه وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفّقين .

وكان يقول : كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلّم ، وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سَرِي السقطي عن حبيب العجمي بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : سمعت سيدي أبا مَدْيَن يقول : أوقفني ربي عزّ وجل بين يديه وقال لي : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يا رب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يا رب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .

وعن سيدي أبي العباس المرسي : جُلْتُ في ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدي أبا مدين متعلّقاً بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علومي أحد وسبعون علماً ، وأما مقامي فرابع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضي الله عنه عمّا خصّه الله تعالى به ، فقال : مقامي العبودية ، وعلومي الألوهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سِرّي وجهري ، وأضاء بنوره بَرّي وبحري ، فالمقرب من كان به عليماً ، ولا يسمو إلاّ من أوتي قلباً سليماً ، الذي يسلم ممّا سواه ، ولا يكون في الوعاء إلاّ ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ﴿ وتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهي تَمُرُّ مرَّ السَّحاب ﴾ (النمل : ٨٨) .

وسئل عن الحياء ، فقال : أوّله دوام الذكر ، وأوسطه الأنس بالمذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر ولي أم نبي ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبيَّ صلى الله عليه وسلّم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلّم : الخضر نبي ، وأبو مدين ولي .

وذكر التادلي[1] وغيره أن رجلاً جاءه ليعترض عليه، فجلس في الحلقة، فأخذ صاحبُ الدولة في القراءة، فقال له أبو مدين: أمهل قليلاً، ثم التفت للرجل، وقال له: لِمَ جئت؟ فقال: لأقتبس من نورك، فقال له: ما الذي في كمك؟ قال له: مصحف، فقال له: افتحه واقرأ في أول سطر يخرج لك، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه ﴿الّذينَ كَذَّبُوا شُعَيباً كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها، الذين كَذّبوا شُعيباً كانُوا همُ الخاسِرين﴾ (الأعراف: ٩٢) فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله.

وذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال: مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب، فرأى أسداً افترس حماراً وهو يأكله، وصاحبُه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد، وقال لصاحب الحمار: أمسك الأسد واستعمله في الخدمة موضع حمارك، فقال له: يا سيدي أخاف منه، فقال: لا تخف، لا يستطيع أن يؤذيك، فمرّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له: يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبتُ، وأنا شديد الخوف منه، لا طاقة لي بعشرته، فقال الشيخ للأسد: اذهب ولا تعد، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم.

ومن مشهور كراماته أنّه كان ماشياً يوماً على ساحل، فأسره العدوّ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين، فلمّا استقرَّ في السفينة توقفت عن السير، ولم تتحرّك من مكانها، مع قوّة الريح ومساعدتها، وأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير، فقال بعضهم: أنزلوا هذا المسلم فإنّه قسيس، ولعلّه من أصحاب السرائر عند الله تعالى، وأشاروا له بالنزول، فقال: لا أفعل إلاّ إن أطلقتم جميع مَنْ في السفينة من الأسارى، فعلموا أن لا بد لهم من ذلك،

---

[1] التشوف: ٣٢٣.

فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة في الحال .

ومن كراماته أنّه لمّا اختلف طلبة بجاية في حديث « إذا مات المؤمن أُعطيَ نصف الجنّة » وأشكل عليهم ظاهره : إذ بموتِ مؤمنين يستحقان كل الجنّة ، فجاءوا إليه وهو يتكلّم على رسالة القُشيري ، فكاشفهم في الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنّه يعطى نصف جنته هو ، فيكشف له عن مَقْعـده ليتنعم به وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .

وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنّه قال : سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء ، وكان رجل يأتيني عند صَدْع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليلة في نفسي أنّه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال عليّ الليل في انتظاره ، فلمّا طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألني وانصرف ، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي : صلّينا الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح[1] ، فأعدنا معهم ، وجلسنا[2] حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لي : ولِمَ أعدنا الصبح بمكّة ؟ فقلت له : كذلك كان شيخي يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتيناك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أمّا إعادة الصبح بمكة فلأنّها بها عين اليقين ، وببغداد علم اليقين ، وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة – وهي أم القرى – فلذلك لا تعاد في غيرها ، قال : فقنعا به وانصرفا .

وكان استوطن بجاية ويقول : إنّها معينة على طلب الحلال ، ولم يزل بها

---

١ ق : فوجدناهم في الظهر في صلاة الصبح .

٢ نيل الابتهاج : فبقينا .

يزداد حاله على مر الليالي رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ، ويخبر بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب المنصور ، وقال له : إنّا نخاف منه على دولتكم ، فإن له شَبَهاً بالإمام المهدي ، وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع في قلبه وأهمّه شأنه ، فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بجاية بالوصيّة به والاعتناء ، وأن يُحْمَل خير محمل ، فلمّا أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلّموا[1] ، فسكتهم وقال لهم : إن منيّتي قربت ، وبغير هذا المكان قدرت ، ولا بد لي منه ، وأنا شيخ كبير ضعيف[2] ، لا قدرة لي على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يحملني إليه برفق ، ويسوقني إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت نفوسهم ، وذهب بوسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن حال ، حتى وطئوا به حَوْزَ تلمسان ، فبدت لهُ رابطة العباد ، فقال لأصحابه : ما أصلحه للرقاد ، فمرض مرض موته ، فلمّا وصل وادي يسر اشتد به المرض ، ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق .

وتوفّي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فحُمل إلى العباد ، مدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجنازته ، فكانت من المشاهد العظيمة ، والمحافل الكريمة ، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الحباك ، وعاقب الله تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد زرته مئين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله .

وقد أطال في ترجمته التادلي في كتابه « التشوّف لرجال التصوّف »[3] وقد

---

١ وتكلموا : سقطت من نيل الابتهاج.
٢ نيل الابتهاج : وقد كبرت وضعفت .
٣ انظر هذا الكتاب ص : ٣١٦ – ٣٢٥ .

أفردها ابن الخطيب القسمطيني بتأليف سمّاه « أنس الفقير » .

ومن كلامه : من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتُلي فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجراً فهو خراب .

وقوله : بفساد العامّة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصّة تظهر دجاجلة الدين الفتّانون .

وقوله : من عرَف نفسه لم يغترّ بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خلْقه ، وانكسار العاصي خير من صولة المُطيع .

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق .

وسئل عن المحو والشيخ ، فقال : المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك بالاحترام والتعظيم ، والشيخُ مَنْ هداك بأخلاقه ، وأيدك بإطراقه ، وأنار باطنك بإشراقه ، إلى غير ذلك من كلامه النيّر ، وهو بحر لا ساحل له .

وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ، ومما يُنسب له قوله :

بكت السحابُ فأضحكت لبكائها ... زهرَ الرياضِ وفاضتِ الأنهارُ
وقدَ أقبلتْ شمسُ النّهارِ بحلّةٍ ... خضْرا ، وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيعُ بخيله وجنودهِ ... فتمتعتْ في حسنهِ الأبْصار
والوردُ نادى بالورود إلى الجنى ... فتسابقَ الأطيارُ والأشجار
والكأسُ ترقصُ والعقارُ تشعشعتْ ... والجوُّ يضحكُ والحبيبُ يُزار
والعود للغيدِ الحسان مجاوبٌ ... والطارُ أخفى صوتَهُ المزمار
لا تحسبوا الزمرَ الحرام مرادنا ... مزمارنا التّسبيحُ والأذكار
وشرابنا من لطفه ، وغناؤنا ... نعم الحبيبُ الواحد القهار
والعودُ عاداتُ الجميل ، وكأسنا ... كأسُ الكياسة ، والعقارُ وقار

فتـألفـوا وتطيبـوا واستغنموا قبـل المماتِ فـدهركـم غدّار
واللهُ أرحـمُ بـالفقيرِ إذا أتى من والديـهِ فإنّـه غفّـار
ثمّ الصلاةُ على الشّفيعِ المُصطفى ما رَنّمَتْ بلغاتها الأطيـار

وإنّما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به ، ولكونه شيخَ جدي ، فأنا في بركته لقول جدّي : إنّه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ، ولأنا ذكرنا في هذا التأليف كثيراً من أنباء أبناء الدنيا ، فأردنا كفّارة ذلك بذكر الصالحين ، والله الموفّق بمنّه وكرمه ، آمين .

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستهدين به على المنهاج ، المتلقّين أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج

اعلمْ أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون ، إلاّ أنه لم يُرزق السعادة في كثير منهم ، بل بارزوه بالعداوة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه .

١ – فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك[1] ، وارث مرتبته من بعده ، ومقتعد أريكة سعده ، وقد ألمع به في « الإحاطة » وكان إذ ذاك من جملة أتباعه ، إذ قال ما محصله : محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن زمرك .

أصله من شرقي الأندلس ، وسكن سلفه ربض[2] البيازين من غرناطة ، وبه ولد ونشأ ، وهو من مفاخره .

حاله – هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها ، مختصر مقبول هش خلوب ، عذب الفكاهة حلو المجالسة ، حسن التوقيع خفيف الروح

---

١ ترجمة ابن زمرك في الإحاطة ٢ : ٢٢١ – ٢٤٠ والكتيبة : ٢٨٢ ونيل الابتهاج : ٢٨٢ ونثير فرائد الجمان : ٣٢٧ والتعريف : ٢٧٤ وجذوة الاقتباس : ١٨٤ والدرر الكامنة ٤ : ٤١٢ وأزهار الرياض ٢ : ٧ – ٢٠٦ ، وقد نقل بعض ما أورده ابن الخطيب في الإحاطة، وما جاء عنه في كتاب مستقل لابن الأحمر ، وسيكرر هذا في ترجمته هنا ، ولهذا أجريت المقارنة بين ما ورد في النفح والأزهار دون أن أشير إلى كل موضع على حدة .

٢ ق : روض .

عظيم الانطباع شره المذاكرة ، فطن بالمعاريض حاضر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة ، جواد بما في يده مشارك لإخوانه ، نشأ عفّاً طاهراً ، كلفاً بالقراءة عظيم الدؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم ، فاشتهر فضله وذاع أرجه وفشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون ، وأصبح متلقف كرة البحث وصارخ الحلقة [وسابق الحلبة] ومظنة الكمال ، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وخاض بلجة الحفظ ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق[1] المحفل المجموع ، مستظهراً بالفنون التي بَعُدَ فيها شأوه من العربية والبيان [واللغة] وما يقذف به في لج النقل من الأخبار والتفسير ، متشوفاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة ، ثم عانى الأدب فكان أملك به ، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد ، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعُرِف في بابه بالإجادة .

ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس ، واستقر بالمغرب ، أنس له وانقطع إليه ، وكر في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فلطف منه محله وخصه بكتابة سره ، وثابت الحال ودالت الدولة وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالّة ، مضطلعاً بالخطة خطاً وإنشاء ولسناً ونقداً ، فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته ، ووسع الناس تخلقه ، وأرضى للسلطان حمله ، وامتد في ميدان النظم والنثر باعه ، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة ، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد ، أعانه الله تعالى وسدده .

---

١ الإحاطة : وبين .

شيوخه – قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخار، ثمّ على القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد ابن لب، واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدث أبي عبد الله ابن مرزوق فأخذ عنه كثيراً من الرواية، ولقي القاضي الحافظ [1] أبا عبد الله المقّري عندما قدم على الأندلس وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي، ويروي عن جملة منهم القاضي أبو البركات ابن الحاج، والمحدث أبو الحسين ابن التلمساني، والخطيب أبو عبد الله ابن اللوشي، والمقرىء أبو عبد الله ابن بييش، وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلّوني [2] التلمساني، واختصّ به اختصاصاً لم يخلُ فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة.

شعره – وشعره مترام إلى هدف الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة. فمن ذلك ما خاطبني به، وهو من أوّل ما نظمه قصيدة مطلعها:

أما وانصداع النور من مطلع الفجر

وهي طويلة.

ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزهد بأُوَيْس [3]، ولم يخل مجاريه ومباريه إلاّ بويح وويْس، قوله في إعذار الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه، وهي من الكلام الذي عنيت الإجادة بتذهيبه وتهذيبه، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه:

---

١ ق : الحافظ القاضي.
٢ سقطت هذه اللفظة من الإحاطة.
٣ هو أويس القرني من أوائل الزهاد في العصر الأموي.

مَعاذَ الهوى أن أصحبَ القلبَ ساليا   وأن يشغلَ اللوّامُ بالعذلِ باليا
دعانيَ أعْطِ الحبَّ فَضْلَ مَقادتي   ويقضي عليَّ الوجْدُ ما كان قاضيا
ودونَ الذي رام العواذلُ صبوةٌ   رمتْ بيَ في شِعْبِ الغرامِ المراميا
وقلبٌ إذا ما البرقُ أومضَ مَوْهناً   قدحتُ بهِ زنداً من الشوقِ واريا
خليليَّ إني يومَ طارقة النّوى   شقيتُ بمن لو شاء أنعمَ باليا
وبالخيفِ يومَ النفرِ يا أمَّ مالكٍ   تخلّفتِ قلبي في حبالكِ عانيا
وذي أشَرٍ عذبِ الثنايا مخصّرٍ   يسقّني بهِ ماءُ النّعيمِ الأقاحيا
أحومُ عليهِ ما دَجا الليلُ ساهراً   وأصبح دون[1] الوِرْدِ ظمآنَ صاديا
يضيءُ ظلامُ الليلِ ما بينَ أضلعي   إذا البارقُ النجديُّ وَهْناً بدا ليا
أجيرتَنا بالرملِ والرملُ منزلٌ   مضى العيشُ فيهِ بالشبيبةِ حاليا
ولم أرَ رَبعاً منهُ أقضى لُبانَةً   وأشجى حماماتٍ ، وأحلى مجانيا
سقتْ طلّهُ الغرُّ الغوادي ونَظّمَتْ   من القطرِ في جيدِ الغصونِ لآليا
أبثّكمُ أني على النأيِ حافظٌ   ذمامَ الهوى لو تحفظونَ ذماميا
أناشدكمْ والحُرُّ أوفى بعَهْدِهِ   ولنْ يَعدمَ الأحسانُ والخيرُ جازيا
هل الودُّ إلاّ ما تحاماهُ كاشحٌ   وأخْفَقَ في مسعاهُ مَنْ جاء واشيا
تأوّبني والليْلُ يُذكي عيونَهُ   ويسحبُ من ذَيْلِ الدُّجُنّةِ ضافيا
وقد مثلتْ زُهرُ النجومِ بأفْقِهِ   حباباً على نهرِ المجرّةِ طافيا
خيالٌ على بُعْدِ المزارِ ألمَّ بي   فأذكرني من لم أكن عنه ساليا
عجبتُ لهُ كيف اهتدى نحو مضجعي   ولم يُبْقِ مني السقمُ والشّوقُ باقيا
رفعتُ له نارَ الصبابةِ فاهتدى   وخاض لها عرضَ الدُّجُنّةِ ساريا
وممّا أجَدَّ الوجدَ سربٌ على النّقا   سوانحُ يصقلنَ الطُّلى والتراقيا

[1] ق : يوم .

نزعن عن الألحاظ كلَّ مسدّدٍ فغادرنَ أفلاذَ القلوبِ دواميا
ولمّا تراءى السِّرْبُ قلتُ لصاحبي وأيقنتُ أنَّ الحبَّ ما عشت دانيا
حذارَكَ من سقمِ الجفونِ فإنّهُ سيُعْدي بما يُعْيي الطبيبَ المداويا
وإنَّ أميرَ المسلمينَ محمّداً ليُعدي نداهُ الساريات الهواميا
تضيءُ النجومَ الزاهراتِ خِلالُهُ وينفثُ في روعِ الزمانِ المعاليا
مَعالٍ إذا ما النّجمُ صوّبَ طالباً مبالغها في العزِّ حلّقَ وانيا
يسابقُ عُلْويَّ الرياحِ إلى النّدى ويفضحُ جدوى راحتيهِ الغواديا
ويُغْضي عن العوْراء إغضاء قادرٍ ويرجحُ في الحلمِ الجبالَ الرواسيا
همامٌ يروعُ الأسْدَ في حومةِ الوغى كما راعتِ الأسْدُ الظباء الجوازيا
منـــاقبُ تسمو للفخارِ كأنّما تجاري إلى المجدِ النّجومَ الجواريا
إذا استبَقَ الأملاكُ يوماً لغايةٍ أبَيْتَ وذاكَ المجدَ إلاّ التناهيا
بهرتَ فأخفيتَ الملوكَ وذكرها ولا عجبٌ فالشمسُ تخفي الدراريا
جلَوتَ ظلامَ الظلمِ من كلِّ معتدٍ ولا غَرْوَ أن تجلو البدورُ الدياجيـــا
هَديتَ سبيلَ اللهِ مَنْ ضلَّ رشدَهُ فلا زلتَ مَهْديّاً إليهِ وهاديا
أفدتَ وَحيَّ الملكِ ممّا أفدتهُ وطوّقْتَ أشرافَ الملوكِ الأياديا
وقد عَرَفَتْ منها مَرينٌ سوابقاً تُقرُّ لها بالفضلِ أخرى اللياليا
وكان أبو زيّانَ جِيداً معطّلاً فزيّنتهُ حتى اغتدى بكَ حاليـــا
لكَ الخيرُ لم تقصدْ بما قـــد أفدتهُ جزاءً ولكن همّـــة هي مـــا هيا
فما تُكْبِرُ الأملاكُ غيرَكَ آمراً ولا ترهبُ الأشرافُ غيركَ ناهيا
ولا تشتكي الأيامُ من داءِ فتنةٍ فقد عرفتْ منكَ الطبيبَ المداويا
وأندلساً أوليتَ ما أنتَ أهلُهُ وأوردتَهـــا ورداً من الأمنِ صافيا
تلافَيْتَ هذا الثغر وهو على شفاً وأصبحتَ من داءِ الحوادث شافيا
ومن بعد ما ساءتْ ظنونٌ بأهلهـــا وحاموا على وردِ الأماني صواديا

فما يأملونَ العَيْشَ إلاّ تعلُّلاً ... ولا يعرفون الأمنَ إلاّ أمانيا
عطفتَ على الأيامِ عطفةَ راحمٍ ... وألبستَها ثوبَ امتنانكَ ضافيا
فآنَسَ من تلقائكَ الملكُ رُشدَهُ ... ونالَ بكَ الإسلامُ ما كانَ راجيا
وقفتَ على الإسلامِ نفساً كريمةً ... تصدُّ عدوّاً عن حِماهُ وعاديا
فرأيٌ كما انشقَّ الصباحُ ، وعزمةٌ ... كما صقَلَ القَيْنُ الحسامَ اليمانيا
وكانت رماحُ الخطِّ خُمصاً ذوابلاً ... فأنهلتَ منها في الدماء صواديا
وأوردتَ صفحَ السيفِ أبيضَ ناصعاً ... فأصدرته في الروعِ أحمرَ قانيا
لك العزمُ تستجلي الخطوبَ بهديِهِ ... ويُلْفى إذا تَنبو الصوارمُ ماضيا
إذا أنتَ لم تفخرْ بما أنتَ أهلُهُ ... فما الصبحُ وضّاحَ المشارق عاليا
ويهنيكَ دونَ العيدِ عيدٌ شَرَعْتَهُ ... نبثُّ بهِ في الخافقَينِ التهانيا
أقمتَ بهِ من فطرةِ الدينِ سُنّةً ... وجددتَ من رسمِ الهدايةِ عافيا
صنيعٌ تولّى اللهُ تَشْييدَ فخره ... وكان لما أوليتَ فيهِ مجازيا
تودُّ النجومُ الزُّهرُ لو مَثَلَتْ به ... وقَضَّتْ من الزُّلفى إليكَ الأمانيا
وما زالَ وجهُ اليومِ بالشمسِ مشرقاً ... سروراً بهِ والليلُ بالشُّهب حاليا
على مثله فليعقد الفخرُ تاجَهُ ... ويسمو بهِ فوقَ النجومِ مَراقيا
بهِ تغمرُ الأنْواءُ كلَّ مُفَوَّهٍ ... ويحدو بهِ من كان بالقفرِ ساريا
ويوسُفُ فيهِ بالجمالِ مقنَّعٌ ... كأنَّ له من كلِّ قَلْبٍ مُناجيا
وأقبلَ ما شابَ الحياءَ مَهابَةً ... يقلِّبُ وجهَ البدرِ أزهرَ باهيا
وأقدمَ لا هَيّابَةَ الحفْلِ واجماً ... ولا قاصراً فيهِ الخُطا متوانيا
شمائلُ فيهِ من أبيهِ وجَدِّهِ ... ترى العزَّ فيها مستكنّاً وباديا
فيا علقاً أشجى القلوبَ لو انّنا ... فديناكَ بالأعلاقِ ما كنتَ غاليا
جريتَ فأجريتَ الدموعَ تعطُّفاً ... وأطلعتَ فيها للسرورِ نواشيا
وكمْ من وليٍّ دون بابك مخلصٍ ... يُفَدّيهِ بالنَّفْسِ النفيسةِ واقيا

وصيدٍ من الحيَّين أبناء قَبْلة — تكفُّ الأعادي أو تُبيدُ الأعاديا
بهاليلُ غُرٌّ إن أعدّوا لغــارةٍ — أعادوا صباحَ الحيِّ أظلمَ داجيــا
فوالله لولا أن توخيتَ سنّةً — رضيتَ بها أن كان ربُّكَ راضيا
لكانَ بها للأعوجيّاتِ جوْلَةٌ — تُشيبُ من الغُلْبِ الشبابِ النواصيا
وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مُقَصَّداً — وبيضَ الظُّبى حُمْرَ المتونِ دواميا
ولمّا قضى من سنّةِ الله ما قضى — وقد حسدتْ منهُ النجومُ المساعيا
أفَضْنا نُهنّي منكَ أكرمَ منعمٍ — أبى لعميمِ الجودِ إلاّ تواليــا
فيهني صفاحَ الهندِ والبأسَ والندى — وسُمْرَ العوالي والعتاقَ المذاكيا
ويهني البنودَ الخافقاتِ فإنّهــا — سيعقدها في ذمّةِ النصرِ غازيــا
كأنّي به يُشقي الصوارمَ والظُّبى — ويحطمُ في اللأمِ الصلابِ العواليا
كأني بهِ قد توَّجَ الملكَ يافعــاً — وجمّعَ أشتاتَ المــكارمِ نــاشيا
وقَضّى حقوقَ الفخرِ في مَيْعَةِ الصِّبا — وأحسن من دَيْنِ الكمالِ التقاضيا
وما هو إلاّ السعدُ إن رُمتَ مطلعاً — وسدَّدتَ سهماً كان ربّكَ راميا
فلا زلتَ يا فخرَ الخلافةِ كافلاً — ولا زلتَ يا خيرَ الأئمّةِ كافيا
ودُمْتَ قَريرَ العينِ منهُ بغبطةٍ — وكانَ لهُ ربُّ البريّةِ واقيــا
نظمتُ لهُ حُرَّ الكلامِ تمائماً — جعلتُ مكانَ الدرِّ فيها القوافيــا
لآلٍ بها تبأى[١] الملوكُ نفاسةً — وجلّتْ لعمري أن تكون لآليا
أرى المالَ يرميهِ الجديدانِ بالبلى — وما إن أرى إلاّ المحامدَ باقيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وفْدُ الأحابيش بهدية من ملك السودان ، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمّى بـ « الزرافة » ، فأمر من يُعاني الشعر من الكتّاب بالنظم في ذلك الغرض ، فقال وهي من بدائعه :

---

١ ق : تبدي .

لولا تألُّقُ بارقِ التذكارِ ما صابَ واكفُ دمعيَ المدرارِ
لكنّهُ مهما تعرَّضَ خافقاً قدحتْ يدُ الأشواقِ زندَ أُواري
وعلى المَشوقِ إذا تذكّر معهداً أن يُغْرِيَ الأجفانَ باستعبارِ
أمذكّري غرناطةً حلّتْ بها أيدي السحابِ أزرّةَ النوّارِ
كيف التخلُّصُ للحديثِ وبيننا [1] عرضُ الفلاةِ وطافحُ الزخّارِ
هذا على أنّ التغرُّبَ مركبي وتولُّجَ الفيحِ الفساحِ [2] شعاري
فلكم أقمتُ غداةَ زُمّتْ عيسُهم أبغي القرارَ ولاتَ حينَ قرارِ
وطفقتُ أستقري المنازلَ بعدهم يمحو البكاءُ مواقعَ الآثارِ
إنّا بني الآمالِ تخدعنا المنى فنخادعُ الآمالَ بالتسيارِ
نتجشّمُ الأهوالَ في طلبِ العلا ونروعُ سربَ النومِ بالأفكارِ
لا يحرزُ المجدَ الخطيرَ سوى امرىءٍ يُمطي [3] العزائمَ صهوةَ الأخطارِ
إمّا يُفاخَرْ بالعتادِ ففخرُهُ بالمشرفيّةِ والقنا الخطّارِ
مستبصرٌ مَرمى العواقبِ واصلٌ في حمله [4] الإيرادَ بالإصدارِ
فأشدّ ما قادَ الجهولَ إلى الردى عَمَهُ البصائرِ لا عمى الأبصارِ
ولربَّ مزبدِ الجوانحِ مزبدٍ سبحَ الهلالُ بلُجّهِ الزخّارِ
فُتقتْ كمائمُ جنحهِ عن أنجمٍ سفرتْ زواهرهنَّ عن أزهارِ
مثّلتْ على شاطي المجرّةِ نرجساً تصطفُّ منه على خليجٍ جاري
وكأنّما بدرُ التمامِ بجُنحهِ وجهُ الإمامِ بجحفلٍ جرّارِ
وكأنّما خمسُ الثريّا راحةٌ ذرعتْ مسيرَ الليلِ بالأشبارِ
أسرجتُ من عزمي مصابيحاً بها تهدي السراةَ لها من الأقطارِ

---

١ ق : ودوننا .
٢ ق : انفساح .
٣ ق والإحاطة : يعطي ، والصواب ما في الأزهار .
٤ ق : جملة .

وارتاعَ من بازي الصباحِ غرابُهُ   لمّا أطلَّ فطارَ كلَّ مطـارِ

ومنها :

وغريبةٍ قطعتْ إليك على الونى   بِيداً تبيدُ بها همومُ الساري
تُنسيهِ طِيبَتَهُ التي قد أمَّها   والركبُ فيهـا ميِّتُ الأخبارِ
يقتادها من كلِّ مشتملِ الدجى   وكأنّما عيناهُ جذوةُ نـارِ
تشدو بحمدِ المستعينِ حُداتُها   يتعلّلونَ بهِ على الأكوارِ
إنْ مَسَّهمْ لفحُ الهجيرِ أبَلَّهم   منهُ نسيمُ ثنائِكَ المعطارِ
خاضوا بها لججَ الفلا فتخلّصتْ   منها خلوصَ البدرِ بعد سرارِ
سلمتْ بسعدكَ من غوائلِ مثلها   وكفى بسعدكَ حامياً لذمارِ
وأتتكَ يا ملكَ الزمانِ غريبةٌ   قيدُ النواظرِ نزهةُ الأبصـارِ
مَوْشِيّةُ الأعطافِ رائقةُ الحلى   رقمتْ بدائعَها يَدُ الأقدارِ
راقَ العيونَ أديمها فكأنهُ   روضٌ تفتّحَ عن شقيقِ بهارِ
ما بينَ مبيضٍّ وأصفرَ فاقعٍ   سال اللجَيْنُ به خلالَ نُضارِ
يحكي حدائقَ نرجسٍ في شاهقٍ   تنسابُ فيهِ أراقمُ الأنهارِ
تحدو[1] قوائمَ كالجذوعِ وفوقها   جبَلٌ أشمُّ بنورهِ متوارِ
وسَمَتْ بجيدٍ مثل جذعٍ مائلٍ   سَهْلِ التعطّفِ لَيّنٍ خوّارِ
تستشرفُ الجدرانَ منهُ ترائباً   فكأنّمـا هو قـائمٌ بمنـارِ
تاهتْ بكلكلها وأتلعَ جيدُها   ومشى بها الإعجابُ مشيَ وقارِ
خرجوا لها الجمَّ الغفيرَ ، وكلهم   متعجبٌ من لطفِ صنعِ الباري
كلٌّ يقولُ لصحبه قوموا انظروا   كيفَ الجبالُ تُقادُ بالأسيارِ
ألقتْ ببابكَ رحلها ولطالما   ألقى الغريبُ بهِ عصا التسيارِ
علمتْ ملوكُ الأرضِ أنكَ فخرُها   فتسابقتْ لرضاكَ في مضمارِ

---

[1] كذا في جميع الأصول ، ولعلها «تجلو» يريد : تنصب .

يتبوّأونَ به وإن بَعُدَ المدى		من جاهكَ الأعلى أعزَّ جوارِ
فارفعْ لواءَ الفخرِ غيرَ مدافَعٍ		واسحبْ ذيولَ العسكرِ الجرّارِ
واهنأ بأعيادِ الفتوحِ مخوَّلاً		ما شئتَ من نَصرٍ ومن أنصارِ
وإليكها من روضِ فكري نفحةً		شفّتْ الثناء بها على الأزهارِ
في فصلِ منطقِها ورائقِ رسمِها		مستمتَعُ الأسماعِ والأبصارِ
وتميلُ مَن أصغى لها فكأنّني		عاطيتُهُ منها كؤوسَ عُقارِ

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلّم عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى :

تأمّلْ أطلالَ الهوى فتألّما		وسيما الجوى والسقمِ منها تعلّما
أخو زفرةٍ هاجَتْ له نارَ ذكرةٍ		فأنجدَ في شِعْبِ الغرامِ وأتهما

وسرد لسان الدين هذه القصيدة بطولها ، وهي تقارب التسعين بيتاً ، ثم قال ما نصه : وأنشد السلطان في وجهة للصيد أعملها ، وأطلق أعنّة الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها ، قوله :

حيّاكِ يا دارَ الهوى من دارِ		نَوءُ السِّماكِ بديمةٍ مِدْرارِ
وأعاد وجهَ رباكِ طَلْقاً مشرقاً		متضاحكاً بمباسمِ النوّارِ
أمذكّري دارَ الصبابةِ والهوى		حيثُ الشباب يرفُّ غصن[1] نُضارِ
عاطيتني عنها الحديثَ كأنّما		عاطيتني عنها كؤوسَ عُقارِ
إيهٍ وإن أذكيتَ نارَ صبابتي		وقدَحْتَ زندَ الشوقِ بالتذكارِ
يا زاجرَ الأظعانِ وهي مَشوقةٌ		أشبهتَها في زفرةٍ وأوارِ
حنّتْ إلى نجدٍ وليستْ دارَها		وصبَتْ إلى هِنْدِيّه والغارِ
شاقتْ به برقَ الحمى واعتادها		طَيفُ الكرى بمزارِها المزوارِ[2]

---

١ الأزهار : حسن .
٢ كذا في الإحاطة ؛ وفي الأزهار :
لكنها شامت به برق الحمى		واعتادها طيف الكرى بمزار

هل تُبلغُ الحاجاتِ إن حمّلتها   إنَّ الوفاءَ سجيّةُ الأحرارِ
عرّض بذكري في الخيام وقلْ إذا   جئتَ العقيقَ مُبَلِّغَ الأوطارِ
عارٌ بقومكِ يا ابنةَ الحيين أن   تلوي الديونَ وأنتِ ذاتُ يسارِ
أمَنعتِ ميسورَ الكلامِ أخا الهوى   وبخلتِ حتى بالخيالِ الساري ؟
وأبان جاري الدمعِ عذرَ هيامهِ   لكن أضعتِ له حقوقَ[1] الجارِ
هذا وقومُكِ ما علمتُ خلالهم   أوفى الكرامِ بذمةٍ وجوارِ
اللهَ في نفسٍ شعاعٍ كلّما   هبَّ النسيمُ تطيرُ كلَّ مطارِ
باللهِ يا لمياءُ ما منعَ الصَّبا   أن لا تهبَّ بعَرفكِ المعطارِ
يا بنتَ مَنْ تشدو الحداةُ بذكرهِ   متعلّلينَ بهِ على الأكوارِ
ما ضرَّ نسمةَ حاجرٍ لو أنها   أهدتْ لنا خبراً من الأخبارِ ؟
هلْ بانُهُ من بعدنا متأوِّدٌ   متجاوبٌ مترنّمُ الأطيارِ ؟
وهل الظباءُ الآنساتُ كعهدنا[2]   يصرعنَ أسدَ الغابِ وهي ضوارِ ؟
يفتكنَ من قاماتها ولحاظها   بالمشرفيّةِ والقنا الخطّارِ
أشعرتُ قلبي حبَّهنَّ صبابةً   فرمينني من لوعتي بجمارِ
وعلى الكثيبِ سوانحٌ حمرُ الحلى   بيضُ الوجوهِ يصدنَ بالأفكارِ
أدنى الحجيجُ مزارهنَّ ثلاثةً   بمنى لوَ انَّ منًى ديارُ[3] قرارِ
لكنَّ يومَ النفرِ جُدنَ لنا بما   عوّدننا من جفوةٍ ونفارِ
يا ابنَ الأُلى قد أحرزوا خصلَ[4] العلا   وسَمَوا بطيبِ أرومةٍ ونجارِ
وتنوبُ عن صوبِ الغمامِ أكفُّهم   وتنوبُ أوجُهُهمْ عن الأقمارِ
من آلِ سعدٍ رافعي علمِ الهدى   والمصطفَينَ لنصرةِ المختارِ

[1] الأزهار : أضعت حقوق ذاك .
[2] الأزهار : كعهدها .
[3] الإحاطة : بدار .
[4] الأزهار : فضل .

أصبحتَ وارثَ مجدهم وفخارهم ومشرِّفَ الأعصارِ والأمصارِ
وجهٌ كما حَسَرَ الصباحُ نقابَهُ ويدٌ تمدُّ أنامــلاً ببحــارِ
جدّدتَ دونَ الدينِ عزمة أروعٍ جدّدْتَ منهــا سُنّةَ الأنصارِ
حُطتَ البلاد ومن حوَتهُ ثغورها وكفى بسعدكَ حامياً للذمارِ
للهِ رحلتكَ التي نلنــا بهــا أجرَ الجهادِ ونزهةَ الأبصارِ
أوردتنا فيهــا بجودكَ مورداً مستعذَبَ الإيرادِ والإصدارِ
وأفَضتَ فينا من نَداكَ مواهباً حَسُنَتْ مواقعُها على التكرارِ
أضحكتَ ثغرَ الثغرِ لمّا جئتهُ وخصصْتَهُ بخصائصِ الإيثــارِ
حتى الفلاةُ تقيم يومَ وردتَها سُنَنَ القِرى بثلاثةِ الأثوارِ[1]
وسرتْ عُقابُ الجوِّ تهديك الذي تصطادُ من وحشٍ ومن أطيارِ
والأرضُ تعلم أنك الغوثُ الذي تُضفي عليها واقيَ الأستارِ
ولربَّ ممتدَّ الأباطحِ موحشٍ عالي الرُّبى متباعدِ الأقطارِ
هَمَلِ المسارحِ لا يُراعُ قنيصُهُ إلاّ لنبــأةِ فارسٍ مِغوارِ
سرحتْ عنانُ الريحِ فيهِ وربما ألقتْ بساحته عصا التسيارِ
باكرته والأفقُ قد خلع الدجى مِسْحاً ليَلْبَسَ حُلّةَ الإسفارِ
وجرى به نهرُ النهارِ كمثلِ ما سكَبَ النديمُ سُلافَةً من قارِ
عرَضَتْ به المستنفَراتُ[2] كأنها خَيلٌ عِرابٌ جُلْنَ في مضمارِ
أتبعتها غُرَرَ الجيــادِ كواكبــاً تنقضُّ رجماً في سماءِ غبارِ
والهادياتُ يؤمّها عَبْلُ الشَّوى[3] مُتَدَفِّقٌ كتَدَفُّقِ التيّــارِ

---

١ في الإحاطة والأزهار : بتلألؤ الأنوار ؛ وأرى الأصل فيه ما أثبته لأنه يتحدث عن خروج السلطان للصيد ، ورميه ثلاثة ثيران ، فكأن فلاة الصيد راعت سنة القرى بتقديمها الثيران له

٢ المستنفرات : الحيوانات التي استنفرت لكي تعدو الجياد وراءها ، ويحرز السلطان لذة مطاردتها وصيدها .

٣ حبل الشوى : كناية عن الثور ، والهاديات : المتقدمات سبقاً .

أزجيتَها شقراء رائقةَ الحلى | فرميتهُ منهـا بشعلةِ نارِ
أثبتَّ فيهِ الرمحَ ثمَّ تركتهُ | خَضِبَ الجوانحِ بالدَّمِ الموّارِ
حامتْ عليهِ الذابلاتُ كأنّها | طيرٌ أوَتْ منهُ إلى أوكـارِ
طفقت أرانبُهُ غداةَ أثرْتَها | تبغي الفرارَ ولاتَ حين فرارِ
هل ينفعُ الباعُ الطويلُ وقد غدتْ | يومَ الطِّرادِ قصيرةَ الأعمارِ
من كلِّ منحفزٍ بلمحةِ بارقٍ | فاتَتْ خُطاهُ مداركَ الأبصارِ
وجوارحٍ سبَقَتْ إليهِ طلابَها | فكأنّما طـالبتَهُ بالثّـارِ
سودٌ وبيضٌ في الطِّرادِ تتابعتْ | كالليلِ طاردهُ بياضُ نهارِ
ترمي بها وهي الحنايا ضمَّراً | مثلَ السهامِ نزعنَ عن أوتارِ
ظنّتْ بأن ينجو لها ، كلاّ ولو | أغرَيْتَه بأرانبِ الأقمـارِ
وبكلِّ فتْخاء الجناحِ إذا ارتمتْ | فكأنّهـا نجمُ السماءِ السّاري
زَجِلُ الجناحِ مصفقٌ كمن الردى | في مخلبٍ منهُ وفي منقـارِ
أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى | طيراً أتاكَ بهِ على مقـدارِ
وأريتنا الكسبَ الذي أعدادُهُ | ملأت جمالاً أعينَ النُّظّارِ
بيضٌ وصفرٌ خِلتُ مطرح سرْحِها | روضاً تفتّحَ عن شقيقِ بهـارِ
من كلِّ موشيِّ الأديمِ مفوَّفٍ | رقمتْ بدائعَهُ يدُ الأقدارِ
خَلِطَ البياضُ بصفرةٍ في لونهِ | فترى اللُّجينَ يشوبُ ذَوْبَ نُضارِ
أو أشعلٍ راقَ العيـونَ كأنّهُ | غلَسٌ يخالطُ سُدفَةً بنهـارِ
سرحتْ بمخضرِّ الجوانبِ يانعٍ | تنسابُ فيهِ أراقمُ الأنهارِ
قد أرضعتْهُ السارياتُ لبانَها | وحللنَ فيهِ أزرّةَ النوّارِ
أخذت سعودكَ حذرها فلحكمة | أغرتْ جفونَ المزنِ باستعبارِ
لمّا أرتكَ الشمسُ صفرةَ حاسدٍ | لجبينكَ المتـألِّـقِ الأنوارِ
نفثتْ عليكَ السُّحبُ نفثَ معوِّذٍ | من عينها المتوقَّعِ الإضرارِ
فارفع لواء الفخرِ غيرَ مدافَعٍ | واسحب ذيولَ العسكرِ الجرّارِ

واهنأ بمقدمك السعيد مخوّلاً ما شئتَ من عزٍّ ومن أنصارِ
قد جئتُ دارك محسناً ومؤمّلاً متُمتّعتَ بالحسنى وعقبى الدارِ
وإليكها من روضِ فكري نفحةً شَفَّ الثناءُ بها على الأزهارِ

ومن شعره في غير المطولات قوله[1] :

لقد زادني وجداً وأغرى بيَ الجوى ذُبالٌ بأذيالِ الظلامِ قد التفّا
تشيرُ وراءَ الليلِ منهُ بَنانَةٌ مخضَّبَةٌ والليلُ قد حجبَ الكفّا
تلوحُ سناناً حين لا تنفحُ الصَّبا وتُبدي[2] سواراً حين تثني له العِطفا
قطعتُ به ليلاً يطارحني الجوى فآونَةً يَبْـدو وآونَـةً يخفى
إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانَهُ وإن قلتُ لا يخفى الضياءُ به كفّا
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى وأهدى نسيمُ الروضِ من طيبه عَرفا
لك اللهُ يا مصباح أشبهتَ مهجتي وقد شفّها من لوعةِ الحبِّ ما شفّا

وممّا ثبت له صدر رسالة :

أزورُ بقلبي معهدَ الأنسِ والهوى وأنهبُ من أيدي النسيمِ رسائلا
ومهما سألتُ البرقَ يهفو من الحمى يبادرهُ دمعي مجيباً وسائـلا
فيا ليتَ شعري والأماني تَعَلُّلٌ أيرعى ليَ الحيُّ الكرامُ الوسائلا
وهل جيرتي الأولى كما قد عهدتُهم يُوالونَ بالإحسان مَن جاء سائلا

ومن أبياته الغراميات :

قيادي قد تملّكهُ الغرامُ ووجدي لا يُطاقُ ولا يُرامُ
ودمعي دونَهُ صَوْبُ الغوادي وشجوي فوق ما يشكو الحمامُ

---

١ يصف مصباحاً .
٢ الأزهار : وتبدو .

إذا ما الوجدُ لم يبرح فؤادي على الدنيا وساكنها السلامُ

وفي غرض يظهر من الأبيات :

ومشتمل بالحسنِ أحوى مُهَفهفٍ قضى رجعُ طرفي من محاسنه الوطرْ
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسناً وفي خدِّه جرحٌ بدا منهُ لي أثرْ
فقلتُ لجلاّسي خذوا الحذرَ إنما به وصَبٌ من أسهم الغُنج والحورْ
ويا وجنةً قد جاورتْ سيفَ لحظهِ ومن شأنها تَدمى من اللمح بالبصرْ
تخيَّلَ للعينينِ جرْحاً وإنما بدا كلَفٌ منه على صفحةِ القمرْ

وممّا يرجع إلى باب الفخر ، ولعَمْري لقد صدق :

ألائمةً في الجود والجودُ شيمةٌ جُبِلتُ على إيثارها يوم مولدي
ذريني فلو أنّي أُخلَّدُ بالغنى لكنتُ ضنيناً بالذي ملكتْ يدي

وقال :

لقــد علمَ اللهُ أني امرؤ أُجَرِّرُ ذيلَ العفافِ القشيبْ
فكم غمَّضَ الدهرُ أجفانَهُ وفازتْ قِداحي بوصل الحبيبْ
وقيــلَ رقيبــكَ في غفْلةٍ فقلتُ أخافُ الإلهَ الرقيبْ

وفي مدح كتاب «الشفاء» [وقد] طلبه الفقيه أبو عبد الله ابن مرزوق عندما شرع في شرحه :

ومسرى ركابٍ للصَّبا قد ونَتْ به نجائبُ سُحبٍ للترابِ نُزوعها
تسلُّ سيوفَ البرقِ أيدي حُداتها فتنهلُّ خوفاً من سُطاها دموعها
تعرَّضنَ غرباً يبتغينَ مُعَرَّساً فقلتُ لها : مرّاكشٌ وربوعها
لتسقيَ أجداثاً بهــا وضرائحاً عِياضٌ إلى يومِ المَعادِ ضجيعها

وأجدرُ مَنْ تبكي عليه يراعةٌ ... بصفحةِ طرسٍ ، والمدادُ نجيعها
فكم من يدٍ في الدينِ قد سلفتْ له ... يُرَضِّي رسولَ اللهِ عنهُ صنيعُها
ولا مثلَ تعريفِ الشفاء حقوقَهُ ... فقدْ بانَ فيهِ للعقولِ جميعها
بمرآةِ حسنٍ قد جلتها يدُ النُّهى ... فأوصافُهُ يلتاحُ فيهِ بديعها
نجومُ اهتداء ، والمدادُ يجنّها ... وأسرارُ غَيْبٍ ، واليراعُ تذيعها
لقد حزْتَ فضلاً يا أبا الفضلِ شاملاً ... فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها
ولله مَمّنْ قد تصدّى لشرحه ... فلبّاه من غُرٍّ المعاني مُطيعها
فكم مجملٍ فصَّلتَ منهُ وحكمةٍ ... إذا كَتَمَ الإدماجُ منه تُشيعها
محاسنُ والإحسانُ يبدو خلالها ... كما افترَّ عن زهرِ البطاحِ ربيعها
إذا ما أجَلْتَ العينَ فيها تخالها ... نجوماً بآفاقِ الطروسِ طلوعها
معانيه كالماء الزلال لذي صدًى ... وألفاظهُ درٌّ يروّي نصيعها
رياضٌ سقاها الفكرُ صَوْبَ ذكائه ... فأخصبَ للورّادِ منها مَريعها
تفجَّرَ عن عينِ اليقينِ زلالها ... فلذَّ لأربابِ الخلوصِ شروعها
ألا يا ابنَ جارِ الله يا ابنَ وليِّه ... لأنتَ إذا عُدَّ الكرام رفيعها
إذا ما أُصولُ المرء طابتْ أرومةً ... فلا عجبٌ أن أشبهتْها فروعها
بقيتَ لأعلامِ الزمانِ تُنيلها ... هدًى، ولأحداثِ الخطوبِ تروعها

مولده رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في « الإحاطة » في ترجمة تلميذه أبي عبد الله ابن زمرك .

قلت : ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين – رحمهما الله تعالى – على هامش هذه الترجمة من « الإحاطة » كلاماً في حق ابن زمرك رأيت أن أذكره بجملته الآن ، وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب :

فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته : أتبعه الله تعالى خزياً ، وعامله بما يستحقه ، فبهذا ترجمه والدي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم

يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شر من أحسنّا إليه ؛ انتهى .

وكتب على قوله « نشأ عفّاً طاهراً — إلى آخره » ما نصه : هذا الوغْدُ ابن زمرك من شياطين الكتّاب ، ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات من ذلك ، وهو أخس عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة وأخملهم شكلاً ، استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي رباه وأدبه واستخدمه ، حسبما هو معروف ، وكفانا الله تعالى شر من أحسنّا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .

وكتب على قول والده « فترقى إلى الكتابة — إلى آخره » ما صورته : على يد سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله ؛ انتهى .

وكتب على قول « معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا — إلى آخره » ما نصه : هذه القصيدة نظم له مولاي الوالد تغمّده الله تعالى برحمته منها النسيب كله ، وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك[1] ، والله المطلع على ذلك ، قاله ابن المصنف علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لولا تألّق بارق التذكار — إلى آخره » ما صورته : هذا الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ، ويتبع حمارة هذه الراء ، حتى لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمّار مكاري خداد ، فالنفس تميل بالطبع ؛ انتهى .

وكتب على قوله « حيّاك يا دار الهوى من دار — إلى آخره » ما صورته : انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الراء ، علقت له بها مالخوليا ؛ انتهى .

وكتب على قوله « وجوارح سبقت إليه طلابها — إلى آخره » ما صورته : سرق طردية إبراهيم بن خفاجة ، فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ ، مع أن

---

1 ق : حضرت لذلك ، ولعلها : « حضرت ذلك » .

والدي نظم له أكثرها على حسب عادته معه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على قوله « يا مصباح » ما نصه : كان يحب صبياً اسمه مصباح ، وهو الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة ؛ انتهى .

وكتب على قوله « ألاثمي في الجود — إلى آخره » ما صورته : كذبت يا نجس ، من أين الفخر لك أو لبيتك ؟ لست والله من الجود في شيء ، نعم سُخنةُ عين الجود ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لقد علم الله أني امرؤ — إلى آخره » ما معناه : لا والله ، فأنت مشهور بكذا ، يا قرد ، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا ؟ إلى أن قال : وأنحسهم بيتاً ؛ قاله مولاك الذي ربيت في نعمته ونعمة الله علي بن الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

وقد نسبه إلى ما لا يليق ، فالله أعلم بحقيقة الأمر .

وكتب غيره على قول ابن زمرك « أزور بقلبي — الأبيات المتقدمة » عند قوله « سائلاً » في موضعين : هما من السؤال ، فحصل على الإيطاء المذموم ؛ انتهى .

قلت : أما ما ذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك والله أعلم كان في ابتداء أمره ، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التي لا تُنكر ، كما سنذكره ، وأما كونه سعى في قتل لسان الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله ، وقُتل بمرأى من أهله ومسمع ، وأزهقت معه روح ابنيه ، حسبما نذكره ، وهذا قصاص الدنيا ، وعفو الله تعالى في الآخرة منتظر للجميع .

ولنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخم رأيته بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته ، وعرّف به في أوله ، إذ قال ما نصه : أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال ، وشكره على ما

أولى وييسر من صلاح الأحوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال [1] ، والرضى عمّن له من صَحْبٍ وأنصار وآل ، فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان ، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ، ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس الغني بالله — تولاّه الله تعالى برضوانه — كانت غرراً في وجوه الأيام ، ومواسم تجمع الطّم والرّم من الرؤساء الأعلام ، الآخذين بأعنّة الكلام ، السابقين في حلبة النثار والنظام ، وأن الفقيه الرئيس المدرك ، الناظمَ الناثر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زمْرَك ، عفا الله تعالى عنه ، وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد رحمه الله تعالى لكتابته ، وصَرَّفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته ، وكان بذلك خليقاً ، لما جمع من أدوات الكمال علماً وتحقيقاً ، وإدراكاً ونبلاً وفقهاً وأصولاً وفروعاً وأدباً وتحصيلاً ، وبياناً وتفسيراً ونظماً وترسيلاً — لما كان قد أخفتِ الأيام سنَا صبحه ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه ، وعثر بين أقدامِ أقوامٍ لا يعرفون أيَّ ذخر فقدوا ، ولا أيَّ مطلق من تصريفاته الجميلة قيدوا ، مستبصرين بالجهل في دياجي غيّهم ، معجبين بما ارتكبوه من جياد بغيهم جميعهم يلحظه بمقل دامية ، وألفاظ حامية ، يصابحونه بأوجهٍ خلتْ عن الوجاهة سيماها الحسد ، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد :

فخرٌّ على الألاءةِ لم يوسَّدْ كأنَّ جبينهُ سيفٌ صقيلُ [2]

فيا لله من أشلاء هنالك ضائعة ، وأعلاق غير مصونة ، ووسائل مخفورة ، وأذمّة قُطعت أرحامها ، ولم يُرعَ ذمامها ، وعاثت الأيدي الفاتكة حينئذٍ على بنيه ، وارتكبوها شنعاء في أهله وذويه :

---

١ الأرسال : جمع رسول ، وهو غير مألوف .

٢ البيت لابن عنمة الضبي في رثاء بسطام بن قيس (الحماسية رقم : ٣٥٥ من شرح المرزوقي) ؛ والألاءة : الواحدة من شجر الألاء .

هل كان إلاّ حياً تحيا العبادُ به ... هل كان إلاّ قذًى في عين ذي عوَرِ
إن قال قولاً ترى الأبصارَ خاشعةً ... لما يخبِّر من وحيٍ ومن أثرِ
يا لهفَ قلبيَ لو قد كنتُ حاضرَهُ ... غداةَ جرَّعه أدهى من الصَّبِرِ
لما تركتُ له شلواً بمَضيَعَةٍ ... ولا تولّى صريعَ النابِ والظُّفُرِ
«وكان ما كان ممّا لست أذكره ... فظُنَّ خيراً ولا تسألْ عن الخبرِ»

وإن سأل سائلٌ عن الخبر الذي ألمعنا بذكره ، وضمّنّا هذا البيت ذروا[1] من فظيع أمره ، فذلك عندما تسبّبَ صاحبُ الأمر إليه ما راب ، وتلّه وابنيه للجبين مُعَفَّرين بالتّراب ، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ، ويتشفّع بعظيم بركاته ، فأخذته السيوفُ ، وتعاورته الحتوف ، وأذهبه سليباً قتيلاً ، مُصَيَّراً مصراع منزله كثيباً مَهيلاً ، وكنا على بعد من هذه الآزفة التي أورثت القلوب شَجَناً طويلاً ، وذكّرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله لجانبه أعظم ذكرى ، فأغرينا برثائه خلَداً وفكرا ، وارتجلنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارةً مقنعة ، وكناية في السلوان مطمعة ، وأرضينا بالشفقة أوداءه ، وأرغمنا بتأبينه أعداءه ، ولما تبلج الصبح لذي عينين ، وتلقينا راية الفرج بالراحتين ، عطفتنا على أبنائه عواطفُ الشفقة ، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدي عليه صلةً لرحمٍ طالما أضاعها من جهل الأذمّة ، وأخفر عهود تخدّمه لمن سلَف من الأئمة ، وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضمَّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيدِ أعمالنا ، وكان تعلّقَ بمحفوظنا جملة وافرةٌ من كلامه ، مشتملةٌ على ما راق وحَسُنَ من نثاره ونظامه ، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادُنا من رقاعه الحائلة المنتهبة بأيدي النوائب ، الداثرة المستلبة بتعدي النواصب ، فخلص من الجملة قلائدُ عِقيان ، وعقود در ومرجان ، ترتاح

---

[1] ذروا : طرفا ؛ وفي ق : درا .

النفوسُ النفيسة لإنشادها ، وتحضر الأبصارُ والأسماعُ[1] عند إيرادها ، إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا ، والإشارة بعظيم ملكنا ، فشرعنا في تقييد أوابدها الشاردة ، وإحياء رسومها البائدة ، كلفاً بالأدب لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله . ولنبدأ بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه ، ونظهر ما كنا نضمره من الميل إليه ، في كل ما له أو عليه ، فنقول :

هو الفقيه الكاتب الفذ الأوحد ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحي ، ويُعرف بابن زمْرَك .

أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة ، وبها وُلد ، فنشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقّد ، مختصر الجرم والأعينُ بإطالة فواضله تشهد ، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالجناب الممهد ، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم والدؤوب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلاّ وهو متحمل الرواية ، وملتمس لفوائد الدراية ، ومُصابحٌ كلّ يوم أعلام العلوم ، ومستمدّ بمصابيح الحدود العلمية والرسوم ، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد الله ابن الفخار الآية الكبرى في فنّ العربية ، وتردد الأعوامَ العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء ، وبذ النحاة البلغاء ، بما أوجب رثاءه[2] عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سَراةَ الحيّ بالإطراقِ

واهتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب المعظم أبي عبد الله ابن مرزوق الوافد على مولانا الجدّ أبي الحجاج ، رضي الله تعالى عنه ، في عام ثلاثة

---

[1] الأزهار : وتحمد الأبصار الأسماع ؛ ق : وتحضر .
[2] ق : أن رثاه .

وخمسين وسبعمائة ، وإليه جنحَ ، وإياه قصد عند تغربه إلى المغربِ في دولة السلطان أبي سالم ، فتوجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها :

تَوَّجْتَــني بعمامَــهْ تُوِّجتَ تاجَ الكرامهْ
فرَوْضُ حمدك يُزهى مني بسجع الحمامهْ

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبي علي منصور الزواوي ، وبرع في الأدب أثناء الانقطاع وأوّلَ الطلب لأبي عبد الله ابن الخطيب ، ولكن لم يحمدْ بينهما المآل ، واقتدى في العلوم العقلية بالشريف أبي عبد الله التلمساني قدوة الزمان ، وحصلتْ له الإجازةُ والتحديثُ بقاضي الجماعة وشيخ الجملة أبي البركات ابن الحاج ، وبالخطيب البليغ أبي عبد الله اللوشي ، وبالخطيب الورع أبي عبد الله ابن بيبش [١] العبدري ، رضي الله تعالى عنه وعن جميعهم ، وبواجب محافظتنا على عهدهم ، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عَذْبَ وِردهم ، وصل سببنا بهم الكثير من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبي محمد عبد الله بن جزي ، ومعلمنا الثقة المجتهد أبي عبد الله الشريشي ، والقاضي الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن علاق ، وغيرهم ، رحمة الله تعالى عليهم ، لذلك صار صدراً في نوادي طلبة الأندلس وأفراد نجبائها ، فما شاءه المحاضر يجده في خصله [٢] ، ويتلقاه من باهر فضله ، فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة ، وجواباً مطبقاً للمفصل [٣] ، وذهناً سابقاً لإيضاح المشكل ، مع انقياد الطبع ، وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع والرقة ، ورشح الجبين عند تلقّي الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة وبذل وسع وكرم نفس ، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة في الهَشَّةِ

١ ق : بيش .
٢ الخصل : اللؤلؤ ؛ وفي ق : خصلته .
٣ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : شافياً للمفصل .

والمبرّة والإيثار بما منح ، وجنوح إلى حبّ الصالحين ، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر ابن الزيات ، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهديّ ، قدس الله تعالى مغناه ، وسواهما من أهل الاندلس والعُدْوة ، وحمله أشد الحمل على كل ملبّس[1] كأبي زكريا البرغواطي وسواه . ومن تندبراته – زعموا – على أبي الحسن المحروق لميله عنه :

ولدُ الفقرِ والرباطِ ولكنْ   نفْسُه للسلوكِ ذاتُ افتقار

وخطب الأدبَ يافعاً وكهلاً ، وحاز علمه إدراكاً ونَهلاً ، ولما كانت الحادثة على مولانا الجد – رحمه الله تعالى – واجتاز إلى المغرب كما تقرر في غير هذا ، كلف به وأنس إليه ، لحلاوة منطق ورفع استيحاش ومراوضة خُلُق ، ثمّ كرَّ في صحبة ركابه فَعَلَتْ منزلته ولَطُفَ محله .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدىء فيها ويعيد ، ويقول : خدمته سبعاً وثلاثين سنة : ثلاثاً بالمغرب ، وباقيها بالأندلس ، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً ، وكلُّ ما في منازله السعيدة من القصر والرياض والدشار[2] والسبيكة من نظم رائق ، ومدح فائق ، في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك فهو لي ، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج ، وهما كبيرا ملوك أهل الأرض ، وهنأته بكذا وكذا قصيدة ، وفوّض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعُدْوتين ، وصلح النصارى عقدته تسع مرات ، ألحسنةٍ فوّض إليَّ ذلك ؟

قلنا : صدق في جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له . وخصَّه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره ، فحُمِد مَنابُه ، ونمت أحواله ورَغِدَ جنابه ، وكان هنالك بعض تقوّلات تشين

---

١ ملبس : مخلط ؛ وفي الأزهار وق : متلبس .
٢ الدشار : القرية أو الكفر ، والجمع دشر ودشائر .

وجه اجتهاده ، وتومىء بما احتَقَبه من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه، وهاجت الفتنة ، فكانت سفارته أعظم أسبابها .

وعند الأشُدّ من عُمُره عرضتْ لأفكاره تقلبات ، وأقعدته عن قِداح السياسة آفاتٌ مختلفات ، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط[1] في أشراك وقعات ، فقعد بجامع مالَقَة ثمّ بمسجد الحمراء ملقياً على الكرسي فنوناً جمة ، وعلوماً لم يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلة ، فانحاز إلى مادة[2] أمم بمالقة طما منهم البحر ، وتراءى لأبصارهم وبصائرهم الفخر ، وكان التفسير أغلبَ عليه لفرط ذكائه ، وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقرائه ، فما شئت من بيان ، وإعجاز قرآن ، وآيات توحيد وإخلاص ، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يوم الأخذ بالنواصي ، ومراراً عدة سمع ما يلقيه وليُّ الأمر ، ويا شدةَ البلوى التي أذاقه مُرَّها ، وأمطاه إلى طيّةِ الهلاك ظهرَها ، ويا قربَ ما كان الفوت ، والحسام الصَّلت ، من متباعد هذه القُرَبِ التي ألفيت[3] .

قلنا : لقد جمح جواد القلم فأطلقنا[4] ونحن نشير إلى هذا الرئيس[5] وتبدل طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعه ، وإحراز شيم أدت إلى علوّ مقداره ، واستقامة مَداره ، فآل عمر مولانا جدنا إلى النفاد ، ورمت رئيسَ كتّابه هذا أسهمُ الحساد ، فظهر الخفيّ ، وسقط به الليل على سرحان ، وقد طالما جرَّبَ الوفيَّ والصفيَّ . وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر دون حجّاب الدولة ، والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجبِلّة ، مع الاستغراق في غمار الفتن أندلساً وغَرْباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصباً ، أما الجراعة فانتضى سيوفها ،

---

١ الأزهار : أنه متخبط .
٢ ق : مالقة .
٣ الأزهار : من تباعد . . . ألقيت .
٤ يعني أطلقنا له العنان .
٥ ق : الرائس ؛ حيثما وقعت .

وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوّع صنوفها ، وأما المجاهرة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها ، وأما المجاملة فنكّر معروفها ، أداه هذا النبأ [1] العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة المرية ، وعلى الأثر كان الفرج قريباً ، وسطور المؤاخذة قد أوسعها العفو تضريباً ، ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجد الغني بالله ، وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة ، لأسباب يطول شرحها أظهرُها شراسة في لسانه ، واغترار بمكانه ، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه ، فكبا لليدين والفم ، إلى أن منّ الله تعالى بسَراحه ، وأعاده إلى الحضرة في أول شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة ، فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى ، وقيام أخينا محمد مقامه بالأمر ، فاستمر الحال أياماً قلائل ، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام ، ثمّ أعاد المذكور إلى خُططه وقد دَمِثَتْ بعضُ أخلاقه ، وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه ، فما كان إلاّ كلا وليت وإذا به قد ساء مشهداً وغَيْباً ، وأوسع الضمائر شكّاً وريباً ، وغلبت الإحَنُ عليه ، وغلت مراجلها لديه ، فصار يتقلب على جمر الغضا ، ويتبرّم بالقضا ، ويُظهر النصح وفي طيّه التشفّي ، ويَسِم نفسه بالصلاح ، ويعلن بالخشوع ، ويشير بأنّه الناصح الأمين ، ويتلو قوله تعالى ﴿ولكن لا تحبُّون الناصحين﴾ (الأعراف : ٧٩) ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوباً لم يقترفوها ، ونسب إليهم نِسباً من التضييع لم يعرفوها ، وأنهم احتجنوا الأموال ، وأساءوا الأعمال والأقوال ، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حَصَل على تفاوت أعداده على حاصل ، هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ، وعدم اضطلاعه بالأمور الجبائية ، فمن نفس يروّع سِرْبها ، ويكدر بالامتحان والامتهان شربها ، ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سُلبت ، وطولبت بغير ما اكتسبت ، وتعدت الأيدي إلى أقوام جلّة سعدوا بشقائه ، وامتُحِنوا وهم المبرّأون من تزويره واعتدائه ، وسيسألون يوم لا يغني مال ولا بنون .

وصار يصرف أغراضه ، ويُظهر أحقاده ، بين إفصاح بما كان الإعجامُ خيراً من إلقائه ، وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقائه ، إلى مجاهرة عُهد منه أيام شبيبته نقيضُها ، وانعكس في شاخته تصريحُها المنغص وتعريضُها ، لا يريح نفسه من جَهْد ، ولا يقف من اللجلجة عند حد ، وقد كان ثقل سمعه فساءت إجابته ، وطغت أخلاقه فسئم الناس وساطته ، وربما استحلف فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلاّ الحنث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وَعْد ، وأن يقيض الله له وهم قاتل عمد ، فسبحان القاهر فوق عباده ، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده ، فاستمرّ على ذلك إلى إحدى الليالي ، فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه ، تلقّاه — زعموا — عند الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع يديه[1] ، فجدلته السيوف ، وتناولته الحتوف ، فقضي عليه ، وعلى من وجد من خدامه وابنيه ، كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته ، ولم يتقوا الله فيه حَقّ تُقاته ، فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ، وساءت القالة ، وعظم المصاب ، وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب . انتهى كلام ابن الأحمر في مقدمة كتابه[2] .

وقد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زمْرَك ، وقتله على الوجه الذي يُعلم منه أن ثأر لسان الدين ابن الخطيب لديه لا يترك ، بل قتلته أفظع من قتلة لسان الدين ، لأن هذا قُتل بين عياله وأهله ، وقُتل معه ابناه ومن وجد من خدمه ، ولسانُ الدين رحمه الله تعالى خُنق بمفرده ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وهو العفوُّ الغفور .

وقد فُهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمائة ، ولم أقف من أمره على غير ما تقدم .

---

١ ق : رافعاً به .

٢ سمي هذا الكتاب « البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » .

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارع ممّا كنت انتقيته بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور ، وأوردت كثيراً منه في « أزهار الرياض » .

فمن ذلك قوله في ذكر غرناطة العلية ، وتهنئة سلطانه الغني بالله ببعض المواسم العيدية ، ووَصْف كرائم جياده ، وآثار ملكه وجهاده :

يا مَنْ يحنُّ إلى نجدٍ وناديها ... غرناطةٌ قد ثَوَتْ نجدٌ بواديها
قفْ بالسبيكةِ وانظرْ ما بساحتها ... عَقيلَةٌ والكثيبُ الفردُ جاليها[1]
تقلَّدَتْ بوشاحِ النهرِ وابتسمتْ ... أزهارُها وهيَ حَلْيٌ في تراقيها
وأعينُ النرجسِ المطلولِ يانعةٌ ... ترقرقُ الطلَّ دمعاً في مآقيها
وافترَّ ثغرُ أقاحٍ منْ أزاهرها ... مقبِّلاً خَدَّ وردٍ منْ نواحيها
كأنّما الزهرُ في حافاتها سَحَراً ... دراهمٌ والنّسيمُ اللَّدْنُ يجبيها
وانظرْ إلى الدَّوْحِ والأنهارُ تكنفها ... مثل الندامى سواقيها سواقيها
كم حولها من بدورٍ تجتني زَهَراً ... فتحسبُ الزهرَ قد قبَّلْنَ أيديها
حصباؤها لؤلؤ قد شفَّ جوهرها ... والنهرُ قد سالَ ذَوْباً من لآليها
نهرُ المجرَّةِ والزَّهرُ المطيفُ به ... زُهرُ النجومِ إذا ما شئت تشبيها
يزيدُ حسناً على نهرِ المجرَّةِ قد ... أغناهُ درُّ حَبابٍ عن دراريها
يدعى المنجّمَ رائيهِ ونـاظرُهُ ... مسمّياتٌ أبانتهـــا أساميهـــا
إنَّ الحجازَ مَغانيهِ بأندلسٍ ... ألفاظها طابقتْ منها معـــانيها
فتلكَ نجدٌ سقاها كلُّ منسجمٍ ... من الغمامِ يحيّيها فيحييهـــا
وبارقٌ وعُذَيْبٌ كلُّ مبتسمٍ ... من الثغورِ يجلّيها مجلّيهـا
وإن أردتَ ترى وادي العقيقِ فَرِد ... دموعَ عشاقها حمراً جواريها
وللسبيكةِ تاجٌ فوقَ مفرقها ... تودُّ درُّ الدراري لو تحلّيهـا

---

[1] حين عدد لسان الدين البساتين والمتنزهات في غرناطة قال : « ومدرج نجد ومدرج السبيكة وجنة العريف » وتقع السبيكة إلى الجنوب الشرقي من الحمراء .

فإنّ حمراءها والله يكلؤهـا ... ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها
إنّ البدورَ لتيجانٌ مكلّلةٌ ... جواهرُ الشُّهبِ في أبهى مجاليهـا
لكنّها حسدت تـاجَ السبيكة إذ ... رأتْ أزاهـرَهُ زَهراً يحـلّيهـا
بروجهـا لبروجِ الأفقِ مخجلةٌ ... فشُهبهـا في جمالٍ لا تضاهيها
تلك القصورُ التي راقت مظاهرُها ... تهوي النجومُ قصوراً عن معاليها
لله لله عيْنا مَنْ رأى سَحَراً ... تلكَ المنارةَ قد رقّتْ حواشيها
والصبحُ في الشرق قد لاحت بشائره ... والشهبُ تَستّنُّ سبقاً في مجاريها
تهوي إلى الغرب لمّا غالها سَحَرٌ ... وغمّضَ الفجرُ من أجفانِ واشيها
وساجع العود في كف النديمِ إذا ... ما استوقفتْ ساجعات الطيرِ يغريها [1]
يُبدي أفانينَ سحرٍ في ترنّمه ... يُصبي العقولَ بها حسناً ويسبيها
يجسُّه ناعمُ الأطرافِ تحسبهـا ... لآلئـاً وهيَ نورٌ في تلاليها
مقاتلٌ بلحاظٍ قوسُ حاجبهـا ... ترمي القلوبَ بها عمداً فتُصميهـا
فباكر الروضَ والأغصان مائلة ... يثني النفوسَ لها شوقاً تثنّيها
لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب ... حتى شدا من قيانِ الطيرِ شاديها
وأسمعتْها فنونَ السحرِ مبدعةً ... وُرْقُ الحمامِ وغنّاها مغنّيهـا
غرناطةٌ آنسَ الرحمنُ ساكنَها ... بلحتْ بسرٍّ معانيها أغانيهـا
أعدى نسيمُهمُ لطفاً نفوسَهمُ ... فرقّةُ الطبعِ طبعٌ منهُ يعديها
فخلّدَ اللهُ أيامَ السرورِ بهـا ... صُفْراً عَشيّاتها بيضاً لياليها
وروّضَ المحلَ منها كلُّ منبجسٍ ... إذا اشتكتْ بغليل الجدبِ يرويها
يحكي الخليفةَ كفّاً كلّما وكفتْ ... بالجودِ فوق مَواتِ الأرض يحييها
تغني العفاةُ وقد أمّتْ مكارمهُ ... عن السؤالِ وبالإحْسانِ يُغْنيهـا

---

١ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي النجارية : ما استوقف الطير يدنيها ويقربها .

لها بنانٌ فلا غيثٌ يساجلها جوداً ولا سُحبه يوماً تدانيها
فإن تصُبْ سُحبه بالماء حينَ همَتْ بعسجد وبلجينٍ صابَ هاميها
يا أيها الغيثُ أنتَ الغوثُ في زمنٍ ملوكه تلفتْ لولا تلافيها
إنَّ الرعايا جزاكَ الله صالحةً ملكتَ شرقاً وغرباً من يراعيها
إنَّ الخلائقَ في الأقطارِ أجمعها سوائمٌ أنتَ في التحقيقِ راعيها
فكلُّ مصلحة للخلقِ تحكمها وكلُّ صالحةٍ في الدينِ تنويها
إذا تيممتَ أرضاً وهي مجدبةٌ فرحمةُ اللهِ بالسقيا تحيّيها
يا رحمةً بَثّتِ الرحمى بأندلسٍ لولاكَ زلزلتِ الدنيا بمن فيها
في فضلِ جودك قد عاشتْ مشيختها في ظلِّ أمنك قد نامتْ ذراريها
في طولِ عمركَ يرجو اللهَ آملُها بنصرِ مُلكِكَ يدعو اللهَ داعيها
عوائدُ الله قد عوَّدْتَ أفضلها لتبلغَ الخلقُ ما شاءت أمانيها
سُلَّ السعود وخلِّ البيضَ مغمَدَةً واضرب بها فرقةَ التثليثِ تفريها
للهِ أيامُكَ الغرُّ التي اطردتْ فيها السعودُ بما ترضي ويرضيها
للهِ دولتُكَ الغراء إنَّ لها لكافلاً من إلهِ العرشِ يكفيها
هيهاتَ أنْ تبلغَ الأعداءُ مأربةً في جريها وجنودُ اللهِ تحميها
هذي سيوفُكَ في الأجفانِ نائمةٌ والمشركونَ سيوفُ اللهِ تفنيها
سريرةٌ لك في الإخلاصِ قد عرفتْ حُسْنَى عواقبها حتى أعاديها
لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصرٍ[1] إلاّ وهدْيُكَ للأبصارِ يبديها
يا ابنَ الملوكِ وأبناء الملوك إذا تدعو الملوكُ إلى طوعٍ تلبّيها
أبناءُ نصرٍ ملوكٌ عزَّ نصرهُمُ وأوسعوا الخلقَ تنويهاً وترفيها
همُ المصابيحُ نور الله موقدها تضيء للدينِ والدنيا مشاكيها
همُ النجومُ وأفقُ الهدي مطلعها فوزاً لمهديّها عزّاً لهاديها

---

1 الأزهار : لم تحتجب شهب الآفاق عن بصر .

هُمُ البدورُ ، كمالٌ ما يفارقها هُمُ الشموسُ ، ظلامٌ لا يواريها
قضتْ قواضبُها أنْ لا انقضاء لها وأمضتِ الحكمَ في الأعدا مواضيها
وخلّدت في صفاح الهندِ سيرتَها وأسندتْ عن عواليها معاليهـا
وأورثتكَ جهاداً أنتَ ناصره والأجرُ منك يُرَضّيها ويحظيها
كم موقفٍ ترهب الأعداءُ موقعه والخيل تردي ووقع السُمرِ يرديها
ثارتْ عجاجتهُ واليومُ محتجبٌ والنقعُ يؤثرُ غيماً من دياجيهـا
وللأسنّةِ شُهُبٌ كلما غربتْ في الدارعينَ تجلّتْ من عواليهـا
وللسيوفِ بروقٌ كلما لمعتْ تزجي الدماء وريح النصر يُزجيها
أطلعتَ وجهاً تريك الشمسَ غرتُه تباركَ الله ما شمسٌ تُساميها
من أين للشمسِ نُطقٌ كله حِكَمٌ يفيدها كلَّ حينٍ منكَ مبديهـا
لكَ الجيادُ إذا تجري سوابقها فللرياحِ جيادٌ ما تجاريهـا
إذا انبرتْ يومَ سبْقٍ في أعنّتها ترى البروقَ طِلاحاً لا تباريها
من أشهبٍ قد بدا صبحاً تراع لهُ شُهُبُ السماء فإنَّ الصبحَ يخفيها
إلاّ التي في لجامٍ منه قيّدها فإنّهُ سامها عزّاً وتَنْويهـا
أو أشقرٍ مرَّ عن[1] شقر البروق وقد أبقى لها شفقاً في الجوّ تنبيها
أو أحمرٍ جمرُهُ في الحربِ متّقدٌ يعلو لها شررٌ من بأسٍ مذكيها
لونُ العقيقِ وقد سال العقيقُ دماً بعِطْفِهِ من كماةٍ كرَّ يدميها
أو أدهمٍ ملء[2] صدر الليلِ تنعله أهلّة فوق وجه الأرض يبديها
إن حارت الشُهبُ ليلاً في مُقلّده فَصُبْحُ غرّته بالنورِ يهديهـا
أو أصفرٍ بالعَشيّاتِ ارتدى مرحاً وعَرفهُ بتمادي الليل ينبيهـا[3]

---

١ هكذا في ق ؛ وفي التجارية : مرعب ، ولا معنى له ؛ ق : تنيها

٢ الأزهار : مثل .

٣ ق : ينميها .

مموّهٌ بنضارٍ تاه من عجبٍ فليسَ يعدمُ تنويهاً ولا تيهـا
وربَّ نهرِ حسامٍ رقَّ رائقهُ متى تَرِدْهُ نفوسُ الكفرِ يرديها
تجري الرؤوس حباباً فوق صفحته وما جرى غيرَ أنَّ البأسَ يجريها
وذابلٍ من دمِ الكفّارِ مشربُهُ يُجني الفتوحَ وكفُّ النصرِ تجنيها
وكم هلالٍ لقوسٍ كلما نبضتْ ترى النجومَ رجوماً في مراميهـا
أئمّةُ الكفرِ ما يمّمتَ ساحتَهـا إلاّ وقد زلزلتْ قسراً صياصيها
يا دولةَ النصرِ هل من مُبلغٍ دولاً مضَينَ أنّك تحييهـا وتنسيها
أو مبلغٍ سالفَ الأنصار مألُكةً والله بالخلدِ في الفردوس يجزيها
أنَّ الخلافةَ أعلى الله مظهرهـا أبقتْ لنا شرفاً والله يبقيهـا
يا ابنَ الذين لهم في كلّ مكرمةٍ مفاخرٌ ولسانُ الدهرِ يمليها
أنصارُ خيرِ الورى ، مختارُ هجرته جيرانُ روضته ، أكرِمْ بأهليها
سمّتهمُ الملّةُ السمْحاءُ تكرمةً أنصارَها ، وبهمْ عزّت أواليهـا
ففي حُنينٍ وفي بدرٍ وفي أُحُدٍ تُلْفي مفاخرهم مشهورةً فيها
ولتسألِ السِّيَرَ المرفوعَ مُسندها فعن مواقفهم تُروى مغازيهـا
مآثرٌ خلّدَ الرحمنُ أثرتهـا ينصُّها من كتاب الله قاريها
ماذا يجيدُ بليغٌ أو ينمّقهُ من الكلامِ ووحيُ اللهِ تاليهـا
له الجهادُ بهِ تسري الرياحُ إلى ممالكِ الأرضِ من شتّى أقاصيها
تحدى الركاب إلى البيتِ العتيقِ بهِ فمكّةٌ عمرتْ منهُ نواديهـا
بشائرٌ تسمعُ الدنيـا وساكنها إذا دعا باسمكَ الأعلى مناديها
كفى خلافتكَ الغراء منقبةً أنَّ الإلهَ يوالي منْ يواليهـا
وقد أفادَ بنيهِ الدهرُ تجربةً أنَّ السعودَ تعادي منْ يعاديهـا
إذا رميتَ سهامَ العزمِ صائبةً فما رميْتَ ، بل التوفيقُ راميها
شكراً لمنْ عظمتْ منّا مواهبهُ وإن تُعَدَّ فليسَ العدُّ يحصيها

عمّا قريبٍ ترى الأعيادَ مقبلةً ... من الفتوحِ ووفدُ النصرِ حاديها
وتبلغُ الغايةَ القصوى بشائرها ... فقد أظلّتْ بما ترضى مباديها
فاهنأ بما شئتَ من صنعٍ تُسَرُّ بهِ ... وانوِ الأمانيَّ فالأقدارُ تُدنيها
مولايَ خذها كما شاءتْ بلاغتها ... ولو تُباعُ لكانَ الحسنُ يَشريها
أرسلتها حيثما الأرواحُ مرسلةٌ ... نوادراً تنشرُ البشرى أماليها
جاءت تهنّيكَ عيدَ الفطرِ معجبةً ... بحسنها ولسانُ الصدقِ يُطريها
البِشرُ في وجهها ، واليُمنُ في يدها ... والسحرُ في لفظها ، والدرُّ في فيها
لو رصّعَ البدرُ منها تاجَ مفرقهِ ... لم يرضَ درَّ الدراري أن تحلّيها
فإن تكن بنت فكري وهو أوجدها ... نعماكَ في حجره كانت تربيها
في روض جودك قد طوّقتني مِنناً ... طوقَ الحمامِ فما سجعي موفّيها
ولو أعرتُ لسانَ الدهرِ يشكرها ... لكان يقصرُ عن شكرٍ يوفّيها
بقيتَ للدينِ والدُّنيا إمامَ هدًى ... مبلّغ النّفْس ما ترجو أمانيها
والسعدُ يجري لغاياتٍ تؤمّلها ... ما دامتِ الشُّهبُ تجري في مجاريها

وقال رحمه الله تعالى شاكراً لنِعَمٍ وصلته من المذكور في عاشوراء :

مولايَ يا ابنَ السابقينَ إلى العلا ... والرافعينَ لواءهـا المنشورا
إنْ لوحظوا في المَعْلواتِ فإنهم ... طلعوا بآفاقِ العلاء بدورا
أو فوخروا في المكرماتِ فإنهمْ ... نظموا بأسلاكِ الفخارِ شذورا
أبنـاءُ أنصارِ النّبيِّ وصحبهِ ... في الذكرِ أصبحَ فخرهم مذكورا
والمؤثرينَ ، وربّنـا أثنى بها ... في الحشرِ خلّدَ وصفهم مسطورا [1]
فاضتْ علينا من نداكَ غمائمٌ ... وتفجّرتْ من راحتيكَ بحورا
من كفّ شفّافِ الضياء تخاله ... لصفاء جوهره تجسّدَ نورا

---

[1] يشير إلى الآية الكريمة في الأنصار «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

نِعَمٌ منوّعَةٌ تعدَّدَ وفرُها أعجزتَ عنها شكريَ الموفورا
في موسمٍ للدينِ قد جدَّدتَهُ وأقمتَ فينا عيده المشهورا
أضعاف ما أهديتنا من مِنّةٍ تُهدي إليكَ ثوابها عاشورا
وعلى الطريقِ بشائرٌ محمودةٌ ألقاكَ جذلاناً بها مسرورا

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح ، وقد وقع له السلطان الغني بالله المذكور بذلك ، فارتجل قطعاً منها :

أتوني بنوّارٍ يروقُ نضارةً كخدّ الذي أهوى وطيبِ تنفُّسه
وجاءوا به من شاهقٍ متمنّعٍ تمنُّعَ ذاك الظبي في ظلّ مكنِسه
رعى الله مني عاشقاً متقنعاً بزهرٍ حكى في الحسن خدَّ مؤنسه
وإن هبَّ خفّاقُ النسيمِ بنفحةٍ حكتْ عَرفَهُ طيباً قضى بتأنسه

ومنها :

رعى الله زهراً ينتمي لقرنفلٍ حكى عَرْفَ مَن أهوى وإشراقَ خدِّهِ
ومَنْبِتهُ في شاهقٍ متمنّعٍ كما امتنع المحبوبُ في تيهِ صدِّهِ
أميل إذا الأغصانُ مالتْ بروضةٍ أعانقُ منها القُضبَ شوقاً لقدِّهِ
وأهفو لخفّاقِ النّسيمِ إذا سرى وأهوى أريج الطيب من عَرْفِ نَدِّهِ

ومنها :

يقرُّ بعيني أن أرى الزهرَ يانعاً وقد نازع المحبوبَ في الحسن وصفَهُ
وما أبصرتْ عيني كزهرِ قَرَنْفُلٍ حكى خدَّ من يسبي الفؤادَ وعَرفَهُ
تمنّع في أعلى الهضابِ لمجتنٍ تَمَنُّعَهُ منّي إذا رمتُ إلفَهُ
وفي جبلِ الفتحِ اجتنَوْهُ تفاؤلاً بفتحٍ لبابِ الوصلِ يمنحُ عَطفَهُ
وما ضرَّ ذاكَ الغصنَ وهو مرنَّحٌ إذا ما ثنى نحو المتيّمِ عِطفَهُ

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مر : ومن القصائد التي يود الصبح سناها، والنسيم اللدن رقة معناها ، يهنيء مولانا الجد رضي الله تعالى عنه عند وصول خالصة مقامه ، وكبير خدامه ، القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية ، وتجديد المقاصد الودّيّة ، ووافق استئناف[1] راحة من الذات العلية ، ومن بعض فروع دوحتها[2] الزكية :

أدِرْها ثلاثاً من لحاظك واحبسِ ... فقد غالَ منها السكرُ أبناءَ مجلسِ
إذا ما نهاني الشيبُ عن أكؤسِ الطلا ... تديرُ عليَّ الخمرَ منها بأكؤسِ
عذيريَ من لحظٍ ضعيفٍ وقد غدا ... يحكِّمُ منّا في جسومٍ وأنفُسِ
وروضِ شبابٍ ماسَ غصنُ قوامه ... وفتّحَ فيهِ اللحظُ أزهارَ نرجسِ
وما زالَ وردُ الخدِّ وهو مضعّفٌ ... يعيرُ أقاحَ الثغرِ طيبَ تَنَفُّسِ
وكم جال طرفُ الطّرف في روض حسنه ... يقيِّدُهُ فيهِ العذارُ بسندسِ
أما ولياليِ الوصلِ في روضةِ الصّبا ... ومألفِ أحبابي وعهد تأنّسي
لئن نسيتْ تلك العهودَ أحبّتي ... فقلبيَ عَهْدَ العامريّةِ ما نسي
وحاشا لنفسي بعلما افترّ فَوْدُها ... من الشيبِ عَنْ صبحٍ بهِ متنفسِ
وألبسها ثوبَ الوقارِ خليفةٌ ... بهِ لبسَ الإسلامُ أشرفَ ملبسِ
وجدّدَ للفتحِ المبينِ مواسماً ... أقامَ بها الإيمانُ أفراحَ معرسِ
وأورثه العلياءَ كلُّ خليفة ... نماهُ إلى الأنصارِ كلُّ مقدّسِ
فيا زاجرَ الأظعانِ وهي ضوامرٌ ... بغيرِ الفلا والوحشِ لم تتأنّسِ
إذا جئتَ من دارِ الغنيِّ بربّهِ ... مُناخَ العُلا والعزِّ فاعْقِلْ وعرّسِ
فإن شئتَ من بحرِ السماحةِ فاغترفْ ... وإن شئتَ من نورِ الهدايةِ فاقبسِ

---

١ ق : استباق .

٢ ق : دوحتنا .

أمولايَ إنَّ السعدَ منكَ لآيةٌ[1] أنارتْ بها الأكوانُ جلوةَ مقبسِ
إذا شئتَ أن ترمي القصيَّ من المنى تدورُ لكَ الأفلاكُ مرفوعةَ القسي
فترمي بسهمٍ من سعودكَ صائبٍ سديدٍ لأغراضِ الأماني مُقَرْطِسِ
أهنيكَ بالإبلالِ ممَّنْ شفاؤه شفاؤكَ فاشكرْ مَنْ تلافى وقدِّسِ
ودعني أردْ يمناكَ فهي غمامةٌ تُبَخِّلُ صَوْبَ العارضِ المتبجِّسِ
أُقبِّلُ منهـا راحةً إثر راحة أتتكَ بها الركبانُ من بيت مقدسِ
ومن نَسَبَ الفتحَ المبينَ ولادةً إليهِ بغيرِ الفخرِ لم يتـأسَّسِ
فيـا أيها المولى الذي بكماله خلائفُ هذا العصرِ في الفخرِ تأتسي
لآمَنْتَ موسى من عوادي سميّه ولولاكَ لم يبرحْ بخيفةِ مُوجِسِ
بعثتَ بميمونِ النقيبةِ في اسمهِ خلودٌ لعزٍّ ثابتٍ متـأسِّسِ
فجاءكَ بالمالِ العريضِ هديةً بها الدينُ أثوابَ المسرَّةِ يكتسي
وشفّعها بالصافنـاتِ كأنّهـا وقد راقَ مرآها جآذرُ مكنسِ
تنصُّ من الإشرافِ جيدَ غزالةٍ وترنو من الإيجاسِ عن لحظِ أشوسِ
لك الخيرُ موسى مثلُ موسى، كلاهما بغيرِ شعارِ الودِّ لم يَتَلَبَّسِ
فلا زلتَ في ظلِّ النعيمِ وكلُّ مَنْ يُعاديكَ لا يَنْفَكُّ يشقى بأبؤسِ
عليكَ سلامٌ مثلُ حَمْدِكَ عاطرٌ تنفّسَ وجْهُ الصبحِ عنهُ بمعطسِ

وقال في مولد عام سبعة وستين وسبعمائة وألمّ في أخرياتها بوصف المشْوَرِ الأسنى، الرفيع المبنى:

زار الخيالُ بأيمَنِ الزوراء فجلا سنـاهُ غياهبَ الظلّماء
وسرى مع النسماتِ يسحبُ ذيلَهُ فأتَتْ تنمُّ بعنْبرٍ وكبـاء
هذا وما شيءٌ ألذَّ من المنى إلاّ زيارتُهُ مع الإغفـاء

---

[1] الأزهار: أمولاي وإن السعد منك ولاية.

بِتْنا خَيّالينِ التحفنا بالضنى والسقمِ ما نُخشى من الرقباء
حتّى أفاقَ الصبحُ من غَمَراته وتجاذبتْ أيدي النّسيم ردائي
يا سائلي عن سرِّ مَنْ أحببتُهُ السرُّ عندي ميّتُ الأحياء
تاللهِ لا أشكو الصبابةَ والهوى لسوى الأحبةِ أو أموتَ بدائي
يا دينَ قلبي لستُ أبْرحُ عانياً أرضى بسقمي في الهوى وعنائي
أبكي وما غيرُ النجيعِ مدامعٌ أذكي ، ولا ضرمٌ سوى أحشائي
أهفو إذا تهفو البروقُ ، وأنثني لسُرى النواسمِ منْ رُبى تيماء
باللهِ يا نفسَ الحمى رفقاً بمنْ أغريتَه بتنفّسِ الصُّعَداء
عجباً له يندى على كبدي وقد أذكى بقلبي جمرةَ البُرَحاء
يا ساكني البطحاء أيّ إبانةٍ لي عندكم يا ساكني البطحاء
أترى النوى يوماً تخيبُ قِداحها ويفوزُ قِدْحي منكمُ بلقاء
في حيّكمْ قمرٌ فؤادي أفقهُ تفديهِ نفسي من قريبٍ نائي
لم تُنسني الأيامُ يومَ وداعِه والركبُ قد أوفى على الزَّوراء
أبكي ويبسمُ والمحاسنُ تجتلى فعلقتُ بينَ تبسُّمٍ وبكاء
يا نظرةً جاذَبْتُها[1] أيدي النّوى حتّى استهلّتْ أدمعي بدماء
من لي بثانيةٍ تنادي بالأسى «قَدْكَ اتّئدْ أسرفت في الغُلواء»[2]
ولربَّ ليلٍ بالوصالِ قطعتُهُ أجلو دجاهُ بأوجُهِ الندماء
أنْسَيْتُ فيهِ القلبَ عادةَ حلمهِ وحثثتُ فيهِ أكؤسَ السرّاء
وجريتُ في طَلَقِ التصابي جامحاً لا أنثني لِمَقادَةِ النُّصحاء
أطوي شبابي للمشيبِ مراحلاً برواحِلِ الإصباحِ والإمساء

---

١ الأزهار : جادت بها .
٢ صدر بيت لأبي تمام ؛ وتمامه : « كم تعذلون وأنتم سجرائي » ورواية الديوان : أربيت في الغلواء .

يا ليت شعري هل أُرى أطوي إلى قبرِ الرسولِ صحائفَ البيداء
فتطيبَ في تلكَ الربوعِ مدائحي ويطولَ في ذاكَ المَقام ثَوائي
حيثُ النبوّةُ نورها متـألّقٌ كالشمسِ تُزْهى في سَناً وسَناء
حيثُ الرسالةُ في ثنيَّة قُدْسها رَفَعَتْ لهدي الخلقِ خيرَ لواء
حيث الضريح ضريحُ أكرمِ مرسَلٍ فخرِ الوجودِ وشافعِ الشُّفعاء
المصطفـى والمرتضـى والمجتَبي والمُنْتَقى مـن عنصرِ العليـاء
خيرِ البريّةِ مجتباها ذخرهـا ظِـلُّ الإلـهِ الوارفِ الأفياء
تاجِ الرسالةِ ختمها وقوامها وعمادها السامي على النُّظراء
لولاهُ للأفلاكِ ما لاحَتْ بها شُهبٌ تنيرُ دياجيَ الظَّلمـاء
ذو المعجزاتِ الغرِّ والآي الألى أكبرنَ عن عَدٍّ وعن إحصاء
وكفاكَ ردُّ الشمس بعد مغيبها وكفاكَ ما قد جاء في الإسراء
والبدرُ شُقَّ له وكم من آيةٍ كأناملٍ جـاءتْ[1] بنبعِ المـاء
وبليلةِ الميلاد كم من رحمَةٍ نشر الإلهُ بها ومن نعماء
قد بَشّرَ الرُّسلُ الكرامُ ببعثه وتقَدَّمَ الكهّـانُ بالأنبـاء
أكرم بها بشرى على قَدَمٍ سرَتْ في الكونِ كالأرواح في الأعضاء
أمسى بها الإسلامُ يُشرقُ نورهُ والكفرُ أصبحَ فاحِمَ الأرجاء
هو آيةُ اللهِ التي أنوارُهـا تجلو ظلامَ الشّكِّ أيَّ جـلاء
والشمسُ لا تخفى مزيّةُ فضلها إلاّ على ذي المقلةِ العمياء
يا مصطفى والكونُ لم تعلَقْ بهِ من بعدُ أيدي الخلقِ والإنشاء
يا مُظْهِرَ الحقِّ الجليِّ ومطلعَ الـ نورِ السنيِّ السّاطعِ الأضواء
يا ملجأ الخلقِ المشفّعِ فيهمُ يا رحمةَ الأمواتِ والأحياء
يا آسيَ المرضى ومنتجعَ الرضى ومواسيَ الأيتـامِ والضعفاء

---

[1] الأزهار : جادت .

أشكو إليكَ وأنتَ خير مؤمّـل ... داء الذنوبِ وفي يديكَ دوائي
إنّي مددتُ يدي إليكَ تضرُّعاً ... حاشا وكلاّ أن يخيبَ رجـائي
إن كنتُ لم أُخلص إليكَ فإنّما ... خلصتْ إليكَ محبّتي وندائي
وبسعدِ مولايَ الإمامِ محمّدٍ ... تَعِدُ الأمـاني أن يُتاحَ لقـائي
ظلُّ الإله على البلادِ وأهلها ... فخرُ الملوكِ السادةِ الخلفـاء
غوثُ العبادِ وليثُ مُشتجرِ القنا ... يومَ الطعانِ وفارجُ الغمّاء
كالدَّهرِ في سَطَواته وسماحهِ ... تجري صَباهُ بزَعزَعٍ ورُخـاء
رقّتْ سجـايـاهُ وراقتْ مجتلى ... كالنّهرِ وسطَ الروضة الغنّاء[1]
كالزهرِ في إبراقهِ ، والبدرِ في ... إشراقهِ ، والزُّهرِ في لألاء
يا ابنَ الألى إجمالهم وجمالهمْ ... فَلَقُ الصباحِ وواكفُ الأنواء
أنصارُ دينِ اللهِ حزبُ رسولهِ ... والسّابقونَ بحَلْبَـةِ العلياء
يا ابنَ الخلائفِ من بني نصرٍ ومَن ... حاطوا ذِمارَ الملّةِ السّمْحاء
من كلِّ مَنْ تقفُ الملوكُ ببابه ... يستمطرونَ سحائبَ النعماء
قومٌ إذا قادوا الجيوشَ إلى الوغى ... فالرعبُ رائدهم إلى الأعداء
والعزُّ مجلوبٌ بكلِّ كتيبةٍ ... والنصرُ معقودٌ بكلِّ لواء
يا وارثاً عنهـا مناقبها التي ... تسمو مراقيهـا على الجوزاء
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلها ... يجزيكَ عنها اللهُ خيرَ جزاء
كم خُضْتَ طوع صلاحها من مهمهٍ ... لا تهتدي فيهِ القَطـا للماء
تهدي بها حادي السُّرى بعزائمٍ ... تهدي نجومَ الأفقِ فضلَ ضياء
فارفعْ لواء الفخرِ غيرَ مدافَعٍ ... واسحَبْ ذيولَ العزة القَعْساء
واهنـأ بمبناكَ السعيـدِ فإنّهُ ... كهفٌ ليومِ مشورةٍ وعطاء

---

١ الأزهار : الفيحاء .

لله منهُ هالةٌ قد أصبحتْ حرَمَ العُفاةِ ومصرعَ الأعْداء
تتنابها طيرُ الرجاء فتجتني ثمرَ المنى من دَوحةِ الآلاء
لله منهُ قُبّةٌ مرفوعةٌ دونَ السماء تفوتُ لحظَ الرائي
راقتْ بدائعُ وشيها فكأنها وشيُ الربيعِ بمسقطِ الأنداء
عظّمْتَ ميلادَ النبيِّ محمّدٍ وشَفَعْتَهُ بالليْلَةِ الغرّاء
أحييتَ ليلكَ ساهراً فأفدتنا قوتَ القلوبِ بذلك الإحياء[1]
يا أيها الملكُ الهمامُ المجتبى فاتتْ عُلاكَ مداركَ العقلاء
من لي بأن أحصي مناقبك التي ضاقتْ بهنّ مذاهبُ الفصحاء
وإليكَ مني[2] روضةً مطلولةً أرجَتْ أزاهرُها بطيبِ ثناء
فافسح لها أكنافَ صفحك إنها بكرٌ أتت تمشي على استحياء

قال ابن الأحمر : ومن إعذاريات ابن زَمْرَك المحكمة نَسْقاً ورصْفاً ، المتناهية في كل فن حسن تحلية غريبة ووصفاً — حسبما اقتضته ملاحظة النسبة الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحتفاله المناسب لعز ملكه من تعميم الخلق بالجَفَلي في دعواهم ، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم ، تفنناً في مكارم متعددة أيامها عن أصالة المجد معربة ، وإغراء لهمم الملك بما لتتميم الأنس من أوضاع مغربة ، ومباهاة بعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ، وتكاثراً من مماليك دولته بالعَدَد الوافر ، ممّا ألجم اللسن الذكي عيّاً ، وغادر الإعذار النُّونيّ منسيّاً ، كلفاً الله سبحانه أبوّته للولوية عنّا وعن آبائنا ، وتلقى بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما يصلُ له من خالص دعائنا ، إنه منعم جواد — قولُه في الصنيع المختص من ذلك بمولانا الوالد قدّس الله تعالى روحه ، وذلك سنة أربع وستين وسبعمائة :

---

١ ورى هنا بكتابي « قوت القلوب » و « إحياء علوم الدين » .
٢ ق : منها ؛ يعني القصيدة .

معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا

القصيدة ، وقد تقدمت بتمامها فراجعها .

ثمّ قال : ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعمينا السيدين الأميرين سعد ونصر ، رحمة الله تعالى عليهما ، وأجاد في وصف الجند والجُرد والطلبة وغرائب الأوضاع :

أللمحةٍ من بـارقٍ متبسّمٍ	أرسلتَهُ دمعاً تَضَرَّجَ بالدمِ
وللمحةٍ تَهفو ببانات اللوى	يهفو فؤادكَ عن جوانح مغرم
هي عادةٌ عذريةٌ من يوم أن	خُلِقَ الهوى تعتادُ كلَّ متيّم
قد كنتُ أعذلُ ذا الهوى من قبل أن	أدري الهوى ، واليومَ أعذلُ لوّمي
كم زفرةٍ بينَ الجوانحِ ما ارتقتْ	حَذَرَ الرقيبِ ومدمعٍ لم يُسجَم
إن كان واشي الدمع قد كتم الهوى	هيهاتَ واشي السقمِ لمّا يكتم
ولقد أجدَّ هوايَ رسْمٌ دارسٌ	قد كاد يخفى عن خفيِّ توهُّم
وذكرتُ عهداً في حماهُ قد انقضى	فأطلتُ فيه ترددُّي وتلوُّمي
ولربما أشجى فؤادي عنـدهُ	ورقاءُ تَنْفُثُ شجوها بترنّم
لا أجدبَ الله الطلول فطالما	أشجى الفصيحَ بها بكاءُ الأعجم
يا زاجرَ الأظعانِ يحفزها السُّرى	قف بي عليها وقفةَ المتلوِّم
لترى دموعَ العاشقينَ برسمهـا	حُمْراً كحاشيةِ الرداء المُعْلَم
دِمَنٌ عهدت بها الشبيبة والهوى	سَقْياً لهـا ولعهدها المتقدّم
وكتيبَةٍ للشوقِ قد جهّزتُها	أغزو بها السُّلوان غزْوَ مصمّم
ورفعتُ فيها القلب بنداً خافقاً	وأريتُ للعشاق فضل تهمّمي
فأنا الذي شاب الحماسة بالهوى	لكنَّ من أهواهُ ضايقَ مقدمي
فطُعِنْتُ من قدِّ القوام بأسمرٍ	ورُميتُ من غُنْج اللحاظِ بأسهم

يا قاتلَ اللهُ الجفون فإنهـــا ... مهما رمتْ لم تخطِ شاكلة الرمي
ظلمتْ قتيلَ الحبّ ثمّ تبيّنتْ ... للسّقْمِ فيهـــا فترةُ المتظلّم
يا ظبيةً سنَحتْ بأكنافِ الحمى ... سُقيَ الحمى صوبَ الغمامِ المسجم
ما ضرَّ إذ أرسلتِ نظرة فاتكٍ ... أن لو عطفتِ بنظرة المترحّم
فرأيتِ جسماً قد أصيب فؤاده ... من مقلتيكِ وأنتِ لم تتأثّمي
ولقد خشيتِ بأنْ يقاد بجرحِهِ ... فوهبتِ لحظك ما أحلّكِ من دمي
كم خضتُ دونك من غمارِ مفازةٍ ... لا تهتدي فيها الليوثُ لمجثْم
والنجمُ يسري من دجاه بأدهمٍ ... رَحْبِ المقلّد بالثريّا ملجمِ
والبدرُ في صفح السماء كأنّه ... مرآةُ هندٍ وسط لُجٍّ ترتمي
والزهرُ زهرٌ والسماء حديقةٌ ... فتقتْ كمائمَ جنحها عن أنجم
والليلُ مُرْبَدٌّ الجوانحِ قد بَـدا ... فيـهِ الصباحُ كغرّةٍ في أدهم
فكأنما فلق الصباح وقد بدا ... مرأى ابن نصرٍ لاح للمتوسم
ملكٌ أفاضَ على البسيطةِ عدله ... فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم
هو منتهى آمال كلّ موفقٍ ... هو موردُ الصادي وكنزُ المُعدمِ
لاحتْ مناقبه كواكبَ أسعُدٍ ... فرأت ملامحَ نوره عينُ العَمي
ولقد تراءى بأسُهُ وسماحُهُ ... فأتى الجلالُ من الجمالِ بتوأم
مثل الغمامِ وقد تضاحك برقه ... فـأفــادَ بــينَ تجهّمٍ وتبسّم
أنسى سماحة حاتمٍ ، وكذاك في ... يوم اللقاء ربيعةَ بنَ مُكدّمِ
سِيَرٌ تسيرُ النيّراتُ بهديها ... وتعيرُ عَرفَ الروض طيبَ تنسم
فالبدرُ دونك في عُلاً وإنارةٍ ... والبحر دونك في ندى وتكرُّم
ولكَ القبابُ الحمر تُرفعُ للندى ... فترى العمائم تحتهـا كالأنجم
يذكي الكباءُ بها كأنَّ دخانهُ ... قِطَعُ السحاب بجوّها المتغيّم
ولكَ العوالي السمرُ تُشرَعُ للعدى ... فتخرُّ صرعى لليدينِ وللفَم

ولك الأيادي البيضُ قد طوقتها صيدَ الملوكِ ذوي التلادِ الأقدم
شيَمٌ يُقرُّ الحاسدونَ بفضلها والصبحُ ليس ضياؤهُ بمكتَّم
ورث السماحةَ عن أبيهِ وجدّهِ فالأكرمُ ابنُ الأكرم ابن الأكرم
نَقَلوا المعالي كابراً عن كابرٍ كالرمح مطَّرِدِ الكعوبِ مقوَّم
وتسنّموا رتبَ العلاء بحقها ما بين جد في الخلافة وابنم
يا آل نصر أنتمُ سُرُجُ الهدى في كلِّ خَطبٍ قد تجهّمَ مظلم
الفاتحونَ لكلِّ صعبٍ مُقفَلٍ والفارجون لكلِّ خطبٍ مبهم
والباسمون إذا الكُماةُ عوابسٌ والمقدمون على السوادِ الأعظم
أبنـاء أنصارِ النبيِّ وحزبِـه وذوي السوابقِ والجوارِ الأعصم
سلْ عنهمُ أحُداً وبَدْراً تلقَهم أهلَ الغَناء بهـا وأهلَ المغنم
وبفتح مكةَ كم لهم في يومه بلواء خيرِ الخلقِ من مُتَقَدِّم
أقسمتُ بالحرمِ الأمينِ ومكة والركنِ والبيتِ العتيقِ وزمزم
لولا مآثرهم وفضلُ علاهمُ ما كان يُعزى الفضلُ للمتقدم
ماذا عسى أثني وقد أثنتْ على عليائهمْ آيُ الكتابِ المحكم
يا وارثاً عنهـا مآثرها التي قد شيّدتْ للفخرِ أشرفَ معلم
يا فخرَ أندلسٍ لقد مُدّتْ إلى علياكَ كَفُّ اللائذِ المستعصم
أمّا سعودكَ في الوغى فتكفّلتْ بسلامةِ الإسْلامِ فاخْلُدْ واسلم
وافيتَ هذا الثغرَ وهو على شَفاً فشفيتَ مُعْضِلَ دائه المستحكم
ورعيتهُ بسياسةٍ دارتْ على مختطّهِ دورَ السوارِ بمعصم
كم ليلةٍ قد بتَّ فيها ساهراً تهدي الأمانَ إلى العيون النوّم
يا مظهرَ الألطافِ وهي خفيّة ومُهِبُّ ريحَ النصرِ للمتنسم
لله دولتكَ السَّني آثـارهـا سير الركابِ لمنجدٍ أو مُتهم
ما بعد يومكَ في المواسم بعدما أتبعتَ عيدَ الفطرِ أكرمَ موسم

وافتكَ أشرافُ البلادِ ليومهِ ... من كلّ ندبٍ للعلا متسنّمِ
صرفوا إليكَ ركابهم وتيمّموا ... من بابكَ المنتاب خيرَ ميمّمِ
وتبوّأوا منـهُ بـدارِ كرامـةٍ ... فـالكلُّ بـينَ مقرّبٍ ومنعّمِ
ودّتْ نجومُ الأفقِ لو مثلتْ به ... لتفوزَ فيهِ برتبةِ المستخـدمِ
والروضُ مختالٌ بحليةِ سندسٍ ... من كلّ موْشيّ الرقومِ منمنمِ
ورياحهُ نسمتْ بنشرٍ لطيمةٍ ... وأقـاحهُ بسمتْ بثغرٍ ملثّمِ[1]
وأريتنـا فيـهِ عجائبَ جمّـةً ... لم تجرِ في خلَدٍ ولم تُتوهّمِ
أرسلتَ سرعانَ الجيادِ[2] كـأنها ... أسرابُ طيرٍ في التّنُوفة[3] حوّمِ
من كلّ منحفزٍ بخطفةِ بارقٍ ... قد كاد يسبقُ لمحةَ المتوهمِ
طِرْفٌ يشكّ الطّرْفُ في استثباته ... فكـأنّـهُ ظنٌّ بصدرِ مرجّمِ
ومسافرٍ في الجوّ تحسبُ أنّهُ ... يرقى إلى أوجِ السماء بسلّمِ
رام استراق السمع وهو ممنّعٌ ... فأصيبَ من قُضُبِ العصيّ بأسهمِ
رجمتْه من شُهب النصال خواصبٌ[4] ... لولا تعرّضه لهـا لم يُرْجَمِ
ومدارة الأفلاكِ أعجز كنهُها ... إبداعَ كلّ مهندسٍ ومهندمِ
يمشي الرجالُ بجوفها وجميعهم ... عن مستوى قدميه لم يتقدّمِ
ومنوّعِ الحركاتِ قد ركبَ الهوا ... يمشي على خطٍّ بهِ متوهّمِ
فإذا هوى من جوّه ثمّ استوى ... أبصرتَ طيراً حولَ[5] صورة آدمِ

---

١ في أصول أزهار الرياض وفي التجارية : مسلم ؛ وصححه محققو الأزهار : « مثلم » وأثبتنا ما في ق ، لكونه أقرب إلى الصواب .

٢ سرعان الخيل : أوائلها .

٣ التنوفة : المفازة .

٤ ق : قواضب ، ولها وجه ، لأنه يتحدث عن الجواد ، فالقواضب السيوف ، وهي ترجمه أي تتعرض له .

٥ الأزهار : حل .

يمشي على فنن الرشاء كأنّهُ فيهِ مُساورُ ذابلٍ أو أرقمِ
وإليكَ من صونِ العقولِ عقيلةً وقفتْ ببابكَ وقفة المسترحمِ
ترجو قبولك وهو أكبر منحةٍ فاسمَحْ بهِ خلَّدْتَ من متكرّمِ
طاردتُ فيها وصفَ كلِّ غريبةٍ فنظمتُ شارده الذي لم يُنظمِ
ودعوتُ أربابَ البيانِ أريهمُ « كم غادر الشعراءُ من متردمِ » [1]
ما ذاكَ إلاّ بعضُ أنعمكَ التي قد علّمتنا كيفَ شكر المنعمِ

ثمّ قال : وأنشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعمنا الأمير أبي عبد الله – رحمة الله تعالى عليه – وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضي الله تعالى عنه :

سلِ الأفقَ بالزُّهر الكواكبِ حاليا فإنيَ قد أودعتُهُ شرْحَ حاليا
وحمَّلْتُ معتلَّ النّسيمِ أمانةً قطعتُ بها عمرَ الزمان أمانيا
فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفةٌ أُحمِّلها ما يستخفُّ الرواسيا
وساوسُ كم جدّت وجد بيَ الهوى فَعُدَّ به القلبُ المقلَّبُ هازيا
ومن يطع الألحاظ في شرعة الهوى فلا بدَّ أن يعصي نصيحاً ولاحيا
عدلتُ بقلبي عن ولاية حكمه غداة ارتضى من جائرِ اللحظِ واليا
وما الحبُّ إلاّ نظرةٌ تبعثُ الهوى وتُعقبُ ما يعيي الطبيبَ المداويا
فيا عجباً للعينِ تمشي طليقة ويصبحُ من جرّائها القلبُ عانيا
ألا في سبيلِ الله نفسٌ نفيسةٌ يرخّصُ منها الحبُّ ما كان غاليا
ويا ربَّ عهدٍ للشباب قضيتُهُ وأحسنتُ من دَيْن الوصال التقاضيا
خلوتُ بمن أهواه من غير رِقبةٍ ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا

---

[1] غير قول عنترة المفتتح بـ « هل » ؛ وعجز البيت : « أم هل عرفت الدار بعد توهم » وهو مطلع معلقته .

ويومٍ بِسِتٍّ الظباء شهدتُهُ أجدُّ وصالاً بالياً فيه باليا
ولم أصحُ من خمرِ اللحاظِ وقد غدا به الجوُّ وضَّاحَ الأسرَّةِ صاحيا
وجرَّدَ من غمدِ الغمامةِ صارماً من البرقِ مصقولَ الصفيح يمانيا
تبسَّمَ فاستبكى جفونيَ غمرةً[1] ملأتُ بدرِّ الدمعِ منها ردائيا
وأذكرني ثغراً ظمئتُ لوِرده ولا والهوى العذريِّ ما كنت ناسيا
وراح خفوقَ القلبِ مثلي كأنما ببرق الحمى من لوعة الحب ما بيا
وليلةَ بات البدرُ فيها مضاجعي وباتتْ عيون الشُّهبِ نحوي روانيا
كرعتُ بها بين العذيب وبارقٍ بموردِ ثغرٍ بات بالدرِّ حاليا
رشفتُ بهِ شهدَ الرضابِ سُلافةً وقبَّلتُ في ماء النعيمِ الأقاحيا
فيا بَرْدَ ذاكَ الثغرِ روَّيْتَ غلّتي ويا حَرَّ أنفاسي أذبتَ فؤاديا
وروضةِ حسن للشباب نضيرة هصرتُ بغصنِ البانِ فيها المجانيا
وبتُّ أُسَقّي[2] وردةَ الخدّ أدمُعي فأصبحَ فيها نرجسُ اللحظِ ذاويا
ومالتْ بقلبي مائلاتُ قدودِها فما للقدودِ المائلاتِ وما ليا
جزى الله ذاك العهد عَوْداً فطالما أعاد على ربعي الظباء الجوازيا
وقل لليالِ في الشبابِ نعمتُها وقضَّيتُها أُنساً : سُقيتِ لياليا
ويا وادياً رفّتْ عليَّ ظلالُه ونحن نُديرُ الوصلَ قُدِّسْتَ[3] واديا
رمتني عيونُ السِّرْبِ فيهِ وإنما رمينَ بقلبي في الغرام المراميا
فلولا اعتصامي بالأميرِ محمّدٍ لما كنتُ من فتك اللواحظِ ناجيا
فقل للذي يبني على الحسنِ شِعرَهُ عليه مَعَ الإحسانِ لا زلتَ بانيا
فكم من شكاة في الهوى قد رفأتُها ورفَّعتُها بالمدحِ إذ جاء تاليا

---

١ الأزهار : عبرة .
٢ الأزهار : وقد بت أسقي .
٣ الأزهار : فديت .

وكم ليلةٍ في مدحه قد سهرتُها أباهي بدرِّ النّظْمِ فيهِ الدراريا
ولاح عمودُ الصبحِ مثلَ انتسابه رفعتُ عليه للمديحِ المبانيا
إمـامٌ أفاد المكرماتِ زمانُـه وشادَ له فوق النجومِ المعاليا
وجاوز قَدْرَ البَدْرِ نوراً ورفعةً ولم يرضَ إلاّ بالكمالِ مُواليا
هو الشمسُ بثت في البسيطةِ نفعَها وأنوارها أهدتْ[1] قريباً وقاصيا
هو البحرُ بالإحسانِ يزخَرُ موجُهُ ولكنه عذبٌ لمن جاء عافيـا
هو الغيثُ مهما[2] يمسكِ الغيثُ سُحبهَ يُرَوِّ بسُحبِ الجودِ من كان صاديا
شمائـلُ لو أنَّ الرياضَ بحسنها لما صار فيها زهرها الغضُّ ذاويا
فيا ابن الملوك الصِّيدِ من آل خزرجٍ وذا نسبٌ كالصبحِ عزَّ مُساميا
ألستَ الذي ترجو العفاةُ نوالَهُ فتُخجلُ جدواه السحابَ الغواديا
ألسـتَ الذي تخشى البغاةُ صيالَهُ فتوجل[3] علياهُ الصعابَ العواديا
وهديُكَ مهما ضلت الشُّهب قصدها تولته في جنحِ الدجنّةِ هاديا
وعزمك أمضى من حسامك في الوغى وإن كان مصقول الغرارين ماضيا
فكم قادحٍ في الدينِ يكفر ربّهُ قدحتَ لهُ زندَ الحفيظةِ واريـا
وما راعهُ إلاّ حسامٌ وعزمةٌ يضيئانِ في ليل الخطوبِ الدواجيا
فلولاك يا شمس الخلافةِ لم يبنْ سبيلُ جهادٍ كان من قبلُ خافيا
ولولاك لم ترفعْ سماء عجاجةٍ تلوحُ بها بيضُ النصولِ دراريا
ولولاك لم تنهلْ غصونٌ من القنا وكانت إلى وردِ الدماء صواديا
فأثمر فيها النصلُ نصراً مؤزَّراً وأجنى قطاف الفتح غضّاً ودانيـا
ومهما غدا سَفّاحُ سيفك عارياً يغادرُ وجهَ الأرضِ بالدم كاسيا

---

١ الأزهار : أبدت .
٢ ق : يهمي ، والتصحيح من الأزهار .
٣ الأزهار : فتنزل ، وكلتا اللفظتين غير موضحتين المعنى المقصود ، وسقط البيت من ق .

قضى الله من فوق السموات أنه ... على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا
فكم معقلٍ للكفرِ صبّحتَ أهلَه ... بجيشٍ أعاد الصبحَ أظلم داجيا
رقيتَ إليهِ والسيوفُ مشيحةٌ ... وقد بلَغَتْ فيهِ النفوسُ التراقيا
ففتّحتَ مرقاه المنيّعَ عنوةً ... وبات به التوحيدُ يعلو مناديا
وناقوسه بالقسرِ أمسى معطّلاً ... ومنبره بالذكرِ أصبحَ حاليـا
عجائبُ لم تخطرْ ببالٍ وإنّما ... ظفرنا بها عن همّةٍ هي ما هيا
فمنكَ استفادَ الدهرُ كلَّ عجيبةٍ ... يباهي بها الأملاكَ أخرى لياليا
وعنكَ يروّي الناسُ كلَّ غريبةٍ ... تخطّ على صفحِ الزمانِ الأماليـا
وللهِ مبناكَ الجميلُ فإنّـهُ ... يفوقُ على حكمِ السعودِ المبانيا
فكمْ فيهِ للأبصارِ منْ مُتَنَزَّهٍ ... تجدْ بهِ نفسُ الحليمِ الأمانيا
وتهوى النجومُ الزُّهرُ لو ثبتتْ به ... ولم تكُ في أفقِ السّماء جواريـا
ولو مثلتْ في سابقيه [١] لسابَقَتْ ... إلى خدمةٍ ترضيك منها الجواريا
به البَهْوُ قد حاز البهاء وقد غدا ... بهِ القصرُ آفاقَ السماء مُباهيا
وكمْ حُلّةٍ جلّلتهُ بحليّهـا ... من الوشي تُنمي السابريَّ اليمانيا
وكم من قسيٍّ في ذراهُ ترفّعتْ ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاكَ دارتْ قسيّها ... تظل عمود الصبحِ إذ بات [٢] باديا
سواري قد جاءت بكلّ غريبةٍ ... فطارت بها الأمثالُ تجري سواريا
بـه المرمرُ المجلوُّ قد شفَّ نوره ... فيجلو من الظّلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاعِ تخالها ... على عِظَمِ الأجرامِ منها لآليا
به البحرُ دفّاع العبابِ تخـاله ... إذا ما انبرى وفد النّسيمِ مباريـا
إذا ما جلت أيدي الصّبا متن صفحه ... أرتنا دروعاً أكسبتنا الأياديـا

---

١ الأزهار : ساحته .
٢ الأزهار : لاح .

وراقصة في البحرِ طوع عنانها ‏ تراجع ألحانَ القيانِ الأغانيا[1]
إذا ما علتْ في الجوّ ثمّ تحدرتْ ‏ تحلّي بمرفضّ الجُمان النواحيا
بذَوْبِ لجينٍ سال بين جواهرٍ ‏ غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابَهَ جارٍ للعيونِ بجامدٍ ‏ فلمْ أدرِ أيّاً منهما كانَ جاريا
فإن شئتَ تشبيهاً لهُ عن حقيقةٍ ‏ تصيبُ بها المرمى وبوركتَ راميا
فقل أرقصتْ منها البحيرة متنها[2] ‏ كما يُرقص المولودَ مَنْ كان لاهيا
أرتنا طباعَ الجودِ وهي وليدةٌ ‏ ولم ترضَ في الإحسانِ إلاّ تغاليا
سقت ثغر زهر الروض عذب برودها ‏ وقامتْ لكي تهدي إلى الدهر[3] ساقيا
كأن قد رأت نهر المجرّةِ ناضباً ‏ فرامت بأن تجري إليه السواقيا
وقامت بنات اللوحِ فيهِ مواثلاً ‏ فرادى ويتلو بعضهنّ مثانيا
رواضع في حجرِ الغرامِ ترعرعت ‏ وشبّت فشبّتْ حبّها في فؤاديا
بها كلُّ ملتفّ الغدائرِ مسبل ‏ تجيلُ بهِ أيدي النسيم مداريا
وأشرفَ جيدُ الغصن فيها معطّلاً ‏ فقلّدتِ النُّوّارَ منهُ التراقيا
إذا ما تحلّتْ دُرَّ زهرٍ غروسهُ ‏ يبيتُ لها النَّمّامُ بالطيبِ واشيا
مصارفة النقدينِ فيها بمثلها ‏ أجاز بها النقدينِ منها كما هيا[4]
فإن ملأتْ كفّ النسيم بمثلها[5] ‏ دراهمَ نورٍ ظلّ عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ‏ دنانيرَ شمسٍ تتركُ الروضَ حاليا
تغرّد في أفنانها الطيرُ كلّما ‏ تجسّ به أيدي القيان الملاهيا
تراجعها سجعاً فتحسبُ أنها ‏ بأصواتها تُملي عليها الأغانيا

---

١ الأزهار : النوانيا ؛ ق : المعانيا .
٢ الأزهار : نبتها .
٣ الأزهار : الزهر .
٤ الأزهار : أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا .
٥ الأزهار : مع الضحى .

فلم ندرِ روضاً منهُ أنعمَ نضرةً ... وأعطرَ أرجاءً ، وأحلى مجانيا
ولم نَرَ قصراً منه أعلى مظاهراً ... وأرفع آفاقاً ، وأفسح ناديا
معانيَ من نفسِ الكمالِ انتقيتَها ... وزيّنْتَ منها بالجمالِ المغانيا
وفاتحتَ مبناه بعيدِ شرعتهُ ... تبثُّ بهِ في الخافقينِ التهانيا
ولمّا دعوتَ الناسَ نحو صنيعهِ ... أجابوا لهم من جانب الغور داعيا
وأمّوهُ من أقصى البلادِ تقرُّباً ... وما زال منك السعد يدني الأقاصيا
وأذكرتَ يوم العرضِ جوداً ومنحةً ... بموقفِ عرضٍ كنتَ فيهِ المجازيا
جزيتَ بهِ كلاًّ على حالِ سعيهِ ... فما غرسَتْ يمناهُ أصبحَ جانيا
وأطلعتَ من جزل الوقود هوادجاً ... تذكّرِ يومِ النفْرِ من كان ساهيا
وحينَ غدا يذكي ببابكَ للقِرى ... فلا غرو أن أجريتَ فيهِ المذاكيا
وطامحةٍ في الجوّ غيرِ مطالةٍ ... يردُّ مداها الطرفَ أحسَرَ عانيا
تمدُّ لها الجوزاءُ كفَّ مُسارعٍ [1] ... ويدنو لها بدرُ السماء مُناجيا
ولا عجبٌ أن فاتتِ الشُّهبَ بالعلا ... وأن جاوزتْ منها المدى المتناهيا
فبينَ يدَيْ مثواك قامتْ لخدمةٍ ... ومَنْ خدَمَ الأعلى استفاد المعاليا
وشاهدُ ذا أني ببابك واقفٌ ... وقد حسدتْ زُهرُ النجوم مكانيا
وقد أرضعتْ ثدي الغمائمِ قبلها ... بحجرِ رياضٍ كنَّ فيهِ نواشيا
فلمّا أُبينَتْ عن قرارةِ أصلها ... أرادتْ إلى مرقى الغمامِ تعاليا
وعدَّتْ لقاء السُّحبِ عيداً وموسماً ... لذاك اغتدتْ بالزَّمرِ تلهي الغواديا
فأضحكتِ البرقَ الطروبَ خلالها ... وباتتْ لأكواسِ الدراري مُعاطيا
رأت نفسَها طالتْ فظنّتْ بأنّها ... تفوتُ على رغم اللحاقِ المراميا

---

١ - الأزهار : مصافح .

فخفّتْ إليها الذابلاتُ[1] كأنها طيورٌ إلى وكرٍ أطَلْنَ تهاويا
حكت شبَهاً[2] للنحل والنحلُ حوله عصيٌّ إلى مثواهُ تهوي عواليا
فمن مثبتٍ منها الرميّةَ مدركٍ ومن طائشٍ في الجوّ حلّق وانيا
وحصنٍ منيعٍ في ذراها قد ارتقى فأبعد في الجوِّ الفضاء المراقيا
كأنّ بروقَ الجوّ غارتْ وقد أرتْ بروجَ قصورٍ شُدْتَهُنّ سواميا
فأنشأتَ برجاً صاعداً متنزلاً يكونُ رسولاً بينهنّ مداريا
تطوّرَ حالاتٍ أتى في ضروبها بأنْواعِ حلْيٍ تستفزُّ الغوانيا
فحجلٌ برجليها وشاحٌ بخصرها وتاجٌ إلى ما حلّ منها الأعاليا
وما هو إلاّ طيرُ سعدٍ بذروةٍ غدا زاجراً من أشهبِ الصبحِ بازيا
أمولايَ يا فخرَ الملوكِ ومَنْ به سيبلغُ دينُ اللهِ ما كان رَاجيا
بَنوكَ على حكمِ السعادةِ خمسةٌ وذا عددٌ للعينِ ما زال واقيا
تَبيتُ لهم كفُّ الثريا معيذةً ويصبحُ معتلٌّ النواسمِ راقيا[3]
أسامٍ عليها للسعادة ميسمٌ ترى العزَّ فيها مستكناً وباديا
جعلتَ أبا الحجاج فاتحَ طِرسهم وقد عرفتْ منكَ الفتوحُ التواليا
وحسبُكَ سعدٌ ثمّ نصرٌ يليهمُ محمدٌ الأرضى ، فلا زلتَ راضيا
أقمتَ بهِ من فطرةِ الدينِ سنّةً وجددتَ من رسمِ الهدايةِ عافيا
وجاءوا بهِ ملءَ العيونِ وسامةً يقبِّلُ وجهَ الأرضِ أزهرَ باهيا
فيا عاذراً[4] ما كان أجرأ مثلهُ فمثلكَ لا يدمي الأسود الضواريا
وجاءتكَ من مصرَ التحايا كرائماً فما فتقتْ أيدي التّجار الغواليا

---

[1] ق : الزائلات .
[2] ق : شبحاً .
[3] سقط البيت من ق .
[4] يريد الذي يقوم بالختان .

ووافتكَ من أرضِ الحجازِ تميمةٌ ... تتمم صُنعَ اللهِ لا زال باديـا
وناداكَ بالتمويلِ[1] سلطانُ طيبةٍ ... فيا طيبَ ما أهدى إليك مناديا
وقام وقد وافى ضريحَ محمّدٍ ... لسلطانكَ الأعلى هنالكَ داعيا
سريرتكَ الرحمى جزاكَ بسعيها ... إلهٌ يوفّي بالجزاء[2] المساعيـا
فوالله لولا سُنّـةٌ نَبَويّـةٌ ... عهدناهُ مهدياً إليهـا وهاديا
وعذرٌ من الإعذارِ قرر حكمهُ ... من الشرعِ أخبارٌ رفعنَ عواليا
لراعتْ بها للحرب[3] أهوالُ موقفٍ ... تشيبُ بمبيضٍ النصولِ العواليا
لكَ الحمدُ فيهِ من صنيعٍ تعدّه ... فثالثهُ في الفخرِ عززٌ ثانيـا
تشدّ له الجوزاءُ عِقْدَ نطاقها ... لتخدمَ فيهِ كي تنالَ المعاليا
وهُنّيتَ بالأمداحِ فيهِ وقد غدا ... وجودكَ فيهِ بالإجادةِ وافيـا
ودونكَ من بحرِ البيانِ جواهراً ... كرمنَ فما يُشْرَيْنَ إلاّ غواليـا
وطاردْتُ فيها وصفَ كلٍّ غريبةٍ ... فأعجزت من يأتي ومن كان ماضيا
فيا وارثَ الأنصارِ لا عن كلالةٍ ... تراثَ جلالٍ يستخفُّ الرواسيـا
بأمداحهِ جاء الكتابُ مفصّلاً ... يرتّلهُ في الذكرِ مَن كان تاليا
لقد عرف الإسلامُ ممّا أفدتهُ ... مكارمَ أنصـاريةً وأياديـا
عليكَ سلامُ اللهِ فاسلمْ مخلّداً ... تجدِّدُ أعياداً وتُبلي أعـاديا

ثمّ قال : ومن ذلك في الصنيع المختص بالأمراء الجِلّة : أخينا المعز لدولتنا أبي الحسن ، وأخينا أبي العباس ، وابن عمنا أبي عبد الله ، وصلَ الله تعالى سعودهم . ولقد أبدع في تشييده وتأسيسه ، وبسط يدَ الحسن من براعته وتخميسه[4] ، وذلك

---

١ ق والأزهار : بالتهويل ؛ والتمويل : قوله « يا مولاي » .
٢ الأزهار : في الجزاء .
٣ ق : للجزو .
٤ الأزهار : من براعة تخميسه .

في[1] عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبتة لما عادت إلى ملكه :

أرقتُ لبرقٍ مثلِ جفنيَ ساهرا ينظّمُ من قَطرِ الغمامِ جواهرا
فيبسم[2] ثغرُ الروضِ عنهُ أزاهرا وصبحٍ حكى وجهَ الخليفةِ باهرا
تجسَّمَ من نورِ الهدى وتجسّدا

شفاني معتلُّ النسيم إذا انبرى وأسند عن دمعي الحديث الذي جرى
وقد فتّقَ الأرجاء مسكاً وعنبرا كأنَّ الغني بالله في الروض قد سرى
فهبَّتْ بهِ الأرواحُ عاطرةَ الردّا

عذيريَ من قلبٍ إلى الحسنِ قد صبا تهيّجهُ الذكرى ويصبو إلى الصبّا
ويُجري جيادَ اللهو في ملعبِ الصبّا ولولا ابنُ نصرٍ ما أفاق وأعتبا
رأى وجههُ صبحَ الهدايةِ فاهتدى

إليكَ أميرَ المسلمينَ شكايَـــةٌ جنى الحسنُ فيها للقلوبِ جنايةٌ
وأعظم فيهـــا بالعيونِ نكايَةٌ وأطلع في ليلٍ من الشَّعرِ آيةٌ
محيّاً جميلاً بالصباح قد ارتدى

بهَدْيكَ تُهْدى النيّراتُ وتهتدي وأنواؤهـــا جدوى يمينكَ تجتدي
وعدلكَ للأملاكِ أوضحُ مرشدِ بآثاره في مشكلِ الأمرِ تقتـــدي
فما بالُ سلطانِ الجمالِ قد اعتدى

تحكّمَ منّا في نفوسٍ ضعيفةٍ وسلَّ سيوفاً من جفونٍ مخيفةِ
ألم يدرِ أنّا في ظلالِ خليفةٍ ودولةِ أمنٍ لا تُراعُ منيفةِ
بها قدْ رسا دينُ الهوى وتمهّدا

---

١ الأزهار : وذلك عام .
٢ الأزهار : فأضحك .

خلوا بدم المشتاقِ لحظاً أراقَهُ وبرقاً بأعلامِ الثنيّةِ شاقَهُ
وإن كلفوه فوقَ ما قد أطاقَهُ يبثّ حديثاً ما ألذّ مساقَهُ
خليفتَنا المولى الإمامَ محمّدا

تقلّدَ حكم العدلِ ديناً ومذهبا وجوّزَ الليالي قد أزاحَ وأذهبا
فيا عجباً للشوقِ أذكى وألهبا وسلّ صباحاً صارمَ البرقِ مذهبا
وقد باتَ في جفنِ الغمامةِ مغمدا

يذكّرني ثغراً لأسماء أشنَبا إذا ابتسمتْ تجلو من الليلِ غيهبا
كعزمِ أميرِ المسلمين إذا احتبى وأجرى به طِرفاً من الصبح أشهبا
وأصدرَ في ذاتِ الإلهِ وأوردا

فسبحانَ مَن أجرى الرياحَ بنصرهِ وعطّرَ أنفاسَ الرياضِ بشكرهِ
فبرد الصّبا يطوى على طيبِ نشرهِ ومهما تجلّى وجهُهُ وسطَ قصرهِ
ترى هالةً بدرُ السماء بها بدا

إمامٌ أفادَ للمَعْلواتِ زمانَهُ فما لحقتْ زُهرُ النجومِ مكانَهُ
ومدّ على شرقٍ وغربٍ أمانَهُ ولا عيبَ فيهِ غيرَ أنّ بنانَهُ
تُغرّقُ مستجديهِ في أبحرِ الندى

هو البحرُ مدّ العارضَ المتهلّلا هو البدرُ لكنْ لا يزالُ مكمّلا
هو الدهرُ لا يخشى الخطوبَ ولا ولا هو العلَم الخفّاقُ في هضبةِ العلا
هو الصارمُ المشهورُ في نصرةِ الهدى

أما والذي أعطى الوجودَ وجودَهُ وأوسعَ من فوقِ البسيطةِ جودَهُ
لقد أصحبَ النصرَ العزيزَ بنودَهُ ومدّ بأملاكِ السماء جنودَهُ
وأنجزَ للإسلام بالنصرِ موعدا

أمولايَ قد أنجحتَ رأياً وراية ً   ولم تُبقِ في سبقِ المكارمِ غايةً
فتهدي سجايا كابنِ رشدٍ نهايَةً   وإن كان هذا السعدُ منك بدايةً
سيبقى على مرّ الزمانِ مخلَّدا

سعودكَ تُغني عن قراع الكتائبِ   وجودكَ يُزري بالغمام السواكبِ
وإن زاحمتها شُهبها بالمناكبِ   ووجهكَ بدرُ المنتدى والمواكبِ
وقد فسحتْ في الفخرِ أبناؤكَ المدى

بنوكَ كأمثالِ الأناملِ عِدَّةً   أُعِدَّتْ لما يُخْشى من الدهرِ عُدَّةً
وزيدَ بهمْ بُرْدُ الخلافةِ جِدَّةً   أطالَ لهم في ظلِّ ملكِكَ مُدَّةً
إلهٌ يطيلُ العمرَ منكَ مؤبَّدا

بدورٌ بأوصافِ الكمالِ استقلّتِ   غمامٌ بفيّاضِ النّوالِ استهلّتِ
سيوفٌ على الأعداء بالنصرِ سُلّتِ   نجومٌ بآفاقِ العلاء تجلّتِ
ولاحتْ كما شاءتْ سعودك أسعُدا

وإنَّ أبا الحجاج سيفكَ منتضى   وبَدْرٌ بآفاقِ الجمالِ تَعرّضا
بنوركَ يا شمسَ الخلافةِ قد أضا   وراقتْ على أعطافهِ حُلَلُ الرضى
فحلَّ محلاً من علاكَ[1] ممهَّدا

مليكٌ له تعنو الملوكُ جلالةً   يجرّر أذيالَ الفخارِ مطالةً
وتَفْرَقُ أُسدُ الغابِ منهُ بسالةً   وترضاهُ أنصارُ الرسولِ سُلالةً
فأبناؤه طابوا فروعاً ومحتدا

أزاهرُ في روضِ الخلافةِ أينَعتْ   زواهرُ في أُفقِ العلاء تطلَّعتْ

---

[1] الأزهار : رضاك .

جواهرُ أغيتْ في الجمالِ وأبدعتْ وعن قيمةِ الأعلاقِ قدراً ترفعتْ
يسرُّ بهــا الإسلامُ غيباً ومشهدا

بعهدِ وليِّ العهدِ كُرِّمَ عَهْدُهُ وأنجزَ في تخليدِ ملككَ وعدُهُ
تنظّمَ منهم تحتَ شملكَ عِقدُهُ وأورثهم فخراً أبوهُ وجَدُّهُ
فأعلى عليّـاً حينَ أحمدَ أحمدا

تحوطُ بهمْ ملكاً عزيزاً وملّةً وتلحظُ عينُ السَّعْدِ منهمْ أهلّةً
ستبدو على أفقِ العلا مستقلّةً وسُحباً بفيّاض العلا مستهلّةً
تفجّرُ بحراً للسماحةِ مُزبدا

ونجلُكَ نصرٌ يقتفي نجلَ رسمهِ أميرٌ يزينُ العقلَ راجحُ حلمهِ
أتاكَ بنجلٍ يُستضاءُ بنجمِهِ لحبِّ رسولِ الله سمّاه باسمهِ
وباسمكَ في هذي الموافقةِ اقتدى

أقمتَ بإعذارِ الإمارةِ سُنَّةً وطوّقْتَ من حليٍ بفخركَ منّةً
وأسكنتهـــا في ظلِّ برِّكَ جَنّةً وألحفتها بُرْدَ امتنانكَ جُنّةً
وعَمَّرْتَ منها بالتلاوةِ مسجدا

فللهِ عينا مَنْ رآهم تطلّعوا غصوناً بروضِ الجود منك ترعرعوا
وفي دوحةِ العلياء منكَ تفرّعوا ملوكٌ بجلبـــابِ الحياء تقنّعوا
أضاء بهمْ من أفقِ قصرك منتدى

وقد أشعروا الصبرَ الجميلَ نفوسهمْ وأضفَوْا بهِ[1] فوق الحليِّ لبوسهمْ
وقد زيّنوا بالبشرِ فيهِ شموسهمْ وعاطَوْا كؤوس الأنس فيه جليسهمْ
وأبْدَوْا على هَوْلِ المقامِ تجلُّدا

---

١ الأزهار : وقد أفرغوا .

شمائلُ فيهم من أبيهم وجدّهم   تفصّل آيُ الفخرِ فيها بمجدهم
وتنسبها الأنصارُ قدماً لسعدهم   تضيءُ بها نوراً مصابيحُ سعدهم
ولمْ لا ومن صَحْبِ الرسولِ توقّدا

فوالله لولا سُنّةٌ قد أقمْتَها   وسيرةُ هَدْيٍ للنّبيِّ علمتَها
وأحكامُ عَدْلٍ للجنودِ رسمتَها   لجالتْ بها الأبطالُ تقصدُ سمتَها
وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مُقصّدا

ويا عاذراً أبدى لنا الشرعُ عُذْرَهُ   طرقتَ حمًى قد عظّمَ الله قدرَهُ
وأجريتَ طيباً يحسدُ الطيبُ نشرَهُ   لقد جئتَ ما تستعظمُ الصِّيدُ أمرَهُ
وتفديهِ إن يقبلْ خليفتها فدا

رعى الله منها دعوةً مستجابةً   أفادتْ نفوسَ المخلصينَ إنابةً
ولم تُلفَ من دونِ القبولِ حجابةً   وعاذرُها لم يُبدِ عذراً مهابةً
فأوجبَ عن نقصٍ كمالاً تزيّدا

فنقصُ كمالِ[1] المالِ وفرُ نصابِهِ   وما السيفُ إلاّ بعد مَشْقِ ذبابهِ
وما الزَّهرُ إلاّ بعد شقِّ إهابهِ   بقطعِ يراعِ الخطِّ حسنُ كتابهِ
وبالقصِّ يزدادُ الذبالُ توقّدا

ولمّا قَضَوْا من سُنّةِ الشرعِ واجبا   ولم نلْقَ من دونِ الخلافةِ حاجبا
أفَضْنا تهنّي منكَ جذلانَ واهبا   أفاضَ علينا أنعُماً ومواهبا
تعوّدَ بذلَ الجودِ فيما تعوّدا

هَنيئاً هنيئاً قد بلغتَ مؤمّلا   وأطلعْتَ نوراً يبهرُ المتأمّلا

---

١ الأزهار : زكاة .

وأحرزتَ أجرَ المنعمينَ مكمّلا تباركَ مَن أعطى جزيلاً وأجملا
وبلّغَ فيكَ الدينَ والملكَ مقصدا ،

ألا في سبيلِ العزّ والفخرِ موسمُ يظلُّ بـهِ ثغرُ المسرّةِ يبسمُ
وعَرْفُ الرضى من جوّهِ يتنسّمُ وأرزاقُ أربابِ السعادةِ تُقسمُ
ففي وصفهِ ذهنُ الذكيّ تبلّدا

وجلّلْتَ في هذا الصنيعِ مصانعا تُمنى بدورُ التمّ منهـا مطالعا
وأبديتَ فيهـا للجمالِ بدائعا وأجريتَ للإحسانِ فيها مشارعا
يودُّ بها نهرُ المَجرّةِ موردا

وأجريتَ فيها الخيلَ وهي سوابقُ وإن طلَبَتْ في الروع فهي لواحقُ
نجومٌ وآفاقُ الطّرادِ مشارقُ يفوتُ التماحَ الطّرف منها بوارقُ
إذا ما تجاري الشُّهبَ تستبقُ المدى

وتطلعُ في ليلِ القتامِ كواكبا وقد وردتْ نهرَ النهارِ مشاربا
تقودُ إلى الأعداءِ منها كواكبا فترسمُ من فوق الترابِ محاربا
تخورُ رؤوسُ الرومِ فيهنّ سُجّدا

سوابحُ بالنصرِ العزيزِ سوانحُ وهنّ لأبوابِ الفتوحِ فواتحُ
تقودُ إليكَ النصرَ واللهُ مانحُ فما زلتَ بابَ الخيرِ واللهُ فاتحُ
وما ثمّ شيء[1] قد عدا بعد ما بدا

رياحٌ لهـا مثلُ البروقِ أعنّةٌ ظباءٌ فإن جنّ الظلامُ فجِنّةٌ
تقيها من البدرِ المتمّمِ جُنّةٌ وتشرعُ من زُهرِ النجومِ أسنّةٌ
فتقذفُ شُهبَ الرّجمِ في أثغرِ العدا

---

١ ق : حق .

فأشهبُ من نسلِ الوجيهِ إذا انتمى	جرى فشأى شُهب الكواكب في السما
وخلَّفَ منهــا في المقلَّدِ أنجما	تردَّى جمالاً بالصباحِ وربما
يقول له الإصباح : نفسي لك الفدا

وأحمرُ قد أذكى به البأسُ جمرةً	وقد سلَبَ الياقوتَ والوردَ حمرةً
أدار بهِ ساقٍ من الحرب خمرةً	وأبدى حباباً فوقها الحسنُ غرّةً
يزينُ بهــا خدّاً أسيلاً مُورَّدا

وأشقرُ مهما شعشع الركضُ برْقَهُ	أعار جوادَ البرقِ في الأفقِ سبَقَهُ
بدا شَفَقاً قد جَلّل الحسنُ أفقَهُ	ألم ترَ أنَّ الله أبدعَ خَلْقَــــهُ
فسال على أعطافه الحسنُ عَسْجَدا

وأصفرُ قد ودَّ الأصيلُ جمالَهُ	وقد قَدَّ من بُرْدِ العشيّ جلالَهُ
إذا أسرجوا جِنْحَ الظلامِ ذبالَهُ	فَغُرَّتُهُ شمسٌ[1] تضيء مجالَهُ
وفي ذيله ذيلُ الظلامِ قد ارتدى

وأدهمُ في مسحِ الدجى متجردُ	يجيشُ بها بحرٌ من اللّيْلِ مُزبدُ
وغرَّتهُ نجمٌ بــهِ تَتَوَقّدُ	له البدرُ سُرجٌ والنجومُ مُقَلَّدُ
وفي فَلَقِ الصبحِ المبينِ تقيَّدا

وأبيضُ[2] كالقرطاسِ لاحَ صباحُهُ	على الحسنِ مَغْداهُ وفيهِ مَراحُهُ
وللظَّبَياتِ الآنساتِ مِراحُهُ	تراهُ كنَشْوانِ أمالَهُ راحُهُ
وتحسبهُ وسطَ الجمالِ معربدا

١ ق : نجم .
٢ ق : وأشهب .

وذاهبةٌ في الجوّ ملءَ عنانها   وقد لفعتها السُّحبُ بُرْدَ عنانها
يفوتُ ارتدادَ الطَّرفِ لمحُ عيانها   وختّمتِ الجوزاءُ سَبْطَ بنانها
وصاغتْ لها حَلْيَ النجومِ مقيَّدا

أراها عمودُ الصبحِ عُلْوَ المصاعدِ   وأوهمها قربَ المدى المتباعدِ
ففاتته سَبْقاً في مجالِ الرواعدِ   وأتحفتِ الكفَّ الخضيبَ بساعدِ
فطوقتِ الزُّهْرَ النجومَ بها يدا

وقد قذفتها للعصيّ حواصبُ   قد انتشرتْ في الجوّ منها ذوائبُ
تزاور منهـا في الفضاء حبائبُ   فبينهما من قبل ذاكَ مَناسِبُ
لأنهما في الروضِ قبلُ تولّدا

بناتٌ لأمٍّ قد حُبِينَ لروحهـا   دعاها الهوى من بعد كَتْمٍ لبوحها
فأقلامُهـا تهوي لخطٍّ بلوحهـا   فبالأمس كانت بعض أغصان دوحها
فعادتْ إليها اليومَ من بعدُ عُوَّدا

ويا رُبَّ حصنٍ في ذراها قد اعتلى   أثارتْ بروجُ الأفقِ في مظهر العلا
بروجَ قصورٍ شيدَتْها متطولا   فأنشأتَ برجاً صاعداً متنزلا
يكونُ رسولاً بينهـا متّرددا

وهل هي إلاّ هالةٌ حولَ بدرها   يصوغُ لها حلياً يليقُ بنحرها
تطوّر أنواعـاً تشيدُ بفخرها   فحجلٌ برجليها وشاحٌ بخصرها
وتاجٌ بأعلى رأسها قد تنضدا[١]

---

١ شبيه بقوله في القصيدة السابقة :
فحجل برجليها وشاح بخصرها   وتاج إلى ما حل منها الأعاليا

أرادَ استراقَ السمعِ وهو ممنَّعُ   فقـامَ بأذيالِ الدجى يتلفعُ
وأصغى لأخبار السما يتَسَمَّعُ   فأتبعـهُ منها ذوابـلُ شُرَّعُ
لتقذفَهُ بالرُّعْبِ مَثْنى ومَوْحَدا

وما هو إلاّ قائمٌ مدَّ كفَّهُ   ليسألَ من ربِّ السموات لطفَهُ
لمولى تولاّهُ وأحكمَ رَصْفَهُ   وكلّفَ أربابَ البلاغةِ وصفَهُ
وأكـرمَ منهُ القـانتَ المتهجدا

ملاقي ركبٍ من وفودِ النواسمِ   مقبِّلَ ثغرٍ للبروقِ البواسمِ
مختّمَ كفٍّ بالنّجومِ العوائمِ   مبلّغَ قصدٍ من حضورِ المواسمِ
تجـددهُ مهمـا صنيعٌ تجدّدا

ومضطربٌ في الجوِّ أثبتَ قامةً   تقدمَ يمشي في الهواء كرامةً
تطلّعَ في غصنِ الرشاء كمامةً   وتحسبهُ تحتَ الغمامِ غمامةً
يسيلُ على أعطافها عَرَقُ النّدى

هوى واستوى في حالةٍ وتَقَلّبا   كخاطفِ برقٍ قَدْ تألّقَ خُلّبا
وتحسبهُ قد دار في الأفقِ كوكبا   ومهما مشى واستوقفَ العقلَ معجبا
تقلّبُ فيهِ العينُ لحظاً مرددا

لقد رام يرقى للسماء بسلّمِ   فيمشي على خطٍّ بهِ متوهمِ
أجِلْ في الذي يبديهِ فكرَ توسُّمِ   ترى طائراً قد حلَّ صورةَ آدمي
وجِنّاً بمهواةِ الفضاء تمرَّدا

ومنتسبٍ للخالِ سمَّوه ملجما   لهُ حَكَمَاتٌ حكمها فاه ألجما
تخالَفَ جنساً والداه إذا انتمى   كما جنسُهُ أيضاً تخالفَ عنهما
عجبتُ له إذْ لم يلدْ وتولّدا

ثلاثتها في الذكرِ جاءت مبينَةٌ   من اللاء سمّاها لنا الله زينةٌ
وأنزلَ فيهــا آيةٌ مستبينَةٌ   وأودعَ فيها للجَهول سكينةٌ
وآلاءهُ فيها على الخلقِ بدّدا

كسوه من الوشي اليمانيّ هودجا   يمدّ على ما فوقَه الظلّ سَجْسَجا
وكمْ صورةٍ تجلى به تبهرُ الحجى   وجزل وقودٍ نارهُ تصدع الدجى
وقلب حسودٍ غاظ مذكيهِ موقدا

ومـا هي إلاّ مَظهرٌ لجهـادِهِ   أرتنا بها الأفراحُ فضلَ اجتهادهِ
مَلاعِبُها هزّتْ قلودَ صعادهِ   وأذكرتِ الأبطالَ يومَ طرادهِ
فما ارتبتَ فيهِ اليومَ صدّقْتَهُ غدا

ألا جدّدَ الرحمنُ صنعاً حضرتَهْ   ودوّحَ الأماني في ذراهُ هَصَرتَهْ
بقصرِ طويلُ الوصفِ فيهِ اختصرتهْ   يقيّدُ طرفَ الطرفِ مهما نظرتهْ
«ومن وجد الإحسانَ قيداً تقيّدا»[1]

دعوتَ لهُ الأشرافَ من كلّ بلدةٍ   فجاءوا بآمـالٍ لهم مستجدّةٍ
وخصّوا بألطافٍ لديه معـدّةٍ   أيادٍ بفيّاضِ الندى مستمدّةٍ
فكلّهُـمُ من فضلهِ قد تزوّدا

وجاءتكَ من آل النبيِّ عصابَـةٌ   لها في مرامي المكرماتِ إصابةٌ
أحبّتكَ حبّاً ليسَ فيهِ استرابةٌ   ولبّتْ دواعي الفوزِ منها إجابةٌ
وناداهُمُ التخصيصُ فابتدروا الندا

أجازوا إليكَ البحرَ والبحرُ يزْخَرُ   لبحرِ سماحٍ مَدّهُ ليس يجزرُ

---

[1] عجز بيت للمتنبي ، وصدره «وقيّدت نفسي في ذراك محبة» .

فروّاهمُ من عذبِ جودكَ كوثرُ ووالِيتَ من نعماكَ ما ليس يحصرُ
وعظمتهمْ ترجو النبيَّ محمّــدا

عليهِ صلاةُ اللهِ ثمّ سلامُهُ بهِ طابَ من هذا النظام اختتامُهُ
وجاء بحمدِ اللهِ حلْواً كلامُهُ يعزُّ على أهلِ البيانِ مَرامُهُ
وتمسي لهُ زُهرُ الكواكبِ حُسّدا

أبثُّ بهِ حادي الركابِ مشرّقا حديثَ جهادِ للنفوسِ مشوّقا
رميتُ بهِ مَنْ بالعراقِ مفوّقا وأرسلتُ منهُ بالبديعِ مطوّقا
حماماً على دوحِ الثناء مغرّدا

ركضْتُ بهِ خيلَ البيانِ إلى مدى فأحرزتُ خصْلَ السبقِ في حلبة الهدى[1]
ونظمتُ مِنْ نظمِ الدراري مقلّدا وطوقتُ جيد الفخرِ عقداً منضّدا
وقمتُ بهِ بين السماطينِ منشدا

نسقتُ من الإحسانِ فيهِ فرائدا وأرسلتُ في روضِ المحاسنِ رائدا
وقلدتُ عِطفَ الملكِ منهُ قلائدا تعوّدتُ فيــهِ للقبولِ عوائــدا
فلا زلتَ للفعلِ الجميلِ[2] معوّدا

ولا زلتَ للصنعِ الجميلِ مجدّدا ولا زلتَ للفخرِ العظيمِ مخلّدا
وعُمّرْتَ عمراً لا يزالُ مجدّدا وعمّرتَ بالأبناء أوحدَ أوحدا
وقرّتْ بهمْ عيناكَ ما سائقٌ حدا

وقال في عيد :

بشرى كما وضحَ الزمانُ وأجملُ يَغْشَى سَناها كلَّ مَنْ يتهلّلُ

١ ق : المدى .
٢ الأزهار : للفضل الجزيل .

أبدى لها وجهُ النهارِ طَلاقَةً … وافترَّ من ثغرِ الأقاحِ مقبِّل
ومنابرُ الإسلامِ يا ملكَ الورى[1] … بحلاكَ أو بحليّهـــا تتكلّل
تجلو لنا الأكوانُ منكَ محاسناً … تُروى على مرّ الزمانِ وتُنْقَل
فالشمسُ تأخذُ من جبينكَ نورها … والبِشْرُ منكَ بوجهها يتَهَلّل
والروضُ ينفحُ من ثنائكَ طيبهُ … والوُرقُ فيهِ بالممادحِ تهدل
والبرقُ سيفٌ من سيوفكَ منتضى … والسُّحبُ تهمي من يديك وتهمل
يا أيها الملكُ الذي أوصافهُ … درٌّ على جيدِ الزمانِ يُفَصَّل
« اللهُ أعطاكَ التي لا فوقَها »[2] … وحَباكَ بالفَضْلِ الذي لا يُجهل
وجهٌ كما حسَرَ الصباحُ نقابَهُ … لضيائه تعشو البدورُ الكُمَّل
تلقاهُ في يومِ السماحَةِ والوغى … والبِشرُ في جَنَباتـــهِ يتهلّل
كفٌّ أبتْ أن لا تكفّ عن النّدى … أبداً فإن ضنّ الحيا تسترسل
وشمائلٌ كالروضِ باكرَه الحيا … وسَرَتْ بريّاهُ الصَّبا والشَّمْأل
خُلُقُ ابن نصرٍ في الجمال كخلقهِ … ما بعدها من غايةٍ تُسْتَكمَل
نورٌ عـــلى نورٍ بأبهى منظرٍ … في حسنه لمؤمّلٍ ما يأمُل
فـاقَ الملوكَ بسيفهِ وبسيبهِ[3] … فبعـــدلـــهِ وبفضلـــه يُتَمَثّل
وإذا تطاولَ للعميدِ عميـــدهم … فلـهُ عليـــهِ تطـــاولٌ وتطوُّل
يا آيةَ اللهِ التي أنوارُهـــا … يُهدى بها قَصْدَ الرشادِ الضُّلّل
قلْ للذي التبستْ معالمُ رشده … هيهات قد وضحَ الطريقُ الأمثل
قد ناصحَ الإسلامَ خيرُ خليفةٍ … وحمى عزيزَ الملكِ أغلبُ مُشبل[4]
فلقد ظهرتَ من الكمالِ بمستوًى … ما بعده لذوي الخلافةِ مأمل

---

١ هذه رواية الأزهار ؛ وفي ق : بالملك العلي .
٢ من رجز وتمامه :
وقد أراد المشركون حوقها … عنك ويأبى الله إلا سوقها
٣ ق : بسبقه وبسيفه .   ٤ ق : مشمل .

وعنايةُ اللهِ اشتملتَ رداءها ... وعلقتَ منها عروةً لا تُفصَل
فالجودُ إلاّ من يديك مقتَّرٌ ... والغيثُ إلاّ من نَداكَ مبخَّل
والعمرُ إلاّ تحت ظلّكَ ضائعٌ ... والعيشُ إلاّ في جنابك ممحِل
حيثُ الجهادُ قد اعتلتْ راياتُهُ ... حيثُ المغانمُ للعُفاةِ تنفَّل
حيثُ القبابُ الحمرُ تُرفعُ للقِرى ... قد عام[1] في أرجائهنّ المَنْدل
يا حجّةَ اللهِ التي برهانُها ... عزَّ المحقُّ به وذلَّ المبطِل
قلْ للذي ناواك يرقب[2] يومَهُ ... فوراءه ملكٌ يقولُ ويفعل
والله جلَّ جلالهُ إن أمهلت ... أحكامُهُ مستدرجاً لا تُهمل
يا ناصرَ الإسلامِ وهو فريسةٌ ... أسْدُ الفلا[3] مِنْ حولها تتسلَّل
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلها ... لكَ فيهم النعمى التي لا تُجهل
لا يهملُ اللهُ الذين رعيتَهم ... فلأنتَ أكفى والعنايةُ أكفل
لا يبعدُ النصرُ العزيزُ فإنّهُ ... آوى إليكَ وأنتَ نعم الموئل
لولا نَداكَ لها لما نفع الندى ... ولجفَّ من وِرد الصنائعِ منهل
لولاكَ كان الدينُ يُغْمَطُ حقّهُ ... ولكان دَيْنُ النصرِ فيهِ يُمطل
لكن جنيتَ الفتحَ من شجرِ القنا ... وجنى الفتوحِ لمن عداكَ مؤمَّل[4]
ولقبلُ ما استفتحتَ كلَّ ممنَّعٍ ... من دونهِ بابُ المطامعِ مُقْفَل
ومتى نزلتَ بمعقلٍ متأشِّبٍ ... فالعُصْمُ من شَعَفاته تُستنزل
وإذا غزوتَ فإنَّ سعدكَ ضامنٌ ... أن لا تخيبَ وأنَّ قصدكَ يكمل
فمن السعودِ أمام جيشكَ موكبٌ ... ومن الملائك دون جندك جحفل

---

١ الأزهار : قام .
٢ ق : يرفع .
٣ الأزهار : العدا . ق : العلى.
٤ الأزهار : معلل .

وكَتيبةٍ أردَفْتَهـا بكتيبةٍ والخيلُ تمرحُ في الحديدِ وترفل
من كلّ منحفزٍ كلمعةِ بارقٍ بالبَدْرِ يُسْرَجُ والأهلّةِ يُنعل
أوفي بهـادٍ كالظليمِ وخلفهُ كفَلٌ كما ماجَ الكثيبُ الأهيَل
حيٌّ إذا ملكَ الكميُّ عنـانَهُ يهوي كمـا يهوي بجوٍّ أجْدَل
حملتْ أسودَ كريهةٍ يومَ الوغى ما غابُهـا إلاّ الوشيجُ الذُّبَّل
لبسوا الدروعَ غدائراً مصقولةً والسُّمرُ قُضبٌ فوقها تتهدّل
من كلّ معتدلِ القَوامِ مثقّفٍ لكنهُ دونَ الضريبةِ يعسل
أذكيتَ فيهِ شعلةً من نصلهِ يهدى بها إن ضلّ عنهُ المقتل
ولربّ لمّاعِ الصقالِ مشهّرٍ ماضٍ ، ولكنْ فعلُهُ مُستقبل
رَقّتْ مضاربهُ وراقَ فرندُه فالحسنُ فيهِ مجمَلٌ ومفصَّل
فإذا الحروبُ تسعرتْ أجزالها ينسابُ في يمناكَ منها جدول
وإذا دجا ليلُ القتام رأيتَهُ وكأنّهُ فيـهِ ذُبـالٌ مشعَل
فاعجبْ لها من جذوةٍ لا تنطفي في أبحرٍ زخرتْ وهنّ الأنمل
هي سُنّةٌ أحييتَهـا وفريضةٌ أدّيتَهـا قربـانهـا تُتَقَبّـل
فإذا الملوكُ تفاخرتْ بجدودها[1] فلأنتَ أحفى بالجهادِ وأحفل
يا ابنَ الذينَ جمالهم ونوالهمْ شمسُ الضحى والعارضُ المتهلّل
يا ابنَ الإمام ابن الإمام ابن الإما م ابن الإمام ، وقدرها لا يُجهل
آباؤكَ الأنصارُ تلكَ شعارهمْ فلحيّهمْ آوى النبيُّ المرسَل
فهمُ الألى نصروا الهدى بعزائمٍ مصقولةٍ وبصائرٍ لا تخذل
ماذا يحبّر شاعرٌ في مدحهمْ وبفضلهمْ أثنى الكتابُ المُنزَل
مولايَ لا أُحصي مآثركَ التي بحديثها تُنضى[2] المطيُّ الذُّلّل

---

١ الأزهار : بجدودها .
٢ الأزهار : تمضي .

وإذا الحقائقُ ليس يدرك كنهها سيّانِ فيها مكثرٌ ومُقلِّل
فإليكَ من شوّال غرّةَ وجههِ أهداكها يومٌ أغرُّ مُحجَّل
عذراء راقَ العيدَ رونقُ حسنها فغدا بنظمِ حليّها يتجمّل
رضعتْ لبانَ العلم في حِجر النُّهى فوفتْ لها منه ضروعٌ حُفَّل
سلكَ البيانُ بها سبيلَ إجادةٍ لولا صفاتُكَ كان عنها يعدل
جاءت تهني العيدَ أيمنَ قادمٍ وافى بشهرِ صيامهِ يتوسّل
وطوى الشهورَ مَراحلاً معدودةً كيما يُرى بفِناء جودك ينزل
وأتى وقد شفَّ النحولُ هلالَهُ ولشوقهِ للقاء وجهكَ ينحل
عقدتْ بمرقبهِ العيونُ مسرّةً فمكَبِّرٌ لطلوعِــهِ ومُهلِّل
فاسلمْ لألفٍ مثله في غبطةٍ ظلَّ المنى من فوقهِ يتهدَّل
فإذا بقيتَ لنا فكلُّ سعادةٍ في الدينِ والدُّنيا بها تتكفّل

وقال ابن الأحمر : ومن جياد أناشيده المتميزة بالسبقية ، وبارقات تهانيه في المواسم العقيقية ، قولُهُ يهنئه – رضوان الله تعالى عليه – بطلوع مولانا الوالد قدّس الله تعالى روحه[1] :

طلعَ الهلالُ وأفقُهُ متهلّلُ فمكبّرٌ لطلوعِــهِ ومُهلّلُ
أوفى على وجهِ الصباحِ بغرّةٍ فغدا الصباحُ بنوره[2] يتجمّل
شمسُ الخلافةِ قد أمدَّتْ نوره وبسعدها يرجو التمامَ ويكمل
للهِ منهُ هلالُ سعدٍ طالعٌ لضيائهِ تعشو البدورُ الكُمّل
وألحتَ يا شمسَ الهدايةِ كوكباً يُعشي سناهُ كلَّ مَنْ يتأمّل
والتاجُ تاجُ البدْرِ في أُفقِ العلا ما زالَ بالزُّهْرِ النجومِ يكلَّل

---

١ لتشابه القصيدتين تشابه كثير من الأبيات .
٢ الأزهار : بنورها .

ولئن حوى كلَّ الجمالِ فإنه | بالشُّهبِ أبهى ما يكونُ وأجمل
أطلعتَ يا بدرَ السماحِ هلالَه | والملكُ أفقٌ والخلافةُ منزل
يبدو بهالاتِ السروجِ وإنّهُ | من نور وجهكَ في العلا يستكمل
قلّدتَ عطفَ الملك منه صارماً | بغنائهِ ومضائهِ يتمثّل
حليْتَهُ بحلى الكمالِ وجوهرِ الـ | خُلُقِ النفيسِ وكلّ خُلُقٍ يجمل
يغزو أمامكَ والسعودُ أمامه | وملائكُ السبعِ العلا تتنزَّل
مَنْ مبلغُ الأنصارِ منهُ بشارةً | غُرٌّ البشائرِ بعدها تسترسل
أحيا جهادَهمُ وجدَّدَ فخرهم | بعد المئين فملكهم يتأثّل
فبهِ إلى الأجرِ الجزيلِ توصلوا | وبهم إلى ربّ السما يُتوسّل
مَنْ مبلغُ الأذواء من يمَنٍ وهُمْ | قد تُوّجوا وتملّكوا وتقيّلوا
أنّ الخلافَةَ في بنيهم أطلعتْ | قمراً به سعدُ الخليقةِ يكمل
مَنْ مبلغٌ قحطانَ آسادَ الشرى | ما غابُها إلاّ الوشيج الذُّبَّل
أنّ الخلافةَ وهو شبلُ ليوثهم | قد حاط منها الدينَ ليثٌ مُشْبل
يهني بني الأنصارِ أنّ إمامهم[1] | قد بلّغتَهُ سعودُه ما يأمل
يهني البنودَ فإنها ستظلّهُ | وجناح جبريل الأمين يظلّل
يهني الجيادَ الصافناتِ فإنها | بفتوحه تحت الفوارسِ تهدل
يهني المذاكي والعوالي والظُّبى | فبها إلى نيلِ المنى يُتوصَّل[2]
يهني المعالي والمفاخرَ أنّهُ | في مرتقى أوجِ العلا يتوقّل
سبقتْ مقدّمةُ الفتوحِ قدومَهُ | وأتاكَ وهوَ الوادعُ المتمهّل
وبدتْ نجومُ السعدِ قبلَ طلوعهِ | تجلو المطامعَ قبلَهُ وتؤمّل[3]

---

١ الأزهار : مليكهم .
٢ ق : يتوسل .
٣ الأزهار : لا تأفل .

ورَوتْ أحاديثَ الفتوحِ غرائباً　　والنصرُ يملي والبشائرُ تنقل
ألقتْ إليكَ بهِ السعودُ زمامَها　　فالسعدُ يُمضي ما تقولُ ويفعل
فالفتحُ بينَ معجّلٍ ومؤجّلٍ　　يُنسيكَ ماضيه الذي يستقبل
أوَليسَ في شأن[1] المشير دلالةٌ　　أنَّ المقاصدَ من طلابكَ تكمل
ناداهُمُ داعي الضلالِ فأقبلوا　　ودعاهُمُ داعي المنون فجُدِّلوا
عَصَوُا الرسولَ إبايةً وتحكمتْ　　فيهمْ سيوفُكَ بعدها فاستمثلوا
كانوا جبالاً قد علَتْ هضباتُها　　نسفتهمُ ريحُ الجِلادِ[2] فزلزلوا
كانوا بحاراً من حديدٍ زاخرٍ　　أذكتهُمُ نارُ الوغى فتسيّلوا[3]
ركبتَ أرجلها الأداهمَ كلما　　يتحرّكونَ إلى قيامٍ تصهل
كان الحديدُ لباسهم وشعارهم　　واليومَ لم تلبسْهُ إلاّ الأرجل
« الله أعطاك التي لا فوقها »　　فتْحاً بهِ دينُ الهدى يتأثّل
جدّدتَ للأنصارِ حَلْيَ جهادها　　فالدينُ والدنيا بهِ تتجمّل
من يتحفُ البيتَ العتيقَ وزمزماً　　والوفدُ وفدُ اللهِ فيهِ ينزل
متسابقينَ إلى مَثابةِ رحمةٍ　　من كلِّ مـا حَدَبٍ إليهِ تنسل
هيماً كأفواجِ القطا قد ساقها　　ظمأً شديدٌ والمطافُ المنهل
من كلِّ مرفوعِ الأكفِّ ضراعةً　　والقلبُ يخفقُ والمدامعُ تهمل
حتى إذا روتِ الحديثَ مسلسلاً　　بيضُ الصوارمِ والرماحُ العُسَّل
من فتحك الأسنى عن الجيش الذي　　بثَباتـهِ أهلُ الوغى تتمثّل
أهدتهمُ السرّاء نصرةُ دينهم　　واستبشروا بحديثها وتهلّلوا
وتناقلوا عنكَ الحديثَ مسرّةً　　بسماعه واهتزَّ ذاكَ المحفل
ودعَوْا بنصرك وهو أعظم مفخراً　　إنَّ الحجيجَ بنصر ملكك يحفل

-----

١ ق : ثاني .
٢ ق : فنفتهم ... الضلال .　　٣ ق : فتبسلوا .

فاهنأ بملكك واعتمد شكراً به لطف الإله وصُنْعَهُ تتخوَّل
شرفتَ منهُ باسمٍ والدك الرضى يحيا بهِ منهُ الكريمُ المفضل
أبديتَ من حسنِ الصنيعِ عجائباً تُروى على مرّ الزمانِ وتُنْقَل
خفقَتْ به أعلامُكَ الحمرُ التي بخفوقها النصرُ العزيزُ موكَّل
هدرتْ طبولُ العزِّ تحتَ ظلالها عنوانَ فتحٍ إثرها يستعجل
ودعوتَ أشرافَ البلادِ وكلُّهم يثني الجميلَ وصُنْع جودك أجمل
وردوا ورودَ الهيمِ أجهدها الظما فصفا لهم من وِردِ كفِّك منهل
وأثرتَ فيهِ للطرادِ فوارساً مثلَ الشموسِ وجوههم تتهلَّل
من كلّ وضّاحِ الجبين كأنّهُ نجمٌ وجنحُ النقعِ ليلٌ مسبل
يردُ الطرادَ على أغرَّ محجَّلٍ في سرجه بطلٌ أغرُّ محجَّل
قد عوّدوا قَنَصَ الكماةِ كأنما عقبانها ينقضُّ منها أجدَل
يستتبعونَ هوادجاً مَوْشيّةً من كلِّ بدعٍ فوق ما يُتخيّل[1]
قد صُوّرتْ منها غرائبُ جمّةٌ تنسي عقولَ الناظرينَ وتذهل
وتضمنتْ جَزْلَ الوقودِ حمولها والنصرُ في التحقيق ما هي تحمل
والعادياتُ إذا تلتْ فرسانها آيَ القتالِ صفوفها تترتّل
للهِ خيلكَ ؛ إنها لسَوابحٌ بحرَ القتامِ وموجُهُ متهيّل
من كلِّ برقٍ بالثريا مُلْجَمٍ بالبدرِ يُسرجُ والأهلّةِ يُنعل
أوفى بهادٍ كالظليمِ وخلفهُ كفلٌ كما ماج الكثيبُ الأهيل
هُنَّ البوارقُ غيرَ أنَّ جيادها عن سبْقِ خيلك يا مؤيد تنكل
من أشهبٍ كالصبحِ يعلو سرجَهُ صبحٌ بهِ نجمُ الضلالةِ يأفل
أو أدهمٍ كالليلِ قُلّدَ شُهبهُ خاض الصباحَ فأثبتتهُ الأرجل

---

١ ق : يتحمل .

أو أشقرٍ سالَ النُّضارُ بعطْفهِ وكساهُ صِبْغَةَ بهجةٍ لا تنصل
أو أحمرٍ كالجمرِ أضمر بأسه بالركضِ في يوم الحفيظةِ يشعل
كالخمرِ أترع كأسها لندامهـا وبها حبابةُ غرّةٍ تتَسَيّل
أو أصفرٍ لبسَ العشيَّ مُلاءةً وبذيله لليل ذيلٌ مُسبَل
أجملتَ في هذا الصنيع عوائداً الجودُ فيها مجمَلٌ ومفصَّل
أنشأتَ فيها من نداكَ غمائماً بالفضلِ تنشأ والسّماحةِ تَهمل
فجرّتَ من كفَّيكَ عشرةَ أبحرٍ تزجي سحاب الجودِ وهي الأنمل
من قاس كفّك بالغمام فإنّهُ جَهِلَ القياسَ ومثلها لا يجهل
تسخو الغمامُ ووجهها متجهمٌ والوجهُ منهُ مع النّدى يتهلّل
والسُّحبُ تسمحُ بالمياهِ وجودُهُ ذهبٌ بهِ أهلُ الغنى تتموّل
من قاس بالشمس المنيرةِ وجهَهُ ألفيتهُ في حكمه لا يعدل[1]
من أين للشمسِ المنيرةِ منطقٌ ببيانهِ درُّ الكلامِ يُفَصَّل
من أين للشمس المنيرةِ راحةٌ تسخو إذا بخلَ الزمانُ المحِل
مَنْ قاس بالبدرِ المنيرِ كمالَهُ فالبدرُ ينقصُ والخليفةُ يكمل
من أينَ للبدرِ المنيرِ شمائلٌ تسري برياها الصَّبا والشّمأل
من أينَ للبدرِ المنيرِ مناقبٌ بجهادها تُنْضى المطيُّ الذُّلّل
يا مَنْ إذا نفحتْ نواسمُ حمدهِ فالمسكُ يعبقُ طيبُهُ والمندل
يا من إذا لمحتْ محاسنُ وجههِ تعشو العيونُ ويبهرُ المتأمّـل
يا مَنْ إذا تُليتْ مفاخرُ قومهِ آيُ الكتابِ بذكرها تتنزّل
كفلَ الخلافةَ منكَ يا ملكَ العلا واللهُ جلَّ جلالُهُ لكَ أكفل
مأمونُها وأمينُهـا ورشيدُها منصورهـا مهديّها المتوكّل

---

[1] سقط البيت من ق .

حَسْبُ الخلافة أن تكون وليَّها | ومجيرها من كلّ من يتحيّل
حَسْبُ الزمان بأن تكونَ إمامَهُ | فلهُ بذلكَ عزّةٌ لا تُهْمَل
حَسْبُ الملوك بأن تكون عبيدها | ترجو الندى من راحتيك وتأمل
حَسْبُ المعالي أن تكون إمامها | فعليكَ أطنابُ المفاخرِ تُسدل
يا حجّةَ اللهِ التي برهـــانها | عزٌّ المحقّ به وذلٌّ المبطل
أنتَ الإمامُ ابن الإمام ابن الإما | م ابن الإمام ، وفخرها لا يُعدل
علّمْتَ حتى لم تدعْ من جاهلٍ | أعطيتَ حتى لم تدع مَنْ يسأل
وعنايةُ اللهِ اشتملتَ رداءها | وعلقتَ منها عُروةً لا تُفصَل

ومنها[1] :

أخذتْ قلوبَ الكافرينَ مهابةٌ | فعقولهم من خوفها لا تَعْقِلُ
حسبوا البروقَ صوارماً مسلولةً | أرواحهم من بأسها تتسلّل
وترى النجومَ مناصلاً مرهوبةً | فيفرُّ منها الخائفُ المتنصل
يا ابنَ الألى إجمالهم وجمالهم | شمسُ الضحى والعارضُ المتهلّل
مولايَ لا أُحصي مآثركَ التي | بجهادهـــا يتوصّلُ المتوسّل
أصبحتُ في ظل امتداحك ساجعاً | ظلٌّ[2] المنى من فوقـــه يتهدّل
طوّقتَهُ طوقَ الحمائمِ أنعُماً | فغدا بشكركَ في المحافلِ يهدل
فإليك من صونِ العقول عقيلةٌ | أهداكها صَنَعٌ أغرُّ محجّل
عذراء راق الصنعُ رونَقَ حسنها | فغـــدا بنظْمِ حليّهـــا يتكلّل
خيرتُهـــا بين المـــنى فوجدتُهـــا | أقصى منـــاهـــا أنهـــا تُتَقَبّل

١ قال في أزهار الرياض (٢ : ١٢١) بعد هذا البيت : اتصل بهذا البيت جملة من القصيدة المترجمة في العيديات التي أولها « بشرى كما وضح الصباح وأجمل » وحذفناها من هذه اقتصاراً للتكرار .
٢ الأزهار : طل .

لا زلتَ شمساً في سماء خلافةٍ   وهلالكَ الأسمى يتمُّ ويكمل

قال : ومن رقيق منازعه في بعض نُزَّه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطاني من شنيل قوله :

نفسي الفداء لشادنٍ مهما خَطَرْ   فالقلبُ من سَهم الجفون على خَطَرْ
فضحَ الغزالةَ والأقاحةَ والقنا   مهما تثنَّى أو تبسَّمَ أو نظرْ
عجباً لليلِ ذوائبٍ من شَعْرِهِ   والوجهُ يُسفرُ عن[1] صباحٍ قد سفرْ
عجباً لعِقْدِ الثغرِ منه منظَّماً   والعِقدُ من دمعي عليهِ قد انتثرْ
ما رمتُ أن أجني الأقاحَ بثغرِهِ   إلاّ وقد سلَّ السيوفَ من الحَوَرْ
لم أنسَه ليلَ ارتقابِ هلالهِ   والقلبُ من شك الظهور على غَرَرْ
بتنا نراقبهُ بأوّلِ ليلَةٍ   فإذا بهِ قد لاح في نصف الشهَرْ
طالعتُهُ في روضةٍ كخِلالِهِ   والطيبُ من هذي وتلك قد اشتهرْ
وكلاهما يبدي محاسنَ جمّةً   ملء التنسمِ[2] والمسامعِ والبصرْ
والكأس تطلع شمسها في خدّهِ   فتكادُ تُعشي بالأشعة والنظرْ
نوريةٌ كجبينهِ ، وكلاهما   يجلو ظلامَ الليل بالوجهِ الأغرّ
هي نسخةٌ[3] للشيخِ فيها نسبةٌ   ما إن يزالا يرعشان من الكبرْ
أفرغتَ في جسم الزجاجة روحها   فرأيتُ روحَ الأنسِ منها قد بهرْ
لا تسقِ غير الروض فضلةَ كأسها   فالغصنُ في ذيلِ الأزاهرِ قد عثرْ
ما هبَّ خفّاقُ النسيمِ معَ السَّحَرْ   إلاّ وقد شاق النفوسَ وقد سحرْ
ناجى القلوبَ الخافقاتِ كمثله[4]   ووشى بما تخفي الكمام من الزهرْ

---

١ الأزهار : والوجه منه عن .
٢ الأزهار : المشامم .
٣ كذا في ق ؛ وفي الأزهار : شيمة ، وكلتا اللفظتين قاصرة الدلالة .
٤ ق : لمثله ، والمعنى : أن القلوب خافقات كمثل خفق النسيم المذكور في البيت السابق .

ورَوى عن الضحاكِ عن زهرِ الرُّبى ما أسند الزهريُّ عنه عن مَطَرْ
وتحمّلتْ عنهُ حديثَ صحيحهِ رُسُلُ النسيمِ وصدّق الخُبْرُ الخبرْ
يا قصرَ شنيل وربْعُكَ آهلٌ والروضُ منك على الجمال قد اقتصرْ
للهِ بحركَ والصَّبا قد سَرَّدتْ منهُ دروعاً تحتَ أعلام الشجرْ
والآس حفَّ عِذاره من حوله عن كلِّ من يهوى العذار قد اعتذرْ [1]
قبِّلْ بثغرِ الزهرِ كفَّ خليفةٍ يغنيكَ صوبُ الجود منه عن المطرْ
وافرشْ خدودَ الوردِ تحتَ نعاله واجعل بها لون المُضاعف عن خفرْ
وانظمْ غناء الطيرِ فيهِ مدائحاً وانثرْ من الزهرِ الدراهمَ والدررْ
المنتقى من جوهرِ الشرفِ الذي في مدحه قد أُنزلتْ آيُ السوَرْ
والمجتبى من عنصرِ النورِ الذي في مطلعِ الهَدي المقدَّسِ قد ظهرْ
ذو سطوةٍ مهما كفى، ذو رحمةٍ مهما عفا ، ذو عفّةٍ مهما قدرْ
كمْ سائلٍ للدهرِ أقسمَ قائلاً : واللهِ ما أيامُهُ إلاّ غررْ
مولايَ سعدكَ كالمهنّدِ في الوغى لم يُبْقِ من رسم الضلال ولم يَذَرْ
مولايَ وجهُكَ والصباحُ تَشابها وكلاهما في الخافقَينِ قد اشتهرْ
إنَّ الملوكَ كواكبٌ أخفيْتَهـا وطلعتَ وحدكَ [2] في مظاهرها قمرْ
في كلِّ يومٍ من زمانكَ موسمٌ في طيّهِ للخلقِ أعيادٌ كبرْ
فاستقبلِ الأيامَ يندى روضها ويرفُّ والنصرُ العزيزُ له ثمرْ
قد ذهّبَتْ منها العشايا ضعفَ ما قد فضضت منها المحاسنُ في السَّحَرْ
يا ابنَ الذينَ إذا تُعَدَّ خلالهم نَفِدَ الحساب وأعجزتْ منها القدرْ
إنْ أوردوا هيمَ السيوفِ غدائراً مصقولةً فلطالما حمدوا الصدرْ
سائلْ ببدرٍ عنهمُ بدرَ الهدى فبهمْ على حزب الضلال قد انتصرْ

---

[1] ق : اقتدر .
[2] الأزهار : وجهك .

واسأل مواقفهم بكلّ مشهَّرٍ واقرَ المغازي في الصحيح وفي السيرْ
تجدِ الثناء بيأسهم وبجودهم في مصحفِ الوحي المنزَّل مستطرْ
فبمثل هديك فلتنر شمسُ الضحى وبمثلِ قومكَ فليفاخرْ من فخرْ
ماذا أقولُ وكلُّ وصفٍ معجزٌ والقولُ فيكَ مع الإطالةِ مختصرْ
تلكَ المناقبُ كالثواقبِ في العلا من رامها بالحَصرِ أدركه الحَصَرْ
إن غابَ عبدُكَ عن حماكَ فإنّهُ بالقلبِ في تلكَ المشاهد قد حضرْ
فاذكره إنَّ الذكرَ منكَ سعادةٌ وبها على كلّ الأنامِ قد افتخرْ
ورضاكَ عنهُ غايةٌ ما بعدها إلاّ رضى الله الذي ابتدع البشرْ
فاشكرْ صنيعَ اللهِ فيكَ فإنّهُ سبحانَهُ ضمنَ المزيد لمنْ شكرْ
وعليكَ من روْحِ الإلهِ تحيّةٌ تهفو إليكَ مع الأصائل والبُكَرْ

ثمّ قال : ومن أغراضه الوقتية ــ استرسالاً مع الطبع البديهي في الشكر عن ضروب من التحف التي يقتضيها التحفّي السلطاني بأولياء خدمته ــ نبذ متعددة فيما يظهر فيها ، فمنها قوله :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكَ بجودهِ وبفضلهِ قد أشبهَ الأملاكا
واللهِ ما عرفَ الزمانُ وأهلُهُ أمْناً ويُمْناً دائماً لولاكا
وافيتُ أهـلي بالرياضِ عشيّةً في روضِ جاهك تحت ظل ذَراكا [1]
فوجدتُهُ قد طَلّهُ صوبُ الندى بسحائبٍ تنهلُّ من يمناكا
وسفائنٍ مشحونةٍ ألقى بهـا بحرُ السماحِ يجيشُ من نعماكا
رُطَبٌ من الطلْعِ النضيدِ كأنها قد نُظّمَتْ من حسنها أسلاكا
من كلّ ما كانَ النبيّ يحبّها وأحبّهـا الأنصارُ من أولاكا
وبدائعِ التّحَفِ التي قد أطلعتْ مثلَ البدورِ أنارتِ الأحلاكا

---

[1] الأزهار : رضاكا .

نُطَفٌ من النورِ المبينِ تجسّمَتْ حتى حسبنا أنهنَّ هُـــــداكا
يحلو على الأفواهِ طيبُ مذاقِهـــا لولا التجسّدُ خلتهنَّ ثنـاكا[1]
طافَتْ بها النّشأ الصغارُ كأنّها سِرْبُ القطا لمّا وردن نَداكا
نجواهُمُ مهما سمعتَ كلامهمْ ونداؤهم : مولايَ ، أو مولاكا
بلّغْتَ في الأبناء عَبْدَكَ سُؤلَهُ لا زلتَ تبلغُ في بَنيكَ مُناكـا
يتدارسونَ من الدعاء صحائفاً كيما يطيلَ الله في بقيـاكا
فبقيتَ شمساً في سماء خلافةٍ وهُمُ البدورُ أمدَّهُنَّ سناكا

ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقاً من حَبِّ الملوك[2] :

كتبَ الإلهُ على العبادِ محبّةً لك كان فرضُ كتابها موقوتا
وأنا الذي شرَّفتَهُ من بينهمْ حتى جعلتَ له المحبّةَ قوتا
ما زلتَ تُتحفُهُ بكلّ ذخيرةٍ حتى لقد أتحفْتَهُ الياقوتـا
وإلى الملوك قد اعتزى من عزّهِ فغـــدا لهُ ياقوتُها ممقوتا

ومنها في مثل ذلك :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكْ أهْدَيْتَني حَبَّ الملوكْ
فكـــأنّما ياقوتُهـــــا نظمتْ لنا نظْمَ السلوكْ
إنَّ الملوكَ إذا لحَوْا فغيـاثُهُمْ أنْ أمْلوكْ
وكذا العُفاةُ إذا شكَوْا فغناهُمُ أنْ يسألوكْ
فالله يقبلُ مَنْ دعـــا لعلاكَ من أهلِ السلوكْ
لا زلتَ تطلعُ غُرَّةً كالشمسِ في وقتِ الدُّلوكْ

---

[1] الأزهار : سناكا .
[2] ما يعرف في مصر باسم « حب العزيز » .

ومنها ، وقد أهداه صيداً مما صاده أولاده :

يا خيرَ مَنْ ورثَ السماحَ عن الأُلى		نصروا الأُلى وتبوّأوا إيمانا
في كلِّ يومٍ منكَ تحفةُ منعمٍ		والى الجميلَ وأجزلَ الإحسانا
قد أذكرتْ دارَ النعيمِ عبيدَهُ		وتضمنتْ من فضلهِ رضوانا
تهدي مَوالي[1] الذينَ تفرّعوا		عن دَوْحٍ فخرك في العلا أغصانا
لجلالكَ الأعلى قنيصاً أتعبوا		في صيدهِ الأرواحَ والأبدانا
فتخصُّني منهُ بأوفرِ قسمةٍ		فَسَحَتْ لعبدكَ في الرضى ميدانا
للهِ مِنْ مَوْلًى كريمٍ بالذي		تُهدي الموالي يُتحفُ العبدانا
تدعو بنيَّ إلى الغنيِّ بربِّهِ		يا ربَّنا أغنِ الذي أغنانا
وعليكَ من قدسِ الإلهِ تحيّةٌ		تهديكَ منهُ الرَّوْحَ والريحانا

ومنها ، وقد أهداه أصنافاً من الفواكه :

يا مَنْ له الوجهُ الجميلُ إذا بدا		فاقتْ محاسنُهُ البدورَ كمالا
والمنتقى من جوهرِ الفخرِ الذي		فاقَ الخلائفَ عزّةً وجمالا[2]
ما أبصرتْ عيناي مثلَ هديّةٍ		أبدتْ لنا صنعَ الإلهِ تعالى
فيها من التفاحِ كلُّ عجيبةٍ		تذكي بريّاها صَبًا وشمالا
تهدي لنا نَهدَ الحبيبِ وخدَّهُ		وتري من الوردِ الجنيِّ مثالا
وبها من الأترجّ شمسٌ أطلعتْ		من كلِّ شطرٍ للعيونِ هلالا
ويحفّها ورقٌ يروقُ كأنّهُ		وَرِقُ النُّضارِ وقدْ أجاد نِبالا
لون[3] العشية ذهّبت صفحاتها		رَقّتْ وراقتْ بهجَةً وجمالا

---

١ الأزهار : مواليك .
٢ الأزهار : وجلالا .
٣ ق : لولا .

وبها من النَّقْلِ الشهيّ مذكّرٌ　　عهداً تولّى ليتــهُ يتوالى
لله منها خُضرَةٌ من حَضرَةٍ　　تغني العُفاةَ وتُحسِبُ الآمالا
أذكرتني العهدَ القديم ومعهداً　　كانتْ شموسُ الراحِ فيه تَلالا
فأردتُ تجديدَ العهودِ وإنّمــا　　كتبَ المشيبُ على عذاريَ لا لا
فأدرتُ من ذكراك كأسَ مدامةٍ　　وشربتُ من حبي لها جِرْيالا
فبقيتَ شمساً في سماء خلافةٍ　　لا يستطيعُ لها الزمانُ زوالا

ومنها يوم عاشوراء :

يا أيهــا المولى الذي بركاتُهُ　　رفعتْ لواءً للنّدى منشورا
لكَ راحةٌ تزجي الغمامَ بأنملٍ　　فَجرّتْ منها بالنوالِ بحورا
واليومَ موسمُ قربةٍ وعبادةٍ　　وغداً ، ظفرتَ بأجره ، عاشورا
راعيتَ فيهِ سُنّةً نبويّةً　　تروي الثقاتُ حديثَهُ المشهورا
لا زلتَ عامكَ كلّه في غبطةٍ　　لُقّيتَ منها نَضرةً وسرورا

ومنها في بعض قطعة :

واليتَ ما أوليتَ يا بحرَ النّدى　　ووحقٌ جودك ما رأيتُ كهذهِ
فإذا يهزّ لهــا اللسانُ حسامَهُ　　فصفاتُ فخرك قد قضتْ بنفاذهِ
علّمتَ فرسانَ الكلام نظامَها　　كتعلّمِ التلميذِ من أستاذهِ
والبحرُ تمتارُ السحائبُ ماءه　　فتجودُهُ من غيثها برَذاذهِ

ومنها ، وقد أهداه باكوراً :

يا وارثَ الأنصارِ وهيَ مزيّةٌ　　بفخارهــا أثنى الكتابُ المنزّلُ
أهدَيْتَني الباكورَ وهيَ بشارةٌ　　ببواكرِ الفتحِ الذي يُستَقبلُ

وولادةٌ لهــلالِ تـمٍّ طالعٍ   وجهُ الزمــانِ بوجهه يتهلّلُ
هو أوّلُ الأنوارِ في أُفقِ المدى[1]   وترى الأهلّةَ بعدهُ تسترسلُ
مولايَ صِدْقُ الفالِ قد جرّبتهُ   من لفظِ عبدكَ، والعواقبُ أجملُ

ومنها في جفنة :

طعامكَ من دارِ النعيمِ بعثتَهُ   فشرّفْته من حيث أدري ولا أدري
بهضبة نعمى قد سمونا لأوجِـها[2]   فصدنا بأعلاها الشهيَّ من الطيرِ
وقوراءِ قد دُرْنا بهالةِ بدرهــا   كما دارتِ الزُّهرُ النجومُ على البدرِ
وقد حُملتْ فوقَ الرؤوسِ لأنها   هديّةُ مولّى حلَّ في مفرق الفخرِ
فما شئتَ من طعمٍ زكيٍّ مُهَنّأٍ   وما شئتَ من عَرفٍ ذكيٍ ومن نشرِ
فلو أنهــا قد قدمتْ لخليفةٍ   لأعظمها قدراً وبالغَ في الشكرِ
وكمْ لكَ من نعمى عليَّ عميمةٍ   يقلُّ لأدناها الجميلُ من الذكرِ
فلا زلتَ يا مولى الملوكِ مبلّغاً   أمانيَّ ترجوها إلى سالفِ الدهرِ

ومنها شكراً عن كتاب :

مولايَ يومُ الجُمُعَهْ   سعُودُهُ مجتمعَــــهْ
فانعَمْ صباحاً واغتنمْ   أوقــاتَهُ المجتمعَـهْ
وابشرْ بصنعٍ عاجلٍ   أعلامُهُ مرتفعَــهْ
وانتظرِ الفتحَ الذي   يأتيكَ بالنصرِ معَهْ
وبيضُــــهُ وسُمْرُهُ   إلى العُداةِ مُشرَعهْ
واللطفُ مرجوٌّ فَرِدْ   بفضل ربي مشرَعَهْ

---

[1] ق : الندى .
[2] ق : لأجلها .

فـأتحفتَـني شرَّفتَني برقعـَـةٍ مرفَّعَـه
بل روضةٍ ممطورةٍ أزهارهـا منوَّعَـه
حديقَةٌ قد جُدتها بصوبِ جودٍ مُترَعَه
ورايَـــةٌ منشورةٌ وآيَـةٌ مستبدعَـه[1]
كَمْ حِكَمٍ لطيفَةٍ في طيّها مستودَعَه
عقيـلةٌ صورتهـا من الجمالِ مبدَعَه
سقيتني من فضلهـا بفضلِ كاسٍ مترَعَه
فدمْ وأملاكُ الورى على علاكَ مجمِعَه

ومنها شكراً على خِلْعَة :

يا بدرَ تِمّ في سماء خلافة حفّتْ نجومَ السَّعْدِ هالةُ قصرهِ
ألبستَ عبدَكَ من ثيابكَ ملبساً قد قصَّرتْ عنه مداركُ شكره
ورضاكَ عنهُ خيرُ ما ألبسته فلقد أشادَ بجـاهه وببرّه
ألبستني ، أركبتني ، شرَّفتني أهديتني ما لا أقومُ بحصره
نظري لوجهكَ وهوَ أجملُ نيِّرٍ يزري على شمسِ الزمانِ وبدره
أعلى وأعظَم منّةً لا سيّمـا وأنا المنعَّم في الحضورِ ببِشره
لا زلتَ مولًى للملوكِ مؤمَّلاً وحلاك[2] للإسلامِ مفخرُ دهره

ومنها ، وقد خلع — رضوان الله تعالى عليه — على رسول من أرساله :

أبحرَ سماحٍ مَدَّ عشرةَ أبحرٍ تُفيضُ غمام الجودِ وهي الأناملُ
بكفّكَ غَيْثٌ للبـلادِ وأهلها يروّض محلَ الأرض، والعامُ ماحلُ

١ سقط البيت والذي يليه من ق .
٢ الأزهار : وعلاك .

لكَ الخيرُ إنْ أصبحتَ بحرَ سماحةٍ يعمُّ نـــداه فـــالمواهبُ ساحلُ
خلعتَ على هذا الرسولِ ملابساً بها تتَسَنّى في علاكَ المآملُ
وبلّغتَهُ آمالهُ كيفَ شاءهـــا فبُلّغْتَ يا مولايَ ما أنتَ آملُ

ومنها وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع ، قوله سائلاً عن حاله :

أسائلُ بدرَ التمَّ كيف هلالُهُ وأدعو له الرحمن جلَّ جلالُهُ
وأسألهُ تعجيلَ راحته التي وسيلَتُنا فيهـا النبيُّ وآلُهُ
ستبلغُ فيهِ ما تؤمّلُ من منًى ويرضيكَ يا بدرَ الكمال كمالُهُ

وفي مثله :

أقولُ لبدرِ التمَّ كيفَ هلالكا نعمتَ صباحاً بالسُّعود [1] وآلكا
وبُلّغتَ في النجلِ الكريم [2] سعادةً تقرُّ بها عيناً وينعمُ بالكا
وخُصِّصتَ بالبشرى من الله ربِّنا كما عمَّ أقطارَ البلادِ نَوالُكا

ومن التورية باسم قائد ولاه على جماعة من الجند :

يا أيهـا المولى الذي أيامُهُ تهمي بسُحبِ الجودِ من آلائِهِ
أبشرْ لجيشكَ بالسعادةِ كلما يغزو ونَصْرُ الله تحتَ لوائِهِ

وأنشده في ملبس اتخذه :

أمولايَ يا ابن السابقينَ إلى العلا ومَن نَصروا الدينَ الحنيفيَّ أولا
غَنيتَ بنورِ اللهِ عن كلِّ زينةٍ وألبستَ من رضوانه أشرف الحلى
وَقارُكَ زاد الملكَ عزّاً وهيبةً وسوَّغَهُ من رحمةِ اللهِ منهلا

---

[1] الأزهار : بالسرور .
[2] الأزهار : السعيد .

ويا شمسَ هدي في سماء خلافة   وأبناؤه الزُّهرُ المنيرةُ تجتلى
تباركَ من أبداكَ في كلّ مظهرٍ   جميلاً جليلاً مستعاذاً مؤمَّلا
فيخجل منك الشمسَ شمسُ هدايةٍ   ويحسدُ منكَ البدرُ بدراً مكمَّلا
إذا أنتَ ألبستَ الزمانَ وآلهُ   ملابسَ عزٍّ ليس يدركها البلى
وطوَّقْتَ أجيادَ الملوكِ أياديـاً   وتوَّجتهم بالفخرِ تاجاً مكلَّلا
فما شئتَ فالبس فالمُشاهدُ قائلٌ :   تباركَ ما أبهى وأسنى وأجملا
ألا كلُّ من صلّى وضحّى ومن دعا   ومدَّ يديهِ ضارعاً متوسّلا
وُجودُكَ شرطٌ في حصول قَبوله   وَجُودُكَ أثرى كفَّهُ فتنفَّلا[1]

وقال برسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبي العباس :

أُهدي أبا العبّاسِ   مَلِكَ الندى وَالباسِ
ثوبَ السماء لأنّهُ   بـدرٌ بـدا للنّاسِ
فَلَقُ الصباحِ بوجههِ   عوَّذتُـهُ بـالنّاسِ
يكسو إماماً لم يزلْ   بحلى المحامدِ كاسي
فيـا له من مرتَدٍ   ثوبَ التُّقى لبَّاسِ
أذيالُهُ من حَمْدِهِ   مسكيّـةُ الأنفـاسِ
وبطرزه مدحٌ زَرَى   بالمدحِ في القرطاسِ
إن كنتَ في لون السما   ء بنسبةٍ وقيـاسِ
فلأنتَ يا بدرَ العلا   شرَّفْتَـني بلبـاسِ
أنا منشدٌ « ما في وقو   فك ساعةً من باسِ »[2]

---

[1] الأزهار : متنفلا .
[2] صدر بيت لأبي تمام ، وعجزه « تقضي ذمام الأربع الأدراس » .

لترى رياضاً [1] أطلعتْ زَهَراً على أجناسِ
أوراقهــا توريقهــا بقضيبهــا الميّــاسِ
ومن المديحِ مُدامتي ومن المحابرِ كاسي
فالله يمتع لابسي بالبِشرِ والإينــاسِ

وقال في مثل ذلك :

إنَّ الإمامَ محمّدا أهدى الخليفةَ أحمدا
للباسهِ ثوباً ، وقد لبس المحامد وارتدى
وعمامةَ الشفقِ [2] التي من فوقها شمس الهدى
يا حسنها إذ أرسلتْ من كفّه غيثَ النّدى
وكأنَّ وشْيَ رقومها بالبرقِ طُرِّزَ عسجدا
وبطرزه لونُ السما ء ووجهه قمرٌ بدا
للهِ منــــهُ نيّــرٌ حلَّ المنازلَ أسعُدا
مستنصرٌ ، أعلى له فوقَ المنازلِ أسعُدا

ثمَّ قال وأنشده وهو على جواد أدهم :

تجلّى لنا المولى الإمامُ محمّدٌ على أدهمٍ قد راقَ حسنُ أديمهِ
فأبصرت صبحاً فوق ليلٍ وقد حكى مقلّد ذاك الطّرفِ بعضَ نجومهِ

وكتب له مع هدية زهر :

أمولايَ تقبيلي ليمناكَ شاقني ولا ينكرُ الظمآنُ شوقاً إلى البحرِ
ولمّا رأيتُ الدهرَ ماطلَني بهــا وشوّقني من حيثُ أدري ولا أدري

---

١ ق : رياشاً .
٢ الأزهار : التقوى .

بعثتُ لكَ الزَّهرَ الجنيَّ لعلَّهُ   يقبِّلها عني ثغورٌ من الزهرِ

وكتب إليه أيضاً متشوّقاً :

كتبتُ ودمعي بلَّل الركبَ قطرُهُ   وأجرى به بين الخيام السواقيا
حنيناً لمولًى أتلفَ المالَ جودُهُ   ولكنّهُ قد خلَّدَ الفخرَ باقيا
وما عشتُ بعد البينِ إلاّ لأنّني   أرجّي بفضلِ الله منه التلاقيا

وأنشده أيضاً وهو بحال تألم :

كأني بلطفِ الله قد عمَّ خلقَهُ   وعافى إمامَ المسلمينَ وقد شفي
وقاضي القضاءِ الحتمِ سجَّل ختمه [1]   وخطَّ على رسم الشفاء له « اكتفى »

وله في مثل ذلك :

لكَ الخيرُ يا مولايَ أبشرْ بعصمةٍ   عقدتَ مع الأيام في حفظها صُلحا
وعافيةٍ في صحةٍ مستجَدَّةٍ   تجدِّد للدينِ السعادةَ والنُّجحا
ووجهُ التهاني مُشرقٌ متهلِّلٌ   وجوّ الأماني بعدما غام قد أضحى
وقد ظهرتْ للبرء منكَ علامةٌ   علامتك العليا [2] تقول لنا « صحّا »

وفي مثل ذلك

يا إماماً قد تخذنا   هُ من الدهرِ ملاذا
خطُّ يمناكَ ينادي   صحَّ هذا صحَّ هذا

وقال مهنئاً بالشفاء :

---

١ الأزهار : حكمه .
٢ الأزهار : العظمى .

الحمــدُ لله بلّغنا المُنى لمّا رأيناكَ ، وزالَ العنا
وفُزْتَ بالأجرِ وكَبْتِ العدا وفزتَ بالعزِّ وطيب الثنا
فالحمدُ للهِ عَلى ما بهِ مَنَّ علينا من ظهورِ السنا

وقال أيضاً في نحوه :

نعم قَرَّتِ العينان وانشرَح الصدرُ وقد لاح من وجه الإمامِ لنا البدرُ
سرينا بليلِ التيه يكذبُ فجرهُ فلمّا تجلّى فجرهُ صدقَ الفجرُ
أغرّ المُحيّا بالحيـاء مُقنَّعٌ زهاه الكلامُ الحرُّ والنسبُ الحرُّ
إمامُ الهدى قد خصّه بخلافةٍ إلَهٌ له في خَلْقِهِ النهيُ والأمرُ

وقال في مثله ، وقد ركب رحمه الله تعالى لمعاهد حضرته :

هنيئاً هنيئاً لا نَفادَ لعَـدِّهِ وبشرى لدين اللهِ إنجازُ وعدِهِ
فقد لاحَ بدرُ التِّم في أفُقِ العُلا وحلَّ كما يرضى منازلَ سعدِهِ
وطاف أميرُ[١] المسلمين محمّدٌ بحضرته العَلْيا مبلِّغَ قصدِهِ
ولاحَتْ بها الأنوارُ من بِشرِ وجهه وفاح بها النوّارُ من نَشْرِ حمدِهِ
وأبصرتِ الأبصارُ شمسَ هدايةٍ وأشرقتِ الأرجاءُ من زهرِ رِفْدِهِ
ولوَّحتِ الأعلامُ فيها بنصرهِ كما لوَّحَ الصبحُ المبينُ[٢] ببندهِ
ستهدي لَهُ الأيامُ كلَّ مسرَّةٍ ويحيي به الرحمنُ آثارَ جدِّهِ
فَسُلَّ حسامَ السعد واضرب به العدا[٣] وخلِّ حسام الهند في كنزِ[٤] غمدهِ
فسيفُكَ سيفُ الله مهما سللتهُ يقيمُ حدودَ اللهِ قائمُ حدِّهِ

---

١ الأزهار : إمام .
٢ الأزهار : المنير .
٣ الأزهار : واضرب بحده .
٤ الأزهار : في كنّ .

وقال ، وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية بجبل الشوار :

على الطائر الميمون والطالع السَّعْدِ   قدمتَ مع الصُّنع الجميلِ على وعدِ
وقد عُدتَ من جَبَلِ الشوارِ لتجتلي   عقائلَ للفتحِ المُبينِ بلا عدّ

وقال ممّا رسم في طيقان[1] الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه الله تعالى :

أنــا تاجٌ كهلالٍ   أنــا كرسيٌّ جمالِ
يَنْجَلِي الإبريقُ فيهِ   كعَرُوسٍ ذي اختيالِ
جودُ مولانا ابنِ نصرٍ   قد حباني بالكمالِ

وفي مثله :

من رأى التــاجَ الرفيعا   قَدْ حوى الشكرَ البديعا
تحســدُ الأفـلاكُ منـهُ   قوسَــهُ السهلَ المَنيعا
دمتُ رَبْعاً للتّهاني   أنظمُ الشمـلَ الجميعا

وفيه :

للغَــني بـــاللهِ قصرٌ   للتهـــاني يصطفيــــهِ
فيـهِ محرابُ صلاةٍ   يقفُ الإبريقُ فيـــهِ
تالياً سورةَ حُسنٍ[2]   والمَعــالي تقتفيــــهِ

وفيه .

أيٌّ قوسٍ ذي جمالٍ[3]   سهمُهُ سهمُ السعادَهْ

---

١ ق : طبقات .
٢ الأزهار : حبي .
٣ الأزهار : كمال .

مَلِكُ الإبريقِ فيه عوَّدَ الإحسانَ عادَهْ
ذو صلاة من صِلاتٍ كُلُّهــا دأباً مُعادهْ

وقال في المعنى ممّا كتب به لعمنا الأمير «سعد» رحمة الله تعالى عليه :

انظر لأفقِ جمالٍ به الأباريقُ تَصْعَدْ
حُسْنٌ بديعٌ حَباه به الأمــير[1] الممجَّدْ
فخرُ الإمارة سعــدٌ بــهِ الخليفةُ يَسعدْ
وكيفَ لا وأبــوه فخرُ الملوك محمدْ
عليــه حَلْيُ رضاه في كلِّ يومٍ يُجَدَّدْ

وقال فيه أيضاً :

رفعتُ قوسَ سمائي يُزْهى بتاج الهلالِ
قَدْ قلدتْه نقوشي دُرَّ الدراري العوالي
ترى الأباريقَ فيـه تُهديك عذبَ الزلالِ
قد زان قَصْريَ سعدٌ بســــعدهِ المتوالي
فدام يعمرُ رَبْعي في كلِّ مولى الموالي

وفي الغرض :

ما ترى في الرياضِ أشباهي يسحرُ العقلَ حسنيَ الزاهي
زانَ روضي أميره سعدٌ وهو نجلُ الغنيِّ باللهِ
دامَ منهُ بمرتقى عزٍّ آمرٌ بالسعودِ أو ناهي

وقال في غرض الشكر عن مغطى[2] صنهاجي أهداه إياه :

---

١ ق : الأمين .
٢ يستدل من القطعة أن المغطى نوع من الصناديق .

لِمَنْ قبّةٌ حمراء مُدَّ نُضارها   تَطابَقَ منها أرضُها وسماؤها
وما أرضها إلا خزائنُ رحمةٍ   وما قد سما من فوقِ ذاكَ غطاؤها
وقد شــبَّهَ الرحمنُ خلقتنا به   وحسبك فخراً بانَ منهُ اعتلاؤها
ومعروشةِ الأرجاء مفروشةٍ بها   صنوفٌ من النعماء منها وطاؤها
ترى الطيرَ في أجوافها قد تصففتْ   على نِعَمٍ عندَ الإلهِ كفاؤها
ونسبتها صنهاجةٌ غيرَ أنّها   تُقَصِّرُ عمّا قد حوى خلفاؤها
حبشيّ بها دونَ العبيدِ خلافةٌ   على الله في يومِ الجزاء جزاؤها

وفي مثله

ما للعوالم جمّعَتْ في قبــةٍ   قَدْ شادها كرمُ الإمام محمدِ
في صفحِ صرح بالزجاج مموّهٌ   وبجود مولاي الإمام ممهّدِ
ما إنْ رأيت ولا سمعت كطائر[1]   عن ثوب مَوْشِيٍّ الرياش مجرّدِ
إن لم تكنْ تلك الطيورُ تَغَرَّدَتْ   فلشكر هذا العبدِ سجعُ مغرّدِ
صُفَّتْ عليها للفواكه كلٌّ ما   قد عاهدته بدوحها المتعوّدِ
لو أبصرت صنهاجةٌ أوضاعَهُ   دانَتْ لَهُ أملاكها بتعبُّدِ
عوّدتَني الصنعَ الجميلَ تفضُّلاً   لا زلتَ خيرَ معــوَّذٍ ومعوِّدِ
وبســورة الأنعامِ كَمْ من آيةٍ   فيهــا لقارٍ بالنوالِ مُجَوَّدِ

وقال تذييلاً لبيْتَي ابن المعتز[2] :

سقتــنيَ في لَيْلٍ شَبيه بشعرهــا   شبيهَــةَ خديهــا بغَيرِ رقيبِ
« فأمسيتُ في ليلين للشَّعْرِ[3] والدجى   وشمسين من خمرٍ وخــدٍّ[4] حبيب »

---

١ الأزهار : بطائر .
٢ انظر أشعار أولاد الخلفاء : ١٧٩ .
٣ الصولي : فبت لذا الليلين بالشعر .
٤ الصولي : وفجرين من راح ووجه .

إلى أن بدا الصبحُ المبينُ كأنّهُ   مُحَيّا ابن نصرٍ لم يُشَنْ بغروب
شمائلهُ مهما أُديرتْ كؤوسها   قلائدُ أسماعٍ وأُنسُ قلوب

وقال مذيلاً على بيت ابن وكيع [١] :

« هي في أوجهِ الندامى عقيقٌ   وهي مثلُ النضارِ في الأقداحِ »
كابن نصر تراهُ في الحرب ليثاً   وهو بدرُ الندى وغيثُ السماح
ذكره قد ثنى قُدُودَ الندامى   وأعادَ الحيـــاةَ في الأرواح [٢]

وقال ممّا يرسم للغني بالله :

للغني بالله مُلْكٌ   بُرْدُه بالعزّ مُذْهَبْ
دام في رفعةِ شانٍ   ما جلا الإصباحُ غَيْهبْ

وقال أيضاً

يا ابنَ نصر لك مُلْكٌ   ليسَ تعدوه الفتوحُ
دمت رُوحاً للمعالي   ما سرى في الجسم روحُ

ومن مقطوعاته :

وابنُ نصر له محيّا كصبحٍ   إن تجلّى جلا لنا [٣] كلَّ كَرْبِ
ذو حسامٍ كأنّهُ لمعُ برقٍ   في بنانٍ كأنّها غيثُ سُحْبِ

ومن أخرى :

وكأنّ النجومَ في غَسَقِ الليـ   ـلِ جُمانٌ يلوحُ في آبنوسِ

---

١ لم يرد في ديوانه المجموع .
٢ الأزهار : الأشباح ؛ وهي بمعنى الأجسام .
٣ الأزهار : جلا دجى .

وكأنَّ الصباحَ في الأفقِ يجلى   بحليٍّ النجومِ مثلَ العروسِ
وكأنَّ الرياضَ تهدي ثناءً   للغنيِّ بــالله فوقَ الطروسِ

وقال من قصيدة أولها :

أضياءُ هَدْيٍ أم ضياءُ نهارِ   وشذا المحامدِ أم شـذا الأزهارِ
قَسَماً بهديك في الضياء ، وإنّه   شمسٌ تمدُّ الشُّهبَ بالأنوارِ [1]

ومنها :

كم من لطائفَ للهُدى أوضحتها   خفيَتْ لطائفها [2] على الأفكارِ
كم من جرائمَ قد غفرتَ عظيمها   مُستنزلاً مِنْ رحمةِ الغفّارِ
علمتْ ملوكُ الأرضِ أنّك فخرها   فتسابقتْ لرضـاكَ في مضمارِ

ومنها يصف الجيش :

سالَتْ بهِ تحتَ العَجاجِ سفينةٌ   لقحت بريحِ العز [3] من أنصارِ
أرْسَتْ بجوديِّ الجودِ في يومِ الندى   وجرتْ بيومِ الحربِ في تيّارِ

ومنها :

ألقى بأيدي الريحِ فَضْلَ عنانه   فيكادُ يسبقُ لمحـةَ الأبصارِ

ومنها :

فهي العِرابُ متّى انبرتْ يومَ الوغى [4]   قد أعربتْ عن لطفِ صُنْعِ الباري

---

١ بين هذا البيت وسابقه في أزهار الرياض : ومنها بعد كثير .
٢ الأزهار : مداركها .
٣ الأزهار : العزم .
٤ الأزهار : متى أثيرتَ في الوغى ؛ ق : أثيرت يوم .

ومنها :

إن خاضَ في ليلِ العجاجِ[1] رأيتَهُ يجلُو دُجُنَّته بوجهِ نهارِ

ومنها :

كم فيهمُ من قارِ ضيفٍ طارقٍ وضحَتْ شواهدُ فضلهِ للقارِ

ومنها :

يا أيّها الملكُ الذي أيامُهُ غُرَرٌ تلوحُ بأوجُهِ الأعصارِ
قد زاركَ العيدُ السعيدُ مبشراً فاسمحْ لألفٍ منهمُ بمزار
لمّا ازدَهَتْهُ عواطفٌ ألطفتها عَطَفَ الإلهُ عليك عَطْفَ سِوار
فأتى يؤمم منك هَدْياً صالحاً كي يستمدَّ النورَ بعد سَرَار
وأتاكَ يسحبُ ذيلَ سُحب أغدقتْ تغري جُفُونَ المزن باستعبار
جادت بجاري الدمع منْ قَطْرِ الندى فرعى الربيعُ لها حقوقَ الجار
فأعاد وَجْهَ الأرضِ طَلْقاً مشرقاً مُتضاحكاً بمباسم النوَّار
لمّا دعاكَ إلى القيامِ بسنَّة حَكَّمتَ داعي الجود والإيثار
فأفضتَ فينا من نداك مواهباً حَسُنَتْ مواقعُها على التكرار
فاهنأ بعيدٍ عاد يشتملُ الرضى جَذْلانَ يرفلُ في حلى استبشار

ومنها :

لا عُذْرَ لي إن كنتُ فيه مقصِّراً سَدَّتْ صفاتُك أوجُهَ الأعذارِ
فإذا نظمتُ من المناقبِ دُرَّها شرَّفتني منها بنَظْم دراري
فلذاكَ أنظمها قلائدَ لؤلؤ لألاؤها قَدْ شَفَّ بالأنوار

---

[1] الأزهار : بحر العجاج .

وأنشد على لحده المقدّس رحمه الله تعالى[1] :

ضريحَ أمير المسلمين محمّدِ يخصُّكَ ربي بالسلامِ المردَّدِ
وحيّتْك[2] من رَوْحِ الإلّه تحيّةٌ مع الملإ الأعلى تروحُ وتغتدي
وشقّت جيوبَ الزهر فيك كمائمٌ يرفُّ بها الريحانُ عن خَضِلٍ ندي
وصابتْ من الرحمى عليك غمائمٌ تروّي ثرى هذا الضريح المنجَّدِ
وزارتك من حُور الجنان أوانسٌ نواعمُ في كلٍّ النعيم المخلَّدِ
وجاءتك بالبشرى ملائكةُ الرضى كما جاء في الذكرِ الحكيمِ الممجَّدِ
وصافَحَ منك الروضُ أطيبَ تربة وعاهد منكَ المزنُ أكرمَ معهدِ
رضى الله والصفحُ الجميل وعفوُهُ يُوالي على ذاكَ الصفيح المنضَّدِ
ويا صَدَفاً قد فاز من جوهر العُلا بكلٍّ[3] نفيسٍ بالنفاسة مفردِ
أعندك أنَّ العلمَ والحلمَ والحجى وزهرَ الحلى قد أُدرجت طَيَّ مَلْحدِ
وهل أنت إلاّ هالةُ القمرِ الذي بنورِ هداه الشهبُ تَهْدي وتهتدي
ويا عجباً من ذلك الترب كيف لا يفيض ببحرٍ للسماحة مُزْبدِ
لقد ضاقت الأكوانُ وَهْيَ رحيبةٌ بما حُزْتَ من فخرٍ عظيم وسُودَدِ
قدمتَ على الرحمن أكرم مقدم وزُوِّدت من رحماه خير مزوَّدِ
أقام بكَ المولى الإمام محمّد مؤمّل فوز بالشّفيعِ محمّدِ
فجاء كما ترضى وترضى به العُلا وأنجز للآمالِ أكرمَ موعدِ
ومد ظلال العدل في كل وجهة وكف أكفَّ البغي من كلٍّ معتدِ
وقام بمفروض الجهاد عن الورى وعَوَّد دِين الله خير معوَّدِ
قَضَى بعدما قَضَّى الخلافةَ حقَّها وعاملَ وجهَ الله في كلٍّ مقصدِ

[1] انظر أزهار الرياض ٢ : ١٥٢ .
[2] الأزهار : وحياك .
[3] الأزهار : حاز ... لكل .

وفتَّحَ بالسيفِ الممالكَ عنوةً ... ومدت لـه أملاكُها كفَّ مجتدِ
وكسَّر تمثالَ الصليب وأُخرستْ ... تواقيسُ كانت للضلال بمَرْصَدِ
وطهَّرَ محراباً وجدَّدَ منبراً ... وأعلنَ ذكرَ الله في كلِّ مسجدِ
ودانَتْ له الأملاكُ شرقاً ومغرباً ... وكلهمُ ألقى لهُ الملكَ باليَدِ
وطبَّقَ معمورَ البسيطةِ ذِكرُهُ ... وسارتْ به الركبانُ في كل فَدْفَدِ
وسافر عن دارِ الفناء ليجتلي ... بما قدَّمَ اليومَ السعادةَ في غدِ
وقامَ بأمْرِ الله حقَّ قيامِـــهِ ... بعزمةِ لا وانٍ ولا متردِّدِ
لئن سار للرحمنِ خيرَ مودع ... وحَلَّ من الفردوس أشرفَ مقعدِ
فقد خلَّفَ المولى الخليفةَ يوسفاً ... يعيدُ له غُرَّ المساعي ويبتدي
سبيلَكَ في سبل المكارم يقتفي ... وهَدْيَكَ يا خيرَ الأئمة يقتدي
محمدُ جلَّى الخطبَ من بعدُ يوسفٌ ... ويوسفُ جلَّ الخطبُ بعد محمدِ
ولو وجد الناسُ الفِـداءَ مسوَّغاً ... فَداكَ ببذل النفسِ كلُّ موحِّدِ
ستبكيك أرضٌ كنتَ غيثَ بلادها ... وتبكيك حتى الشُّهبُ في كلِّ مشهدِ
وتبكي عليك السحبُ ملءَ جفونها ... بدمع يروِّي غُلَّةَ المجدبِ الصَّدي
وتلبسُ فيك النيراتُ ظلامَها ... حداداً ويذكي النجمُ جَفْنَ مسهَّدِ
وما هي إلا أعيُنٌ قد تسهدتْ ... فكحَّلهـــا نجمُ الظلامِ بــإثمدِ
فلا زلتَ في ظلِّ النعيم مخلَّداً ... ونجلُكَ يحيا بالبَقاء المخلَّدِ
وأوردك الرحمنُ حَوْضَ نبيِّهِ ... وأصدر منْ خلَّفت عن خير موردِ
عليك سلامٌ مثلُ حمدك عاطرٌ ... يفضُّ ختام المسك عن تربك الندي
وصلى على المختارِ من آلِ هاشمٍ ... صلاةً بها نرجو الشفاعةَ في غدِ

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج [1]

---

[1] أزهار الرياض : ٢ : ١٥٧

بما قد حزتَ من كرمِ الخلالِ   بما أدركتَ من رُتَبِ الجلالِ
بما خُوِّلتَ من دينٍ ودنيا   بما قد حزتَ من شرفِ الجمال[1]
بما أوليتَ من صنعٍ جميلٍ   يطابقُ لفظه معنى الكمال
تغمدني[2] بفضلك ، واغتفرها   ذنوباً في الفعال وفي المقال

وقال أيضاً[3] :

أتعطشُ أولادي وأنتَ غمامةٌ   تعمُّ جميعَ الخلق بالنفع والسقيا
وتظلمُ أوقاتي ووجهُكَ نيرٌ   تفيضُ به الأنوار لدين والدنيا
وجدُّك قد سمَّاك ربُّكَ باسمه   وأورثك الرحمنُ رتبته العليا
وقد كان أعطاني الذي أنا سائلٌ   وسوَّغني من غير شرط ولا ثُنْيا
وشعريَ في غُرِّ المصانع خالدٌ   يحيِّيه عني في الممات وفي المحْيا
وما زلتُ أهدي المدحَ مسكاً مُفتَّقاً   فتحمله الأرواحُ عاطرةَ الريَّا
وقد أكثر العبدُ التشكّي وإنّه   وحقِّك يا فخرَ الملوك قد استحيا
وما الجودُ إلاّ ميِّتٌ ، غير أنّهُ   إذا نفختْ يمناك في روحه يحيا
فمن شاء أن يدعو لدينِ محمدٍ   فيدعو لمولانا الخليفةِ بالبُقْيا

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة :

منزلُ اليُمنِ والرضى والسعودِ   أنجزَتْ فيه صادقاتُ الوعودِ
كلُّ يومٍ نزاهةٌ إن تقضَّتْ   أنشدتْها السعودُ : بالله عودي
جمع المستعين وصفَ كمالٍ   بينَ بأس عمٍّ الملوك وجودِ

١ الأزهار : المعالي .
٢ ق : تغمدها .
٣ الأزهار : ومن ذلك أيضاً يخاطب أخانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله تعالى عليه متوسلا بقديم ذمامه ، والخدم المتعددة من نظامه .

فاهنَ في غبطةٍ وعزةِ مُلكٍ أنت واللهِ فخرُ هذا الوجودِ

وقال أيضاً مشيراً لتوليته العلامة :

لك غُرَّةٌ وَدَّ الصباحُ جمالها ومحاسن تهوى البدورُ كمالها
وشمائلٌ تحكي الرياضُ خلالها وأناملٌ ترجو[1] الأنامُ خلالها
للمستعين خــلافةٌ نصريّةٌ عرفتْ ملوكُ العالمين جلالها[2]
وأنا الذي قد نالَ منك معالياً تهدي النجوم الزاهرات منالها
تهديهِ ما قد نلته من بعضها فالفخرُ كلُّ الفخر فيمن نالها
في كلِّ يومٍ منكَ منّةُ منعمٍ لو طاولتْ سمْكَ السما[3] ما طالها
بلّغْتَ آمالَ العبيدِ فبُلِّغتْ فيك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أيا مالكاً لم يبْدُ للعين حُسْنُهُ سوى ملكٍ قد حلّ من عالم القدسِ
لك الخير خذها كالأنامل خمسةً تُعوّذُ مرآكَ المكمَّلَ بالخمسِ
فمن أبصرت عيْناكَ مرآه فليقلْ أعوذ بربّ الناس أو آيةِ الكرسي

ثم قال ابن الأحمر : وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مرّ معه بفحْص رَيّة ، والثلج قد عمّ أنديته ، وبسط أرديته ، في وجهة توجهها مولانا الجد تغمّده الله تعالى إلى مالقة :

يا مَنْ به رُتَبُ الإمارة[4] تعتلي ومعالمُ الفخرِ المشيدة تبْتَني

---

١ ق : ترجى .
٢ الأزهار : جمالها .
٣ الأزهار : سمك العلا .
٤ الأزهار : المعالي .

ازجرْ بهــذا الثلجِ فألاً إنّه ثلجُ اليقينِ بنصرِ مولانا الغني
بسطَ البياضَ كرامةً لقدومهِ وافتـَرّ ثغراً عن مسرّة معتني
فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمجتلٍ والدوحُ مزْهـَرةٌ تفوحُ لمجتني
سبحانَ من أعطى الوجودَ وجودَهُ ليدلّ منهُ على الجوادِ المحسنِ
وبدائعُ الأكوانِ في إتقانها أثرٌ يشيرُ إلى البديعِ المتقنِ

ثم قال : ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب مادحاً قوله :

أما وانصداعِ النورِ من مَطْلع الفجرِ

إلى آخره ، وقد تقدمت .

ثم قال : وقال يراجع الكاتب أبا زكريا ابن أبي دلامة[1] :

على الطائرِ الميمونِ والطالع السّعدِ أتتني مَعَ الصنع الجميل على وَعْدِ
وأحييتَ يا يحيى بها نفسَ مغرمٍ يجيلُ جيادَ الدمع في ملعبِ السهدِ
نسيتُ وما أنسى وفائي وخلّتي وأقفر ربعُ القلبِ إلا من الوجدِ
وما الطلُّ في ثغرٍ من الزهرِ باسمٍ بأزكى وأصفى من ثنائي ومن ودي
فأصدقتها من بحر فكري جواهراً تنظّم من درّ الدراريّ في عقدِ
وكنتُ أطيلُ القولَ إلاّ ضرورةٌ دعتني إلى الإيجازِ في سورةِ الحمدِ

وأنشد السلطان أبا العباس المرسي في غراب[2] من إنشائه :

أإنسانَ عينِ الدهر جفْنُكَ قد غدا يحفّكَ منهُ طائرُ اليُمنِ والسّعدِ
إذا ما هفا فوقَ الرؤوسِ شراعُهُ أراكَ جناحاً مُدّ للجزر والمدّ

---

١ أزهار الرياض ٢ : ١٧٥ .
٢ الغراب : نوع من السفن .

وأنشد فيه أيضاً :

لك الخيرُ شأنُ الجفنِ يحرسُ عينَهُ وهــذا بعينِ الله يحرسُ دائما
تبيتُ لهُ خمسُ الثريّا معيذةً تقلّدُهُ زُهْرُ النجومِ تمائما
فيا جَفْنُ لا تنفكُّ في الحفظِ دائماً وإن كنتَ في لُجٍّ منَ البحرِ عائما

انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر في حق ابن زَمْرك ، وذلك جملة من نظمه .

[موشحات ابن زمرك]

وقد رأيت أن أعزز ذلك ببعض موشحات ابن زَمْرك المذكور[1] ممّا انتقيته من كلام ابن الأحمر :

فمنها قوله متشوّقاً إلى غرناطة ويمدح الغني بالله :

بالله يا قامةَ القضيبِ ومخجــلَ الشمسِ والقمرْ
مَن ملّكَ الحسنَ في القلوبِ وأيّدَ اللّحظَ بـالحــورْ

من لَمْ يكنْ طبعه رقيقا لَمْ يدرِ ما لذةُ الصِّبــا
فربَّ حُرٍّ غـدا رقيقا تملكــه نفحةُ الصَّبــا
نشوانَ لم يشربِ الرحيقا لكنْ إلى الحسنِ قد صَبا

فعذَّبَ القلبَ بالوجيبِ ونَعّمَ العــينَ بالنظرْ
وباتَ والدمعُ في صبيبِ يقدحُ مِنْ قلْبهِ الشّررْ

---

[1] في الأزهار : وقد عن لي أن أذكر جملة من مُوشحاته لغرابتها ، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخرط في سلك المغرب ، إذ أكثره من مخلع البسيط .

عجبتُ من قلبيَ المعنّى يهفو إذا هبّتِ الريــاحْ
لو كان للصبِّ ما تمنّى لطارَ شوقاً إلى البطاح [1]
وبُلبلُ الدَّوْحِ إن تغنّى أسْهَرَ ليلي إلى الصباح

عساكَ إن زرتَ يا طبيبي بالطّيْفِ في رقدة السَّحَرْ
أن تجعلَ النومَ من نصيبي والعينَ تحمي من السهرْ

كَمْ شادنٍ قاد لي الحتوفا بمربعِ القلبِ قد سَكَنْ
يَسُلُّ من لحظهِ سيوفا فالقلبُ بالروع ما سكنْ
خُلِقْتُ من عادتي ألُوفا أحنُّ لــلإلفِ والسَّكَنْ

غرناطةٌ منزلُ الحبيبِ وقُرْبُها السؤلُ والوطَرْ
تَبْهرُ بـــالمنظرِ العجيبِ فــلا عـدا رَبْعَها المطرْ

عروسةٌ تاجُها السبيكَهْ وزهرها الحليُ والحُللْ
لم ترضَ من عزِّها شريكَهْ بحسنهـــا يُضْرَبُ المثـــلْ
أيّدهـــا الله مـــن مليكهْ تملكهـــا أشرفُ الــدولْ

بــدَوْلــة المرتجى المهيبِ الملكِ الطاهــرِ الأغـــرّ
تختالُ من بُردها القشيبِ في حُلّة النورِ والزَّهَرْ

كرسيُّها جنّةُ العريفِ مرآتها صفحــةُ الغديرْ
وجوهرُ الطّلِّ عن شنوفِ تحكمهـــا صـــنعة القديرْ
والأنسُ فيها على صنوفِ فمن هَديلٍ ومن هَديرْ

---

[1] الأزهار : بلا جناح .

كم خرق الزهرُ من جيوبِ وكلّل القُضْبَ بالدررْ
فالغُصنُ كالكاعب اللّعوبِ والطيرُ تشدو بلا وترْ

ولائمُ النصرِ في احتفالِ وفرحُ دينِ الهوى [1] جديدْ
سلطانُها مُعْمِلُ العوالي محمد الظافرُ السعيدْ
ومخجلُ البدرِ في الكمالِ سلطانُها المجتبى الفريدْ

أصفَحُ مَوْلًى عن الذنوبِ أكرمُ عافٍ إذا قدرْ
وشمسُ هَدْيٍ بلا مغيبِ وبحرُ جودٍ بلا حَسَرْ

مولاي يا عاقدَ البنودِ تظلّل الأوْجُه الصِّباحْ
أوحَشْتَ يا نخبة الوجودِ غرناطةً هالَةَ السّماحْ
سافرتَ باليُمْنِ والسعودِ وعدتَ بالفتح والنجاحْ

يا مُلْهم القلب للغيوبِ ومُطْعِمَ النصر والظفرْ
أسمعك الله عن قريبِ : «على السلامةْ منَ السفرْ»

وقال أيضاً [2] من الموشحات الرائقة [3] ، في مثل أغراض هذه السابقة ، وأشار إلى محاسن من وصف اللشار :

نَسيمُ غرناطةٍ عليلُ لكنّهُ يبرىء العليلْ
وروضُها زهرهُ بليلُ ورشفه ينْقعُ الغليلْ

سقى بنجدٍ رُبى المصلّى مباكراً روضَهُ الغمامْ
فجفنُهُ كلّما استهلاّ تبسّمَ الزّهرُ في الكمامْ
والروضُ بالحسنِ قد تجلّى [4] وجرّد النهرُ عن حسامْ

---

[1] الأزهار : الهدى .
[2] ق : ثم ذكر .
[3] الأزهار : الفائقة .
[4] الأزهار : تجلى .

ودوحُها ظِــلّهُ ظليلُ يَحْسُنُ في رَبعهِ المقيلْ
والبرقُ والجوُّ مستطيلُ يلعبُ بالصارم الصقيلْ

عقيلةٌ تاجُها السّبيكهْ تطـلُّ بالمرقب المنيفْ
كـأنّهـا فوقهُ مليكهْ كرسيُّها جَنّةُ العريفْ
تطبعُ من عسجدٍ سبيكهْ شموسُها كلّمـا تطيفْ

أبدعك الخالقُ الجميلُ يـا منظراً كلّـه جَميلْ
قلبي إلى حُسنـه يميلُ وقبلَنا قد صَبا جَميلْ

وزادَ للحسنِ فيكَ حسنا محمدُ الحمـدِ والسَّماحْ
جدّد للفخر فيك مَغنى [1] في طالعِ اليُمن والنّجاحْ
تدعى دشاراً وفيكَ معنى يخصّكَ الفـألُ بـافتتاحْ

فالنصرُ والسعد لا يزولُ لأنّـهُ ثـابتٌ أصـيلْ
سعدٌ وأنصـاره قبيلُ آبـاؤه عِترة الرسـولْ

أبدى به حكمةَ القديرِ وتوّج الروضَ بـالقبابْ
ودرّعَ الزهـرَ بالغَديرِ وزيّنَ النهرَ بـالحبابْ
فمِنْ هديلٍ ومن هديرِ ما أوْلَعَ الحسنَ بالشبابْ

كبت على روضها القبولُ وطرفها بالسُّرَى كَليلْ
فلَمْ يزلْ بيْنَها يَجُولُ حتى تبدّتْ لَهُ حُجولْ

للزهرِ في عطفها رُقُومُ تلوحُ للعـين كالنّجومْ
وللندى بيْنها رسـومُ عِقدُ النّدى فوقَهُ نَظيمْ
وكلُّ وادٍ بها يهيمُ ولم يزَلْ حولها يحـومْ

---

[1] ق : معنى .

شنيلها مُدٌّ منــهُ نيلُ والشــينُ ألفٌ لمستنيلْ
وعين وادٍ بهِ تسيـلُ من فوقِ خدٍّ لهُ أسيلْ

كم من ظِلالٍ بهِ ترفُّ تَضْفو لَهُ فوقها سُتُورْ
ومن زجاجٍ به يشفُّ ما بينَ نَوْرٍ وبين نُورْ
ومن شموسٍ بها تُصَفُّ تديرهــا بَيْنَهــا البدورْ

مزاجُها العذبُ سلسبيلُ يا هَلْ إلى رَشْفِها سَبيلْ
وكيف والشيبُ لي عذولُ وصبغهُ صفرةُ الأصيــلْ

يا سَرْحَةً في الحمى ظليلهْ كم نلتُ في ظللك المُنى
رَوَّضَكِ اللهُ من خميلهْ يُجنى بها أطيبُ الجنى
وبرقهــا صادقُ المخيلهْ مــا زال بــالغيث محسنا

أنجز لي وعــدكَ القبولُ فلمْ أقلْ مثلَ من يقولْ :
« يا سرْحة الحيِّ يا مَطُولُ شرحُ الذي بيننا يطولْ »

ومن ذلك ما كتب به إلى الغني بالله :

أبــلغْ لغرنــاطةٍ سلامي وصِفْ لها عهديَ السليمْ
فلو رعى طيفُها ذمامي ما بتُّ في ليلة السليمْ

كَمْ بتُّ فيها على اقتراحِ أُعَلُّ من خَمْرة الرضابْ
أديرُ فيها كؤوسَ راحِ قد زانها[1] الثغرُ بالحبابْ
أختالُ كالمهر في الجماحِ نشوانَ في روضةِ الشبابْ

---

١ الأزهار : قد زانت .

أضاحكُ الزهرَ في الكِمامِ مباهياً روضَهُ الوسيمْ
وأفضحُ الغصنَ في القوامِ إن هبَّ من جوّها نسيمْ

بينا أنا والشبابُ ضافِ وظلّهُ فوقَنا مَديدْ
وموردُ الأنسِ فيهِ صافِ وبردُه رائقٌ جديدْ
إذ لاح في الفَوْدِ غيرِ خافِ صبحٌ بهِ نبّه الوليدْ

أيقظَ مَنْ كان ذا منامِ لمّا انجلى ليلهُ البهيمْ
وأرسل الدمعَ كالغمامِ في كلِّ وادٍ بهِ أهيمْ

يا جيرةً عهدهُم كريمُ وفعلهم كلّهُ جَميلْ
لا تعذلوا الصبَّ إذ يهيمُ فقبلَهُ قَدْ صَبا جميلْ
القُرْبُ من ربعكم نعيمُ وبُعدكم خطبهُ جليلْ

كم من رياضٍ به وِسامِ يُزْهَى بها الرائضُ[1] المسيمْ
غديرُها أزرق الجمامِ ونبتها كلّهُ جميمْ[2]

أعندكم أنّني بفاسِ أكابدُ الشوقَ والحنينْ
أذكرُ أهلي بها وناسي واليومُ في الطولِ كالسنينْ
اللهُ حسبي فكم أقاسي من وحشةِ الصحبِ والبنينْ

مطارحاً ساجعَ الحمامِ شوقاً إلى الإلفِ والحميمْ
والدمعُ قد لجَّ في انسجامِ وقد وَهَى عقدُهُ النظيمْ

---

[1] الأزهار : الرائد .
[2] ق : جسيم .

يا ساكني جنّة العريفِ أسكنتمُ جنّــةَ الخلودْ
كم ثَمّ من منظرٍ شريفِ قد حُفَّ باليُمن والسعودْ
ورُبَّ طَوْدٍ بــهِ منيفِ أدواحُـهُ الخضرُ كالبنودْ

والنهرُ قد سُلّ كالحسامِ لراحــةِ الشَّرْب مستديمْ
والزهرُ قد زاق بابتسامِ مُقَبِّلاً راحةَ النّديمْ

بلّغْ عبيـد المقام صحبي لا زلتمُ الدهرَ في هنا
لقاكُمُ بُغْيَةُ المحبّ وقربُكُم غايــةُ المُنى
فعندكُمْ قد تركتُ قلْبي فجدّد اللهُ عَهْــدنـــا

ودارِكَ الشملَ بانتظامِ مِنْ مُرْتجى[1] فضلِهِ العَميمْ
في ظلّ سلطاننا الإمامِ الطاهرِ الظاهرِ الحَليمْ[2]

مؤمّنُ العُدوتينِ ممّا يخافُ من سطوة العــدا
وفارجُ الكرب إن ألمّا ومُذْهِبُ الخطبِ والرّدَى
قد راقَ حسناً وفاقَ حلماً وما عـــدا غير ما بَدا

مولايَ يا نخبــةَ الأنامِ وحائزَ الفخر في القديمْ
كَمْ أرقبُ البدرَ في التمامِ شوقاً إلى وجهكَ الكريمْ

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سهْل التي أولها «ليل الهوى يقظان» وهــي :

نواســمُ البُســتانْ تنثرُ سِلْكَ الزّهَرِ
والطّلُّ في الأغصانْ ينظمـــهُ بــالجوهَرِ

---

١ ق : من يرتجي .
٢ ق : الحميم .

وراحَـــةُ[1] الإصباحْ أضاء منها المشرقُ
تَنْشـرُهـا الأرواحْ فـــلا تزال تخفقُ
والزهرُ زهـرٌ فاحْ لهـا عيونٌ ترمقُ

فأيْقظ النــدمانْ يبصرن ما لم يُبْصَرِ
جـواهِرُ الشُّهْبانْ[2] قد عرضَتْ للمُشتري

قدحْتَ لي زنــدا يا أيُّهـــذا البارقُ
أذْكرتــني عهـــدا إذ الشـــبابُ رائقُ
فالشّوقُ لا يهـــدا ولا الفؤادُ الخافقُ

وكيف بـــالسُّـــلوانْ والقلبُ رهنُ الفـكَرِ
وسُحُبُ الهجـرانْ تحجبُ وَجْهَ القمرِ

لولا شموسُ الكاسْ نديرهـا بـينَ البدورْ
وعـــرّج الإينـاسْ منّا على ربْعِ الصدورْ
لكن لهـــا وسواسْ يغري بربّاتِ الخدورْ

كَمْ والهٍ هيمانْ بصبحِ وجـهٍ مسفر
ضياؤه قـد بانْ من تحتِ ليلٍ مقمر

يا مطلـعَ الأنوارْ كم فيك من مرأى جميل
ونزهــــةَ الأبصارْ ما ضرَّ لو تشفي الغليل
يا روضـــةَ الأزهارْ وعَرْفُها يُبري العليل

---

١ الأزهار : وراية .
٢ ق : الشبان .

قضيبُكَ الفينـــانْ يُسقَى بدمعٍ هَمِرِ
فـــلاعجُ الأشجـانْ فيضَ الدموعِ يمتري[1]

هل في الهوى ناصرْ أو هـل يُجارُ الهائمُ
لو كانَ لي زائرْ طيفُ الخيالِ الحائمُ
ما بتُّ بـالساهرْ ودمعُ عيني سـاجمُ

والحبُّ ذو عدوانْ يجهدُ في ظلم البرِي
وصارمُ الأجفـــانْ مـؤيَّـــدٌ بـالحـوَرِ

رحمـاك في صبٌّ أذكرته عَهْدَ الصِّبا
بـواعثُ الحــبِّ قادت إليـهِ الوَصَبا
لَمْ تَهفُ بالقلبِ ريحُ الصَّبا إلاَّ صبا[2]

بَليـــلَةَ الأردانْ قد ضُمِّخَتْ بالعنبر
يشيرُ غصنُ البانْ منهـا بفضلِ المئزر

طيّبهـــا حمـــدُ فخرِ المُلوك المجتبي
مَنْ يرجحُ الطـودُ من حلمهِ إذا احتبى
قَدْ جـرَّدَ السعدُ مِنهُ حُساماً مُذهَبا

فالبـــأسُ والإحسانْ والغـوثُ للمستنصر
تحملُـــهُ الركبـــانْ تحيّــــة للمنـــبر

عصابةُ الكتّـــابْ حقٌّ لها الفوز العظيم
تختـالُ في أثوابْ ألبسها الطول الجسيم
فحسبها الإطنـــابْ في الحمد والشكر العميم

١ ق والأزهار : يجري ؛ وامترى افتعل من مرى بمعنى استدر . ٢. ق : هبا .

خليفةَ الرحمنْ لا زلت سامي[1] المظهر
يا مورد الظمآنْ ورأسَ مالِ المعسر

خذْها على دعوى تزري على الروض الوسيم
جاءتْ كما تهوى أرقَّ من لَدْنِ النسيم
قد طارحتْ شكوى من قال في الليلِ البهيم

« ليلُ الهوى يقظانْ والحبُّ تِربُ السهرِ »
« والصبرُ لي خوّانْ والنومُ من عيني بري »

وله في الصبوحيات :

ريحانةُ الفجرِ قد أطلّتْ خضراء بالزهر تزهرُ
ورايةُ الصبحِ قد أظلّتْ في مرقبِ الشرق تُنْشَرُ

فالشُّهبُ من غارة الصباحِ تُرْعَدُ خوفاً وتخفقُ
وأدهمُ الليل في جماحِ أعنّةَ البرق يُطلقُ
والأفقُ في مُلتقى الرياحِ بأدمع الغيثِ يشرقُ

والسُّحبُ بالجوهر استهلّتْ فالبرقُ سيفٌ مجوهرُ
صفاحهُ المذهباتُ حلّتْ في راحةِ الجوّ تُشْهَرُ

كَمْ للصَّبا ثَمَّ من مَقيلِ بطيبهِ الزهرُ يشهدُ
والنهرُ كالصارم الصَّقيلِ في حليةِ النورِ يغمدُ
وربَّ قالٍ بهِ وقيلِ للطيرِ في حين تنشدُ

فألسُنُ الوُرْقِ قد أملّتْ مدائحاً عنْهُ تشكرُ
ونسمةُ الصبح قد تجلّتْ في سندس الروضِ تَعْثُرُ

---

[1] الأزهار : زاهي .

والكاسُ في راحة النديمِ　　يجلو بها غيهب الهمومْ
أقبستِ النار في القديمِ　　من قبل أن تخلقَ الكرومْ
والنهرُ في ملعب النسيمِ　　للزهر في عِطفهِ رقومْ

فلبّةُ الحَلْي[1] قد تحلّتْ　　والطّلُّ في الحلي[2] جوهر
وبهجة الكون قد تجلّتْ　　والروض بالحسنِ يبهر[3]

يُذْكِرني وجنةَ الحبيبِ　　والآسَ في صفحة العِذار
وشاربَ الشاربِ العجيبِ　　بَيْنَ أقاحٍ وجلّنار
يديرُ من ثغرهِ الشنيبِ　　سُلافةً دونها العُقار

حلّت لأهل الهوى وجلّتْ　　بالذكرِ والوهمِ تُسكِرُ
كَمْ من نفوسٍ بها تسلّتْ　　فما لها الدهرَ منكِرُ

يا غُصْنَ بانٍ يميلُ زَهْوا　　ريّانَ في روضةِ الشبابْ
لو كنتَ تصغي لرفع شكوى　　أطلْتَ من قصةِ العقابْ
ومن لمثلي بِبَثّ نجوى　　للبدر في رفرفِ السحابْ

عزائمُ الصبرِ فيك حُلّتْ　　وعقدةُ الصبرِ تذخر
قد أكثرتْ منك ما استقلّتْ　　وليْتَ لو كنتَ تشعر

كَمْ ليلةٍ بتُّها وبتّا　　ضدين في السُّهدِ والرقادْ
أسامرُ النجمَ فيك حتى　　علّمْتُ أجفانها[4] السّهادْ
أرقبُ بدرَ الدجى ، وأنتا　　قد لحتَ في هالة الفؤادْ

---

١ ق : الشمس .
٢ الأزهار : القضب .
٣ ق : يزهر .
٤ الأزهار : أجفانه .

نفسي وَلَيتَ ما تولَّتْ دَعْها على الشوقِ تصبرُ
لو سُمتَها الهجرَ ما تولَّتْ ولم تكنْ عنك تنفرُ

علّمها الصبر في الحروبِ سلطانُنا عاقدُ البنودْ
معفّر الصّيدِ للجنوبِ أعزُّ من حُفَّ بالجنودْ
نُصرتَ بالرعبِ في القلوبِ والبيض لم تبرح الغُمُودْ

عنايةُ اللهِ فيهِ حلّتْ بسعدهِ الدينُ يُنْصَرْ
والخلقُ في عصرِهِ تملّتْ غنائماً لَيْس تُحْصَرْ

مولاي يا نكتةَ الزمانِ دارَ بما ترْتضي الفلكْ
جلَلْتَ باليُمنِ والأمانِ كلُّ مليكٍ وما ملكْ
لَمْ يدرِ وصفي ولا عياني أمَلِكٌ أنْتَ أم ملَكْ

جنودك الغُلْبُ حيثُ حلّتْ بالفتح والنصرِ تُخْفرُ
وعادةُ الله فيك دلّتْ أنّكَ بالكفرِ تظفرُ

يا آيةَ اللهِ في الكمالِ ومُخْجلَ البدرِ في التمامْ
قدمتَ بالعزّ والجلالِ والدهرُ في ثغره ابتسامْ
يختالُ في حُلّةِ الجمالِ والبدرُ قد عاد في اختتامْ

ريحانةُ الفجرِ قد أطلّتْ خضراء بالزهرِ تزهر
ورايةُ الصبح قد أظلّتْ في مرقبِ الشرقِ تنشر

وقال سامحه الله تعالى :

قد طَلَعَتْ رايةُ الصباحِ وآذنَ الليلُ بالرحيلْ
فباكرِ الروضَ باصطباحِ واشربْ على زهره البليلْ

فالوُرْقُ هبّت من السُّباتِ | لمنبر الدَّوْحِ تخطبُ
تسجعُ مفتنّةَ اللّغاتِ | كلٌّ عن الشوق يُعربُ
والغصن بعد الذهاب ياتي | لأكؤس الطّلّ يشربُ

وأدمع السُّحبِ في انسياحِ | في كلّ روضٍ لها سبيل
والجوّ مستبشرُ النواحي | يلعبُ بالصارم الصقيلْ

قم فاغتنم بهجةَ النفوسِ | ما بين نَوْر وبينَ نُورْ
وشفّع الصبحَ بالشموسِ | تديرها بَيْنَنا البدورْ
ونبّه الشّرْبَ للكؤوسِ | تمزجُ من ريقة الثغورْ

ما أجمل الراحَ فوقَ راحِ | صفراء كالشمسِ في الأصيلْ
تغادِرُ الصدرَ ذا انشراحِ | للأنسِ في طيّهِ مقيلْ

ولا تَذَرْ خمرةَ الجفونِ | فسكرها في الهوى جنونْ
ولتخشَ من أسهمِ العيونِ | فإنّها راشدُ المنونْ
عرضتَ منها إلى الفتونِ | وكلُّ خطبٍ لها يهونْ

أهيم بالغادة الرَّداحِ | والجسمُ من حبّها عليلْ
لو بتُّ منها على اقتراحِ | نَقَعْتُ من ريقها الغليلْ

أواعدُ الطّيْفَ للمنامِ | ومن لعيّنيَّ بالمنامْ
أسهرُ في ليلة التمامِ | وأنتَ يا بدرُ في التمامْ
وألثمُ الزهرَ في الكمامِ | عليه من ثغرك ابتسامْ

سفرتَ عن مبسم الأقاحِ | وريقُكَ العذبُ سلسبيلْ
قل ليَ يا ربّة الوشاحِ | هل لي إلى الوصل من سبيلْ

يا كعبةَ الحسن زدتَ حسنا   وللهوى حولكَ المَطافْ
وغصنَ بانٍ إذا تثنّى   لو حانَ من زهرك القطافْ
ألا انعطافٌ على المعنّى   فالغصنُ يُزْهى بالانعطافْ

أصبحتَ تزهو على الملاحِ   بذلكَ المَنْظرِ الجَميلْ
ووجهك الشمسُ في اتضاحِ   لو أنّها لمْ تكُنْ تميلْ

ما الزهرُ إلاّ بنظم درٍّ   تحسد في حسنه العقودْ
للملك الظاهرِ[1] الأغرِّ   أكرمِ من حُفَّ بالسعودْ
محمدِ الحمدِ وابنِ نصرٍ   وباسطِ العدلِ في الوجودْ

مُساجل السُّحبِ في السماحِ   بالغيثِ من رِفْدِهِ الجليلْ
ومخجل البدرِ في الّتِباحِ   بغُرّةٍ مــا لهــا مثيلْ

يا مُشْرِبَ الحبّ في القلوبِ   وواهبَ الصفح للصفاحْ
نُصِرْتَ بالرعب في الحروبِ   والرعبُ أجدى من السلاحْ
قد لحتَ من عالم الغُيُوبِ   لم تعدمِ الفوزَ والفلاحْ

مراكشٌ نهبةُ افتتاحِ   والصنع في فتحها جليلْ
بُشراك بالفتح والنجاحِ   والشكر من ذلك القبيلْ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

في كؤوسِ الثغرِ من ذاك اللّعَسْ   راحةُ الأرواحْ
وتغشّى الروضَ مسكيُّ النفَسْ   عاطـــرُ الأرواحْ

وكسا الأدواحَ وشياً مُذهَبا   يبهرُ الشمســـا

---

[1] ق : الطاهر .

مسجدٌ قد حلّ من فوق الرُّبى يبهجُ النفْســـا
فاتخذ للهـوِ فيــهِ مركبا تلحقِ الأنســـا

منبرُ الغُصنِ عليهِ قد جلَس ساجعُ الأدواحْ
حُلَلَ السندسِ خُضْراً قد لبسْ عِطْفُـهُ المرتاحْ

قُم ترَى هـــذا الأصيلَ شاحبا حُسْنُهُ قد راق
ولأذيـالِ الغُصونِ ساحِبا في حُلى الأوراق
ونَديمٍ قالَ لي مُخاطِبــا قولَ ذي إشْفاق

عادةُ الشمسِ بغربٍ تُختَلَسْ هاتِ شمسَ الراح
إنْ أرانا الجوُّ وجهاً قد عبَسْ أوقِــدِ المِصْباح

ووجوهُ الشَّرْبِ تغني عن شموسْ كلّمـــا تُجْـلى
بلحاظٍ أسكرتنا عن كؤوسْ خمرهـا أحـــلى
مظهراتٌ من خفايا في النفوسْ سُــوَراً تُتْــلى

ما زمانُ الأنسِ إلاّ مختلَسْ فاغتنمْ يا صاحْ
وعيونُ الشُّهبِ تذكي عن حرسْ تخصمُ النُّصّـــاحْ

ما ترَى ثغرَ الوميضِ باسما يُظْهِــرُ البِشرا
وثنـاءُ الروضِ هبَّ ناسما عاطِـراً نشــرا
بثَّ مِـنْ أزهـــاره دراهما قائـلاً : بُشرى

ركب المولى معَ الظهرِ الفرسْ وشُفي[1] وارتـاحْ
بجنـــودِ الله دأباً يحترسْ إن غدا أو راحْ

---

[1] ق : وسقي .

وجبَ الشكرُ علَيْنا والهنا بَعْضُنا بَعْضا
فزمانُ السعد وضّاحُ السنا وجهــهُ الأرضى
أثمرتْ فيهِ العوالي بالمُنى ثمراً غَضّا

يجتني الإسلامُ منها ما اغترسْ سيفُهُ السفّاحْ
في ضميرِ النّقع منها قد هَجَسْ شُهُبٌ تلْتاحْ

يا إماماً بالحسام المُنْتضى نَصَرَ الحقّا
ثغركَ الوضّاحُ مهما أومضا أخجلَ البرقا
وديونُ السعدِ منهُ تقتضى توسعُ الحقّا

لكَ وجهٌ من صباحٍ مقتَبَسْ بِشرُهُ وضّاحْ
وجَميلُ الصفحِ منهُ مُلْتَمَسْ منعمٌ صَفّاحْ

هاكها تمزج لطفاً بالنّسيمْ كلّما هبّا
قد أتَتْ بالبرّ والصنع الجسيمْ تشكر الربّا
أخجلت من قال في الصبح الوسيمْ مغرماً صبّا

« غرد الطير فنبّه من نعس »[1] يا مديرَ الراحْ
« وتعرّى الفجرُ عن ثوب الغلس » وانجلى الإصباحْ

وقال أيضاً سامحه الله تعالى :

قَدْ أنعمَ اللهُ بالشفاء واستكملتْ راحةُ الإمامْ
فلتنطقِ الطيرُ بالثناء وليضحكِ الزهرُ في الكِمامْ

وُجُوده بهجةُ الوجودِ وبرؤه راحةُ النفوسْ

[1] تضمين من شعر ابن وكيع .

قد لاحَ في مرقبِ السعودِ واستبشرتْ أوجهُ الشموسْ
فالدوحُ يومي إلى البنودِ أكمامُـهُ غطّتِ[1] الرؤوسْ

والزّهْرُ في روضةِ السّماء كالزّهرِ قد راقَ بابتسام
والصبحُ مستشرفُ اللواء والبدرُ مستقبلُ التّمام

محاسنُ الكونِ قد تجلّتْ جمالُها العقـلَ يبهر
عرائسٌ بالبهـا تحلّتْ والطلُّ في الحَلْي جوهر
وألسنُ الوُرقِ قد أملّتْ مدائحاً عنـهُ تشـكر

تستوقفُ الخلقَ بالغنـاء كأنّها تحسنُ الـكلام
تطنبُ لله في الثّنـاء تقولُ سُلّمْتَ يا سلام

كَمْ من ثغورٍ لها ثغورُ تبسمُ إذ جاءهـا البشيرْ
ومن خـدورٍ بها بدورُ يشيرُ منهـا لَهُ المشيرْ
تقول إذ حفّها السرورُ تباركَ المنعمُ القـديرْ

قَدْ أنْعم الله بالبَقاء في ظلِّ مولًى به اعتصامْ
قد صادف النُّجحَ في الدواء فالداءُ عنّـا لَه انفصامْ

يهنيك مولاي بل يُهَنّى ببرئكَ الدينُ والهُـدى
فالغرب والشرق منك يُغنى بمُذْهِـبِ الخطبِ والردى
واللهِ لولاكَ ما تَهنّـا ما فيهِ من سطوة الردى

يا مَوردَ الأنفسِ الظماء قد كانَ يشتفُّها الأوامْ
وقرّةَ العيـنِ بالبهــاء رَدَدْتَ للأعينِ التمامْ

---

[1] الأزهار : إلى السجود . . . حلت .

لو أبذلُ الروحَ في البشاره   بذلتُ بعضَ الذي ملكْ
فأنتِ يا نفسُ مستعاره   مولايَ بالفضل جمّلكْ
لم أدرِ إذ سطّرَ العباره   أمَلِكٌ هُوَ أم مَلَكْ

لا زلتَ مولايَ في هناء   مُبَلَّغَ القصدِ والمرامْ
ودمتَ للملكِ في اعتلاء   تسحبُ أذيالَهُ الغمامْ

وقال في مالقة :

عليكِ يا ربّةُ السلامُ   ولا عدا رَبْعَكِ المطرْ
مذ حلّ في قصركِ الإمامُ   فقربكِ السؤلُ والوَطَرْ

واللوحُ في روضكِ الأنيقْ   للشكر قد حطّتِ الرؤوس[1]
والغصنُ في نهره غريقْ   وفي حُلاه كما عروس
والجو من وجهك الشريقْ   تحسده أوجهُ الشموس

وأعينُ الزهر لا تنامُ   تستعذبُ السّهدَ والسهر
تنفثُ من تحتها الغمامُ   ترقيكَ من أعينِ الزهَر

عروسةٌ أنتِ يا عقيله   تُجلَى على مَظْهر الكمال
مدت لك الكفَّ مستقيله   تمسحُ أعطافك الشمال
والبحرُ مرآتك الصقيله   تشفُّ عن ذلك الجمال

والحليُ زهرٌ لهُ انتظامُ   يكلّلُ القُضبَ بالدررْ
قد راق من ثغره ابتسامُ   والوردُ في خدّها خفَرْ

---

١ ورد بدله في الأزهار :

كم فيك للمغرم المشوق   من منظر يبهج النفوس
واللوح . . . .   (البيت)
والجو من وجهك   . . . .

إن قيل مَنْ بَعْلُها المفدَّى ومن لَهُ وصلُها مباحْ
أقول أسنى الملوكِ رفدا مخلدُ الفخرِ بالصفاحْ
محمدُ الحمدِ حينَ يهدى ثنــاؤه عاطر الرياحْ

تخبرُ عن طيبه الكِمامُ والخُبْرُ يغني عن الخَبَرْ
فالسعدُ والرعبُ والحسامُ والنصرُ آياتُهُ الكُبَرْ

ذو غُرَّةٍ تسحر البدورا وطلعة تُخجلُ الصَّباحْ
كم رايةٍ سامها ظهورا تُظَلِّلُ الأوجُهَ الصِّباحْ
وكَمْ جهادٍ جلاه نورا أظفر بالفوزِ والنّجاحْ

الطاهرُ الظاهرُ الهمامُ أعزُّ مَنْ صالَ وافتخرْ
لسيفه في العدا احتكامُ جرى بهِ سابقُ القدرْ

يا مرسلَ الخير في الغوارِ لو تطلبُ البحرَ تلحقُ
لك الجواري إذا تجاري سوابقَ الشُّهب تسبقُ
تستَنُّ في لجــةِ البحارِ فالكفرُ منهن يَفْرَقُ

فالدينُ وليقصرِ الكلامُ بسيفك اعتزَّ وانتصَرْ
كذاكَ أسلافُكَ الكرامُ همْ نصروا سيّدَ البشَرْ

وقال من غير هذا البحر في المحدث[1] بمالقة :

قد نُظِمَ الشملُ أتمَّ انتظامْ واغتنم الأحبابُ قربَ الحبيبْ
واستضحكَ الروضُ ثغورَ الغمام[2] عن مبسمِ الزهرِ البرودِ الشَّنيبْ

---

١ المحدث : اسم بناء بمالقة .
٢ الأزهار : الكمام .

وعمّم النّورُ رؤوسَ الرُّبى وجلّل النُّورُ صدورَ البطاحْ
وصافح القُضبَ نسيمُ الصَّبا فالزهر يرنو عن عيونٍ وَقاحْ
وعاودَ النهرَ زمانُ الصِّبا فقلّدَ الزهرَ[1] مكانَ الوشاحْ

وأطلع القصرُ بُرودَ التّمامْ في طالع الفتح القريبِ الغريبْ
خدودها قامت مقامَ الغمامْ فلا اشتكى[2] من بعدها بالمغيبْ

أصبحتِ يا ريّةُ مجلى النفوسْ جَمالك العينُ بهـا يبهر
والبشرُ يسري في جميع الشموسْ ورايةُ الأنسِ بها تُشهر
واللوحُ للشكر تحطّ الرؤوسْ وأنجمُ الزهرِ بهـا تزهر

وراجعَ النهرُ غناء الحمامْ وقد شدَتْ تسجعُ سجعَ الخطيب
بمنبر الغصنِ الرشيقِ القوامْ لمّا انثنى يهفو بقدٍّ رطيب

يا حبّذا مبناكِ فخرَ القصورْ بُرُوجُهُ طالَتْ بروجَ السما
ما مثله في سالفاتِ العصورْ ولا الذي شادَ ابنُ ماء السّما
كم فيهِ من مرأى بهيج ونورْ في مرتقى الجوّ بهِ قَدْ سَما

خليفـةُ الله ونعمَ الإمامْ أتحفك الدهرَ بصنعٍ عجيب
يهنيك شملٌ قد غدا في التئامْ ممهداً في ظلّ عيش خصيب

نواسمُ الوادي بمسكٍ تفوحْ ونفحةُ النّدّ بـهِ تعبـقُ
وبهجـةُ السكّان فيهِ تلوحْ وجوهُ مِنْ نورهم يشرقُ
وروضُهُ بالسرّ منهُ يبوحْ بلابلٌ عن وجـده تنطقُ

---

١ الأزهار : النهر .
٢ الأزهار : لا أشتكي .

لو أنَّ من يفهم عنها الكلامْ فهي تُهنيك هناء الأديبْ
ونهره قد سلَّ منه الحسامْ يلحظه النرجس لحظ المُريبْ

فأجملُ الأيام عصرُ الشبابْ وأجملُ الأجملِ يومُ اللّقا
يا دُرَّةَ القصرِ وشمسَ القبابْ وهازمَ الأحزاب في المُلْتَقى
بَشّرَكَ الربُّ بحسنِ المآبْ متّعــك الله بطولِ البَقــا

ولا يزال القصرُ قصرُ السلامْ يختالُ في بُردِ الشباب القشيب
يتلو عليكَ الدهر في كلّ عامْ: ﴿نصرٌ من الله وفتحٌ قريب﴾

وقال من المخلع في الشفاء :

في طالعِ اليُمنِ والسعودِ قَدْ كَلّتْ راحــةُ الإمامْ
فأشرق النورُ في الوجــودِ وابتسم الزهرُ في الكِمامْ

قد طلعتْ رايةُ النجاحِ وانهــزمَ البؤسُ والعنا
وقالَ حيٌّ على الفــلاحِ مؤذّنُ القــومِ[1] بالمُنى
فالــدهرُ يأتي بالاقــتراحِ مُستقبلاً أوجُــه الهَنا

تخفقُ منشــورةُ البرودِ والسعدُ يقدمُ من أمامْ
والأنسُ مستجمعُ الوفودِ واللطفُ مستعذبُ الجمامْ

وأكؤسُ الطلِّ مترعاتِ بأنمل السوسنِ النــدي
والطــيرُ مفتنّــةُ اللغاتِ تشدو بأصــوات مَعْبَدِ
والغصنُ يذهبُ ثم يأتي بالسندس الغضّ مرتدي

---

١ الأزهار : الفوز .

والدوحُ يومي إلى السجودِ   شكراً لذي الأنعُمِ الجسامْ
والريحُ خفّاقةُ البنودِ   تباكرُ الروضَ بالغمامْ

مظاهرٌ للجمالِ تُجلى   قد هزَّ أعطافها السرورْ
وباهرُ الحسنِ قد تجلّى   ما بينَ نَوْرٍ وبين نُورْ
قد هنأت بالشفاء مولى   بعصره تفخرُ العصورْ

ما بينَ بأسٍ وبينَ جودِ   قد مهّدَ الأمنَ للأنامْ
فالدينُ ذو أعينٍ رُقودِ   وكان لا يطعمُ المنامْ

والكاسُ في راحة السقاةِ   تروحُ طوراً وتغتدي
يهديكها رائقُ السماتِ   ما بينَ برق وفرقدِ
والشمسُ تذهبُ للبياتِ   قد لبستْ ثوبَ عسجدِ

والزهرُ في اليانع المَجُودِ   يقابلُ الشَّرْبَ بابتسامْ
والروضُ من حلية الغمودِ   قد جرّدَ النهرَ عن حسامْ

مولايَ يا أشرفَ الملوكِ   وعصمةَ الخلقِ أجمعين
أهديكَ من جوهرِ السلوكِ   يقذفهُ بحرُكَ المَعين
جعلتُ تنظيمهُ سلوكي   وأنت لي المنجدُ المُعين

تحيّةَ الواحدِ المجيدِ   ورحمةَ الله والسلامْ
عليكَ من راحمٍ ودودِ   يا مخجلَ البدرِ في التمامْ

وقال من الرمل المجزوء :

وجهُ هذا اليوم باسمْ   وشذا الأزهارِ ناسمْ

هاتها صاحِ كؤوسا جالبـــاتٍ للســرورِ
وارتقبْ منهـــا شموسا طالعات في حُبُـــورِ
ما ترى الروض عروســا في حُلى نَوْرٍ ونُورِ

وأتت رســلُ النواسمْ تجتلي هــذي النواسمْ

قد أهلّتْ بالبشــائرْ أضحكتْ ثغرَ الأزاهرْ
ستَتَحَتْ في يُمْنِ طائرْ ونُظِمْنَ كالجــواهرْ
فانشروها في العشــائرْ إنّ هذا الصنعَ باهرْ

وأشيعوا في العوالم الغني بــاللهِ ســالم

أيّ نــور يتــوقدْ أيّ بــدر يتــلالا
أيّ فخـــرٍ يتخلّدْ أيّ غيــثٍ يتــوالى
إنّمــا المــولى محمدْ رحمــةُ الله تعــالى

كفّــهُ بحــرُ المقاسمْ وبهــا حجّ المبــاسمْ

خيرُ أملاكِ الزّمانِ من بني ســعْدٍ ونصرِ
ما ترى أنّ الشّواني في صعيدِ البرّ تجري
قد أطارتْها التهــاني دونَ بحريّ وبحــرِ

مُذْ رأت بحرَ النّعائم كلّهــا جارٍ وعائم

فهنيئــاً بالشــفاء يا أمــير المســلمينا
ولَنا حقُّ الهنــاء وجميــعُ العــالمينا
إنْ جهرنا بالــدعاء ينطقُ الدهــر أمينا

دمتَ محروسَ المكارمْ بظُبى البيضِ الصــوارمْ

وقال يهني السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان ، وقد وجه إليه الغني بالله أمه وعياله عند تملكه المغرب من قِبَله :

قد نُظِمَ الشملُ أتمَّ انتظامْ ولاحتِ الأقمارُ بعدَ المغيبْ
وأضحكَ الروضُ ثغورَ الغمامْ عن مبسم الزهر البرودِ الشنيبْ

وعاودَ الغصنُ زمانَ الصِّبا وأشربَ الأنسَ جميعُ النفوس[1]
وعمّمَ النَّوْرُ رؤوسَ الرُّبى وجلَّل النُّور وجوهَ الشموس
وأطربَ الغصنَ نسيمُ الصَّبا فالدوحُ للشكر تحطُّ الرؤوس

واستقبلَ البدرُ ليالي التمــامْ وصافحَ الصبحَ بكفَّ خضيب
وراجعَ الأطيارَ سجعُ الحمامْ بكلِّ ذي لحنٍ بديع غريب

نواســمُ الوادي بمسكٍ تفوحْ ونفحــةُ النـدِّ بــه تعبقُ
وبهجــةُ السكانِ فيهِ تلوحْ وجوّهَ مــن نوره يشرقُ
وعَرْفُه بالطيب منــهُ يفوحْ كأنّهُ من عنــبر يفتقُ

والنهرُ قد سُلَّ كمثلِ الحسامْ حبابُــهُ تطفو وطوراً تَغيب
وثغرها قد راق منــهُ ابتسامْ يُهَنِّىء الحِبَّ بقرب الحبيب

كواكبٌ أبراجهن الخــدورْ يلوحُ عنها كلُّ بدرٍ لِيــاحْ
جواهرٌ أصدافهنّ القصورْ نظمها السعــدُ كنَظم الوِشاح
يا حبّذا والله ركبُ السرورْ يبشّر المولى بنيــلِ اقتراح

ابتهجَ الكونُ بمُوسى الإمام واختالَ في بُرد الشباب القَشيب
وعادهُ يخـدمُ مثلَ الغُــلام شبابهُ قد عاد بعـدَ المَشيب

---

[1] ق : الكئوس .

أكرم به واللهِ وفدُ الكريمْ ... مولى سَنا[1] « الحرة » في مقدمه
مرضاتُها تُحظي بدار النعيمْ ... وتوجبُ التوفيقَ من منعمه
بشّر بالنصرِ وفتحٍ جسيمْ ... وخيره أجمعُ في مَقْدَمه

لقاؤها المبرورُ مسكُ الختامْ ... بشّركَ اللهُ بصنعٍ عجيب
وقصرُكَ الميمون قصرُ السلامْ ... خطَّ بحفظ من سميع مجيب

مولاي يهنيك وحقّ الهنا ... قد نظم الشمل كنظم السعودْ
قد فزت بالفخر ونيل المُنى ... وأنجز السعدُ جميعَ الوعودْ
وقرّتِ العينُ وزال العنا ... وكلّما مرَّ صنيعٌ يعودْ

فلا يزل ملكك حِلْفَ الدوامْ ... يَحُوز في التخليد أوفى نصيب
يتلو عليك الدهرُ بعد السلامْ: ... ﴿ نَصرٌ من اللهِ وفَتحٌ قَريب ﴾

وقال رحمه الله تعالى في وصف غرناطة والطرد وغيرهما:

للهِ ما أجمَلَ رَوْضَ الشبابْ ... من قبل أن يُفْتَحَ زَهْرُ المشيبْ
في عهده أدرتُ كأسَ الرُّضابْ ... حبابُها الدرُّ بثغرِ الحبيبْ

من كلّ من يخجلُ بدرَ التمامْ ... إذا تَبَدّى وجهُهُ للعيون
ويفضحُ الغصنَ بلين القوامْ ... وأين منه لينُ قدّ الغصون
ولحظه يمضي مَضاء الحسامْ ... ويُذهلُ العقلَ بسحر الجفون

أبصرتُ منهُ إذ يحطُّ النقابْ ... شمساً ولكنْ ما لها من مغيب
إذا تجلّتْ بعد طول ِارتقابْ ... صرَفتُ عنها اللحظَ خوفَ الرقيب

---

[1] ق: ثناه؛ وفي الأزهار: مولاتنا.

مَنْ عاذري منه فؤاداً صبا   للامعِ البرق وخَفْقِ الرياحْ
يطير إن هبَّ نسيمُ الصَّبا   تعيره الريحُ خفوقَ الرياحْ
ما أولعَ الصبَّ بعَهْد الصِّبا   وهل على مَنْ قد صبَا من جُناحْ

فقلبه من شوقه في التهابْ   قد أحرق الأكبادَ منه الوجيبْ
والجفنُ منه سُحبه في انسكابْ   قد روَّضَ الخدَّ بدَمْعٍ سكيبْ

غرناطةٌ رَبعُ الهوى والمُنى   وقُرْبُها السؤلُ ونيلُ الوطر
وطيبها بالوصلِ لو أمكنا   لم أقطعِ الليلَ بطول السهر
عمَّا قريبٍ حقٌّ فيها الهنا   بيمنِ ذي العودةِ بعد السفر

ويحمدُ الناسُ نجاحَ الإيابْ   بكلَّ صنع مستجدَّ غريبْ
ويكتبُ الفالُ على كلَّ بابْ :   ﴿ نصرٌ من الله وفتحٌ قريبْ ﴾

ما لذة الأملاك إلاَّ القنصْ   لأنه الفالُ بصيد العدا
كم شاردٍ جرّع فيه الغُصَصْ   وأورد المحروبُ وِرْدَ الردى
وكم بذا الفحصِ لنا من حصَصْ   قد جُمعَ البأسُ بها والندى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي :

مولايَ مولاي ، وأنت الذي   جدَّدتَ للأملاك عهد الجلال
والشمسُ والبدرُ من العُوَّذِ   لمّا رأتْ منكَ بديعَ الجمال
والروضُ في نعمته يغتذي   بطيب ما قد حُزته من خلال

بشراكَ بشراكَ بحسنِ المآبْ   تستضحك الروضَ بثغر شَنيبْ
ودمتَ محروسَ العُلا والجنابْ   بعصمةِ الله السميع المجيبْ

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زَمْرك من كتاب ابن الأحمر ، رحمه الله

تعالى . وقد عرفت منه ما تسنى للغني بالله ابن الأحمر من الفتوحات والسعود ونفاذ الأمر على ملوك المغرب ، فهو الأحق بقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

ملكٌ إذا عاينتُ منهُ جَبينه فارقْتُهُ والنورُ فوق جبيني
وإذا لثمتُ يمينه وخرجتُ من أبوابــه لَثَمَ الملــوكُ يميني

وكان الغني بالله المذكور معتقَداً في الصالحين ، حتى إنّه كتب وهو بفاس مخلوعٌ إلى ضريح ولي الله سيدي أبي العباس السبتي بمراكش ، ومن إنشاء وزيره لسان الدين على لسانه :

يا وليّ الإله أنت مطاعٌ

الأبيات والنثر بعدها ، وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعه[1] ، وكان ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ، وتَنَظُم تلك الأماكن في سِلْكه ، حتى حصلَ له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يُعلم ذلك من كلام لسان الدين وابن زَمْرَك وغيرهما .

[ترجمة الولي السبتي]

والسبتي المذكور : هو سيدي أبو العبـاس أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي[2] ، الولي الصالح العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة ، والمناقب الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، والأخلاق الطاهرة ،

---

١ انظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٢٧٣ .
٢ راجع ترجمة الولي السبتي في أنس الفقير : ٧ – ٩ وتعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس لابن الموقت (ط . فاس ١٩١٨) ونيل الابتهاج ٣١ – ٣٧ وعن هذا الأخير ينقل المقري ؛ وراجع الاعلام للعباس بن إبراهيم ١ : ٢٣٩ – ٣٣٨ .

نزيل مراكش ، وبها توفّي سنة إحدى وستمائة ، وولادته بسبتة عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، ودفن خارج مراكش ، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء ، وقد زرته مراراً كثيرة ، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف ، وهو ترياق مجرب .

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : كان سيدي أبو العباس السبتّي — رضي الله تعالى عنه — مقصوداً في حياته ، مستغاثاً به في الأزمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومَبْنَى أمره على انفعال العالم عن الجود[1] ، وكونه حكمة في تأثير الوجود ، له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ؛ ولمّا توفّي ظهر هذا الأثر على تربته ، وتشبث بلحده ، وانسحب على مكانه عادة حياته ، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى ، وتَخَطّى الناسُ مباشرةَ قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى ، وانقطاع الأماكن القُصَى[2] ، تحملهم أجنحة نيّاتهم فتهوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة .

وقال ابن الزيات[3] : كان أبو العباس قد أُعطي بَسْطَةً في اللسان ، وقدرةً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، ولا يسأله إلا أجابه ، كأن القرآن والحجج على طَرَف لسانه حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العامة والخاصة ببيانه ، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مُسَلّمين منقادين ، وشأنه كلّه عجيب ، وهو من عجائب الزمان . وحدثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول : أنا

---

١ في الأصل : الوجود ، والتصويب عن التشكّي ؛ وأورد العباس بن إبراهيم أن ابن رشد أرسل أبا القاسم الخزرجي ليعرف مذهب أبي العباس بمراكش، فلما نقل الخزرجي خبره إلى ابن رشد قال له : « هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود» وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة .

٢ نيل الابتهاج : المكان الأقصى .

٣ تنقل المصادر ترجمة السبتّي عن التشوف ، ولكن ابن الزيات صرح بأنه يفرد ترجمة السبتّي إذ لا يكفي في ذكره الاختصار ، وجعل ترجمته في آخر كتابه ، إلا أنها لم تطبع مع سائر الكتاب ، وقد نقل العباس بن إبراهيم ما ذكره ابن الزيات في تلك الترجمة .

القطب . وحدثني أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدّامه قال : خرجت معه مرةً لصهريج غابة الرمان يوم عرفة ، فجلسنا هناك وصلينا ، فقال لي : إنّما سمي هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات ، وقد فاتنا عرفة ، فتعال نمثل بهذا المكان ونعمل كما يعملون ، لعلّ الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم ، فعمل [1] مكاناً دائراً بالعين الكعبةَ ، ومحل عنصر الماء الحِجْر ، وموضعاً آخر مقام إبراهيم ، فطاف بالعين أسبوعاً وأنا أطوف بطوافه ، وكبر على العنصر في كل طواف ، وصلى في مثل [2] المقام ركعتين تامتين ، وأطال في سجود الثانية ، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي : يا علي ، اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تُقْضَ ، فإن الله تعالى وعد في هذا اليوم من تعرّف له أن يقضي حوائجه، فقلت له : ما أريد إلاّ التوفيق ، فقال لي : ما خرجت معك من باب المدينة حتّى وفقت ، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته ، وبم تنفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ؟ ولمَ صار يأمر بالصدقة والإيثار مَنْ شكا إليه حالاً أو تعذّر عليه مطلب في هذه الدار ؟ فقال لي: ما آمر الناس إلا بما ينتفعون به، وإنّي لمّا قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السن عشرين سنة وجدت قوله تعالى ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسان ﴾ فتدبرته وقلت : أنا مطلوب به ، فلم أزل أبحث عنها [3] إلى أن وقفت على أنّها نزلت حين آخى النبي صلى الله عليه وسلّم بين المهاجرين والأنصار ، وأنّهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلّم أن يعلمهم حكم المؤاخاة ، فأمرهم بالمُشاطرة ، ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة، ثم نظرت إلى حديث « تفترق أمتي على ثلاثين فرقة ــ الحديث » وأنّه صلى الله عليه وسلّم

١ ق : فعمد ؛ نيل الابتهاج : فجعل .
٢ في الأصل : قبل .
٣ نيل الابتهاج : فبحثت عن الآية .

قاله صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ، وذكر له الأنصار أنّهم شاطروا المهاجرين ، فقال لهم ذلك بأثره[1] ، فعلمت أن الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار ، فعقدت مع الله تعالى نيّة أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء ، فعملت[2] عليه عشرين سنة ، فأثمر لي الحكم بالخاطر[3] ، فلا أحكم على خاطري بشيء إلا صدق ، فلمّا أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل ، والإحسان ما زاد عليه ، فعقدت مع الله تعالى نيّة لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى ، فعملت عليه عشرين سنة ، فأثمر لي الحكم في الخلق بالولاية والعزل فأولي من شئت ، وأعزل من شئت ، ثم نظرت بعد ذلك في أوّل ما فرضه الله تعالى على عباده في مقام الإحسان ، فوجدت شكر النعمة ، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ، ووجدت أصناف مَنْ تُصرف إليهم الصدقات[4] الواجبة [سبعة] وسبعة أصناف أخر صَرْفها فيها للإحسان والزيادة، وذلك أن لنفسك عليك حقّاً ، وللزوجة حقّاً ، وللرحم حقّاً، ولليتيم حقّاً، وللضعيف حقّاً، وذكر صنفين آخرين ، فانتقلت لهذه الدرجة ، وعقدت مع الله تعالى عقداً أن كل ما يأتيني أمسك سبعيه حق النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقيها ، فأقمت عليه أربعة عشر عاماً ، فأثمر لي الحكم في السماء، فمتى قلت « يا رب » قال لي : لبّيك ، ثم قال لي : إنّها نهايتي بتمام عمري ، وهو أن تنقضي لي ستة أعوام تكملة العشرين عاماً .

قال الصنهاجي : فأرخت ذلك اليوم ، فلمّا مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب ، وحققت العدد ، فنقصت من ستّة أعوام ثلاثة أيام خاصة ،

---

1. نيل الابتهاج : ذكر ذلك الحديث اثره .
2. نيل الابتهاج : فبقيت .
3. نيل الابتهاج : حكم الخاطر .
4. نيل الابتهاج : أصناف من يعطى الصدقة .

فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقال أبو بكر ابن مساعد : جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب ، وقال له : إلى متى تحيرنا ولا تصرح لنا عن الطريق ؟ فقال له : هو الإحسان ، فقال له : بيّنْ لي ، فقال له : كل ما أردْتَ أن يفعله الله تعالى معك فافعله مع عبيده .

وقال له أبو الحسن الخباز[1] : أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء ؟ فقال : إنّما حُبس المطر لبخلهم ، فلو تصدقوا لمطِرُوا ، فقل لأصحابك الفلاحين : تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطـَرُوا ، فقال له: لا يصدقني أحد ، ولكن مُرْني في خاصة نفسي ، فقال له : تصدق بمثل ما أنفقت ، فقال له : إن الله تعالى لا يُعامَلُ بالدَّيْنِ ، ولكن أستسلف ، فاحتال وتصدق بها كما أمره ، قال : فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر ، فأيست من المطر ، ورأيت جميعَ ما غرست مشرفاً على الهلاك ، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت البحيرة حتى رويت ، وظننت أن الدنيا كلّها مطرت ، فخرجت فإذا المطر لم يتجاوزها ؛ انتهى .

والحكايات عنه في مثل هذا كثيرة .

وقال ابن الخطيب القسمطيني في رحلته[2] : حضرت عند الحاج الصالح الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا ، وقد سأله أحد الفقراء عن كرامة الأولياء ، فقال له : لا تنقطع بالموت الكرامة ، انظر إلى السبتي ، يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش ، وما ظهر عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات ، سمعت يهودياً بمراكش يلهج ببركته وينادي باسمه في أمر أصابه لا مع المسلمين ، فسألته عن سببه ،

---

١ نيل الابتهاج : الجنان .

٢ يعني أنس الفقير ، كما تقدم ، انظره ص : ٨ .

فأخبر أنّه وجد بركته في غير موطن ، فسألته عمّا بدا له في وقت [1] ، فقال لي : وحق ما أُنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لي ، سَرَيْتُ ليلة مع قافلة في مفازة ، فعرِجَتْ دابتي ، فما شككت في قتلي وسلب مالي ، فجلست وبكيت ، وبيني وبين الناس بعد ، وقلت : يا سيدي أبا العباس ، خاطرك ، قال لي : والله ما أتممت الكلام إلاّ وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به ، وضربت دابتي ، وخف عرجها ، ثم زال ، واتصلت بالناس ، فقلت له : لمَ لم تُسْلِم ؟ فقال : حتّى يريد الله تعالى ، وعجبت من كون ذلك من يهودي ، وهذه شهادة من عدوّ في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات ، وسألت الله تعالى في أشياء يَسّر لي فيها سؤلي : منها أن أكون ممّن يشتغل بالعلم ويُوصَفُ به، وأن ييسر عليّ فَهْم كتب عينتها ، فيسر الله تعالى عليّ ذلك في أقرب مدّة . وكان السبتي آية في أحواله ، ما أدرك صحبتَهُ إلاّ الخواص من الناس ، وكان أصل مذهبه الحض على الصدقة ، وكان أمره عجباً في إجابة الدعاء بنزول المطر ، واختصاصه بمكان دون آخر ، وقال لأصحابه : أنا القطب ، وكان تفقّه على أبي عبد الله الفخار ، ووقفت على قبره ، وله بركات وأنوار . وكان السبتي آية في المناظرة ، وأوذِيَ باللسان كثيراً جداً فصفح وتجاوز .

ورأى [2] عبد الرحمن بن يوسف الحسني النبي صلى الله عليه وسلّم في النوم ، فقال له : يا رسول الله ، ما تقول في السبتي ؟ قال : وكنت سيىء الاعتقاد فيه ، فقال لي بعد أن تبسّم : هو من السبّاق ، قال : فقلت بيّن لي يا رسول الله ، فقال : هو ممّن يمر على الصراط كالبرق ، قال : فخرجت بعد الصبح ، فلقيني أبو العباس ، فقال لي : ما رأيت وما سمعت ؟ والله لا تركتك [3] حتّى

---

١ أنس الفقير : عما رأى له في أقرب وقت .
٢ ما زال النقل مستمراً عن أنس الفقير .
٣ ق : لا أتركنك .

تعرفني ، فعرفته ، فصاح : كلمة الصفا من المصطفى صلى الله عليه وسلّم ؛ انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن الزيات : وحدثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أن رجلاً يُعرف بابن الشكاز[1] ، وكان غنيّاً فدار عليه الزمان وافتقر ، حدّث أنّه وصل لأبي العباس السبتي وعليه ثوب خلَق تظهر منه عورته ، فشكا إليه حالته ، فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت ، فجاء إلى مِطْهَرة هنالك ، قال : فدخل أبو العباس المطهرة وتجرّد من أثوابه وناداني ، وقال لي : خذ هذه الثياب ، فأخذتها ، وكان بعد العصر ، فأردت أن أرى ما يكون من أمره ، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب ، فإذا بفتًى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب ، فلمّا رأيته نزلت إليه ، فقال لي : أين الفقيه أبو العباس ؟ فقلت : ها هو في الساقية عُرْيان ، فقال لي : أمسك الدابة ، فسمعت الفقيه يقول له : أين تلك الثياب ؟ فأخذها منه وخرج ، فلمّا رآني قال لي : وما لك هنا ؟ قلت : يا سيدي خفت عليك ، فلم أقدر على الانصراف وأتركك ، فقال لي : أفترى الذي فعلت ما فعلت له يتركني ؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه ، فذكر له أن إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب ، وقالت له : لا تدفعها إلا للفقيه ، ولا يلبسها إلاّ هو ، وهذه قصّة صحيحة مشهورة .

وقال ابن الخطيب : وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراكش غير حافلة البناء ، ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعده الأقدار ، وزرتها ، وربما شاهدت في داخلها أشياخاً من أهل التعفف والتصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمات الله تعالى عليها لكثرة زائريها ، فيقتحم[2] ذو الحاجة بابها خالعاً نعله مستحضراً نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ، ويعين بين يدي النجوى صدقة

---

[1] نيل الابتهاج : السكان ؛ ق : السكاك ، والتصويب عن الأعلام .
[2] ق : فيقحم ؛ نيل الابتهاج : فيلج .

على قبره ، ويلسها في أواني في القبر معدة لذلك ، ومن عجز عن النقدين تصدق بالطعام ونحوه ، فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرّقه على المحاويج الحافّينَ بالروضة ، ويحصون كل عشية ، ويعمهم الرزق المودع فيها ، وإن قصر عنهم كملوه في غده .

قال ابن الخطيب لسان الدين : وترافع خدام الروضة لقاضي البلد ، وتخاصموا في أمر ذاكَ الرزق المودع هناك ، فسألهم القاضي عن خرّجه اليوم ، فقالوا : يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً عيناً ، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها ، فروضة هذا الوليّ ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دَخْله ولا تحصر جبايته ، فالتبر يسيل ، واللجين يفيض ، وذو الحاجة كالطير تغدو خِماصاً وترجع بطاناً ؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال : وأنا ممّن جرب المنقول عن القبر ، فاطّرَدَ القياس ، وتزيفت الشبهة ، وتعرفت من بدء زيارته ما تحقّقت من بركته ، وشهد على برهان دعوته ؛ انتهى .

وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه « التشوّف إلى رجال التصوّف »[1] : كان أبو العباس جميل الصورة ، أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، مقتدراً على الكلام ، حليماً صبوراً ، يُحْسِن إلى من يؤذيه ، ويحلم على من يسفه عليه ، رحيماً عطوفاً محسناً إلى اليتامى والأرامل ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ، ويحض على الصدقة ، ويذكر في فضلها آيات وأحاديث ، ويأخذها ويفرقها على المساكين ، ويرد أصول الشرع إلى الصدقة ، ويفسّرها بها ، ويقول : معنى قول المصلي « الله أكبر » أي : من أن نضن عليه بشيء ، فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يُحْرِم ولا كَبّر ، ومعنى رفع اليدين للتكبير : تخليت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيراً ،

---

١ انظر الأعلام ١ : ٢٤١ .

وهكذا يتكلم بنحو هذا في جميع العبادات ، ويقول : سِرُّ الصوم أن تجوع ، فإذا جعت تذكرت الجائع ، وما يقاسيه من نار الجوع ، فتتصدق عليه ، فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنّه لم يصم ، إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا .

وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ، ويقول له : تصدق ، ويتفق لك ما تريده ، وأخباره في ذلك كثيرة عجيبة .

قال التادلي : وحدثني ولدُه الفقيهُ أبو عبد الله عن أبيه أنّه قال : كان ابتداء أمري وأنا صغير أنّي سمعت كلام الناس في التوكل ، ففكرت في حقيقته[1] فرأيت أنّه لا يصح إلا بترك شيء ، ولم يكن عندي منه [بد] ، فتركت الأسباب ، واطّرحت العلائق ، ولم تتعلّق نفسي بمخلوق ، فخرجت سائحاً متوكّلاً ، وسرت نهاري كلّه ، فأجْهَدَني الجوع والتعب ، وقد نشأت في رفاهية [من العيش][2] ، وما مشيت قط على قدمي ، فبلغت قرية فيها مسجد ، فتوضأت ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء ، وخرج الناس ، فقمت لأصلي ، فلم أقدر من شدة الجوع والتألّم بالمشي ، فصليت ركعتين ، وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل ، فإذا قارع يقرع الباب بعُنْف ، فاستجاب له صاحب الدار ، فقال له : هل رأيت بقرتي ؟ فقال : لا ، فقال : إنّها ضلت وقد أكثر عِجلُها من الحنين فطلبتها فلم نجدها في القرية ، فقال أحدهم : لعلّها [دخلت] في المسجد وقت العتمة ، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني ، فقال صاحب البقرة : ما أظنّكَ أكلْتَ الليلة شيئاً ، فذهب وجاءني بكسرة خبز وقدح لبن ، ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرته في داخل الدار ، فخرج لجيرانه وقال لهم : ما زالت البقرة من الدار ، وما كان خروجي إلا لهذا الفتى الجائع في المسجد ، ثم رغّبني أن أمشي معه لمنزله ، فأبيت .

---

١ ق : دقيقه ، والتصويب عن الاعلام .
٢ سقطت من ق .

وكان في أول أمره يسكن في الفندق[1] ويعلّم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك ، وينفقها على طلبة العلم الغرباء ، ويمشي في الأسواق ، ويذكّر الناس ، ويضربهم على ترك الصلاة ، ويأتي بالطعام على رأسه .

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة ، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق فقام إليهم القيّم بخدمته ، فقالوا له : ما تعلمون أن مَنْ رفع صوته بالليل يُقتل ؟ ثم قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للوالي[2] ، فجاء القيّم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم ، وأيقنّا بالهلاك ، فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي ، ثمّ خلا بنفسه عند السحَر ساعة ثم قال لنا : لا خوف عليكم ، قد استوهبتكم من الله تعالى ، وهذان الحرسيان الواقفان غداً يُقتلان إن شاء الله تعالى ، فقيل له : الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشر ، وهما لم يفعلا ما يوجب قتلهما ، بل جزاؤهما يُرَوَّعان كما روّعانا ، فقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وترويعكم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل ، فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال : عقوبتهما أن يُضرب كل واحد منهما مائة سوط ، ثم اجتاز عبد الله الخرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم ، فوجد حانوته[3] مفتوحاً ، ورأى الحرسيين على قرب ، فلم يشكّ أنهما حلاّه[4] ، فحُملا إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر ، فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما كما أرادا قتلكم ، فتبعناهما ، وحضرنا حتى ضُرب كل واحد مائة سوط .

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى .

وكان يقول[5] : أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان ، وأصل الشرّ فيهما البخل ، قال الله تعالى ﴿ فأمّا مَنْ أعطى ﴾ (الليل : ٥) وقال عن إبليس ﴿ ثمّ

---

١ زاد التادلي في الأصل : الفندق الذي بأجادير ، المعروف بفندق مقبل .
٢ الاعلام : لنقتل .
٣ ق : تابوته .
٤ حلاه : فتحاه ؛ وفي الاعلام : فتحاها .
٥ انظر الاعلام : ٢٥٨ .

لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ (الأعراف: ١٧) وقال ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ (التوبة : ٧٥) وقال ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (الحشر : ٩) وقال ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ (القلم: ١٧) وقال ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ (آل عمران: ١٣٣) وقال ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ (البقرة: ١٧٧) وقال ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض – الآية ﴾ (الأحزاب : ٧٢) فهذه الأمانة هي الرزق، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال، والجبال ما فيها كذلك، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها، فخزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين إنه كان ظلوماً جهولاً، وفي الحديث « هم الأقلون ورب الكعبة، إلا من قال هكذا وهكذا – الحديث » ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه دعا عليهم موسى بالبخل، فقال ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون – إلى قوله : دعوتكما ﴾ (يونس : ٨٨، ٨٩) وكان رضي الله عنه في آخر عمره كثيراً ما يقرأ هذه الآية ﴿ أفرأيت الذي تولى – إلى قوله : سوف يرى ﴾ (النجم : ٣٣) وكان يقول : من قال إن الله تعالى لا يجازي على الصدقات فقد وافق اليهود في الفرية على الله تعالى لأنهم قالوا ﴿ يد الله مغلولة، غلت أيديهم ﴾ (المائدة : ٦٤) أي لا يجازي على الصدقات، قال الله تعالى ﴿ غلت أيديهم – إلى آخره ﴾ أي يجازي على العطاء كيف شاء. وكان يقول في قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة – الآية ﴾ (التوبة : ٣٤) إنما كويت هذه المواضع لأن الغني يعرض عن المسكين بوجهه، ثم بجنبه، ثم بظهره، فعوقبت هذه المواضع بالكي بالنار لإعراضه عن الفقير، ومنازعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة؛ انتهى ملخصاً.

وحدث أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعمور [1] أنه دخل صحبة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي إلى الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعوده، فقال له : ادع الله

---

١ أورده في الأعلام : ٣١٠ نقلا عن النفح.

تعالى لي أيّها الشيخ ، فقال له : ارجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقّق أنّه المُمْرِض والمعافي ، واخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس ، لتكون ممّن وُقي شح نفسه ، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ، ثم التفت إلى الحاضرين وقال : في المرض فوائد لا ينبغي أن تُجْهل : الأولى معرفة قدر العافية ، الثانية تمحيص بعض الذنوب ، الثالثة توقّع الثواب ، الرابعة تنقية الجسم من فضول الأخلاط ، الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه ، السادسة حدوث الرقة والشفقة ، السابعة — وهي العظمى — الصدقة والخروج عن رذيلة البخل؛ انتهى . وحدث الكاتب أبو القاسم ابن رضوان عن أبي بكر ابن منظور عن بعض أعيان مراكش أنّه توفّي وأوصى ابناً له كان من أهل البطالة أن يعمد إلى ألف دينار من متخلّفه ، فيدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبتّي ، ففعل ، وقال للشيخ : إن أبي توفّي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيثُ شئت ، فقال له الشيخ قد قبلتها وصرفتها إليك ، فقال له : يا سيدي ، وما تأمرني أن أفعل بها ؟ قال : خذها ، قال : فانصرفت من عنده وسؤت ظنّاً بقوله ، ثم قلت : وأنا أنفق مثل ذلك على عادتي في الوجه الذي يلذ لي ، فلأفعلن بها ما أفعل بغيرها ، فأخذتها في محفظة ، وخرجت ألتمس الزنى ، فإذا امرأة على دابة وغلام يقودها ، فأشرت إلى الغلام ، فقال لي : نعم ، واتبعني إلى بستان لي ، فنزلت المرأة ، فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان ، وأخذ الغلام الدابة وصار ناحية ، وقال : أغلق الباب ، ففعلت ، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة تبكي بكاء شديداً حتى طال بكاؤها ، وبكيت لبكائها ، فقلت لها : ما شأنك ؟ فقالت : افعل ما دعوتني لأجله ، ودع عنك هذا ، ونحيبُها يزيد ، فقلت لها : إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء ؛ بل مع الأنس وانشراح الصدر وزوال الانقباض ورفع الخجل ، فقالت : نترك البكاء ونرجع للأنس على ما تحب ويوفي غرضك ، فقلت : لا ، حتى أعلم سبب بكائك ، وألححت عليها ، فقالت : أتعرف حاجبَ الملك الذي سجنه ؟ قلت : نعم ، قالت : فأنا ابنته ،

ولم يبق له أحد غيري ، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله ، فما زلت أبيع ما ترك أبي وأنفقه عليه ، حتى لم يبق بيدي شيء ، فلمّا أعيتني الحيلة فيما أنفقه ألجأت نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجهاً قط ، فرميت لها بالألف دينار وقلت لها : والله لا قربت منك على هذا الوجه أبداً ، فأنفقي الدنانير على والدك إلى أن تنفد ، وابعثي لي غلامك أعلمه بمنزلي ، ولازمي دارك ، واستمري على صيانتك وإلا فضحتك ، وتريني والله لا أزال أبيع أملاكي وأنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملكه ، ثم خرجت ألتمس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت ، وقالوا : إن الملك رضي عن والدها ، ورد عليه ضياعه وأملاكه ، ووصله بعشرة آلاف دينار ، وقعد يلتمس بنته فلم توجد ، فسُقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة ، وظن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت ، فبادرته وقلت له : لا عليك ، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا ، ودخلت إلى البنت وقلت لها : إن الملك قد رضي عن والدك ، ورد عليه ماله ووَصَله ، فسيري إلى دارك ، فركبت دابتها وانصرفت ، فدخلت على والدها فقال لها : أين كنت ؟ وما الذي أخرجك عن دارك ؟ وهَمّ بها ، فقالت له : أخْرِجْ عني كل من في الدار ، ففعل ، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ، ورمت إليه بالألف دينار ، وقالت له : هذا الذي أعطاني لأنفق عليك ، فقال أبوها : هذا والله هو الكبريت الأحمر ، والله لو كان أبوه كنافاً ما أنفت أن أزوجك منه ، فوجّه العبد الذي كان معها إلى الشاب ، وقال له : إن سيدي يدعوك ، قال : فخفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه ، ثم أقدمت إقدام مَنْ علم براءة نفسه ، فدخلت عليه ، فقام إليّ وعانقني ، وقد عرف لي مقامي[1] ، وقال : أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قرّت بك عيني ، وقال : والله لو كان أبوك كنافاً ما أنفت لبنتي أن أزوجك منها ، فما قام من المجلس حتى وجّه إلى

---

١ ق : وقد عرفني .

العدول وأشهد على نفسه بأنّه زوّج ابنته فلانة من هذا الشاب ، ونَقَدَها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأجّلَ لها عنه الشطر الثاني ، وأهدى لها من الحلي كذا وكذا ، ومن الثياب كذا وكذا ، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك ، فحصل من إشارة الشيخ السبتي — رضي الله عنه — في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال ، وظفر ببنت حاجب الملك ؛ انتهى .

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى :

قال الشاطبي في « الإشارات والإفادات » ما صورته :

إفادة : أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العُدْوَة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً : الفقه في اللغة ، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه « قرم » و « عام » إذا اشتهى ، لكن لا يستعمل « قرم » إلا مع اللحم ، ولا يستعمل « عام » إلاّ مع اللبن ، فتقول : عمْتُ إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال ، فلا يُستدل بالحوشي من اللغات ، ولا المبتذل في ألسن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ؛ إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه ، والإتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، وأخبرني أن كتّاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمّون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنّها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وذكر مَنْ شَرَح بديعية الحلي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد الثعالبي في شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبي عبد الله المعروف

بابن زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولاً من صاحب الأندلس ، وهو قوله :

ولو أنشدت بين العذيب وبارق لقال رواةُ الغرب يا حبذا الشرقُ

ولم يظهر لي كل الظهور دلالته لي على حسن الختام، ولا بد، فالله سبحانه أعلم.

وقد أطلنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشّحة له زهرية مولدية تضمنت مدح المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، وهي هذه[1] :

لو ترجعُ الأيامُ بعدَ الذهابْ لم تقدحِ الأيام[2] ذكرى حبيبْ[3]
وكلُّ من نام بليل الشبابْ يوقظه الدهرُ بصبحِ المشيبْ

يا راكبَ العجزِ ألا نهضةٌ قد ضيَّق الدهرُ عليك المجالْ
لا تحسبنْ أن الصِّبا روضةٌ تنامُ فيها تحت فَيْءِ الظلالْ
فالعيشُ نومٌ والردى يقظةٌ والمرء ما بينهما كالخيالْ[4]

والعمرُ قد مرَّ كمرِّ السحابْ والمُلتقى باللهِ عمّــا قريبْ
وأنت مخدوعٌ بلَمْعِ السرابْ تحسبــهُ ماءً ولا تستريبْ

والله ما الكونُ بما قد حوى إلاَّ ظـلالٌ توهمُ الغـافلا
وعادةُ الظلِّ إذا ما استوى تبصره مُنتقــلاً زائــلا
إنّا إلى الله عبيدُ الهوى لم نعرفِ الحقَّ ولا الباطــلا

فكلُّ مَنْ يرجو سوى الله خابْ وإنّما الفوزُ لعبـدٍ منيب
يستقبل الرُّجْعَى بصدقِ المتابْ ويرقبُ اللهَ الشهيدَ القريب

---

١ أوردها في أزهار الرياض ٢ : ٢٠٥
٢ الأزهار : الأشواق .   ٣ ق : ذكر الحبيب
٤ من قول أبي الحسن التهامي :
فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

يا حسرتا مرَّ الصِّبا وانقضى وأقبل الشيبُ يقصُّ الأثر
واخجلتا والرحلُ قد قُوِّضا وما بقي في الخبر غير الخبر
وليتني لو كنتُ فيما مضى أدّخـرُ الزادَ لطول السّـفر

قد حان من ركب التصابي إيابْ ورائدُ الرشـد أطالَ المَغيب
يا أكمهَ القلبِ بغيْنِ الحجابْ كَمْ ذا أناديك فـلا تستجيب

« هل يحملُ الزاد لدار الكريمْ »[1] والمصطفى الهادي شفيعٌ مطـاعْ
فجاهـهُ ذخرُ الفقيرِ العديمْ وحبّه زادي ونعمَ المتاعْ
والله سَمّاه الرؤوفَ الرحيمْ فجاره المكفولُ ما إن يُضاعْ

عسى شفيعُ الناس يومَ الحسابْ وملجأ الخلقِ لرفعِ الكروب
يلحقني منـهُ قَبُولٌ مجابْ يشفعُ لي في مُوبِقات الذنوب

يا مصطفى والخلقُ رهنُ العدمْ والكونُ لم يفتق كمامَ الوجودْ
مزيةٌ أعطيتَها في القِـدمْ بهـا على كلِّ نبيٍّ تسودْ
مولدكَ المَرْقوم لمّـا نجمْ أنجز للأمّةِ وعـدَ السّعودْ

ناديتُ لو يُسمح لي بالجوابْ شهرَ ربيعٍ يا ربيعَ القلوب
أطلعتَ للهدي بغير احتجابْ شمساً ولكن ما لها من غروب

٢ ـ ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى ، **الطبيب العالم ابن المهنا** شارح ألفية ابن سينا[2] ، وشرحه عليها من أبدع الشروح ، وقد نقل عن لسان الدين

---

١ من قول الشاعر :

هلا احتقبت الزاد قلت اكتفي هل يحمل الزاد لدار الكريم

٢ يعني أرجوزة ابن سينا في الطب ، وأولها بعد التحميدات :

الطب حفظ صحة برء مرض من سبب في بدن منذ عرض

(انظر قنواتي : مؤلفات ابن سينا : ١٧٢ وما بعدها) .

كثيراً ، واعتمد عليه في أمور الطب ، وقد طال عهدي به الآن ، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم أره بهذه الديار المشرقية .

٣ — ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر ابن جُزَيّ الكلبي ، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزي شيخ لسان الدين ، وبيت بني جزي بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس ، وقد عرّفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظمين الناثرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور ، فليراجَع في الباب الثالث[1] .

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب — رحمه الله تعالى — جميع تواليفه مع أنّه مقاربه في السن ، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معدوم ، وقد عرّف به لسان الدين في « الإحاطة » والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنّه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالباً إلا على تلامذته ، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه ، رحمه الله تعالى ، وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس ، رحم الله تعالى الجميع .

٤ — ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم أبو عبد الله الشريشي ، وهو الذي تولى أولاً نقل « الإحاطة » من مبيضتها ، كما سبقت الإشارة إليه في كلام حفيد السلطان ابن الأحمر ، وأحكم النسخة ، فكانت في مجلدات ستة ، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتماداً منه عليه ، وثقة به ، لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة .

٥ — ومن تلامذة لسان الدين : القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي .

---

١ انظر ترجمته في ما تقدم ٥ : ٥١٧ .

قال في « الإحاطة » : صاحبنا الفقيه الخطيب ، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد ، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة ، مقصود المنزل ، نبيه الصهر ، معم مخول في الأصالة ، بارع الخط ، جيّد القريحة ، سيّال المداد ، نشيط البنان ، جلْد على العمل ، خطيب ناظم ناثر ، قرأ بغرناطة ، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء سنتين ببلده في حداثة السن ، ثم انتقل إلى غرناطة فجاءت به الكتابة السلطانية داحضة بالحق ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية ، فاستقل رئيساً في غرض إعانتي وانتشالي من هفوة الكلفة على جلل الضعف وإلمام المرض . ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة ، وإزعاجها من الأندلس عن سوْأة لا تُوارَى ، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى ، فسبحان من علّم النفس فجورها وتقواها ، إذ لصق بالدائل الفاسق[1] فكان آلة انتقامه ، وجارحة صيده ، وأحبولة كيده ، فسفك الدماء ، وهتك الأستار ، ومزق الأسباب ، وبدل الأرض غير الأرض ، وهو يزقه في أذنه زقوم النصيحة ، وينحله لقب الهداية ، ويبلغ في شدّ أزره إلى الغاية ، عنوان عقل الفتى اختياره ، يجري في سبيل دعوته طوالاً ، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة ، بدوياً قحاً جهورياً ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة ، طرفاً في سوء العهد وقلّة الوفاء ، مردوداً في الحافرة ، منسلخاً من آية السعادة ، تشهد عليه بالجهل يدهُ ، ويقيم عليه الحجج شرهُهُ[2] ، وتبوئه هفوات الندم جهالته ، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه ، وتبرأ منه ، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطاً ، وهو الآن بحال خزي ، واحتقاب تبعات ، واستدعيت شيئاً من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به ، فكتب إليّ ما نصّه :

يا سيّداً فاقَ في مجدٍ وفي شرَفٍ وفاتَ سَبقاً بفضلِ الذاتِ والسلفِ

---

[1] يعني السلطان النصري الذي هرب منه لسان الدين إلى المغرب .
[2] ق : شره .

وفاضلاً عَنْ سَبيل الذمِّ منحرفاً ... وعَنْ سبيل المَعالي غيرُ منحرفِ
وتُحفْةَ الزَّمنِ الآتي بـه فلقد ... ربّا بما حازهُ منها على التُّحَفِ
ومَعْـدِناً لنَفيس الدرِّ فهوَ لما ... حَوَاه منهُ لدى التشبيه كالصدفِ
وبَحرَ علمٍ جميعُ الناسِ مغترفٌ ... منهُ ، ونيلُ المَعالي خيرُ مؤتلفِ
وسابقاً بذَّ أهلَ العصرِ قاطبةً ... فالـكلُّ في ذاك منهم غير مختلفِ
من ذا يخالفُ في نارٍ على علم ... أو يجْحَدُ الشمسَ نوراً وهو غير خفي
ما أنت إلاّ وحيدُ العصر في شِيَمٍ ... وفي ذكاء وفي علمٍ وفي ظَرَفِ
للهِ من مُنْتَمٍ للمَجْدِ منتسبٍ ... بالفضلِ متّسِم ، بالعلم متصفِ
للهِ مِن حسبٍ عِدٍّ ومن كرم ... قَدْ شاده السلفُ الأخيارُ للخلفِ
إيهٍ أيا من بهِ تبأى الوزارةُ إذ ... كنتَ الأحقَّ بها في الذاتِ والشرفِ
يا صاحبَ القلم الأعلى الذي جُمِعَتْ ... فيه المعالي فبعضُ البعضِ لم أصفِ
يا من يقصّر وصفي في علاه ومن ... أنسى مديحَ حَبيبٍ في أبي دُلَفِ
شرّفتني عندمـا استدعيتَ من نظمي ... نظماً تلوّنه في أبدع الصحفِ
وربما راقَ ثَغْرٌ في تبسّمه ... حتى إذا نالَهُ المَـامُ مرتشفِ
أجِلْ قدركَ أن ترضى لمتجعٍ ... بسوء كيلَته حظّاً مَعَ الحشفِ
هـذا ، ولَوْ أنّني فيما أتيتُ به ... نافحتُ بالطيب زهرَ الروضة الأُنُفَ
لكنتُ أفضي إلى التقصير من خجلٍ ... إذ لستُ بالبعضِ ممّا تستحقُّ أفي
فحسبيَ العجزُ عمّا قد أشرتَ بهِ ... فالعجزُ حتماً قُصارى كلِّ معترفِ
لكنْ أجبتُ إلى المَطْلوبِ مُمتثلاً ... وإن غدوتُ بمرمى القومِ كالهدفِ
فانظرْ إليها بعينِ الصفحِ عَنْ زلل ... واجعلْ تصفُّحها من جملةِ الكُلَفِ
بقيتَ للدهرِ تطويهِ وتنشُره ... تَسْمُو من العزّ باسمٍ غَير منصرفِ

ثم ذكر نثراً ، وأن مولده بوادي آشَ آخر عام تسعة وسبعمائة ، وتولّى الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام

ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستّة وخمسين وسبعمائة ، ومن شعره قولُه :

ألا أيّها الليلُ البطيءُ الكواكبِ ... متى ينجلي صبحٌ بليلِ المآربِ
وحتى متى أرعى النّجومَ مراقباً ... فمن طالعٍ منها على إثر غاربِ[1]
أُحدّثُ نفسي أن أرى الركبَ سائراً ... وذنبيَ يُقْصيني بأقصى المغاربِ
فلا فُزْتُ من نيل الأماني بطائلٍ ... ولا قمتُ في حقّ الحبيب بواجبِ
فكم حدّثتني النفسُ أن أبلغ المنى ... وكم علّلتني بالأماني الكواذبِ
وما قصّرتْ بي عن زيارةِ قبره ... معاهدُ أنس من وصالِ الكواعبِ
ولا حُبُّ أوطان نبتْ بي ربوعها ... ولا ذكرُ خلٍّ حلَّ فيها وصاحبِ
ولكنْ ذنوبٌ أثقلتني فها أنا ... من الوجد قد ضاقتْ عليَّ مذاهبي
إليك رسولَ الله شوقي مجدّداً ... فيا ليتني يممتُ صدرَ الركائبِ
فأعملتُ في تلك الأباطح والرُّبى ... سُرَايَ مجدّاً بينَ تلكَ السباسبِ
وقضّيتُ من لثم البقيع لُبانتي ... وجبتُ الفلا ما بينَ ماشٍ وراكبِ
ورَوّيتُ من ماء بزمزمَ غُلّتي ... فلله ما أشهاهُ يوماً لشاربِ
حبيبي شفيعي منتهى غايتي التي ... أُرجّي ومن يرجوهُ ليس بخائبِ
محمدٌ المختارُ والحاشرُ الذي ... بأحْمدَ حاز المجدَ من كلّ جانبِ
رؤوفٌ رحيمٌ خصّنا الله باسمه ... وأعْظِمْ بماحٍ في الثناء وعاقبِ
رسولٌ كريم رَفَعَ اللهُ قدره ... وأعلى لَهُ قدراً رفيعَ الجوانبِ
وشرّفه أصـلاً وفرعاً ومحتداً ... يزاحمُ آفاقَ السما بالكواكبِ
سراجُ الهدى ذو الجاه والمجد والعُلا ... وخيرُ الورى الهادي الكريم المَناسبِ
هو المصطفى المختارُ مِنْ آل هاشمٍ ... وذو الحسبِ العِدِّ الرفيع المناصبِ

---

1. كأنه نسخ فيه قول ابن خفاجة (ديوانه : ٢١٧) :
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً ... فمن طالع أخرى الليالي وغارب

هو الأمدُ الأقصى هو الملجأُ الذي ... ينالُ بهِ مرغوبَهُ كلُّ راغبِ
إمامُ النبيين الكرام ، وإنّهُ ... لكالبدرِ فيهم بينَ تلك المواكبِ[1]
بشيرٌ نذيرٌ مُفْضِلٌ مُتَطوِّلٌ ... سراجٌ منيرٌ بَذَّ نور الكواكبِ
شريفٌ منيفٌ باهرُ الفضلِ كاملٌ ... نفيسُ المعالي والحلى والمَناقبِ
عظيمُ المزايا ما لَهُ مِنْ مُماثلٍ ... كريمُ السجايا ما لَهُ من مناسبِ
ملاذٌ مَنيعٌ ملجأ عاصمٌ لمَن ... يلوذُ به من بينِ آتٍ وذاهبِ
جليلٌ جميلُ الخَلق والخُلقِ ما لهُ ... نظيرٌ ، ووصفُ الله حجّة غالبِ
وناهيك من فرع تَمَتْه أصوله ... إلى خيرِ مجدٍ من لؤيّ بن غالبِ
أولي الحسب العدّ الرفيع جنابُه ... بدور الدياجي أو صدور الكتائبِ
لَهُ معجزاتٌ ما لها من مُعارضٍ ... وآياتُ صدقٍ ما لها من مغالبِ
تَحَدَّى بهن الخلقَ شرقاً ومغرباً ... وما ذاك عمّن حاد عنها بغائبِ
فدونكها كالأنجم الشُّهبِ عدةً ... ونور سَناً لا يختفي للمُراقبِ
وإحصاؤها مهما تتبعتَ مُعْوِزٌ ... وهل بعد نورِ الشمسِ نورٌ لطالبِ
لقد شرَّفَ الله الوجودَ بمُرْسَلٍ ... لَهُ في مَقام الرُّسلِ أعلى المراتبِ
وشرَّفَ شهراً فيهِ مولده الذي ... جلا نورُهُ الأسنى دياجي الغياهبِ
فشهرُ ربيعٍ في الشهور مقدّمٌ ... فلا غرو أنَّ الفخرَ ضربةُ لازبِ
فللّهِ منهُ ليلةٌ قَد تلألأتْ ... بنور شهابٍ بيّنِ الأفقِ شاهبِ
ليهنِ أميرَ المُسلمين بها المُنَى ... وأنْ نال من مولاه أسنى الرغائبِ
على حين أحياها بذكر حبيبهِ ... وذكرِ الكرام الطاهرين الأطايبِ
وألّفَ شملاً للمُحبين فيهمُ ... فسار على نَهْجٍ من الرشدِ لاحبِ

---

١ ـ ق : الكواكب .

فسوف يُجازَى عن كريمٍ صنيعهُ ... بتخليد سلطانٍ وحسنِ عواقبِ
وسوف يُريه الله في نصر دينه ... غرائبَ صنع فوق تلك الغرائبِ
فيحمي حمى الإسلام عمّن يرُومه ... بسُمْرِ العوالي أو ببيض القواضبِ
ويعتزُّ دينُ الله شرقاً ومغرباً ... بما سوف يبقى ذكره في العجائبِ
إلهِيَ ما لي بعد رحماك مطلبٌ ... أراه بعين الرشدِ أسنى المطالبِ
سوى زورةِ القبرِ الشريفِ وإنّه ... لموهبةٌ فاقَتْ جميعَ المواهبِ
عليهِ سلامُ الله ما لاح كوكبٌ ... وما رافق الأظعانَ حادي الركائبِ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر والكتابة وغير هذا الشعر قران ، فقلّ أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاسترذال إلى ما دون هذا النمط ، فهو بغير ثانٍ شعراً وشكلاً وبلداً ، لطف الله تعالى بنا وبه ؛ انتهى باختصار .

٦ – ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتبُ **أحمد بن سليمان بن فركون**[١] ، ومن نظمه على لسان مَنْ يرمي بالداء العُضال في فَرَج[٢] عبدِ ابن زَمْرَك الوزير بعد ابن الخطيب :

قالوا كلفتَ بهِ غلاماً حالكاً ... فأجبتهمْ في فيه ما يرضي المهجْ
مهما جننت بحسنه وبحبّهِ ... علّقت فوقي منه حرزاً من سَبَجْ

---

١ ترجم له في الإحاطة ١ : ٢٢٨ وأثنى عليه بأنه شعلة من شعل الذكاء والإدراك ومجموع خلال حميدة وأنه طالب نبيل مدرك نجيب بذ أقرانه . . . ثم عاد فترجم له في الكتيبة الكامنة : ٣٠٥ وأنحى عليه بالذم الشديد : « جرو محقور وفي جلدة كلب عقور . . . وسفيه يقال عند ذكره : كفاك الله شر من أحسنت إليه » وما ذلك إلا لأن ابن فركون كان من الزمرة التي تنيرت على لسان الدين .
٢ قال لسان الدين في الكتيبة الكامنة في ترجمة ابن زمرك : « وبينه وبين معاصريه مداعبات في غلام له غريب (لعلها : غربيب) جعله مرمى غزل ونسيب . . . وجمجمت الأقوال في هذا الميدان ، فجمعت بين الندس والمدان ، والقاصي والدان . . . إلخ » .

ورأيت بخط الوادي آشي ما صورته : وجدت بخط لسان الدين ، وخاتمة أعلام البيان المجيدين ، ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ، المختص به ، المتأدب بما انفرد به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه : يسقط هذا الساقط من الديوان ؛ انتهى .

ولعلّ لسان الدين إنّما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يُتّهم به من معنى بيتيه السابقين ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك[1] ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

1 قلت هذا الترجيح من المقري يؤكد أنه لم يطلع على الكتيبة الكامنة ، ولا عرف سبب التغير في نفس لسان الدين على أحد تلامذته .

الباب الثامن

في ذكر أولاده

الرافلين في حُلل الجلاله ، المقتفين أوصافه الجميدة وخِلاله ، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ، المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا ثُنيا ، المنقذة من أنواع الضلاله ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر دلاله

اعلم – وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممّن يعتبر بالدهر في مغضاته – أن أولاد لسان الدين ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي ، وكلّهم حدّث عن أبيه وعن ابن الجياب .

أما محمد فقد نال حظه من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف ، ولم يحضرني الآن نص من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مَظان ذلك ، إذ قد تركتها بالمغرب .

وقد سبق فيما مرّ[1] من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من نُدَماء السلطان وأهل خلوته ، وأن عليّاً كان خالصة السلطان ، رحم الله تعالى الجميع .

وأمّا عبد الله فقد كتب بالعُدْوَتين ، للملوك الحضرتين ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر الدولة ، وأكثر الناس بها كالخواص

---

١ فيما مر : سقطت من ق .

حوله ، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه ، وقد ألمّ ببعض التعريف بمبدإ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » فقال في حقّه ما ملخصه[1] : عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني ، حسن الشكل ، جيد الفهم ، يُغَطي منه رمادُ السكون جمرةَ حركة ، منقبض عن الناس قليل البشاشة ، حسن الخط ، وَسَط النظم ، كتب عن الأمراء بالمغرب ، وأنشدهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات[2] والإحسان ، واختال في خِلَعهم ، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة ، قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني ، والخطيب أبي سعيد فرج بن لب التغلبي ، واستظهر بعض المبادىء في العربية ، واستجيز[3] له مَنْ أدركه ميلادُهُ من أهل المشرق والمغرب . وشعره مترفع عن الوسط إلى الإجادة ، يكلّله عذر الحداثة ، فمنه قوله في مولد أربعة وستين وسبعمائة :

بحقّ الهوى يا حُـــداةَ الحمولِ قفُوها قليلاً بتلكَ الطـلولِ
معاهـــدُ مَرّتْ عليهـــا السحابُ ببرقٍ خفُوقٍ ودمـــعٍ هَمولِ
أحنُّ إليها حنينَ العِشـــارِ وأبكي عليها بشجوٍ طويلِ
فيا سعدُ عرِّج عليها الركابَ ففيهـــا لقَلْبي شـــفاءُ الغليلِ
سقاها من المزن صوبُ الغمام وحيّـــا بعَرْفِ النسيم العليلِ
ولا زالَ فيها يجـــرُّ الذيولَ فيحيي النفوسَ بجـــرِّ الذيولِ
لئن حُلْتَ يا ربعُ عَنْ عهدنا فعهـــدُ الهوى ليس بالمستحيلِ
وممّا شـــجاني وميضٌ خفوقٌ كقَلْبي غداةَ النوى والرحيلِ
وميضٌ إذا سلّه المزنُ وهناً يضيءُ ســـناه كعضبٍ صقيلِ

---

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٢٣٧ .
٢ الإحاطة : بالاقطاع .
٣ الإحاطة : وأجاز .

أطار الفؤادَ فؤادَ المشوقِ وأغرى السُّهادَ بطرفٍ كليلِ
فبتُّ أطاولُ ليْـلَ التمامِ بوجدٍ جديد وصبرٍ مُحيلِ
ودمعٍ يساجلُ دمعَ الغمامِ وشجوَ الحمائم عندَ الهَديـلِ
فيا ليت شعري وهل من سبيلٍ على الوجدِ يوماً بصبر جميلِ
وهل[1] يسمحُ الدهرُ بعد العنادِ بجبرِ الكسيرِ وعزِّ الـذليـلِ
وهَلْ راجعٌ عهـدُنا بالحمى على رغم دهرٍ ظلومٍ جهـولِ
فيا حُسنَ مأوى عـزاءٍ جميل ويا طيبَ مأوى بظلٍّ ظليلِ
وفي ذمّةِ الله ركبٌ سَرَوْا يجدّون والليلُ مُرْخَى السدولِ
نشاوى بكأسين كأس الهوى وكأسٍ من الأمن مثل الشَّمولِ
يؤمّون بالعيس أمَّ القرى وقبرَ النبيِّ الشفيعِ الرسولِ
ديارٌ بهـا الوحيُ وحيُ السما تنزّلَ ، أكرِمْ بهِ من نزولِ
بها أشرقَ الدينُ كالشمس نوراً وآن من الشرك وقتُ الأفولِ
فيا حاديَ العيس يطوي الفلا بوَخْدِ القلاصِ ونَصِّ الذّميلِ
سفائنَ آلٍ طواها السُّرى وشَقُّ الحزُون وقطعُ السهولِ
نشدتك بالبانِ بانِ الحمى وبالموردِ العـذبِ والسلسبيلِ
إذا ما حللتَ لدى طيبـةٍ وجئتَ محلَّ الرضى والقَبولِ
وقبراً ثوى فيهِ خيرُ الورى وبشرى الكليم وفخرُ الخليلِ
فأبلغْ تحيّـةَ صبٍّ مشوقٍ عدَتْه عوادي الزمانِ الخئولِ
وقلْ يا رسولَ الهدى والشفيع إذا ضاقَ صَدْرُ أبٍ عن سليلِ
عليكَ الصلاةُ وطيبُ السلام يحيّيك عندَ الضحى والأصيلِ
نبيٌّ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ بنصِّ الكتابِ وحـكم العقولِ
إمامُ الهدى المجتبى المُصطفى بأزكى شَهيد وأهدى دليلِ

[1] ق : وما .

به أظهرَ اللهُ دينَ الهُــدى وعلّم كيف سواءُ السَّبيلِ
وقامَ بأعبــاء دينِ الإلـهِ أتمَّ القيــام بفعلٍ وقيلِ
فأكرمْ بلَيْــلَةِ ميــلاده على كلّ وقتٍ وعصرٍ وجيلِ
لكِ اللهُ مِنْ ليْــلة فَضْلُها يجرُّ على النجم فضلَ الذيولِ
وأيّد بالنصر مــولًى أقام مواسمَها فعلَ برٍّ وَصُولِ
أعادَ بها الليــلَ مثلَ النّهار بوجهٍ كريمٍ وفعلٍ جميلِ
وأبدى الرضى نحوها والقَبولَ وأكرمْ بهِ من حَفِـيٍّ كفيلِ
سميّ النبي الكريم الرســول وسيف الإلهِ العــليّ الجليلِ
محمــدٌ المــرتجى المستجــارُ مبيدُ العدا ومنيلُ الجزيلِ
من النفر الغُرِّ أُسدِ الكفاح وأهــلِ السماح عشيَّ النزولِ
تراهم لدى السلم أطوادَ حِلْمٍ ويومَ الكريهة آسادَ غِيلِ
مبيد العداةِ ، ومحيي العفاة ومأوى الغريب ومُدني الدخيلِ
فبأسٌ حكى النارَ عندَ احتدامٍ وجودٌ حكى السُّحبَ عندَ الهمولِ
فيُصلي عداه لدى الحرب ناراً ويروي نداه زمانَ المُحُــولِ
إذا فُلّتِ البيضُ يوم الوغى فلَسْتَ ترى عــزمه ذا فُلُولِ
مليكٌ كفيلٌ لمَنْ يرتجيهِ بكلّ مَرَامٍ بَعيدٍ وســولِ
وفرعٌ كريمٌ حميــدُ الخلالِ نماه إلى المجدِ طيبُ الأصولِ
فدامَ لنا ما سرى في الرياضِ نسيمُ الصَّبا ومهبُّ القَبُولِ
وحنَّ مشوقٌ لأرضِ الحجازِ إذا لاحَ إيماضُ برقٍ كَليلِ

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نَصْر من مدينة فاس[1]:

لمن طللٌ بالرقمتين مُحيلُ عفَتْ دمنتيه شمألٌ وقَبُولُ

---

١ أورد بعضها في نسخة الإحاطة المشار إليها .

يلوحُ كباقي الوَشْم غيَّرَهُ البِلى وجادتْ عليه السُّحبُ وهي همولُ
فيا سعدُ مَهلاً بالركاب لعلّنا نسائلُ رَبعاً فالمحبُّ سؤولُ
قفِ العيسَ ننظرْ نظرةً تُذْهبُ الأسى ويشفى بها بينَ الضلوع غليلُ
وعرِّجْ على الوادي المقدسِ بالحمى فطابَ لديهِ مَرْبعٌ ومَقِيلُ
فيا حبّذا تلك الديارُ وحبّذا حديثٌ بها للعاشقين طويلُ
دعوتُ لها سقيَ الحمى بعدما سرى وميضٌ وعَرْفٌ للنسيم عليلُ
وأرسلتُ دمعي للغمام مساجلاً فَسالَ على الخدين منهُ مَسِيلُ
فأصبح ذاكَ الرَّبعُ من بعد مَحْله رياضاً بها الغصنُ المروحُ يميلُ
لئن حالَ رسمُ الدار عمّا عهدته فعهدُ الهوى في القلبِ ليسَ يحولُ
وممّا شجاني بعدما سكن الهوى بُكاءُ حماماتٍ لهنَّ هديلُ
توسّدْنَ فرعَ البان ، والنجمُ مائلٌ وقد آنَ من جيشِ الظلامِ رحيلُ
فيا صاحبي دعْ عنكَ لومي فإنّه كلامٌ على سمع المحبِّ ثقيلُ
تقول : اصطباراً عن معاهدك الألى وهيهاتَ صبري ما إليهِ سبيلُ
فللّهِ عيْنا من رآني وللأسى غداةَ استقلّتْ بالخليطِ حمولُ
يطاولُ ليلَ التمِّ مني مُسَهَّدٌ وقد بانَ عنّي منزلٌ وخليلُ
فيا ليتَ شعري هل يعودَنَّ ما مضى وهل يسمحنَّ الدهرُ وهو بخيلُ
وهل راجعٌ عهد الحمى سُقِيَ الحمى وظلَّ بعين اللمع فيـهِ ظليلُ
وأيامُ أنسٍ كم نعمنا بقربها وقد غابَ عنّا حاسدٌ وعذولُ
حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى منًى لهنَّ إلى البيتِ العتيقِ ذميلُ
لَجُودُ أميرِ المسلمين محمدٍ بكلِّ مرام في الزّمان كفيلُ
مليكٌ أتاهُ الله في الملك عزْمةً يروعُ الأعادي بأسُها ويهولُ
هو الملكُ المنصور والبطلُ الذي يهون عليه الخطْبُ وهو جليلُ

إذا فُلَّتِ البيضُ الرقاقُ وجدته — أخا عزماتٍ مـــا بهنَّ فلولُ
يقصّرُ باعُ المدح دون صفاتِـهِ — ويرجعُ عنها الفكرُ وهو كَليلُ
من النفر البيضِ الوجوه لدى الوَغَى — لهم غررٌ وَضَّاحةٌ وحُجولُ
هُمُ ما هُمُ والحربُ قد شبَّ نارها — وللخيل في جنح العجاج صهيلُ
إذا سئلوا يوم الندى فنوالهم — تفيضُ شآبيبٌ لَهُ وسيولُ
بهم عزَّ دينُ الله شرقاً ومغرباً — وأصبح دينُ الكفرِ وهو ذليلُ
هُمُ السادةُ الأنصارُ والعربُ الأُلى — حَمَى الدينَ حيٌّ منهمُ وقبيلُ
لهم يومُ بدرٍ والرسولُ أميرهم — تصولُ بهِ أرماحهم وتطولُ
فأصبح أصحابُ القليب كأنّهم — كثيبٌ لوطْءِ المرهفات مهيلُ
وقد أمن الإسلامُ كيدَ عدوّه — وغودر ربْعُ الكفر وهو مُحيلُ
وعدّوا رواحاً للمدينة والرضى — لهم منهُ فوزٌ عاجلٌ وقبولُ
فمن ذا يجاري أو يداني عصابةً — جزاؤهمُ عنـد الإلهِ جزيلُ
لكم يا بني نصرٍ من المجد هضبةٌ — تزولُ الرواسي وهي ليس تزولُ
فيا سيّدَ الأملاكِ والواحد الذي — إذا عُدَّ فخرٌ ليسَ عنْهُ عدولُ
لقد قرع الأعداء منكَ مؤيدٌ — له الذعرُ نصرٌ والحسامُ دليلَ
فلم يدركوا ما أمّلوا غـيرَ ساعةٍ — كذاك متَاعُ الأخسرينَ قليلُ
تعاوَين في باب البنود بسحرةٍ — كلابٌ عليهم بعد ذاكَ عويلُ
أبى الله إلا أن يموتوا بغيظهم — فويلٌ لهم من مكرهم وأليلُ
فأضْحَوْا حديثاً في البلاد ويومهم — وساء صباحٌ عندهم وأصيلُ
بسعدِ إمامٍ يُنْزِلُ العُصْمَ سَعْدُهُ — ويروي نداه والزمانُ محولُ
وفرعِ كمالٍ في الخلافة ثابتٍ — نمتْهُ إلى المجد الزكيّ أصولُ
حكى وجهُهُ شمسَ النهار إذا بدا — وريّاه عَرفَ الروض وهو بليلُ
أعاد لنَا بالعـدلِ أيّامَهُ التي — عهدنا ، فدارتْ للسرور شمولُ

فدام لنا ما هبّ عَرْفٌ من الصّبا وأومض برقٌ في الظلام كليلُ
وحَنّ مشوقٌ للحجاز إذا بدت لعينيْهِ منهُ شامةٌ وطفيلُ
وأشرقَ نجمٌ مثلَ قلبيَ خافقٍ وحانَ لهُ عندَ الغروب أفولُ
ولا زالتِ الأقدار تجري بأمرهِ وصنعُ إلهِ العرشِ فيهِ جميلُ

وقال في إعذار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورضي عنه :

أثِرْها عزمةً تُنْضِي الركابا وإن دميتْ لها العينُ انسكابا
لعلّ الوجدَ تطفأ منهُ نارٌ أبَتْ إلا زفيراً والتهابا
أما بعد الألى ترجو قلوبٌ تسارعُ نحو أرضهمُ انقلابا
فيا أخوَيَّ كُفّا عَنْ عتابي فلستُ بسامع أبداً عتابا
تذكرتُ العقيقَ فسال دمعي عقيقاً من تذكره مذابا
أقول لنَسْمةٍ مرّتْ صباحاً يعطّرُ عَرْفُها القفرَ اليبابا
ألا يا هذه كوني رسولي وكوني إن رجعتِ ليَ الجوابا
نشدتك بلّغي صحبي سلامي إذا جئتِ المعاهدَ والقبابا
يلومُنيَ العواذلُ في اشتياقي إذا ما القلبُ من وجدي تصابى
وكم بينَ الأباطح من مَهاةٍ تروعُ بلحظها الأسْدَ الغضابا
رمتني ثم قالت وهي تُزري ولم تحذرْ بفتكتها العقابا
إذا ما الشُّهبُ للغرب استمالت وفَوْدُ الليلِ بالإصباح شابا
أوجّهُ إن رقَدْتَ إليك طيفي كلمع البرق يخترقُ السحابا
فقلتُ : لقد بخلتِ على مشوقٍ أبى إلا غراماً[١] واكتئابا
وكيفَ لَهُ بنومٍ بعد وجدٍ يذيبُ لهيبُه الصُّمَّ الصلابا

---

١ ق : عراماً .

سينصره من الأنصارِ مَلْكٌ إذا ناداه مظلومٌ أجابا
كريمُ الذاتِ من ملإٍ كرامٍ لقد طابَتْ سجاياهم وطابا
تواضعَ رحمةً وعَلا محلاً وسَهّلَ منهُ للناسِ الحجابا
فليسَ يُصَدّ عن جدواه راجٍ وليس يَسُدّ عن عافيه بابا
لَـهُ عطفٌ على الراجي جميلٌ يَفُلُّ من الردى ظُفُراً ونابا
وعدلٌ[1] أمّنَ الأرجاء حتى ترى الغزلانَ لا تخشى الذئابا
أمولايَ الذي أحيا المَعالي وقد بليتْ وألحفتِ الترابا
مَدَدْتَ على البلاد جناحَ عدلٍ وكفَّ الجور تستلبُ استلابا
وتاب الدهرُ ممّا قد جَناهُ فجدتَ لَهُ بعفوكَ حينَ تابا
وسكّنَ عزُّ دولتك الدواهي فكانت رحمةً دَفَعَتْ عذابا
ويا لله إعذارٌ سعيدٌ دعوتَ السعدَ فيه فاستجابا
عجبتُ لمُقْدِمٍ والروعُ يهفو بأفئدةِ الكُماة وما استرابا
ومن شبْلٍ أطاعَ أخا سلاحٍ وحكّمه اصطباراً واحتسابا
وهل عذرٌ لعاذر ليثِ غابٍ أظنّ فؤاده والعقلَ غابا
فلولا سُنّةٌ حكمت وهديٌ أصبت وقد سلكت به الصوابا
لحامَتْ عُصْبَةُ الأنصار عنهُ بأسياف تقدُّ بها الرقابا
من الصِّيد الذين لهم نفوسٌ لغير الفخرِ لا تصل الطِّلابا
تنيرُ الليلَ أوجُهُهم إذا ما أرادوا السير أو حَثّوا الركابا
دعَوْتَ بهِ الأنامَ ليوم حشرٍ ولَمْ تذخرْ لهم إلا الثوابا
رأوا من زخرفِ الدنيا مقاماً يذكّر بالجنانِ لمَنْ أنابا
وأبهتهم فما عاطَوْا حديثاً ولا عرفوا السؤالَ ولا الجوابا

---

[1] ق : وعطف .

ولو مكثوا بهِ دهراً طويلاً لما ذكروا الطعامَ ولا الشرابا
وطاردتَ الصُّوارَ بكلِّ ضارٍ كما أتبعتَ عفريتاً شـهابا
ضربتَ بهِ على الآذانِ منها فلم تسطعْ حراكاً واضطرابا
ومعصوب الجبين بتاج رَوْقٍ يروعُ خُواره الأسْـدَ الغضابا
تعرّف أنَّ تحت الأرض ثوراً فرام بأن يشقَّ لهُ الترابا
وكلّلْتَ به هضيمَ الكشح أجنى حديدَ الناب تحسبها حرابا
تباعدَ مجمعُ الشدقين منـهُ وسالَ الموتُ بينهما لعابا
فأثبته كوَحْيِ الطرفِ حتى توثق منـهُ جازره غلابا
وصاح بهِ الصُّوار وقد رآه حبيسَ الكلب قد مُنع الإيابا
« فغضَّ الطرف إنّكَ مَن نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا »[1]
وأرسلت الجياد إلى استباقٍ كأنَّ بوارقاً شقّتْ سحابا
فمِنْ وَرْدٍ أقبَّ ومن كُمَيْتٍ وأشهَبَ يُلهبُ الأرض التهابا
وساقية العماد إذا أطلَّت إلى الأدواحِ تنسابُ انسيابا
تحومُ بها العصيُّ فَرَاشَ ليلٍ ترومُ بسمعهِ منـهُ اقترابا
تحفُّ بها خيولُ القومِ منّا فترسلُ نحوها الجُرْدَ العِرابا
عجائبُ أبدعَتْ علياكَ فيها ومثلكَ يبدعُ الأمرَ العجابا
محمّد لا عدمتَ الدهرَ حمـداً فقد أحسنتَ في المُلك المَنابا
وزكّى نفسَكَ الرحمنُ لمّا رآكَ ملكتَ للمجدِ النِّصابا
تداركتَ البلادَ ومَنْ عليهـا فأمّنْتَ التنائفَ والشعـابا
لقـد أوليتنا بيض الأيادي لقـد طوّقتنا المِنَنَ الرغابا
روَتْ عنكَ العوالي في المعالي حديثَ الفخرِ حقّاً لا انتسابا
ستفتحُ من بلادِ الشرك أرضاً قد اعتُقلَتْ عقـائلها اغتصابا

---

1 بيت لجرير بن الخطفى .

وتُعْمل في العدا بيضَ المواضي إلى أن يُنكر السيفُ القِرَابا
فما كأسٌ من الصهباء صرفٌ تعيدُ الشيخَ من طربٍ شبابا
وطاف بها من الرهبانِ بدرٌ يهتّكُ من دجى الليلِ الحجابا
تجدّ الأنس عوْداً بعْد بدْء وربعُ الهمّ تتركه خرابا
بأعذبَ من ثنائك حين يطوي به الركبُ الأباطحَ والهضابا
أمولاي استمعها بنتَ فكر تخيّرَها فأبرزها لُبابا
وغاص على فرائدها الغوالي وشقّ على نفائسها العبابا
وهنّاكَ الإلهُ بكلّ نعمى تقودُ لك الأمانيّ الصعابا
ودمتَ لعزة الإسلام ركناً إلى أن يشمل الشيب الغرابا

وقال ، وقد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة وستين وسبعمائة :

نَفَسُ الصَّبا أهدى إليّ نسيما قد رامَ ممتنعاً ورام عظيما
يا هل يبلّغني السُّرى خيرَ الورى فأرى معاهدَ للهوى ورسوما
وأسابقُ الركبانَ فوقَ نجيبةٍ تفري من البيد العراضِ أديما
وأحطّ رحلي في كريم جوارهِ أرجو نعيماً في الجنان مُقيما
حتّى إذا بلغوا الذي قد أمّلوا ورأوا مقاماً بالرضى موسوما
وتزاحموا في الترب يستلمونه أرأيتَ في الورد الظّماء الهيما
قبّلتُ ذاكَ التربَ من شوقي إلى مَنْ حلّهُ وأقمتُ فيه لزيما
وبكيتُ من دمع المآقي زمزماً وتركتُ جسمي كالحطيم حطيما
صلّى عليهِ اللهُ ما هبّت صبّاً تهدي من الطيبِ الزكيّ شميما
للهِ مولدهُ الذي أنوارهُ صدعَتْ ظلاماً للضلال بهيما
شرعت من التأييد سيفَ هداية أرْدَتْ ظُباه فارساً والروما
كسر الأكاسرَ بالعراء ولم يدعْ أن ردّ قيصر قاصراً مهزوما

لله منها ليـلـةٌ أضحى بها شملُ الهدى لأولي الهدى منظوما
أبداً أميرُ المسلمين أعـدَّها بدعاً من القصر [1] الكريم جسيما
ملكٌ أقـام الله منـهُ لخلقهِ مولًى رؤوفاً بالعبادِ رحيما
يحمي ذمارَ المسلمين من الردى ويبيحُ ربعاً للعدا وحريما
بمحمّدٍ قد عادَ دينُ محمّد غضٌ الرياض وكان قبلُ هشيما
أحيا به الله الخلافةَ بعدما كانت بأطباقِ الترابِ رميما
من آل سعدِ الخزرج بنِ عُبادة طابوا فروعاً في العُلا وأروما
تلقاه في يوم الكريهة والوغى والخيـلُ عابسةٌ أغرَّ وسيمـا
وتخالُ كفَّيه إذا شَحَّ الحيا أفقاً بعاميةِ الغيوثِ غيوما
تأبى خلالُ العدلِ والشيَمُ العلا من أن يـُرى في دهره مظلوما
كهفُ العباد وفخرها وثناؤه ترك المديحَ على الطروس رقيما
لا زالَ يلقى العيشَ طلقاً والعلا مرقًى وصرفَ الحادثات خديما
ما اهتز غصنٌ في الحديقة ناعمٌ لمَّا أحَسَّ من الشمالِ شميما

مولده بغرناطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

[أشعار لسان الدين]

وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في « النفاضة » من قوله : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني حيث جرايته ووظيفته ، وانجر حديث ما فقد بغرناطة في شجون الكلام :

يا بُنَيَّ عبدَ الإله احتسابـاً عـن أثـاثٍ ومنزلٍ وعقَارِ

1 ق : القصد .

كيفَ يأسَى على خسارة جزء   مَنْ يرى الكلَّ في سبيل الخسار
هَدَفٌ لا تَني سهامُ الليالي   عن سباقٍ تجاهه وبِدار
واحدٌ طائشٌ وسهمٌ مصيبٌ   ليس ينجي منها اشتمال حذار
غير ذي الدار صرف الهم فيها   فمناخُ الرحيل ليسَ بدار

انتهى . وقال أيضاً رحمه الله تعالى : ممّا أنشدته ولدي عبدَ الله ، وأمرته بحفظه والتأدب به واللهج بحكمته :

إذا ذَهَبَتْ يمينُكَ لا تُضَيِّع   يسارَكَ في البكاء ولا المصيبهْ
ويُسْراك اغتنم فالقوسُ ترمي   وما تدري أرَشْقَتها قريبهْ
وما بغريبة نُوَبُ اللّيــالي   ولكنَّ النجاةَ هي الغريبةْ

قال : ومن المنظوم في قريب من هذا قولي :

أيا أهلَ هذا القطرِ ساعده القَطْرُ   دهيتُ فدلوني لمن يُرْفَعُ الأمرُ
تشاغلتُ بالدنيا ونمتُ مفرّطاً   وفي شُغُلي أو نومتي سُرِق العمرُ

وقال رحمه الله تعالى : وممّا قلته وقد انصرف عني الولدُ عبد الله إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من الخدمة ، وأشجاني انصرافُه لوقوع قرحة على قرح ، والله المستعان :

بان يومَ الخميس قرّةُ عَيني   حسبيَ الله أيّ موقفِ بينِ
لو جَنى موقفُ النوى حين حيّا   حان يوم الوداع والله حَيْني
ضايقتني صروفُ هذي الليالي   وأطالتْ همّي وألوتْ بدَيْني
وطنٌ نازحٌ وشملٌ شتيتٌ   كيفَ يبقى مُعَذَّبٌ بعد ذين
يا إلهي أدركْ بلطفك ضعفي   إنَّ ما أشتكيه ليسَ بهَيْنِ

وقال رحمه الله تعالى : أنشدت يوماً ولدي عبدَ الله وقد رأيت منه نشاطاً

ومُبرّحاً انتقل مني إليه بعد السن :

سَرَقَ الدهرُ شبابي من يدي وفؤادي مُشْــعَرٌ بالكَمَدِ
جمــلةُ الأمرِ إذا أبصرتهُ باعَ ما أفقدني من ولدي

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى .

[علي وتعليقاته على الإحاطة]

وأمّا علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه ، وكان مُصاحباً للسلطان أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني ، رحمهم الله تعالى .

وحكى بعضُهم أنّه حضر معه في بستان ، سَحَّ فيه ماءُ المذاكرة الهتّان ، وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار ، فقال المستنصر لما لان جانبه ، وسالت بين سرحات البستان جداوله ومذانبه :

يا فاسُ إنّي وأيْمُ اللهِ ذو شغفٍ في كلّ رَبع لهم مغناهُ يسبيني
وقد أنستُ بقربٍ منك يا أملي ونظرةٌ فيكمُ بالأنسِ تحييني

فأجابه أبو الحسن علي بن الخطيب ، بقوله المصيب

لا أوحشَ اللهَ رَبْعاً أنت زائره يا بهجةَ الملك والدنيا معَ الدينِ
يا أحمدَ الحمدِ ، أبقاكَ الإله لنا فخرَ الملوك وسلطانَ السلاطينِ

وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ، ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله مصر ما أُعوّل عليه ، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة « الإحاطة » التي وجّهها أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مرّ ، فكتب بالحواشي كتاباتٍ مفيدة ، وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب ،

فليراجَع : إما تكميل لما أغفله أبوه ، وإما إخبار عمّا شاهده هو ، أو رواية له عن المترجم به ، أو جواب عن أبيه فيما انتُقد عليه .

[نماذج في تعليقاته من ترجمة ابن جابر]

ولنذكر شيئاً منها غير ما تقدم بعد إيراد نص « الإحاطة » فنقول :

قال في «الإحاطة» في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهواري[1] الضرير شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعية الشهيرة بالأعمى والبصير ، ما صورته :

محمد بن أحمد بن علي الهوّاري ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن جابر ، من أهل المرية .

حاله — رجل كفيف البصر ، مدل على الشعر ، عظيم الكفاية والمنة على زَمانته، رحل إلى المشرق، وتظاهر برجل من أصحابنا يُعرف بأبي جعفر الإلبيري، صارا روحين في جسد ، ووقع الشعر منهما بين لَحْيَيْ أسد ، وشمر للعلم وطلبه ، فكان وظيفة الكفيف النظم ، ووظيفة البصير الكَتْب ، وانقطع الآن خبرهما ؛ انتهى .

فكتب المذكور على أوّل الترجمة ما صورته : نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر أحسن الله تعالى إليهما ، فلقد أحسنا الصحبة ، في الغربة ، وانفردا بالنزاهة والفضل وعلو الهمّة ، إلا أن المصنف قصّر فيهما بعض قصور ، ومنهما يُطْلب الإغضاء والصفح ، فالرجل مات ، وذكْرُ الأموات بالخير مشروع ، وهما والله الشرف الباهر بقطرهما علماً وعملاً ، أمتع الله تعالى بهما ، قاله وَلَدُ المؤلف علي بن الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

---

1 قد ترجم المقري لابن جابر الضرير ورفيقه أبي جعفر الإلبيري (المجلد ٢ : ٦٦٤ — ٦٨٧) وها هو يعود إلى الإسهاب في ذكر الرجلين في هذا الجزء .

وكتب على قول أبيه «وانقطع الآن خبرهما» ما نصّه: هما الآن بإلبيرة من حلب، تحت إنعام ولطف، تحث إليهما الرواحل، وتُضرب إليهما آباط النُّجب.

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من «الإحاطة»:

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه، وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه: محسوب من طلبتها الجِلّة، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلّة، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببَصَره، واستهان في جنب الاستفادة بمشقّة سفره، على بيان عذره، ووضوح ضره.

شعره — وشعره كثير، فمنه قوله:

سلوا حُسْنَ ذاك الخال في صفحة الخدّ ... متى رَقَمُوا بالمسك في ناعم الورد
وقولوا لذاك الثغر في ذلك اللّمى ... متى كانَ شأنُ الدرّ يوجدُ في الشهد
ومَنْ هزَّ غصنَ القدّ منها لفتنتي ... وأودعَهُ رمانتَيْ ذلك النهد
ومن متّع القُضْبَ اللّدانَ بوصفها ... إلى أن أعرنَ الحسنَ من ذلك القد
فتاةٌ تفتُّ القلبَ مني بمقلةٍ ... لها رقّةُ الغزلانِ في سطوةِ الأسْد
تمنيتُ أن تَهدي إليَّ نهودها ... فقالت رأيتَ البدر يهداه أو يهدي
فقُلْتُ ألِلرُّمّانِ بُدٌّ من الجنى ... فتاهتْ وقالت: باللواحظِ لا الأيدي
فقلتُ أليس القلبُ عندكِ حاصلاً ... فقالت قلوبُ الناسِ كلّهمُ عندي
فقلتُ اجعليني من عبيدك في الهوى ... فقالتْ كفاني كم لحسنيَ من عبد
إذا شئتَ أن أرضاك عبداً فمُتْ جوًى ... ولا تشتكي واصبرْ على ألم الصدّ
ألم ترَ أنَّ النحلَ يُحْمَلُ ضرُّها ... لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد
كذلك بَذْلُ النفس سهلٌ لذي النُّهى ... لما يكسبُ الإنسانُ من شرف الحمد
ألستَ ترى كفَّ ابن جانةَ طالما ... أضاع كريمَ المال في طلب المجد

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته : عارضة قوية ، ونزعة خفاجية ، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صَدْر صدور الأندلس علماً ونظماً ونحواً ، زاده الله تعالى من فضله ؛ انتهى .

رجع إلى الترجمة — قال لسان الدين : وقال ، يعني ابن جابر :

عرِّجْ على بانِ العُذَيب ونادي ... وانشد فديتك أين حلَّ فؤادي
وإذا مررتَ على المنازلِ بالحمى ... فاشرحْ هنالك لوعتي وسهادي
إيهِ فديتكِ يا نُسَيْمةُ خبّري ... كيفَ الأحبَّةُ والحمى والوادي
يا سعدُ ، قد بان العُذَيْبُ وبانُهُ ... فانزلْ فديتك قَدْ بَدا إسعادي
خذْ في البشارة مُهْجتي يوماً إذا ... بانَ العُذيبُ ونورُ حسنِ سعاد
قد صحَّ عيدي يوم أُبْصِرُ حسنَها ... وكذا الهلالُ علامةُ الأعياد

وممّا نقلته من جزء قيده لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي الزواوي ممّا ادعاهُ لنفسه :

عليَّ لكلِّ ذي كرمٍ ذمامُ ... ولي بمَدَارك المجـدِ اهتمامُ
وأحسنُ ما لديَّ لقاءُ حُرٍّ ... وصحبةُ معشرٍ بالمجدِ هاموا
وإنّي حينَ أُنسبُ من أناسٍ ... على قممِ النجومِ لهمْ مَقام
يميلُ بهم إلى المجـدِ ارتياحٌ ... كما مالَتْ بشاربها المُـدَام
همُ لبسوا أديمَ الليلِ بُرداً ... ليُسْفِر عَن أديمهم الظلام
همُ جعلوا متونَ العيس أرضاً ... فمذ عزموا الرحيلَ فقد أقاموا
فمن كلِّ البـلادِ لنا ارتحالٌ ... وفي كلِّ البـلادِ لنا مُقام
وحول مواردِ العليـاء منّا ... لنا مع كلِّ ذي شَرَفٍ زحام
تصيبُ سهامُنا غَرَضَ المعالي ... إذا ضلّتْ عن الغَرَضِ السهام
وليس لنا من المجدِ اقتناعٌ ... ولو أنَّ النجومَ لنا خيـام

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها ، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتاً ، ولم نثبتها لطولها ، ثم قال بعدها : نجزت وما كادت ، ثم قال بعدها أيضاً : وقد وطِّئاً لإمطاء قروحها ، وأعيا لإكثار سروحها ، ثم قال بعده : والله ولي النجاة بفضله ؛ انتهى .

وكتب ابنه على أول القصيدة وهو : « عليَّ لكلّ ذي كرمٍ ذمامُ » ما نصّه : نزعة مَعَرية ، قاله ابن المؤلف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله « نجزت إلى آخره » ما صورته : ما أنصف المصنفُ هذا الفاضلَ في ترجمته ، وقدره شهير ، ومكانه من الفضيلة كبير ، وعلمه غزير ، ولعلّه لم يطلع إلا على ما أودعه .

وكتب إثره ابنُ لسان الدين ما صورته : نعم يا سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجَمَ به المؤلفُ ، ولولا أنّهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه ، ولو حصلا تحت الصفيح لم تُعْملوا فيهما قلماً ، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شنشنة معروفة ، والحقد على الأموات شأن المغاربة ، قاله علي ابن المصنف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[استطراد بأشعار ابن جابر]

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهوّاري المذكور مع أن له محاسن جمة . ومن محاسنه رحمه الله تعالى :

هناؤكم يا أهلَ طيبة قد حقّا ... فبالقرب من خير الورى حُزْتمُ السبقا
فلا يتحرّك ساكنٌ منكمُ إلى ... سواها وإن جار الزّمانُ وإن شقا
فكَمْ ملكٍ رامَ الوصولَ لمثل ما ... وصلتم فلَم يقدر ولو ملك الخلقا
فبشراكُمُ نلتم عِنايةَ ربِّكُم ... فها أنتمُ في بحــر نعمته غرقى

ترونَ رسولَ اللهِ في كلِّ ساعةٍ ... ومن يَرَهُ فهو السعيد به حقّا
متى جئتمُ لا يغلق الباب دونكم ... وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا
فيسمعُ شكواكُمْ ويكشف ضركم ... ولا يمنعُ الإحسانَ حُرّاً ولا رقّا
بطيبة مثواكم ، وأكرمُ مرسَلٍ ... يلاحظكم فالدهر يجري لكم وَفْقا
فكم نعمة لله فيها عليكمُ ... فشكراً ، وشكر الله بالشكر يُستبقى
أمنتم منَ الدجَّالِ فيها فحولها ... ملائكة يحمون من دونها الطُّرقا
كذاك من الطاعون أنتم بمأمن ... فوجه الليالي لا يزال بكم طلْقا
فلا تنظروا إلاّ لوجه حبيبكُم ... وإن جاءت الدنيا ومرّتْ فلا فَرْقا
حياةً وموتاً تحتَ رحمـاه أنتمُ ... وحشراً فسترُ الجاه فوقكمُ ملقى
فيا راحـلاً عنها لدنيا يريدها ... أتطلبُ ما يفنى وتترك ما يبقى
أتخرجُ عن حِرْزِ النبيّ وحَوْزه ... إلى غيره ؟ تسفيهُ مثلِكَ قد حَقّا
لئن سرتَ تبغي من كريم إعانةً ... فأكرمُ من خير البرية ما تلقى
هو الرزقُ مقسومٌ فليس بزائلٍ ... ولو سرتَ حتى كدتَ تخترق الأفقا
فكَمْ قاعدٍ قد وَسّع الله رزقَهُ ... ومرتحلٍ قد ضاق بين الورى رزقا
فعشْ في حمى خيرِ الأنامِ ومتْ بهِ ... إذا كنتَ في الدارين تطلبُ أن ترقى
إذا قمتَ فيما بين قبرٍ ومنبرٍ ... بطيبةَ فاعرفْ أين منزلك الأرقى
لقد أسـعد الرحمنُ جار محمّد ... ومن جار في ترحاله فهو الأشقى

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة ، وهي قوله[1] :

بادَرَ قلبي للهوى وما ارتأى ... لمّا رأى من حُسنها ما قد رأى
فقرَّبَ الوجـدَ لقلبي حبها ... وكان قلبي قبلَ هذا قد نأى

---

[1] واضح أن هذه المقصورة من « المعشرات » على حروف المعجم وقد فصلنا بين أجزائها لتتضح للقارىء صورتها .

يا أيها العاذلُ في حبي لها — أقصرْ فلي سمعٌ عن العذل بأى[1]
لو أبصر العاذلُ منها لمحةً — ما فضَّ بابَ عَذْله ولا فأى[2]
سرَّحتُ طرفي طالباً شأو العُلا — وتابعاً في حبها ما قد شأى[3]
إنّي لأرعاها على تتبيعها — عهدي ، ومثلي من وفى إذا وأى[4]
مَن منصفي من شادنٍ لم أرجُه — لحاجة من وصله إلا زأى[5]
وإن قبضتُ النفس عن سُلوانه — مَدَّ أديمَ هجره لي وسأى[6]
لأقطعنَّ البيدَ أفري حاذَها — بضامرٍ يفْري الحصى إذا جأى[7]
حتى أزورَ ربّةَ الخدرِ وقد — ذاد الكرى عني الوشاةَ وذأى[8]

* * *

يا رُبَّ ليلٍ قد تعاطينا به — حديثَ أنسٍ مثلَ أزهار الرُّبى
في روضةٍ تعانقَتْ أغصانُها — إذ واصلتْ ما بينها ريحُ الصَّبا
نادمتُ فيها من بني الحسن رشاً — يصبو له من لم يكنْ قطُّ صبا
حلوٌ رخيمُ الدلِّ في أعطافه — لينٌ وفي ألحاظهِ بيضُ الظُّبي
أيامَ كان العيشُ غضّاً حسنُهُ — عذبَ الجنى ريّانَ من ماء الصِّبا
أيّ زمانٍ ومحلّ للمُنى — ما ضاق مغناه بنا ولا نبا
يا مَرْبَعاً ما بينَ نجدٍ والحمى — ويا زماناً قَدْ حباني ما حبا

١ بأى يبأى : فخر ؛ وفي ق : فلي قلب . . . نأى .
٢ فأى : شق وخرج .
٣ شأى : قد تعني « بعد » أو « أعجب وأطرب » .
٤ وأى : وعد ؛ وفي ق : ومثلي من فأى . . . إلخ .
٥ زأى : تكبر ، عن ابن الأعرابي .
٦ سأى الثوب والأديم : مده حتى انشق .
٧ الحاذ : طريقة المتن وهو موضع اللبد من الفرس ؛ وجأى : قذف .
٨ ذأى : ساق سوقاً شديداً وطرد .

اللهُ يرعاهُ زماناً لم يَحُلْ عن بذلِ ما نأمله ولا أبى
فأيّ مَغْنَى آهـل يمته[1] لمقصد حُلّت لنا فيه الحُبا
هل تُرجِعُ الأيامُ عيشاً باللوى فراقه كان اللُّهَيْمَ الأُرَبى[2]

* * *

تالله لا أعبا بعيش قد مضى ولا زمانٍ قد تعدّى وعتا
مذ علقتْ كفيَ بالهادي الذي ساد الورى طفلاً وكهلاً وفتى
كالبحر لا يغيضُ يوماً وِردُهُ لواردٍ إذا أصافَ أو شتا
متصلُ البرِّ لمن قد أمّهُ لا يكره العودةَ ممّن قد أتى
ولا يناجي نفسَهُ في ضيقة أيّ نهارٍ سرَّ هـذا ومتى
إنَّ رسولَ الله مصباحُ هُدًى يُهْدى به من في دجى الليل متا[3]
كفَّ بني الجور بعدلٍ واضحٍ كما تكفُّ اليدُ كفّاً من فتىً
كم ذي هوى قد راضه بهديه فانقاد كالعبد إذا العبد قتا[4]
قد خالط الحلمُ سجايا طبعه كمثل ما قد خالط الثوبُ الستا[5]
أقسمتُ لا زلتُ أوالي مَدحهُ ما اشتدَّ بالناس زمانٌ ورتا[6]

* * *

لولا اشتياقي للديارِ كرُمَتْ لبعدها يَرْثي لنا من قد رثى
ومدحُ مَنْ أرجو بأمداحي لهُ إصلاحَ ما قد عاثَ مني وعثا
لم أجعلِ الشعر لنفسي خلّةً ولم يجشْ فكري به ولا غثّا[7]

---

١ ق : أملته .
٢ اللهيم : الداهية ؛ الأربى : الشديدة .
٣ متا في الأرض مثل مطا ، أي مشى .
٤ قتا العبد : خدم ، أو أحسن الخدمة .
٥ ستى الثوب يستيه بمعنى سداه يسديه .
٦ رتا — من الأضداد : شد وأرخى .
٧ غثا : كثر غثاؤه .

فما أرى الأيامَ تبدي منصفاً		ولو حكيتُ المسكَ من حسن النَّثا
يا ضيعةَ الألبابِ في دهرٍ غدا		فيه فتيتُ المسكِ يعلوه الخثى [1]
يا ويلَ أمٍّ ليس تزجي ضيمها		مثلي بما تبديه من منع الحثا [2]
هل مارستْ إلا أخا عزم إذا		ما قعد الناسُ عن الخطبِ جثا [3]
تسيلُ من جَهْدِ السُّرى أعطافُهُ		كمثل ما سال من الدوح اللثى [4]
له اعتصامٌ بالرسولِ المجتبى		أجْوَد مَنْ أضفى العطايا وحثا
من ليس للدنيا محلٌّ عنده		ولا يُنيلُ المالَ إلا بالحثا [5]

* * *

أنا الفتى لا يَطّبيني طَمَعٌ		فأبذلَ الوجهَ لنيلٍ يرتجى
لكن إذا اضطر زمانٌ جائرٌ		أمَّلت مَنْ ليس يَرُدُّ من رجا
لا أسأل النذلَ ولو أنّي به		أملكُ ما حاز النهارُ والدجى
حسبي بنو عبد منافٍ بهمُ		يَغنى من استغنى وينجو من نجا
أولئك القومُ الألى مَنْ أمَّهم		أمِنَ ممن لامَ يوماً وهجا
يلقاك منهم كلُّ وجهٍ مشرقٍ		كأنّه البدرُ إذا الليلُ سجا
إنّيَ مذْ أمَّلتهم لم يثنني		عن طلب المجدِ زمانٌ قد شجا
إن أنا قد نكّرني دهرٌ عدا		فطالما عرّفني فضلُ الحجى
يطوي العدا ذكري ومجدي ناشري		آليتُ لا زال لهم مني شَجا
أنا الذي أعملتُ للمجدِ السُّرى		لا أسأمُ الأينَ ولا أشكو الوجى

* * *

---

١ الخثى : جمع خثي ، وهو روث الثور .
٢ الحثا : التراب المحثو أو المحثي .
٣ جثا : جلس على ركبتيه للخصومة أي لمواجهة الخطب ، فهو مستوفز .
٤ اللثى : شيء ينضحه ساق الشجرة أبيض خاثر .
٥ يريد بملء الكفين .

كم سرتُ في البيداء لا يُقلقني ... حرُّ الهجيرِ لا ولا بردُ الضحى
أرسلها غرَّ الذرا تسري بنا ... كلُّ عويصِ السير صعبِ المنتحى
يطيحُ مفتوت الحصى من دونها ... كأنّه سهمٌ عن القوسِ طحا[1]
فكم بذلتُ الجهد في كسبِ العلا ... وجُدتُ بالنفس لحاني من لحا
أرغمُ أعدايَ بحـزمٍ نافذٍ ... يعركهم عَرْكَ الثفال بالرحى
أذودُ عن عرضي وأحمي حسبي ... بكَرَمٍ جزْلٍ ومَجْدٍ قد ضحا
أقسم بالبيت ومَنْ طاف بهِ ... ومن نحـا وجهته فيمن نحا
وكلٌّ من أعملَ لله الخطا ... محا بها من الخطايا ما محا
ومعشر ثجّوا وعجّـوا فلهم ... بمرتقى المروة ذكرٌ ووَحَى[2]
لا زلتُ أزجيها لإدراكِ العلا ... حتّى ترى من جهدها مثلَ اللّحا

• • •

يا عجباً من حاسد لي قد زها ... بعيشهِ الغض عليَّ وانتخى
كأنّني لم أعرف العـزَّ ولا ... صاحبت دهري في سرورٍ ورخا
وإنّـمـا الدهرُ لهُ تقلُّب ... إن ارتخى شد وإن شد ارتخى
إنَّ الذي لا ينثني عن جوده ... إن بخل الدهر لنا وإن سَخا
خيرُ الورى طرّاً مَنِ اللهُ به ... أذهبَ عنّا كلَّ غَيّ فامتخى[3]
شرَّفه الله وحلّى جيـده ... بجوهرٍ من كل مجد موتخَى[4]
زَيّنَه تواضعٌ على عُـلا ... فما ازدهى بعـزةٍ ولا نخا[5]
فكم حَمَى بهديه وكم وقى ... وكم أفادَ آمـلاً وكم نخا

---

١ طحا : ذهب بعيداً .
٢ الوحى : الصوت .
٣ يقال امخى من الشيء أي تبرأ منه وتحرج .
٤ موتخى : متحرى .
٥ نخا : زهي ، وقال الأصمعي ، يقال : نخي وانتخى ولا يقال نخا .

خَلّصَ من أسر الخطايا جاهه	فما على قلب امرىء منها طخا [1]
خفّف عنّا ثقل ما نحمله	فلم نَبِتْ من ثقله نشكو السّخا [2]

* * *

إن تحسب الرسل سماء قد بَدتْ	فإنّه في أفقها نجمُ هدى
وإن يكن كلٌّ كريم قد مضى	طلاً فقد أضحى لنا غَيْثَ جَدا
وإن يكونوا أنجماً في فلكٍ	فإنّه مِنْ بَيْنهم بدرٌ بَدا
واسطةُ السلكِ إذا ما نُظموا	وملجأ القوم إذا الخطبُ عدا
كالبحر بل كالبدرِ جوداً وسَنا	فحبّذا من اجتدى أو اقتدى
أحْسن أخلاقاً من الروض إذا	ما اختال في بُرد الصّبا أو ارتدى
وساقَطَ القطرُ عليهِ دمعَه	فابتلَّ بُرْدُ الزهر منهُ وانتدى
تفديهِ نفسي من شفيعٍ للورى	وقلّتِ النفس لهُ مني فدا
هو الذي أنعشنا من بعد ما	قد يبس الغصنُ وأذواه الصّدى
وكنتُ في ليل الهوى ذا حيرةٍ	فجاء بالحقّ وأنجى وهَدَى

* * *

فكم كسا من ثوبِ نُعمى قد ضفا	وكم هَدَى بعلمه وكم غَذا
من اقتـدى بغيره فإنّه	لم يتّبع سُبل الهدى ولا حذا
هل هي إلاّ سنّةُ الحقّ التي	أرشد مَنْ لاذ بها أو احتذى
كفُّ اللسان وانبساط الكف بال	خير وطيب الذكر هم قدْ شذا [3]

---

[1] الطخا : قطع السحاب .
[2] السخا : ظلع يصيب البعير حين يثب بالحمل الثقيل .
[3] شذا : آذى ، أي أن هذه الواجبات تقلق من يريد الاحتفاظ بها ، وفي التجارية : عرف قد شذا ، ويكون شذا بمعنى تطيب .

أحسنُ ما نال الفتى من كرمٍ أن لا يُرى من أجله من ائتذى
والصمتُ عمّا لا يفيد قوله مِنْ كَلِمٍ يهذي به فيمن هذى
لا شيء كالصمتِ وقاراً للفتى يوماً ولا أنجى لهُ من الأذى
مَنْ عيبُه يشغله عن غيره بات سليمَ العِرض نفّاحَ الشذا
ومن يعب عِيبَ ومن يحسنْ إذن لان لَهُ كلُّ عَصِيٍّ وخذا[1]
ومن تكن دنياه أقصى همّه لم يرو من ثدي الحجى ولا اغتذى

* * *

لا تنفقِ العمرَ سوى في حبِّ مَنْ هو الذي في سَنَنِ الحقِّ جرى
يهديك من رشد ومجد واضح روضين من علم وذكر قد سرى
أجاد هدياً وأفاد نائلاً وجاد حتى عمّم الجودَ الورى
ترى بني الحاجاتِ نحو بابه قد أعملوا العيس بحزنٍ في البرى
لهم إلى رؤيتــهِ تشوّقٌ تشوّقَ الساري إلى نارِ القِرى
ذا يبتغي علماً وهذا نائلاً وخائبٌ من قصده ليس يرى
كأنّهم إذا رأوا غُرَّتَهُ وَفْدُ حجيج عاينوا أمَّ القرى
وجهٌ لديه يُحْمَدُ السيرُ ، كذا عند الصباح يحمدُ القومُ[2] السُّرى
هذا إذا ما أخلفَ الناسُ وَفى نائي المدى في مجده سامي الذرا
إذا شددتَ الكفَّ في أمر به فليس بالواني ولا الواهي العُرى

* * *

أنهضني بهديه إلى التُّقى بعد قصورِ العزم والباع الوزى[3]

---

١ خذا : لان واسترخى .
٢ ق : الساري ؛ وقوله « عند الصباح ... » مثل .
٣ الوزى : القصير .

هو الشفيعُ المجتَرى بجاهه | بمثلِ ذاك الجاه حقّاً يُجتْرى
مذ زرته لم أشكُ من شحط النوى | إذ كان لي فيه غنًى ومُجتْرى
وما وجدتُ غربةً ولم يجدْ | مس اغتراب منْ إلى الجودِ اعتزى
متصلُ البِشرِ غضوبٌ للهدى | إذا رأى من زاغ عنهُ أو نزا
أصبح من أيّامه في مأمنٍ | من قد لجا يوماً إليه أو رزى[1]
تخذتُهُ كهفاً فبتُّ آمناً | جزاه ربُّ العرش خير ما جزى
أدّبنا بسنَّةٍ أفلحَ مَنْ | نمى إليها النفسَ يوماً أو عزا
يجزي أخا الحسنى على إحسانه | شكر امرىءٍ رَاضَ الأمورَ وحزا[2]
لستُ أجازي الشرَّ بالشرِّ ، ولا | أغزو لناوي السوء مثلَ ما غزا
لم ترَ عينٌ كرسول الله ذا | حزمٍ ، ولا أحلم إنْ دهرٌ غزا

* * *

إذا ملمّاتُ الأمور قلْقلَتْ | ألفيته كأنّهُ طَوْدٌ رَسا
بخلقه فليقتدِ المــرءُ فما | أكرمها من مُقْتَدًى ومؤتسَى
كُن حذراً وإن رأيتَ تمرةً | فمثلها توقدُ جمْرةَ الأسى
لا تيأسنَّ إن تناءى أمَلٌ | وكلّما عثا زمانٌ قد عسا
وإن بدا صبحُ المشيب فاطّرحْ | ما كان إذ ليلُ الشباب قد غسا[3]
ولا تظنَّ الشيبَ يرجى طبُّه | بزُورِ صِبْغٍ أو مُدامٍ يُحتسى
إذا الفتى قوِّسَ واعتدَّ العصا | لقوسه عن وَتَرٍ أعيا الأُسا
فاذكرْ زمانَ الشيب في حال الصِّبا | عسى يلينُ للتُّقَى قلبٌ قسا

---

١ رزا : إذا قبل البر ، وأرزى إلى : لجأ .
٢ حزا : عرف وجرب ، والحازي : الكاهن .
٣ غسا الليل يغسو : أظلم .

ما أقبح اللهوَ علـى المرء إذا ما اشتعلَ الرأسُ مشيباً واكتسى

* * *

لا تحسبِ الراحةَ راحاً قرْقفاً للشَّرْبِ منها قبَسٌ ومنتشي
إذا أداروها وقد جنَّ الدجى وشى بهم نيِّرها فيمن وشى
قد حُجبتْ في دنِّها دهراً إلى أن برزتْ كأنّها صبحٌ فشا
لم يبقَ من جوهرها إلاَّ سنا ينشيء أفراحَ الفتى إذا انتشى
كأنّها والكأسُ قد حفَّتْ بها متيَّمٌ أصبحَ مضرومَ الحشا
يديرها مختلفُ الحسنِ إذا أقبلَ بدرٌ ، وإذا تاه رشا
يحكي القطا والظبيَ والغصنَ إذا ما قدّ تثنى أو تجنّى أو مشى
وإنّما الراحةُ زُهْدُ المرء في أعراضِ دنيا تورث العين غشا
والمجدُ إيقادك نيران القِرى يعشو لها في الأزمات مَنْ عشا
والجود أن تعطي قباء للنّدي لا لافتخار أو لجاه يختشى

* * *

خاب امرؤٌ لَمْ يرَ أرضاً حلّها من اصطفى ربُّ السماء وانتصى
أرسله الله هدًى ورحمةً أوصى ووالى الخير فينا ووصى
وخلّص الأنفُسَ من أسر الهوى في يوم هولٍ فاز فيه مَنْ فَصَى[1]
ذو رأفة تلقاه يومَ العَرضِ قد مالَ بنا عن الجحيم ومَصَى[2]
صلّى عليك الله يا من جاهُهُ يومَ الحسابِ ملْجأ لمن عصَى
يا مَنْ جرى من كفّه الماءُ ومن حنَّ له الجذعُ وسبَّحَ الحصى
بكَ اعتصامي يومَ يدنو من دنا من رحمة الله ويُقْصَى من قَصا

---

١ فصى الشيء من الشيء : فصله ، ولعله يعني هنا : ميز الخير من الشر .
٢ مصى : لم أجد له معنى ملائماً للسياق هنا .

هل غير إحسانك يرجو مذنبٌ طال به خوفُ الخطايا وانتصى
يا مَنْ سما في يوم بدرٍ بدرُهُ عزّاً ليشقى كلُّ من شقّ العصا
أحصاهُمُ ربُّ السماء عدداً وإنّهم أدنى الفريقين حصى

* * *

يا مجتبىً من خير قومٍ حَسَباً فيما أتى من زمن وما مضى
يا من تَدانى قاب قوسين ومن قيل له سَلْ تُعْطَ قد نلتَ المضا
ومن أتى والناسُ من ظلمهمُ في ظلمةٍ ليس لها من مرتضى
فكان كالصبح جلا جنحَ الدجى فأذهَبَ الإظلامَ عنّا وانتضى
رُضيتَ للإرسالِ إذ آدمُ بيـ ـنَ الماء والطينِ فكنتَ المرتضى
اختارك الله رسولاً هادياً أكرمْ بما اختار لنا وما ارتضى
يا أحلَمَ الناسِ على من قد جنى وأعدلَ الخلقِ إذا ما قد قضى
يا مُصْغرَ الألفِ إذا ما جاد أو جرَّدَ في الهيجاء سيفاً أو نَضا
يا ناصحاً أحكم تشييدَ الهدى عزماً فلمّا ينتقضْ ولا انقضى
يا مُضْفياً للناس ظِلَّ رحمةٍ بات العِدا منها على جمر الغضا

* * *

ادفع الشرَّ بحسنى فإذا به أخو صِدْقٍ وإن كان سطا
وانفِ لنفسٍ كرهتْ أعمالها كمن يريك قدرها حث الخطا
إن يدرك الهوى الفتى في بيته ليس كمن سعى إليه وخطا
وإنّ خيراً من صديقٍ سيء أن يَصحبَ الإنسانُ في البيد القطا
ولا تَرُمْ ما لا تطيقُ نيلَهُ فخجلةُ الخيبةِ شرُّ مُمْتَطى
وبتْ من الدنيا مَباتَ خائف فللّيالي عَدَواتٌ وسَطا
وخلّها عنكَ ولا تعبأ بما تبوّأ المكثرُ منها وغَطا[1]

١ـ غطا : تناول .

وجنّبِ الحرصَ تعشْ ذا عزةٍ   أفلح مَنْ إن شده الحرص نطا[1]
ولا تجدْ للنّفسِ حظّاً واطّرحْ   من امتطى الكبر فبئس ما امتطى
لا تطرينّ صاحباً بغيرِ مـا   فيهِ فإطراءُ الفتى كسرُ المَطا[2]

* * *

لا يحْسُنُ المدحُ سوى لمن يرى   مادحَهُ بمدحهِ قد احتظى
خيرُ عبادِ الله ذو العزِّ الذي   لظلّه يأوي الشريفُ والشظى[3]
كم آمنٍ ببابه وقبلَ أن   يلقاه لاقى ما عَجا وما عظا[4]
أصبح من حرمته في حَرَمٍ   يرفلُ في ظلِّ هباتٍ وحُظا
في منزلٍ سيّان فيه ربُّه   وضيفُهُ فيما اقتنى وما حظا[5]
إنّ رسولَ الله غيثٌ واكفٌ   إذا لهيبُ الصيف داج والتظى
إذا أعدَّ للمُلمّينَ القِرى   لم يدّخر عن ضيفه ولا حظا[6]
لمّا علمتُ جودَه الجزلَ وما   هناك من علم وحلم وبظا[7]
يممتُه فوقَ طِمِرٍّ ضامرٍ   منتظمِ الأعضاء ملْمُومِ الشظا
ليس يمسُّ الأرضَ من سرعته   كأنّما يخشى بها مسَّ اللظى

* * *

يا مُوسعَ الألفِ بصاع شبَعا   ومن مشى الدّوحُ إليه وسعى
وأخصبَ الضرعُ بلمس كفّه   وبادر المزنُ لَهُ لمّا دعا

---

١ نطا : بعد أو امتد .
٢ المطا : الظهر .
٣ الشظى من الناس : الموالي والأتباع .
٤ يقال لقي الإنسان ما عجاه وما عظاه وما أورمه : إذا لقي شدة وبلاء .
٥ كأنه يعني : أصاب حظاً .
٦ حظا : فاضل بين .
٧ البظا : اكتناز اللحم ، ويريد هنا وفرة العلم .

وسلَّم الظبيُ عليه كرَماً وكلَّم الميتَ فقام ورعى
واستشهد الضبّ فحيًّا معلناً بصدقه ومثبتاً لما ادعى
إليك أعملتُ المطايا في الفلا تنسابُ ما بينَ أراكٍ ولعا
مسوّغاً[1] جاهكَ علّي في غدٍ أكون ممّن قد أجاد ورعا
أزكى صلاة وسلام أبداً عليك ما ارتاح الظليم وارتعى
وسبّح الرعدُ بحمد من سقى صَوْبَ الحيا فقال للأرض لعا
فاشتملت بالنَّوْر كلّ فدفد لم يكُ للسارح فيه مرتعى
وباكر البيداء غيثٌ مُسْبلٌ فأخلف النبت الهشيم ورعى

• • •

ودقُ سحابٍ تحسبُ البرقَ به أسنّةً قد أشرعت يوم وغى
واخضرتِ الدوحُ ومدتْ قُضْبها فبينها حُسن التئام وصَغا[2]
وساقطتْ لها السحابُ حملها إذ خوّف الرعدُ تساقطَ الفغا[3]
ترى خريرَ الماء في قضيبه كأنّه مَيْتُ ذَوْدٍ قَدْ رغا
فسكّن القيظُ لهيبَ حرّه وفرّ لمّا أن رأى الماء طغى
غيثٌ حَمى الرمضاء عنّا مثلما حَمى رسولُ الله جورَ من بغى
ناهٍ عن الفحشاءَ داعٍ للهدى لم ينتطقْ بباطلٍ ولا لَغا

• • •

هذا إذا استكفيتَ في أمر به أجْداكَ فيما تنتحيه وكفى
تهفو به ريحُ العلا إلى الندى كأنّه ناعمُ غصنٍ قد هفا
محيي الهدى والعدلِ في زمانه من بعد ما ألفاهما على شَفا

---

١ ق : مسرعاً .
٢ الصغا : الميل .
٣ الفغا : البسر الفاسد المغبر ، أو ما يخرج من الطعام فيرمى به .

أخفى الهدى قومٌ فأضحى وهو قد | أظهره بعدْلـه فمـا اختفى
إن يقض يعدل أو متى يُسأل يهبْ | وإن يقل يصدق وإن يعِد وَفى
وإن يجُدْ يُجزِل وإن جاد يُعِد | وإن تسيء يحسنْ وإن تجنِ عفا
بحر طما، بدر سما، عضب حمى | روض نما، طبٌّ أفاد وشفى
لمجتدٍ أو مقتدٍ أو معتدٍ | أو مجدبٍ[1] أو مشتكٍ خطباً جفا
ما ليَ لا أُضفي له المدح وقدْ | أضحى به الحقُّ علينا قد ضفا
أسس خُلْق الجود فينا فاغتدى | به لنا وِرْدُ المعالي قد صفا

* * *

الجودُ يُعلي المرء والبخلُ لقد | يحُطُّ عن رتبته من ارتقى
والعزُّ ما أحسَـنَهُ لكنَّهُ | إن كان هذا مع علمٍ وتقى
والجهلُ للإنسان عيبٌ قادح | ولو حوَى مالاً ككثبان نَقا
والعلم في حال الغنى والفقر لا | يزال يَرْقَى بكَ كُلَّ مرتقى
ولا ألومُ المـالَ فالمالُ حمًى | من جاهل يلقاكَ شرٌّ ملتقى
قد جُبِلَ الناسُ على حب الغنى | فرَبُّه فيهم مُهابٌ متقى
وما لذي الفقرِ لديهم رتبـةٌ | ولو أفاد وأجاد واتـقى
إنَّ الغنى طبٌّ لعلاَّت الفتى | والفقر داءٌ لا تداويه الرُّقى
والحزم أحرى ما به المرءُ اقتدى | في أمره وما به النفسَ وقى
من لم يبت مع الليالي حازماً | لغـدرها غادرنه فيها لَقى

* * *

أمضيتُ طرفي كي يرى طرفيَ ما | أخبرته من طيب مجدٍ قد زكا

---

[1] ق : أو مجتز .

فَصَدَّقَ الحاكيَ ما أبصرته　　وفاق ما عاينته ما قد حكى
فسهّلتْ رؤيتُهُ جهدَ السرى　　وأشكتِ الأيامُ مَنْ كان شكا
عجبتُ للأيّام مَنْ عَزَّ بها　　ذلّ ، ومن يضحكْ بها يوماً بكى
فكم لها من كَرّةٍ على فتى　　جلْدٍ إذا ما لهبُ الحرب ذكا
تجتنبُ الأسْدُ سطاه في الوغى　　فذلّ حتى صار قصواه بُكا
وكم صريع غادرتْ ليس لهُ　　من ملجإٍ يوماً ولا من مشتكى
عدَتْ على نفْسِ عديٍّ وسقت　　منها ابن حُجرٍ كأسَ سمٍّ كالذكا[1]
واستلبت مُلْكَ بني ساسان لم　　تترك لهُ على اللّيالي مرتكى[2]

* * *

لم يأمنِ المأمونُ من صولتها　　ولا ابنُ هند من عواديها خلا
وأتبعت جعفراً الفضلَ وكم　　بات الطلا[3] يسقيهما صِرْفَ الطلا
وغالتِ الزبّاء في منعتها　　فأظفرتْ عَمْراً بها فما ألا[4]
وأنفذت في آلِ بكرٍ حكمها　　وَجَرَّعَتْ مهلهلاً كأسَ البلى
وكم سَبَتْ من سبإٍ من نعمةٍ　　فمُزّقوا في كلّ قفرٍ وفلا
وأهلكتْ عاداً وأفنتْ جرهماً　　وزوّدت منها تميماً بالصّلَى[5]
فرعونَ موسى أولجتْ في لجّةٍ　　فمات قهراً بعد عزّ وعُلا
وأظفرت بابن زيادٍ مثلما　　أفنتْ يزيدَ حسرةً لمّا اعتلى
وسيفٌ استلّته من غُمدانه　　من بعد ما قد خضعت له الطُّلى[6]

---

١ الذكا : الجمرة الملتهبة .
٢ المرتكى : المعوّل .
٣ الطلا : الغلام ، شبهه بولد الظبية .
٤ ألا يألو : قصر .
٥ الصلى : الوقود ، يشير إلى ما فعله أحد المناذرة ببني تميم حين حرقهم .
٦ الطلى : الرقاب .

ثم أعادته فحزّ الجيش عن حوزته حزّ النبات المختلى[1]

* * *

هي الليالي ليس يرعى صرفها لا خاملاً فيها ولا من قد سما
ولا رسول الله فينا لَم يزل كهف حمىً[2]، فهو لنا نعم الحمى
لله ما أكرمه من سيدٍ[3] يُنمى من المجد لأعلى منتمى
سليمُ صدرٍ ذو وفاء لم يجش في صدره غش امرىء ولا غمى[4]
أوسعنا فضلاً فما خاب امرؤ أوى إلى ذاك الجناب وانتمى
يا من غدا للخلق كهفاً وحمى فأكرم المثوى وآوى وحمى
إنّا أتينا من ديار دونها موحشة بيداء أو بحر طما
وإنّي من قبح ما أسلفتُهُ ذو كبد رُضّت ودمعٍ قد همى
فلا تخيّبنيَ ممّا لكَ من شفاعة تُرْجى وفضلٍ قد نما
إنّك من قوم بهم يشفى العنا ويُدْرَكُ الشأوُ البعيدُ المرتمى

* * *

أعرض عن الجاهل مهما قد أسا وحسبهُ من جهله ما قد حوى
ولا تلمْ ذا سفهٍ فإنّه إن لمته لم يتّئد ولا ارعوى
وإن رأيتَ من كريم عثرةً فقُلْ لعاً ولا تَعِبْ بما احتوى
وإن تَرُعْكَ من زمان فرقةٌ فاصبر لها فالصبرُ أشفى للجوى
لم أشكر البعدَ على خير حمى قد صدّني عن أنسه شحطُ النوى
يا منزلاً ما بينَ نجدٍ والحمى ويا دياراً بَينَ كثبان اللوى

---

١ المختلى : المقطوع .
٢ ق : حياً .
٣ ق : من سند .
٤ غمى : غطى .

هل لي إلى تلك المعالي عودةٌ ... أو جرعةٌ من ذلك الماء الرّوى
لا تعجبوا من لَعِبِ الدهر بنا ... فأيّ إنسان على حالٍ سوا
إن عشتُ لاقيتُهمُ وإن أمتْ ... فإنّما الدنيا فناء وتَوَى
إنّ رسولَ اللهِ مُذْ أمّلته ... فالدهر قد أضمر نصحي ونوى

* * *

إي والذي ما زال يسري جاهداً ... حتّى أتى ميقاته وما ونى
فقدّم الغسلَ وصلى ونضا ... أثوابه مستغفراً ممّا جنى
ثمّ نوى مُلَبِّياً ثمّ مضى ... حتّى رأى ذاتَ السناء والسنى
ثم أتى بابَ بني شيبةَ قد ... أبصرَ ما أمّلَ قدماً مذ دنا
فقبّلَ الركن وطاف وسَعَى ... ثم مضى مرتحلاً نحو منى
ثم أتى الموقفَ يدعو راغباً ... حتّى إذا ما نفر القومُ انثنى
ثم رمى ثم أفاض وانبرى ... مُعتمراً قد نالَ غايات المُنى
ثم مضى مرتحلاً فيمن مضى ... ميمّماً طيبة لا يشكو العنا
يبغي التي شرّفها اللهُ بمَنْ ... شاد به الدينَ القويم وابتنى
فلَمْ يكن ممّن إذا حج جفا ... بل يمّم القبرَ وزارَ واعتنى

* * *

خلقُ علًى لم يحوِها إلا امرؤ ... نهاه عن نبذِ العُلا رَعْيُ النُّهى
فإن يقُلْ: من حازها؟ قل: الذي ... لَهُ تسامى كلُّ مجدٍ وانتهى
معتصمُ الراجين إنْ خطبٌ دنا ... وكهفهمْ إن راع أمرٌ ودهى
المرشدُ الناصحُ للهِ فما ... قصّر في نصر الهدى ولا لها
من جدّ في إدراك ما رام يجدْ ... ولم يصبْ مَنْ قد توانى وسها
فلا يقصر بكَ خوفُ خيبةٍ ... مَنْ خيّلَ الخيبة في البدء وهى
واكتسبِ الحمدَ بما تبديه من ... فتح اللّها بمستدامات اللُّها

واحرص على المجد ودنياك اطَّرح　　فأمرها أمرٌ زهيدُ المشتهى
والمرء من إن فاته لم يكتئبْ　　وإن ينلْ لم يفتخر ولا ازدهى
من لازم الكبر على الناس اغتدى　　مُتَّضِعَ القدرِ ولو نالَ السُّها

* * *

أنّى تخيب اليومَ آمالي ولي　　من كفه أكرم مِنْ صَوْب الحيا
يدني الفتى إلى مدى آماله　　ولو غدا من دونها الأرض اللّيا [1]
إن أهزل القومَ زمانٌ معورٌ　　أنعشهم حتى يرى لهم حيا [2]
وإن أمات الجدبُ كلّ مخصبٍ　　بدا لنيرانِ القِرى منه حيا [3]
أرسَلَ سُحْبَ هديهِ جاريةً　　بالحقّ حتى حَيِيَ الدرُّ حيا [4]
أوقعَ في الأنفُسِ من ماءٍ لدى　　ظامٍ إذا ما اشتد بالشمس الحيا
لم تَعْيَ من فعلٍ جميلٍ كفُّهُ　　ولا لَهُ في المكرماتِ معتيا
ما ليَ لا أبلغُ أقصى غايةٍ　　في مدح من بالغ جوداً واغتيا
لكلّ شخصٍ غايةٌ يبلغها　　وما له في المعلُواتِ مُغْتَيا [5]
تعيا يدُ السائل من معروفه　　ولَمْ يقصّرْ كرماً ولا اعتيا

* * *

والآن قد أكملتها في مدحه　　مقصورةً يقصر عنها مَنْ خلا
ضمّنتها من كلّ فنّ درراً　　نظماً فأضحَتْ من نفيساتِ الحلى
حلّيتها جيدَ معاليه وما　　أملح حَلْيَ المدح في جيدِ العلا

---

1 الأرض اليا : التي بعد ماؤها واشتد السير فيها .
2 الحيا : الخصب .
3 لعله شبيه بقولهم : حاييت النار أي أحييتها .
4 الحيا : المطر .
5 مغتيا : موضع غاية أو نهاية .

جعلتها مني وداعاً فاعتجبْ لنظمها الحلو الجنى كيف حلا

• • •

مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى كيفَ أجاد النظم يوماً أو درى
أرسلتها من خاطر خامره وَجْدٌ جلا عن مقلتي طيب الكرى
وكيفَ لا آسى على بعديّ عن قوم جرى من جودهم ما قد جرى
أنصار دينِ الله والهادي الذي لولا وضوحُ هَدْيه ضل الورى
فالقلبُ بينَ مشرقٍ ومغربٍ مُقَسَّمُ اللوعة مجلوبُ العرى
إذا ذكرتُ الغربَ حنَّتْ مُهجتي وبَلَّ دمعي من جوى الشوق الثرى
وإن ذكرت حُبَّ من في مشرق أبطأ بي حبُّهمُ عن السُّرى
إن يصفُ من وجهٍ لشخص موردٌ كدَّر من أخرى فلا صَفْوٌ يرى
فإن ترحَّلْتُ فقلْبي عندكم لم يرتحل عن بابكُم ولا سرى

• • •

ولا تزال رُسْلُ شوقي أبدا تترى على مجدكم الجزل الندى
ولن تمرَّ ساعةٌ إلاَّ هفا بذكركم مُفْصِحُ نظمي وشدا
فليس عندي للنجاةِ مخلصٌ إن لم يكنْ منكم نوال أو جَدا
بكُم ملاذي وحماكم ملجئي ليس سوى ذاك السماح المجتدى
وما ذخرنا عُدَّةً سواكمُ مثلُكُمُ مَن يُرْتجى ويجتَدى
لا أوحشَ الله ديارًا أنتمُ فيها ولا أزرى بمرعاها الصَّدى
ولا نأت داركمُ ولا خلا ربعكمُ ما راح يومٌ واغتدى

ومن محاسنه أيضاً البديعية المشهورة ، وهي المعروفة ببديعية العميان ، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلّم لكفى ، وهي من غرر القصائد ، وكثير من الناس ينسبها للقاضي

الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض ، وكنت أنا في أوّل الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة ، حتّى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر ، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر ، وهي :

في كلّ فاتحــة للقولِ معتبره حق الثناء على المبعوث بالبقره
في آل عمران قِدماً شاع مبعثه رجالهم والنساء استوضحوا خبره
من مَـدّ للناس من نعماه مائدة عمّت فليست على الأنعام مقتصره
أعرافُ نُعْماه ما حلّ الرجاء بها إلاّ وأنفالُ ذاكَ الجود مبتدره
بهِ توسّل إذ نادى بتوبته في البحر يونُسُ والظلماء معتكره
هود ويوسف كم خوف به أمنا ولن يروّعَ صوتُ الرعد مَنْ ذكره
مضمون دعوة إبراهيم كان ، وفي بيت الإلهِ وفي الحجر التمس أثره
ذو أمّة كدويّ النحل ذكرهمُ في كل قُطْر ، فسبحانَ الذي فطره
بكهفِ رحماه قد لاذ الورى ، وبه بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره
سمــاه طه ، وحضّ الأنبياء على حجّ المكانِ الذي من أجله عَمَرَه
قد أفلح الناسُ بالنور الذي غمروا من نورِ فرقانه لمّا جلا غُرَرَه
أكابرُ الشعراء اللُّسْن قد عَجزوا كالنمل إذ سمعت آذانهم سُوَرَه
وحسـبه قصص للعنكبوت أتى إذ حاكَ نسجاً بباب الغار قد ستره
في الروم قد شاع قِدْماً أمْرُهُ وبه لقمان وفّى للدرّ الذي نثره
كم سجدة في طلى الأحزاب قد سجدت سيوفُه فأراهُم ربُّه عــبره
سَبَاهم فاطر السبع العُلا كرماً لمن بياسين بين الرُّسل قد شهره
في الحرب قد صفّت الأملاك تنصره فصاد جمع الأعادي هازماً زُمَرَه
لغافر الذنب في تفصيلــهِ سُوَرٌ قد فُصِّلت لمعانٍ غــير مختصره
شُورَاهُ أن تَهجر الدنيا فزخرفها مثل الدخان فيُعْشي عينَ من نظره

عزّت شريعته البيضاء حين أتى ... أحقافَ بدر وجند الله قد نصره
فجاء بَعْد القتالِ الفتحُ متصلاً ... وأصبحت حُجُرات الدين منتصره
بقاف والذارياتِ اللهُ أقسم في ... أنّ الذي قاله حَقٌ كما ذكره
في الطُّور أبصر موسى نجم سؤدده ... والأفق قد شقّ إجلالاً لَهُ قمره
أسرى فنال من الرحمن واقعةً ... في القرب ثَبّتَ فيه ربّه بصره
أراه أشياء لا يقوى الحديدُ لها ... وفي مُجادلةِ الكفار قد نَصره
في الحشر يومَ امتحانِ الخلق يُقبل في ... صفٍ من الرُّسلِ كُلٌ تابعٌ أثره
كفٌ يسبّحُ لله الحصاةُ بها ... فاقبلْ إذا جاءك الحق الذي قَدَرَه
قد أبصرتْ عنده الدنيا تغابنها ... نالَتْ طلاقاً ولم يصرفْ لها نظره
تحريمه الحبَّ للدنيـا ، ورغبته ... عن زهرة الملك حقاً عندما نظره
في نون قد حقّت الأمداح فيه بما ... أثنى به الله إذ أبدى لنا سِيَرَه
بجاهه سالَ نوحٌ في سفينته ... سفن النجاة وموج البحر قد غمره
وقالت الجنُّ جاء الحقُّ فاتبعوا ... مُزملاً تابعاً للحقّ لن يَذَرَه
مدّثراً شافعاً يومَ القيامة هل ... أتى نبيٌّ لَهُ هذا العُلا ذخره
في المرسلاتِ مِن الكتب انجلى نبأ ... عن بعثه سائر الأخبار قد سَطَرَه
ألطافه النازعات الضيم في زمن ... يوم به عبس العاصي لما ذَعَرَهْ
إذ كوّرت شمس ذاك اليوم وانفطرت ... سماؤه ودعت ويل به الفجره
وللسماء انشقاق والبروج خلت ... من طارق الشهب والأفلاك مُنْتَثِره
فسبّح اسم الذي في الخلقِ شَفّعه ... وهل أتاكَ حديث الحوض إذ نهره
كالفجر في البلد المحروس غُرّته ... والشمس من نوره الوضاح مستتره
واللّيلُ مثلُ الضحى إذ لاح فيه ألم ... نشرح لك القول في أخباره العَطِرَه
ولو دعا التين والزيتون لابتدرا ... إليهِ في الحين واقرأ تستبنْ خبره

في ليلة القدر كم قد حلّ من شرف ... في الفخر لم يكن الإنسان قد قدّره
كم زلزلت بالجياد العاديات لـهُ ... أرض بقارعة التّخويف مُنْتشره
لـهُ تكاثر آيات قد اشتهرت ... في كلّ عصر فويلٌ للذي كفره
ألـمْ ترَ الشمس تصديقاً لهُ حُبست ... على قُرَيش ، وجاء الروح إذ أمره
أريتَ أنّ إلـهَ العرشِ كرّمه ... بكوثر مرسل في حوضِه نهره
والكافرون إذا جاء الورى طُردوا ... عن حوضه فلقد تبّت يدا الكفره
إخلاص أمداحه شغلي ، فكم فلق ... للصبح أسمعت فيه الناسَ مفتخره
أزكى صلاتي على الهادي وعترته ... وصحبه ، وخصوصاً منهمُ عشَرَه
صدّيقهم عمر الفاروق أحزمهم ... عثمان ثمّ عليٌّ مُهْلِكُ الكفره
سعد سعيد عبيد طلحة وأبو ... عبيدة وابنُ عوْف عاشر العشره
وحمزة ثمّ عبّاس وآلهما ... وجعفر وعقيل سادة خيَرَه
أولئك الناس آل المصطفى وكفى ... وصحبه المقتدون السادة البرره
وفي خديجة والزهرا وما ولدت ... أزكى مديحي سأهدي دائماً درره
عن كلّ أزواجه أرضى ، وأوثر من ... أضحت براءتها في الذكر منتشره
أقسمت لا زلت أهديهم شذا مِدَحي ... كالروض ينثرُ من أكمامهِ زهَره

[معارضات لقصيدة ابن جابر في تضمين السور]

انتهت القصيدة ، وقد عارض منحاها جماعة فما شقّوا لها غباراً ، ومن معارضاتها قولُ بعضهم :

بسمِ الإلـهِ افتتاح الحمد والبقره ... مُصلياً بصلاة لـمْ تزل عطره
على نبيّ لـهُ الرحمن ممتدح ... في آل عمران أيضاً والنسا ذكره
كذا بمائدة الأنعام فضّـله ... ووصفه التم في الأعراف قد نَشَرَه
أنفاله نزلت أيضاً براءة من ... يحبّه وهوَ مشغول بما أمره

به ِ نجا يونُس من حُوتِهِ ونجا ... هود ويوسف من سجن به ِ عبره
أقسم برعد بإبراهيم أنَّ لَهُ ... في حجر نحل ترى الآيات مشتهره
سُبحانَ جاعــله كهفاً لأمّته ... ومريم زوجة في جنّة نضره
طَه به ِ الأنبيا للحج قَدْ وفدوا ... والمؤمنون على النور اقتفوا أثره
آيات فرقانــه ِ ذلّت لهــا الشُّعَرا ... وسورة النمل قد قصَّت لنا سيره
والعنكبوت على غارٍ لَهُ نسجت ... والروم ولّت برُعْب منه منكسره
لقمان حكمته من بعض حكمته ... فاسجد لربٍّ على الأحزاب قد نصره
كم في سبا عبرة للقلب قد فطرت ... فلُذْ بياسين تنجو يا أخا البرره
قد صُفّتِ الأنبيا والرُّسل قاطبة ... خلف النبي بأمر الله مؤتمره
إن صاد قلبي الهوى تنزيل مقتده ... وغافر الذنبِ كَمْ ذنب لَهُ غفره
كَمْ خلعةٍ فصّلت للطائعين لَهُ ... وأمرهم بَيْنهُم شورى بلا نكره
لم تلهِهم زينَةُ الدُّنيا وزخرفها ... كانوا يروها كدخان لَهُ قتَرَه
إذا جثا الخلق والأحقاف قد شرفت ... فذاك يوم على الكفار قد نصره
محمد خُصَّ بالفتح المُبين وقد ... أتاه في الحجرات الوحي بالخيره
قاف الوفاق وذر الطور نجم هدى ... وشقَّ ربُّ السّما للمصطفى قمره
رَحمن واقعة كلُّ الحديدِ بهـا ... كَمْ من مُجادلةٍ في الحشر معتذره
من يمتحنْ صفّنا في يومِ جمعتنا ... فليس يلفى به غشٌّ ولا كدره
مطهَّر من نفاق لَيْسَ بَيْنَهمُ ... تغابن طَلّقُوا دُنياهمُ القذره
وحرموها وفي ملك لها زَهِدُوا ... كزهد صاحب نون حَقَّقَنْ خبره
إن تسألونيَ عن نوح نبيٍّ هدى ... والمصطفى سامع الجن الذي جهره
مُزَمِّلٌ اسمــهُ مُدثّر ، ولَــهُ ... يومَ القيامة للإنسان ما ضمره
للمرســلاتِ نبأ في يومِ نازعة ... عبوسُ تكوير شمس فيه منفطره

مطففُ الكيل قد بانَتْ خسارته ... في يوم شقّ السّما أبراجَها النضره
كم طارقٍ سبّح الأعلى بغاشيةٍ ... والفجر بلذته بالشمس مستتره
والليلُ قُمْهُ ولا تترك صلاةَ ضحى ... يشرحْ لك الصدر والخيراتُ مُدّخره
بسورةِ التين اقرأ أنّها نزلت ... في ليلة القدر ، والأنوارُ منتشره
ولم يكن مثل خير الرُّسل أحمدنا ... منــهُ تزلزلت الكفّارُ والفجره
بعادياتٍ لهــا قرع بهامتــه ... أعمى التكاثر من قلبٍ له بصره
من كان في عصره همّازة أبداً ... يلقاه قبــل قريش قاهرٌ قهره
ويلٌ لمانع ماعون تراه غدا ... مباعداً كوثر الهادي الذي أثره
الكافرون إذا جا نصرُ خالقنا ... تبّاً لهم لُعنوا هُمْ أمّةٌ كفره
أخلص لربّ فلق الناس تَنْجُ إذا ... يومَ المَعاد غدا من شرّة عسره
وصلّ ربٌّ على الهادي وعِترته ... وآلهِ وعلى أصحابــهِ العشره

وممّن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال :

عوّذت حبّي برب الناس والفلق ... المصطفى المجتبى الممــدوح بالخُلُقِ
إخلاص وجدي له والعذر يقلقني ... تبّتْ يدا عاذل قَدْ جاء بالملقِ
يهــدي لأمّتهِ والنصر يعضده ... والكافرون وعُذّالي على نَسَقِ
هذا لَهُ كوثر والدين شرعتــه ... والمصطفى من قريش دَيّنٌ وتَقي
ألم ترَ المــاء قد سحّت أصابعه ... ويلٌ لكلّ جهول بالنبي وشقي
في كلّ عصر ترى آياتهِ كثرت ... أضحى تكاثُرُها في سائر الأفقِ
وعنــدَ قارعة فهو الشفيعُ لنا ... والعاديات من الأجفان في طَلَقِ
وزلزلت من غرامي كلُّ جارحة ... وكلٌّ بيّنَـةٍ تحكي لكُم علقي
يا عاليَ القدرِ رفقاً مَسّني ضرر ... فالله قد خلقَ الإنسان من علقِ

ولو دعا التينَ والزيتونَ جاء لَهُ ... والشرح عنه[1] طويلٌ غير مختلَقِ
يبدو كشمس الضُّحى والليل طرته ... كالشمس في بَلَد والفجر في أفقِ
إنّي بغاشية لولاكَ يا أملي ... أنت الشفيع إلى الأعلى وخير تقي
كم طارق منك بالإحسان يطرقني ... مثل البروج أتى في أحسن الطرقِ
وفي انشقاقِ فؤادي عبرة ، وبه ... ويلٌ من الصد ، والأجفانُ في أرقِ
والانفطار بهِ ممّا يكابده ... والشمس قد كورت في القلب ذي الحرقِ
والصبُّ في عبَسٍ والنازعات بهِ ... وقَدْ أتى نبأ من دمعهِ الغدقِ
ومرسلات دم الإنسان جارية ... إلى القيامة من دمعي ومن حُرَقي
وبالمدّثّر إنّي ماسك أبداً ... وبالمزّمّلِ إن ألجمْتُ بالعَرَقِ
فالجنُّ والإنس في خير ببعثته ... هذا ونوحٌ به أنجى من الغرقِ
وفي المعارجَ معراج الرسول علا ... حقّاً ، وفي حاقّة كنز لمخترقِ
والله مرسله في نون بشّره ... والمُلْك خيّره حتى رأى ولقي
وجاء بالحلّ والتحريم أمّتَهُ ... وبالطّلاقِ من الدُّنيا لمنطلَقِ
وفي التغابن تُجّار به ربحوا ... إذ المنافق في خسرٍ وفي نفقِ
يا صاحب الجمعة الغرّاء يا أملي ... في الصف عند امتحاني أنْجِ من زلقي
وأنت في الحشر عوني في مجادلتي ... عسى تزيلُ حديد النار من عنقي
وعند واقعة إن كان لي رَمَق ... فاشفع إلى ربّكَ الرحمن من رَمَقي
لم أرعَ -يا قمري للنّجم في سهر ... إلا لعلّكَ من نار الجحيم تَقي
قلْبي الكليم غدا للطّور مرتقياً ... وذُرُّ دمعي غدا بالذاريات سقي
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم ... وليس في حجرات الدمع من رمقِ
إنّا فتحنا قتالاً للعذُولِ ففي ... أحقاف جاثية في الغيظ والحنقِ
دخان زخرف ما العُذّال فيه هبا ... شُورَايَ تتركه في أنف محترقِ

---

[1] ق : مني .

وعزّ مَنْ فُصِّلت في مدحه سور ... نبيُّنا المصطفى الهادي إلى الطرقِ
فغافر الذنب كم أهدى به زُمَراً ... وكَمْ سقى كفُّهُ صادٍ بمندفقِ
وليس غيرك في الصافات أقصده ... وأنت ياسين لي من سائر الفرقِ
يا فاطراً قَدْ سبا الأحزاب طلعته ... كم سجدةٍ لك في الأسحار والغسقِ
لقمان يشهدُ أنّ الروم تعرفهُ ... والعنكبوت فقد سدت عن الغلقِ
هذا ولي قصص بالنملِ قد كتبت ... هامَتْ بها الشعرا في خدّه اليَقَقِ
تبارك الله من بالنور كلّلهُ ... قد أفلحَ الحج لمّا زاره فَوُفّي
يا أيّها الأنبيا طه ختامكمُ ... ويا ابن مريم خذ من مسكه العبقِ
لاذوا بكهف لهُم سبحان خالقه ... حتى أتى الأمر بعد الخوف والفَرَقِ
فالركن والحجر حقّاً قد أضاء له ... وذاك دعوة إبراهيم ذي الخلقِ
والله ربي برعبِ الرعد ينصره ... مَسيرَ شهرٍ بلا سيف ولا دَرَقِ
فيوسف مع هود والخليل إذاً ... ويونس شربوا من كأسه الدهقِ
لتوبتي أرتجي الأنفالَ منهُ غداً ... فإنّني رجلٌ أضحيت في قلقِ
أعراف أنعام إنعام لهُ اشتهرت ... وكم المائدة أسدى لمرتزقِ
كلّ النسا لم تلد مثلَ الرسول إذاً ... فينا وفي آل عمران ولم تُطقِ
أعطيت خاتمة من سورة البقرة ... لَمْ يُعطَها أحد فيما مضى وبقي
فأنتَ فاتحة الأنبا وخاتمهم ... وكلّهم قَدْ أتوا بالود والملقِ
والقلقشندي محبٌّ قال سيرته ... في مدح خير الورى الممدوح بالخلقِ
فاقبل هدية عبدٍ أنتَ مالكه ... وانظر إليه فإنّ العبد في قلقِ
صلى عليكَ إله العرش ما طلعت ... وَرْقا على فَنَنٍ والورق في الورقِ

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي ممّا يُتبرك به ، والأعمال بالنيات .

ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى

قصيدة ابن جابر ، وهي :

بحمد إله العرش أستفتح القولا ... وفي آية الكرسيّ أستمنحُ الطَّولا
وفي آل عمران أتى ذكر أحمد ... نسارهمُ بالعقد قد أنعموا القولا
بأعراف رحماه بأنفال جوده ... شرّفْنا وفُضّلْنا وتبنا إلى المولى
له يونس نادى وهود ويوسف ... وذاكره في الرعد لا يسمع الهولا
ودعــوة إبراهيم كان محمد ... وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا
له أمة كالنحل قد صح فضلهم ... فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا
علا فضله والناس في كهف نيله ... ومريم في الأخرى يكون لها بعلا
وطه له فضل على الخلق كلّهم ... ولكن جميعَ الأنبياء علا فضلا
ولولاه ما حُجَّ المقامُ وكعبةٌ ... فأفلح من قد طاف فيها ومن حلاً
ومن نوره الوهاج كل منـوّر ... وفرقانه قد أخمد الكفر والبُطْلا
ترى الشعرا كالنمل حـول محمد ... إذا قصص في العنكبوت لهم تتلى
علا ديننا روما ولقمان عالم ... بأنّ السيوف أسجدت كلّ من ضَلاّ
والاحزاب يسبيهم بحكمةِ فاطرٍ ... وياسين قد صفّت له الملأ الأعلى
وصاد جميع الكافرين بزمرة ... له غافر في الحرب قد فصّلت فصلا
وشوراه في الدنيا بها كل زلفة ... وقد زخرف الكفّار في دينهم جهلا
لقد رأوا الدخان حول بيوتهم ... بجاثية الأحقاف قد قتلوا قتلا
محمدنا لـمْ يخلق اللهُ مثــله ... وفي الحجرات فضله أبداً يُتْلى
وقد أنزل الجبّار قافاً بذكره ... كما تذر الكفّار ريح بها تبلى
بطور سما والنجم ما ضوء احمد ... كما قمر بل نور خير الورى أجلى
به الله رحمنٌ وفي وقعـةِ ترى ... حديداً به الكفّار يجدلهم جدلا

وقد سمعَ الغفّار دعـوة أحمد ... بحشرٍ ، ولكن بامتحان به تبلى
صففنا بجمعٍ للأعادي فمنهمُ ... منافق إنّ الكفرَ في درَكٍ سفلى
يرى غبنه في الخير منهم مطلّق ... ولكنّ من يحرمْ نعيماً فقد ضلاّ
لأحمد ملك لا يوازيه سيّد ... ونون لقد قلنا مقالاً به استعلى
بحقٍّ لقد سالت أباطح مكّة ... بفضل الذي قد كان نوح به استعلى
صحيح بأنّ الجن جاءت لأحمد ... ومزَّمّل كان الغمام له ظـلا
لمدّثّر فضل القيامـة واضـح ... أتاه ، وجمع المرسلات حوت سبلا
وعمّ بجـدواه فلا من منازع ... فحيث تراه لا عبوساً ولا بخـلا
لقد كوّرت شمس بها انفطر السما ... لويل أتى الكفار وانْشَقّ واستولى
ولكن بروج الجوّ تزهو بأحمد ... وفي طارق الأفلاك فَضَّلَه الأعلى
وغاشية كالفجر حلّت ببلدة ... بها حرم أمن كشمس جلت ليلا
وفاقَ الضحى حقّاً جبينُ محمد ... كما بانشراح الصدر قد خَصَّه المولى
فأقسم بالتين الذي عمّ نفعه ... وبالقَلَم الأعلى لقَدْر لهُ أعلى
ألم يكن الكفّار قد ضل سعيهم ... وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى
وقارعة جلّت وألهاهم الهـوى ... ووالعصر إنّ الويل يقريهمُ نزلا
ألـمْ ترَ أنّ اللهَ فضّل أحمداً ... لأمْنِ قريش حيثما سلكوا السبلا
أريت بأنّ الكوثر العَذْبَ خصّه ... به ، وجميع الكفر لن يرِدُوا أصلا
لقـد نصر الرحمنُ ربي محمداً ... فأردى أبا لهب ولم يكتسب نيلا
فيا أحـد إنّي بفضلك عائذ ... إذا غَسَقَ الديجور ناديت يا مولى

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة ، وقد سقط منها كما رأيت سورة الناس ، فقلت مكملاً على نمطه :

ويا مالـكاً للنّاس إنّي لائذ ... بعفوكَ فاغفر عمدَ عبدكَ والجهلا

ويا ربّ عاملنا بما أنتَ أهـله من الجود والرحمى وإن لم نكن أهلا
وصَلِّ على مسك الختـام محمد أتمَّ صلاة تملأ الحَزْنَ والسهلا

[خطبة لعياض يورّي فيها بأسماء السور]

وتذكرت بهذا الموضع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمَّنها سور القرآن على المهيع الماضي آنفاً ، وهي : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ، وبين في سورة البقرة أحكامه ، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه ، وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس والر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصدِّيق في دار الكرامة ، وسبَّح الرعد بحمده ، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنّه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كَهْفَ ولا ملجأ إلاّ إليه ولا يُظلمون قُلامة ، وجعل في حروف كهيعص سرّاً مكنوناً قدم بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلاًّ وصَغاراً لعظمته ، وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنّه كلام الحي القيُّوم ، نزل به الروح الأمين على زَيْنِ مَنْ وافى القيامة ، وأفصح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لرب الأحزاب فسبا فاطر السموات أهلَ الطاغوت ، وأكسبهم ذلاًّ وخزياً وحسرة وندامة ، وأمدَّ ياسين صلى الله عليه وسلّم بتأييد الصافّات فصادَ الزمرَ يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القليب مكدوس ومكْبوب حين شالَتْ بهم النّعامَة ، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين رضي الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فُصِّلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة العذاب وأيس من السلامة ، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى الله عليه وسلّم يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح وبُوّئوا حجرات الجنان وحين

تلوا ﴿قاف والقرآن المجيد﴾ وتدبروا جواب قسم الذاريات والطُّور لاح لهم نجم الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السآمة ، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهُزم المجادلون وأُخرجوا من ديارهم لأوّل الحشر يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة .

أحمده حمدً من امتحنته صفوف الجموع في تغق التغابن فطلق المحرمات حين اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف القلم وكأنّه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، وناح نوح الجن فترمل وتدثر فرَقاً من يوم القيامة ، وأنس بمرسلات النبإ فنزع العبوس من تحت كور العمامة ، وظهر لهُ بالانفطار التطفيف فانشقت بروجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة ، فورب الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرحت صدور المتقين ، حين تلوا سورة التين ، وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يبين ، ولم يكونوا بمنفكين دَهْرَهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفئوا نور القارعة ، ولم يلههم التكاثر حين تلوا سورة العصر والهمزة وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، أرأيتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة ، فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصروا وعدل بهم عن لهب الطامّة ، وبسورة الإخلاص قروا وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعيذوا من كل حزن وهمّ وغمّ وندامة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شهادة ننال بها منازل الكرامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت في الأيك حمامة ، انتهت .

وممّن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي جمعة الوَهْراني ، وفي نفسي من نسبتها له شيء لأن نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .

وكنت رأيت بتلمسان المحروسة بخط عمّي ومفيدي وليّ الله تعالى العارف

المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المفتي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المقـّري — صَبَّ الله عليه سجال الرضوان — خطبةً من هذا النمط نصّها :

[خطبة على مثالها لأبي جعفر الطنجالي]

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفي من آل عمران رجالاً ونساء وفضَّلهم تفضيلاً ، ومدّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه وحقّه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلاً ، ونجّى هوداً من كربه وحزنه ، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه ، وسبّح الرعد بحمده ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوّع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بخفيٍّ لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد شيد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً ، وفضّل طـه على جميع الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ، إذ جعل نور الفرقان دليلاً ، وصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت الشعراء عن صدق نفثه ، وشهدت النمل بصدق بعثه ، وبين قصص الأنبياء في مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه في الغار ستراً مسدولاً ، وملئت قلوب الروم رعباً من هيبته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته ، وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذاً وبيلاً ، فلقبه فاطر السموات والأرض بياسين كما نفذ حكمه في الصافّات ، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات ، وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهَجَرَهم هجراً جميلاً ، فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخّر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخرّت المشركون جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحجر الحجرات الحريز ، وبقاف القدرة

قُتل الخرّاصون تقتيلاً ، كلّم موسى على جبل الطور ، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلّم فاقتربت بطاعته مبادي السرور ، وأوقع آلرحمن واقعة الصبح على بساط النور ، فتعجب الحديد من قوته ، وكثرت المجادلة في أمته ، إلى أن أعيد في الحشر بأحسَنَ مَقيلاً ، امتحنه في صف الأنبياء وصلى بهم إماماً ، وفي تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من التغابن خسراً وإرغاماً ، فطلق وحرم تبـارك الذي أعطاه الملك وعلّم بالقلم ورتل القرآن ترتيلاً ، وعن علم الحاقة كم سأل سائل فسال الإيمان ، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى من الطوفان ، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن فأنزل عليه : يا أيّها المزّمّل قم الليلَ إلا قليلاً ، فكم من مدثر يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسَلَ مرسَلاتِ الدمع فعم يتساءلون أهل الكتاب ، وما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك وتولاّهم بالعذاب ، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ، فويل للمطففين إذا انشقت السماء بالغمام ، وطويت ذات البروج وطرق طارقُ الصور بالنفخ للقيام ، وعزّ اسم ربّك الأعلى لغاشية الفجر فيومئذ لا بلدَ ولا شمسَ ولا ليلَ طويلاً ، فطوبى للمصلين الضحى عند انشراح صدورهم إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنّة فسجدوا باقرأ باسمِ ربّك الذي خلَقَ هذا النّعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر وتبتّلوا تبتيلاً ، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم ، وتسوقهم كالعاديات إلى سواء الجحيم ، وزلزلت بهم قارعة العقاب وقيل لهم : ألهاكُمُ التّكاثُر ، هذا عصر العقاب الأليم وحُشِر الهُمَزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يُظلمون فتيلاً ، وقالت قريش : ما أمنتم من هول المحشر ، أرأيت الذي يكذّبُ بالدين كيف طُرد عن الكوثر ، وسيق الكافرون إلى النار وجاء نصرُ الله والفتح فتبّتْ يدا أبي لهبٍ إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلاً ، فنعوذُ بِرَبّ الفلَق مِنْ شَرّ ما خلَق ، ونَعوذُ بربّ الناس ملكِ النّاس إلَهِ النّاس مِنْ شَرّ الوسواس الخنّاس الذي فسق ، ونتوب

إليه ، ونتوكّل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، انتهى .

وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي رحمه الله تعالى ونفعنا به وبسلفه[1] الطاهر .

[عود إلى نظم ابن جابر]

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله :

جعلوا لأبناء الرسول علامةً ... إنّ العلامةَ شأنُ مَنْ لم يُشْهرِ
نورُ النبوّةِ في كريم وجوههم ... يغني الشريفَ عن الطراز الأخضرِ

وفي هذا المعنى يقول شمس الدين[2] الدمشقي :

أطرافُ تيجانٍ أتت من سندسٍ ... خضرٍ بأعلامٍ على الأشرافِ
والأشرفُ السلطان خصّهُمُ بها ... شرفاً لتفرقهم من الأطرافِ

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي الألفي ، رحمهم الله تعالى .

وقال الرحالة ابن بطوطة في رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح ابن الملك المنصور ما نصّه[3] : وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض الشام والعراق

---

١ ق : وبنسله .

٢ ق : شمس الدين الحزين .

٣ رحلة ابن بطوطة : ٢٣٨ ، وقال ابن بطوطة في الملك المنصور والد الملك الصالح : كان كريماً شهير الصيت ولي الملك بها (أي بماردين) نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خذابنده بابنته ديار خاتون .

ومصر أكرم منه ، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جرياً على سنن أبيه ، قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الموّاري الكفيف مادحاً فأعطاه عشرين ألف درهم ؛ انتهى .

ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى :

وفي الخيامِ وَمَنْ لي بالخيام رَشاً ... لا أحسبُ البدرَ في حُسنٍ يقاومُهُ
مثلُ الغزالةِ إن تاهتْ وإن طلعتْ ... فكيف يصرفُ عنه الصبَّ لائمُهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

في القلبِ من حبِّكم بدرٌ أقام بـهِ ... فالطرفُ يبصرُ نوراً حين يبصرُهُ
تَشابه العقدُ حسناً فوق لَبّتهِ ... والثغرُ نظماً إذا ما لاحَ جوهرُهُ

وقوله :

ردفٌ أقام لنا بها فتنَ الهوى ... وإذا أتت لتقومَ قالَ لها اقعدي
أبصرتُها ما بينَ ذاكَ وبين ذا ... فوقعتُ منها في المقيمِ المقعدِ

وقوله :

سامَحَ بالوصـلِ على بخلِهِ ... وقال لي أنت بوصلي حقيقْ
فقلتُ ما رأيك في نزهةٍ ... ما بينَ كاساتٍ وروضٍ أنيق
فقال يعني خـده واللمى: ... هذا هو الروضُ وهذا الرحيق
فبتُّ مِنْ دمعي ومن خدّه ... ما بينَ نعمانٍ وبين العقيق
وإذ تذللتُ عـلى حبّـه ... قال : أما تخشى ؛ أما تستفيق ؟
قدي وخدي خفْهُما يا فتى ... هذا هو الرمحُ وهذا شقيق

وقوله :

وَقَفَتْ للوداع زينبُ لمّـــا رحل الركبُ والمدامعُ تُسْكَبْ
مسحَتْ بالبنان دمعي ، وحلوٌ سكبُ دمعي على أصابعِ زينَبْ

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى :

ومن قصيدة موشّحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين ابن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه ، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قولهُ :

ما لي بحملِ الهوى يَدانِ مِنْ بَعدِ ما أعوزَ التداني
أصبحتُ أشكوه من زمانِ ما بتُّ منـــه على أمانِ
ما بالُ عينيكِ تَسْجمانِ والدمعُ يرفَضُ كالجمانِ
ناداك والإلفُ عنك وانِ والبعدُ من بعده كواني
يا شقّة النفسِ من هوانِ لجَّجَ في أبحـــرِ الهوانِ
لم يثنهِ عن هواك ثانِ يا بغيةَ القلبِ قَدْ كفاني

وقال بعض الحفّاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق : إنّه أخذ عن جماعة غيرهم ، كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسني السبتي نزيل تلمسان ، والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد الله محمد المقّري التلمساني القرشي ، والشريف العالم أبي القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجدّ الأدارسة .

قال : وروى أيضاً عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثمّ السبتي نزيل غرناطة ، والقاضي أبي البركات البلفيقي ، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر ابن صفوان القيسي المالكي ، وابن خاتمة ، والفقيه الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح العالم أبي عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل فاس ، وغيرهم ممّن يطول تعدادهم من الأئمّة الأعلام ، نجوم الإسلام ؛ انتهى.

[خطبة للكفعمي في تضمين أسماء السور]

وقد وقفت للكفعمي رحمه الله تعالى في شرح بديعيته على خطبة وقصيدة من هذا النمط . قال رحمه الله تعالى ما نصه :

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، في فنها عزيزة ، وجعلناها في مدح سيد البرية ، وتورياتها في السور القرآنية ، فكن لسورها قارياً ، ولمعارجها راقياً ، وعلّ وانهل من شرابها السكري ، وفكه نفسك بتسجيعها النميري ، وهي هذه :

الحمد لله الذي شرّف النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام ، وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له الذي نجّى يونس وهوداً ويوسف من قومهم برّعد الانتقام ، وغذى إبراهيم في الحجر بلُعاب النحل ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام ، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله الذي هو طـه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضله تخبر ، ولقصص العنكبوت الروم تذكر ، ولقمان في سجدته يشكر ، والأحزاب كأيادي سبا تُقْهَر ، وفاطر يَس لصافّاته ينصر ، وصاد مقلة زمره تنظر الأعلام ، فآل حم بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظهرت ، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عطرت ، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت ، وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت ،

وصفّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحريم ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام ، وفي الحاقة أعلى الله له المعارج على نوح المتطهر ، وخصّه من بين الإنس والجن بيا أيّها المزّمّل ويا أيّها المدّثّر ، وشفّعه في القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نبإ النازعات وقد عبس الوجه كالهلال المتنور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حرست لمولده السماء بالطارق الأعلى وتمّت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللئام ، فهو البلد الأمين وشمس الليل والضحى المخصوص بانشراح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج من أمشاج العلق الطاهر العلي القَدْر ، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهُمَزَةَ وأصحاب الفيل إذ مكروا بقريش ولم يتواصَوْا بالحقّ ولم يتواصَوْا بالصبر ، المخصوص بالدين الحنيفي والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تبّت يدا معاديه ، ونعم بالتوحيد مواليه ، وما أفصح فلق الصبح بين الناس وامتد الظلام .

[قصيدة على مثالها للكفعمي]

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن ، في مدح سيد ولد عدنان ، يحسن هنا أن ننضي عن فرائد نفائسها لطلابها ، ما أغدف من خُمُرها وستورها ، ونُجلّي عن خرائد عرائسها لخطابها ، ما أسدف من غُرَرها في خدورها ، فانظر إلى سور أبياتها وصور توريّاتها ، ثم ادْعُهن يأتينك سعياً ، فحفظاً لها ووعياً ، وهي هذه :

يا مَنْ له السبعُ المثاني تنزلُ وخواتم البقرهْ عليه تنزلُ
في آل عمران النساء لم تلدْ كنظيره الأجساد ذلكَ تفعل

مولى له الأنعام والأعراف والا ـأنفال والحِكَم التي لا تُجهل
بعُلاه توبة يونس قبلت كذا هود ويوسف رعدهم يتجلجل
وكذاك إبراهيم في حجر له والنحل في الإسرا عليه تعوّل
يا كهفَ مريمَ أنت طهَ الأنبيا والحج ثم المؤمنون الأفضل
يا نورُ يا فرقانُ يا مَنْ مدحه نطقت به الشعراءُ وهو المرسل
والنملُ في قَصَصِ الحديث به دعت وعليه نسجُ العنكبوت يهدّل
والروم تتلو إسمه ولكم به لقمان حقّاً في المضاجع يسأل
وبعزمه الأحزاب جمعهم سبَا وبه الملائكةُ الكرامُ تفضل
يس سمّاه الإلهُ بذكره وكواكبٌ بسعوده لا تأفل
يا ليتني صادٍ شربت بكأسه وعليه في زُمَر وردت فأنهل
كم مؤمنٍ قد فُصِّلَتْ أعلامه من زخرفٍ بجَدَاه يا من يعقل
ودخان جاثية على أحقافها بقتاله أطفى وفتح أدخل
حجراتُ قاف ذارياتُ سمائه في طورها نجمٌ منيرٌ يكمل
ودنا له القمرُ المنيرُ وشقّه الـ رحمنُ واقعةٌ له لا تُجهل
زَغَفُ الحديد بحربه أصواتها رعدٌ مجادلةٌ لقومٍ أبسلوا
وله لدى الحشرِ العظيم شفاعةٌ في أمّة بالإمتحان تسربلوا
عن صَفّ جمعته المنافقُ نائياً يومَ التغابن من حديد ينعل
يا مَنْ به شُرِعَ الطلاقُ ومن له الـ تحريمُ والملكُ العظيمُ الأكمل
يا من به ذو النون لاذ بيُمنه لمّا أصيب بحاقة لا تعدل
يا من سأَلْ نوحٌ بطاهر إسمه يا من أتته الجنُّ يا مزّمّل
مدّثّرٌ يومَ القيامةِ شافعٌ ومخلّصُ الإنسانِ وهو الموئل
يا مَنْ نزولُ المرسلات ببعثه[1] يا أيّها النبأ العظيمُ الأكمل

-----

١ - ق : بغيثه .

والنازعات نزعن نفسَ عدوّه هذا ، وقد عبس الجبين وأذهلوا
وهو الشفيع إذا المنيرة كوّرت والإنفطار من السماء يعجل
ولدى ذوي التطفيف ويْلٌ والسما في الإنشقاق إذ البروجُ تبدل
والله قد حرس السماء بطارقٍ لولادةِ الأعلى بهِ يتفضل
وأزال غاشيةَ العذابِ ونوره كالفجر إذ أنواره تتهلّل
بلدٌ أمين ثم شمس أشرقت والشعر ضاهى الليل بَلْ هو أليل
شمس الضحى من وجهه ولصدره ألانشراحُ ، وقلبهُ لا يغفل
يا من أتى في التينِ حقّاً ذكره فاقرأ ولا يرتاب فيه ، واسألوا
يا من ليالي القدر بيِّنةٌ له وعداه بالزلزالِ منهُ تزلزلوا
بالعادياتِ أزال قارعةَ العدا وبقولهِ ألهاكمُ ما تجهل
ولقد أتى من قبلِ عصرِ نبيّنا ويلٌ لأهلِ الفيلِ منه وقُتِّلُوا
هو صاحبُ الإيلاف والدين الذي يُسْقى غداً من كوثر يتسلسل
والكافرون لنصره في جيدهم مَسَد إذا التوحيد عنه تعدل
يا خاتماً فَلَقُ الصباحِ كوجهه[1] والنّاس منهُ مكبر ومهلّل
أبياتها ميقاتُ موسى عدّةً والكفعميُّ بمَدْحِهِ يتَجَمّل
صلّى عليهِ اللهُ مَع أصحابهِ[2] ما زال طير العندليب يعندل

[ترجمة الكفعمي]

والكفعمي هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عيما[3] قرية من قرى أعمال صفد ، كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار :

١ ق : بوجهه .
٢ ق : ثم صحابه .
٣ في ق والتجارية: عتما ، والكفعمي نسبة إلى كفر عيما إحدى قرى جبل عامل، كما ذكره صاحب—

عبدري ، وإلى حصن كيفا : حصكفي ، وشرحه لبديعيته سماه نُور حَدَقة البديع ونَوْر حديقة الربيع »[1] وما رأيت مثله في سعة الحفظ والجمع .

ومن نظمه في أسماء الكتب :

يا طريقَ النجاةِ بحرَ فلاح   أنتَ دفعُ الهموم والأحزانِ
أنت أنسُ التوحيدِ عدّةُ داعٍ   ثم روحُ الإحيا وفلكُ المعاني
نهج حيٍّ ونثرُ درّ نبيــه   ورياضُ الآداب ذكرى البيان
فائقٌ رائعٌ مسرةُ راضٍ   منتهى السؤلِ جامعٌ للأماني
نزهةٌ عدّةٌ طرائفُ لطفٍ   روضةٌ مبهج جنانَ الجنان
زاهرٌ كاملٌ شهاب وكنز   مجتنى من ذخيرة الإخوان
فصحاحُ الألفاظ فيه تلقّى   وشذورُ العقودِ والمرجان
وهو قوتُ القلوب نهج جنان   وكنوزُ النجاح والبرهان

فناسب بين أسماء الكتب ، وقصدُه غيرُ ذلك ، وأكثر هذه الكتب التي ورّى بها غير موجودة بأيدي الناس ، بل ولا معروفة لديهم ، وهذا دليلٌ على سعة اطلاعه .

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتبَ بها إلى قاضي القضاةِ العالم العلامة أبي العباس ابن الفرفور[2] في شأن أستاذ دار قاضي القضاة المذكور الأمير علاء

= روضات الجنات (٧) نقلا عن بهاء الدين العاملي،والنسبة الشائعة إليها كفعماوي . والمترجم به إمامي المذهب ، وله كتب وأشعار وتصانيف منها : كتاب جنة الأمان الواقية المشتهر باسم المصباح وكتاب البلد الأمين والدرع الحصين وكتاب نهاية الأرب في أمثال العرب وغيرها ، وقد توفي سنة ٩٠٥ .

١ ذكره حاجي خليفة (١٩٨٢) وأوله : الحمد لله الذي شيد بنيان صرح البيان .

٢ هو شهاب الدين أحمد بن محمود بن عبد الله بن محمود الشهير بابن الفرفور الدمشقي الشافعي (٨٥٢-٩١١) ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر سنة ٩١٠ فأناب عنه بدمشق ولده ولي الدين (الكواكب السائرة ١ : ١٤١) .

الدين ، ويخرج من أثنائها قصيدة منها : يقبّل الأرض وينهي (سلام) عبد لكم (محب) وعلى المقة مكب (لو بدا) للناظرين (عشرُ) معشار (شوقه) وغرامه (لطَبّقَ) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) لشدة هيامه (تراه) حقّاً (لكم) حافياً (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور (داعياً) لا جرم (وهذا) الثناء المتوالي و (الدعا) للمقام العالي (لا شكّ من لازم الفرض) ملكه الله تعالى أزمّة البسط والقبض ، (وأنجاك) ربي من المعاطب (في) دينك و (دنياك) وأنقذك (من) شر (كل) صغير (شدة) وكبيرها ، (وأرضاك) ، وجعلك أميناً (في) الأرض ، إلى (يوم القيامة) والنشور (والعرض ، كما أنت) أمن (لي) من المخاوف و (عون) في كل شدة (وغوث) وملجأ (وعدة) وأنجحت آمالي (ووفرت) بإخدامك (لي مالي) وأحسنت قرضي (ووفرت) بإجلالك (لي عرضي ، ويُنْهي) المملوك (إلى) سيده (قاضي القضاة) وكافي الكفاة (بأن) المتولي الأمين (ذا) الفخر المبين (علي ابن) المرحوم (فخر الدين) قولُه (في أمركم) العالي (مرضي) وفعله مقضي (ومدحكم) عليه (فرض) واجب (قراه) أبداً (لسانه) ويذكر المناقب (وحبّكم) له واختياركم (إياه) دالٌّ بأنّه أمين حليم (شاهده) حقّاً (يقضي) بجعله على خزائن الأرض إنّه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم) ليس من مدائحه ، و (لا يمرّ) أبداً (بقلبه) وجوارحه (وإن مرّ) في خاطره (لا يحلو) قطعاً (وحكمكم) عليه شرعاً ، ومرسومكم (يمضي) وأمركم يقضي (يتيه) سروراً (به) رؤساء أهل الشام ، ومن في (القبيبات) من الأنام ، (عزّة) وعلوّاً (لخدمته) الشريفة (إياك) ولأنّه (يا قاضي) قضاة الدين و (الأرض) لا يريد سواك ، (فإن يك) الخادم المذكور (في) بعض (أفعاله) غافلاً (أو) في (مقاله) غير كامل و (عصاكم) في بعض الأمر (فعين العفو) والستر (عن ذنبه) لا جرم (تُغْضِي) ، وهو بتوبته إليه يُفْضِي ،

و (سلام) الله (عليكم) ورحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذرّ) في المشارق (شارق) ومما دارت الأفلاك، (وسبحت) بلغاتها (الأملاك، في) فسيح (الطول و) رحب (العرض)، دوماً ما بين السماء والأرض.

وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة:

سلام محب لو بدا عُشْرُ شوقه — لطبّق ما بينَ السّموات والأرضِ
تراه لكم بالأمن والسعد داعياً — وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض
وأنجاك في دنياك من كل شدة — وأرضاكَ في يوم القيامة والعرض
كما أنتَ لي عون وغوث وعدّة — ووفرت لي مالي ووفرت لي عِرضي

هذا، ويصح أن يقرأ «عوناً» بالنصب على الحاليّة، وهو الذي رأيته بخطه، أعني الكفعمي، ثم قال:

وينهي إلى قاضي القضاة بأنّ ذا — عليٌّ بن فخر الدين في أمركم مَرْضِي
ومدحكُمُ فرض قراه لسانه — وحبّكم إيّاه شاهده يقضي
حديث سواكم لا يمر بقلبه — وإن مرّ لا يحلو وحكمكم يمضي
يتيهُ بـهِ أهلُ القبيبات عزّة — لخدمته إياكَ يا قاضيَ الأرض
فإن يكُ في أفعاله أو مقاله — عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضي
سلام عليكم كلّما ذرّ شارق — وسبّحتِ الأملاك في الطول والعرض

قلت: وهذه طريقة بديعة، وقد تبارى فيها البلغاء، فبعضهم يعمد إلى أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها، ويفرقها في أبياته أو سجعاته، ويكتبها بلون مخالف للأصل، وقد ذكرت في روضة الورد من «أزهار الرياض» من كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه، فليراجعه مَنْ أراده، وذكرت في غيره أيضاً نبذة.

رجع إلى نظم ابن جابر – فمن ذلك قوله :

نادَيتُ مَنْ أسْرِي به بحياة من أُسْرِي بِهِ
سلْ مدمعاً تجري بهِ بَلْواهُ في تجريبهِ

وقوله :

أيّها العاذلُ في حـبي لـهُ خلِّ نَفْسي في جوَاها تحترقْ
ما الذي ضَرّكَ منْهُ بَعْدَمَا صار قلْبي في هواه تحتَ رِقّ

ولـه :

بَرْدُ الصباحِ على بَرْدِ الصَّبا سَحَراً ما زالَ يُذْكرني أوقات نعمانِ
لهفي لعيشٍ قضينا في معاهدها ما بينَ حُسْنٍ من الدنيا وإحسانِ

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضاً :

جعلتُ ملاكَ العين والقلبِ في الهوى بناطقةِ القُرْطَيْن صامتةِ القُلْبِ
تصحّفُ لي ألحاظُها لينَ قدِّها وتقلبُه كيما تصيدَ بهِ قلبي

قال بعض علماء المشرق : أجاد والله هذا العالم المغربي المقالَ ، وأراد أن لفظ لين إذا قُلب صار «نيلاً» ، وإذا صُحِّف صار «نَبْلاً» ، وهذا زيادة على ما فيه من التحريف ؛ انتهى .

[من شعر أبي جعفر رفيق ابن جابر]

وقريب منه لرفيق المذكور قولُه :

يفترُّ عَنْ بَرَدٍ يثير ببردِهِ حَرَّ الغرام ولا سبيلَ لرشفِهِ
أخذ الرشا من حُسنه طَرَفاً لذا نَسَبَ الورى ملح الجمالِ لطرفِهِ

وله :

تجرُّ فرعيهـا على إثرها رافلةً في حُلَلِ الحسنِ
فتُطلعُ البدرَ لنا في الدجى وتُرسلُ البدرَ على الغصنِ

وله :

قد نعمنا بجزعِ نَعْمانَ لكنْ عقّنا البعدُ ، والعقوقُ قبيحُ
قُلْ لأهلِ الخيامِ أمّا فؤادي فجريحٌ لكنَّ وُدّي صحيحُ

وقوله :

مُقَدّماتُ الرقيب كيف غَدَتْ عند لقـاء الحبيب متّصلَهْ
تمنعُنا الجمعَ والخُـلُوَّ معاً وإنّما ذاكَ حُكْمُ مُنْفصِلَهْ

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين :

رحمةً أرسـلهُ اللهُ لنـا وشفيعاً قد غدا فينـا غدا
وَهَبَ المـالَ لمن مالَ لَهُ وفَدى من ذنبه مَنْ وَفدا
ليس يحصي فضلَهُ إلا الذي هو أحصى كلَّ شيء عددا

وله :

حَسِّنِ النيةَ ما اسطعتَ ولا تتّبعْ في الناسِ أسبابَ الهوى
إنّما الأعمالُ بالنياتِ ، مَنْ ينوِ شيئاً فـله ما قد نوى

وله :

قالَتْ وقد حاولتُ نيلَ وصالها مِنْ غيرِ شيء لا تجوزُ المَسألَهْ
بالله قُلْ لي أين نحوك يا فتى أرأيتَ موصولاً يجيءُ بلا صلَهْ

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرَتِه ، وقضيةُ ابن عنين في ذلك مع المعظّم دالةٌ على توقد فكرته ؛ وما ذاك إلاّ أنّه مرض فكتب إلى الملك المعظّم :

انظرْ إليَّ بعين مولًى لم يزلْ يُولي الندى وتَلافَ قبلَ تلافي
أنا كالذي ، أحتاجُ ما يحتاجُهُ فاغنمْ دعائي والثناء الوافي

فعاده المعظّم وأعطاه ألفاً ، وقيل : ثلاثمائة ، وقال له : هذه الصلة ، وأنا العائد .

قال بعض المغاربة في هذا : قد تلطف ابن عنين في الصلة والعائد ، وأجاد وسبق المعظم إلى فهم مقصوده مطابقة الجوار فأتى بما يُستغرب عن سيبويه ونظرائه ، فلذلك جعل الشرف ابن عنين ديوانه مملوءاً بمدحه وأطرابه ، ونقلته من حفظي وفيه بعض تغيير بيتين .

[عود إلى شعر ابن جابر]

وقال ابن جابر المذكور :

يا دارَ ليلى لا صَمَتَتْكِ يدُ البلى وسقاك دَرُّ الغيثِ كلُّ سحابِ
أصبو إلى تلك الربوعِ ، وكيف لا أصبو وهنَّ منازلُ الأحبابِ

وقال من قصيدة :

وأطلبُ تشويقَ الأنامِ بحسنِهِ فأذكرُ من أسمائِهِ كلَّ طيّبِ

ومنها :

وإنّيَ لم أمدحْهُ إلا تشوّقاً وإن كان مشهوراً بشرقٍ ومغربِ

وقال :

أمر الشباب [........] فَهِمْنا فقالت : دَمْعَتي أغلى
أسرَ الهوى مهج الأنامِ لها إذ سلَّ من أعطافها أسلا

وقال :

ظعنوا [والقدود] منهم رماح طعنوا في الحشا بها فأصابوا
جاذ دَمعي لهم وقد حاذ صبري حين سارت بالظاعنين الرّكابُ

وقال :

شاه وَجْهُ الرقيبِ إذ شاء وَصْلي قمري ، والأنامُ عنّا نيامُ
زارني بالنّهارِ في الليلِ لكنْ ليلُ فرعٍ يحارُ فيه الظّلامُ

وقال :

يا أيّها الجائرُ في حكمه إنيّ فيما قد جرى حائرُ
قدُّكَ من أعدلِ شيءٍ يُرَى وأنت في أهلِ الهوى جائرُ

وقال :

قَدْ زعم العاذلُ لي أنّهُ يُهدي ليَ الرُّشْدَ بما يصنعُ
ما هُوَ هادٍ لي ولكنّهُ هاذٍ فسمعي قال لا تسمعوا

وقال :

شفى فؤادي من شقا هجره وبتُّ من لقياهُ في عيدِ
وزارني يحكي غزالَ النقا في الحسنِ لولا الحليُ في الجيدِ

وقال :

سلبَ القلبَ غـزالٌ قَدُّهُ قدْ حكى البانَ لنا والسَّلَما
ســاحرُ العينِ إذا أبصره كاتبٌ ألقى لديه القَلَما

وقال :

يكفي الأنامَ بسيفه وبسـيبه عقَدَ المكارهَ والمكارمَ دائما

وقال :

تحلّت بما يحكي محاسن ثغرهـــا وحلّتْ عقودَ الصبرِ مني عقودُها
ثقيلةُ أردافٍ فَصَعْبٌ قيامُها بما حملتْ منها وسـهلٌ قعودُها

وقال :

أبى حُسْنُها إلاّ افتتـانَ قلوبنا فكَم قد أباد الحسنُ فيها من الناسِ
وقالت تحمّلْ طولَ هجريَ إن تُرِدْ وصالَ ذواتِ الحسن قلتُ على راسي

وقال :

أرى أُناساً ، من أراد الرضى منهم رجا ما ليس بالمُمكنِ
سيّانِ أن يعطوا وأن يمنعوا قد ضاعَ فيهم كرمُ المحسنِ

وقال :

يا جيرةَ الحيِّ حيَّا الله واديَكم فكَمْ سرورٍ به للقلبِ قد عرَضا
فلن أنـــالَ حياةً أستلذّ بهـــا إذا أنا لم أنلْ من وصلكم غرضا

وقال :

شبَّ حرَّ الفؤادِ ماءُ رضابٍ منهُ قد حارَ فيــهِ ماءُ الغمامِ
زان بالحلي جيدَهُ قلت : ماذا ؟ قال : شيءٌ نظمتهُ مـنْ كلامي

وقال :

صادَ قلْبي وصدَّ عني صدودا ... وانثنى يسحبُ الذوائبَ سودا
فرأيتُ الصباحَ في الليلِ يبدو ... وشهدتُ الرَّشا يصيدُ الأسودا

وقال :

إنّي سئمتُ من الزمان لطولِ ما ... قد صدَّ عن حُسْنِ الوفاء رجالَهُ
ومن النوادرِ في زمانك أن ترى ... خِلاً حمدتَ ودادَهُ وخِلالَهُ

وقال :

إنْ قابَلَ الغصنَ بأعطافِهِ ... فقلْ أن تُبصرَ من فَرْقِ
قلتُ قد استبعدَ كلُّ الورى ... فقال ذاكَ البعضُ من حقّي

وقال :

صَحَّ أنَّ الصباحَ من وَجْنَتَيها ... وغصونَ الرياضِ من معطفيها
قاتلَ الله عاذلي قـلْ يومٌ ... ليسَ يسعى بالعذلِ فيه إليها

وقال :

شَدُّوا محاملهُم يومَ الرحالِ وقَدْ ... محا رسومَ اصطباري فَقْدُ مَنْ رَحلا
هزُّوا الغصونَ على الكثبانِ حينَ مَضَوْا ... وأسبَلوا فوقَ أقمارِ الدجى كِلَلا

وقال :

خدٌّ ترى الوردَ بعضاً من محاسنه ... تَبارَكَ اللهُ ما أبهى شمائلَهُ
لصارمِ اللحظِ قد أرخى حمائلَ مِنْ ... عذارِهِ فحمى عنّـا خمائلَهُ

وقال :

قامَ حادي الركابِ ليــلاً فغنّى فاستقامَ السُّرى وثارَ الغَــرامُ
قيلَ نام الأنامُ فاهجعْ قَليلاً قلتُ دونَ الحبيب لستُ أنامُ

وقال :

ترامى بنا في البيدِ شوقٌ إلى الحمى ترىَ عنده الأجفانَ منهلّةَ الدمعِ
فلمّا رأينا رَبْعَ مَنْ سكنَ الحَشا نزلنا فقبّلْنا ثرى ذلك الرَّبعِ

وقال :

يراودني الواشي على حبِّ غيرها وإنَّ محالاً أن يرى مثلَ حسنها
موفَّرةُ الأردافِ ، مهضومةُ الحشا يُريك التفاتَ الظبي فاترُ جفنها

وقال :

سلّتْ علينا سيوفاً من لواحظها ومَنْ لنا من سيوفِ اللحظِ من واقي
أضحتْ لسفكِ دمِ العشاقِ هادرةً فما ترى ديةً في قتــلِ عُشّاقِ

وقال :

في خدِّها شَبَهٌ للخالِ أو شيةٌ بما حوى الحسنُ من ألطافِ أسرارِ
وَشْيٌ من الحسنِ لم يحتجْ لصنعِ يدٍ تبارك اللهُ هذي صنعةُ الباري

وقال :

بينَ الجوانح لو علمتَ من الجوى نـارٌ عليها سكْبُ عيني يَهْمَعُ
فَدَعِ المدامعَ في مدى جَرَيانها فالدمعُ بعــدَ فراقهمْ لا يُمْنَعُ

وقال :

قالوا بدارين قد قالوا ، وقد وَردوا ماء العقيق ، وبالزوراء قد باتوا

بانوا عن العينِ لكن بالقلوبِ ثووا وفي البعادِ عن الأحبابِ آفاتُ

وقال :

مليحةُ الخدِّ به شامةٌ كالوردِ قد نُقِّطَ بالغاليه
قلتُ لها : ما اسمك؟ قولي لنا قالت : فما تعرفني غاليه

وقال :

جاريةٌ جاريةٌ في مدًى شبابُها من أملحِ الخلقِ
ما بينَ فَرْقِ الصبحِ لمّا بدا ووجهِها للناسِ من فرقِ

وقال :

لصبِّهِ منهُ امتدادُ النوى فلا يلامُ الدمعُ في صبِّهِ
في قدِّه لينٌ فهلاّ قضى بقلبهِ منهُ إلى قَلْبِهِ

يريدُ بالقلبِ الأول التحويلَ والنقل : أي فهلاّ قضى بنقلِ اللين الذي في قدِّه إلى قلبه .

وقال :

يا لابسَ اللامِ والأسيافُ عاريةٌ قد انعطفتَ على الأعطافِ واللامِ
ويا ضجيعَ رماحِ الخطِّ يُرسلها في كلِّ هامٍ لها باللحظ في الهامِ

الهام الأول : جمع هامة ، والثاني اسم فاعل من همى يهمي .
قال رفيقه : لو قال « من الهام » لكان أليق بالمعنى وألطف .

وقال :

مَنْ مالَ يبغي كَسْبَ مالٍ لَهُ من حِرْمِهِ إن جاء أو حِلِّهِ

فلا تثقْ يوماً بـهِ واحترزْ منـهُ فمـا يُبْقي على خِلـّهِ

وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية :

للهِ عيشٌ بالمـريّة قد ذَهَـبْ أخباره بالحسنِ تُكْـتَـبُ بالذهبْ
وهَبَتْ لنا تلك اللّيـالي مدةً ثم استردَّ الدهرُ منّـا ما وَهَـبْ

وقال :

أنّ من شوقـهِ فثـار الضِّرَامُ ودَرَى الناسُ أنّهُ مُستهامُ
لا تَسَلْ ما جرى من الدمعِ لمّا قيل هذي النقا وهذي الخيامُ

وقال :

صـلاةُ إلـهِ العـالمين على الذي أقلُّ العطايا منه وادٍ من النِّعَمْ
يجودُ على الراجي وإن كان مذنباً وما قوله للسائلينَ سوى نَعَمْ

وقال :

قَدْ سَبا قَلْبي غزالٌ فاتنٌ سَلْ به كيفَ اعتدى في سَلْبهِ
أنا لا أعتبُ فيما قَدْ جرى صَفَحَ الله لَهُ عَنْ ذنبـهِ

وقال :

صبرتُ لَهُ فتمادى بـهِ هواهُ ، فكانَتْ هي الفاصلَهْ
وأنكر بِـرّي ويا طالمـا أتانيَ يوماً فألفى صـلَهْ

وقال :

وليلٍ نظمنا بــهِ شملنا كما انتظم البيتُ بالقافيهْ
وفرقنا الدهرُ من بعد ذا فلستُ من اليومِ ألقى فيهْ

أي فئة ، ولا يكمل التجنيس فيه إلاّ بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ، ولمّا أنشده قال :

ومن هذا النوع قولُ بعض الأندلسيين :

وقائلٍ قالَ ألا صِفْ لنــا بستانَنا هــذا ونارنجنــا
قلتُ لهم بستانكم جنّــةٌ وَمَنْ جنى النارنجَ ناراً جنى

وقال ابن جابر المذكور :

قُلْ بحقٍّ الهوى سمحتِ بوصلٍ ربةَ القَلْبِ أم نهاكِ الرقيبُ
رُمْتُ نَيلَ الوصالِ منها فقالت لك وصلٌ غداً فقلتُ : قريبُ

وقال :

زَيّنَ الخدَّ منه صدغٌ كنونٍ قد بَدا تحتــهُ عِـذارٌ كلامِ
قلتُ هذي محاسنُ ابنِ هلالٍ فانثنى وهو ضاحكٌ من كلامي

وقال :

لها حُسْنٌ لها عن كلّ شيء به قلبي ، فمــا أنا أستفيقُ
علىَ وَجَناتها نعمانُ يبدو لنا وشفاهُها هنَّ العقيقُ

وقال :

تمرُّ في ذكركم ، واللهِ ، أحياني ولو سرى طيفكم ليلاً لأحياني
لا يعذبُ العيشُ لي بعد العُذَيبِ ولا نعيمَ مثــلُ لياليـنــا بنعمانِ

وقال :

مداراةُ هذا الخلقِ أوليك بينهم صفاتٌ هي الأقمارُ والنظمُ داراتُ

وشاراتُ حمدِ المرء أن لا تُرى له على الناسِ ممّا لازم الحلمَ داراتُ

وقال :

أرى كَدْاً سعيي إلى خاملٍ ، ولو أراكَ مدًى في فرقَدٍ بلَغ السُّها
وما الخير يوماً من لَئيمٍ بممكنٍ وإن كان منه الخيرُ يوماً فقد سها

وقال :

أرى حَيَدي عن كلّ طارىء نعمةٍ أراحَ يدي من أن يُقَيِّدها الذلُّ
فمن أخذَ المعروفَ من غير أهله تروحُ الليالي وهو في عُنْقِه غُلُّ

وقال :

شبَا لحظِها الماضي وحُسْنُ شبابها هُما حمّلا نفسي من الوجدِ ما بها
كثيبُ النقا من ردفها ، وقضيبُهُ لمعطفها ، والبدرُ تحتَ نقابها

وقال :

حلّ عَقْدَ الصبرِ مني عِقْدُها إذ سبتْ قلبي بما في قُلْبها
تحسبُ الدُّرَّ على لَبَّتها أنجماً قد كُلِّلَ البدرُ بها

وقال :

شَعَرٌ كالليلِ يبْدو تحتَه قمرٌ قد حار شعري في صفاتِه
نَقَلَ المسواكُ عن مبسمه أنّ ماء الوردِ يجري من لثاتِه

وقال :

مَنْ سَنّ تلك اللحاظَ فاتّبعتْ من سُنَّةِ الحبِّ كلّ متَّبعِ
تقتلُ عشّاقها بلا سببٍ وذاكَ في الحبِّ غيرُ مبتدعِ

وقال :

وما شجوُ صالٍ لوعةَ الهجرِ قد قضى زمانَ وصالٍ لم تُكَدَّر مشاربه
كشجوِ محبٍّ لم يذقْ لـذّةَ الرضى ولا بات والغيدُ الحسانُ تلاعبه

وقال :

سَرَتْ في رحالِ العيسِ منه أهلّةٌ فأيسرُ حالٍ أن أزوّدها قلْبي
بعيشك قلْ لي هل دروا كيف علّتي وفيضَ دموعي بعد مُنصَرَفِ الركبِ

وقال :

مَنْ جنى باللحاظ زَهْرَ المعاني من جَناب الحمى إذا الناسُ ناموا
هو قَدْ نالَ كلَّ ما يتمنى وسَعَتْ في مُـراده ِ الأيامُ

وقال :

لطائفُ حسنها بربوع قلْبي لطائفُ ألجأتْني للغـرامِ
تريك تكاسلاً في اللحظِ منها لتحسبه تَنَبُّهَ من منَامِ

وقال :

إذا زُرْتَ حيّاً بالعقيقِ فحيّهمْ وذكّرْهُمُ عهدي وحقَّ ودادي
حرامٌ فراقُ العيسِ حتى تُحلّني بواديهِ من تلك الوجوهِ بوادي

وقال :

مِنْ فرطِ ما في الطرفِ من فتنةٍ قَدْ غلب الحبُّ على النّاسِ
قالتْ نَسيتَ العهدَ قلتُ اكففي عنّي فما عبـدكِ بالنّاسي

وقال :

بـينَ نعمانٍ وسَلْعٍ مـلأٌ ليس منهُم لمحبّ ألَمُ
كلفي منهُم ببــدرٍ حلّ في فَلَكِ العلياء فاعرفْ مَنْ هُمُ

وقال :

أراقبها وحـينَ أرى سـبيلاً أقاربهـا فتنفرُ كالغــزالِ
وقالت أنْتَ مرتقِبٌ لماذا فقلتُ لها : ارتقابي للهـلالِ

وله من قصيدة مطوّلة في فضائل الصحابة العشرة وأهلِ البيت ، فمما يختص منها بأبي بكر رضي الله تعالى عنه قوله :

فمنهُم أبو بكرٍ خليفتُـهُ الذي له الفضلُ والتقديمُ في كلّ مشهدِ
وصدّيقُ هادي الخلق والمؤثرُ الذي لإنفاقه للمالِ في الله قَدْ هُـدي
وصهرُ رسولِ الله ، وابنتُـهُ التي يبرئها نصُّ الكتابِ المُـمَجَّدِ
وصاحبه في الغارِ إذ قال لا تَخفْ فثالثنا ذو العرشِ أوثقُ منجدِ
وسدَّ على المختار مَخْرج حيَّةٍ هناكَ برجلٍ منهُ فازتْ بأسعدِ
وفيه وفي خيرِ الأنامِ تسامعوا بمكّةَ صوتَ الهاتفِ المتقصدِ [1]
« جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائه رفيقين حلاَّ خيمتي أُمِّ معبدِ » [2]
وعتقُ بِلالٍ حسبه ، فهو سيِّدٌ تأثّلَ في الإسلام ، إعتاقُ سيدِ

---

١ يقال إن أهل مكة سمعوا بعد هجرة الرسول ومعه أبو بكر هاتفاً يقول : جزى الله ... إلخ البيت التالي ؛ وقد مر الرسول وصاحبه بخيمتي أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية فقالا عندها، ويقال إنها ذبحت لهما شاة وطبختها (انظر إمتاع الأسماع: ٤٣ وعيون الأثر ١ : ١٨٨– ١٨٩) .

٢ رواية البيت في عيون الأثر (١ : ١٨٨) :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه رفيقين قالا خيمتي أم معبد

وقد وردت الرواية المثبتة في النفح مع وضع « قالا » موضع « حلا » في ص : ١٨٩ من الكتاب المذكور .

وقال رسولُ الله إنَّ أمنَّكم عليَّ أبو بكرٍ وأوفى بمَوْعدِ [1]
فصدَّق إذ كذبتمُ ، وأطاع إذ عصيتمْ ، ووافاني موافاةَ مُسْعدِ
ولو أنني من أمتي كنت آخذاً خليلاً تولّى خلَّتي وتوددي
لكان أبو بكر ، ولكن أخوةٌ في الاسلام مهما تنقص الناسُ تزددِ [2]
فلمّا أراد الله قَبْضَ نبيّه وصار إلى دار النعيم المخلّدِ
تقدم في نيلِ الخلافةِ بعْده بإجماعهمْ لا بالحسام المهنّدِ
وقد فارقتْ يومَ السقيفة فرقةٌ فلمّا رأته الحقّ لم تتردّدِ
وقام عليٌّ بعدَ ذاكَ مبايعاً فأثنى ثناءَ المخلصِ المتوددِ
وأظهرَ عذراً في تأنيهِ صادقاً وبايعَ طوْعاً لا لفقدانِ مسندِ
فآب بحمدٍ منهمُ غيرَ قاصرٍ ومن يتبعِ الإنصافَ والحقَّ يُحمَدِ
وما أشبه الصدّيقَ في الفضلِ مشبهٌ ولا أحصيت أوصافُهُ بتعدّدِ

وممّا يختص بعمر رضي الله تعالى عنهُ قولُه من هذه القصيدة :

ويتبعه في فضلهِ عُمَرُ الذي رمى عن قسيٍّ الصدق قوس مُسدَّدِ
وما كلُّ مَنْ رام السعادةَ نالها ولكنّهُ مَنْ يُسعدِ اللهُ يَسْعدِ
هو المرءُ لم يتركْ له الحقُّ صاحباً ولا قعد الشيطانُ منهُ بمَقْعدِ
ولا سلك الشيطانُ فجاً قد اغتدى لهُ سالكاً من خوفهِ المتزيّدِ
ومنْ ظلّه قد كان ينفرُ هيبةً لهُ حيثما أضحى يَرُوحُ ويغتدي [3]

---

١ يشير إلى الحديث : « ما من أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر واساني بنفسه وماله » رواه الطبراني ، وفيه أرطاة أبو حاتم وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٩ : ٤٦) .

٢ هو تعبير عن الحديث : « لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن إخاء ومودة إلى يوم القيامة » . رواه الطبراني ، وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك (المصدر السابق ٩ : ٤٥) .

٣ في الأحاديث : « إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه » (مجمع الزوائد ٩ : ٧٠) وهناك أحاديث أخرى في خوف الشيطان منه ؛ وفي صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك .

وقد جاء عنهم : ما برحنا أعزةً ... بإسلامه فانكفَّ مَنْ كان يعتدي
ومن قولهم : إسلامُهُ كانَ غرة ... وهجرته فتحاً شجا كلَّ ملحد
وإمرته كانت على الناس رحمة ... فآبُوا إلى فتح وعزٍّ مُمهَّد
ومن فضله رعيُ النبيِّ بغيرةٍ ... لـه فانثنى عن قصره المتشيد
وقد قيل للفاروقِ : هذا ، ومن به ... فأنبـأه عن ذا النعيم المؤبَّـد
فأقبل يبكي قائلاً كيف غيرتي ... عليك، ولولا أنت ما كنت أهتدي[1]
ورؤيا رسولِ الله للقدح الذي ... تناول من درٍّ به غاية الصدي
وناوله الفاروقَ من بعد ما ارتووا ... إلى أن غدا من ظفره الريُّ يبتدي[2]
فأوّلـهُ العلـم الذي منهُ ناله ... وأوّلَ رؤيا الدلو حُسنَ التأيد
فصارتْ له غرباً فأروى بها الورى ... فكان افتتاحُ الأرض فتحَ مُمهّد
ورؤياه أيضاً في قميص يجـرّه ... وللناس قُمْص بعضها يبلغ الثُّدي
فأوّلَ خيرُ الخلق طولَ قميصه ... بما حازَ في إيمانه من تأيّد[3]
وتفريقه ما بينَ حقٍّ وباطل ... بيومٍ سقى الكفّار أفظعَ مورد
وسمّي بالفاروق من أجل هذه ... وما زال في نصِّ الهدى ذا تجلّد
وحسبك أنَّ الله وافقَ رأيه ... لدى يوم بدرٍ إذ رأى قَتْلَ من فدي
كذا في أذانٍ والحجابِ وجعلهم ... مصلّى مقاماً للخليلِ بمسجد[4]

---

١ يشير إلى الحديث : « دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصراً فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك ؛ فبكى عمر وقال : أي رسول الله، أوعليك يغار؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٣ وورد فيه الحديث بصورة أخرى وانظر مجمع الزوائد ٩ : ٧٤) .

٢ عن ابن عمر عن النبي (ص) أنه قال : بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به فيه لبن فشربت حتى لأرى الري يجري في أظافيري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .

٣ عن أبي سعيد عن النبي (ص) قال : بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرض علي عمر وعليه قميص يجره . فقال من حوله : ما أولت يا نبي الله ذلك ؟ قال : الدين . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .

٤ عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث : مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر (وانظر=

شديدٌ على أهل الهوى رحمةٌ لمن ... عن الحقّ لَمْ يجنَحْ ولم يتحيَّد
وممّا رَوَوْا إن كان في أمةٍ فتى ... يُحَدَّثُ فالفاروقُ من ذاك فاعدد[1]
وما أبغض الفاروقَ إلا مُفارقٌ ... لدين الهدى ذو مذهبٍ لم يسدَّد

وممّا يختصُّ بعثمان رضي الله تعالى عنه قولُه :

وحسبيَ عثمانُ بن عفان أنّه ... عليه اعتمادي وهو سؤلي ومقصدي
إمامٌ صبورٌ للأذى وهو قادرٌ ... حليمٌ عن الجاني جميلُ التعوّد
هو الجامعُ القرآنَ والقانتُ الذي ... إذا جنّ ليلٌ ليس يأوي لمَرْقَد
ويقطعُ بالصوم النهارَ وينثني ... مدى ليلِه في خشيةٍ وتهجّد
وقال رسولُ الله في بئر رومةٍ ... أما مشترٍ يبغي بها الأجرَ في غد
لَهُ الجنّةُ العليا بذلك فاشترى ... وتجهيزُ جيشِ العسرة اذكر وعدِّد
فقال رسولُ الله إذ جاءهُ بما ... قد احتاج من مالٍ وظَهْرٍ وأعبُد
هنيئاً لعثمانَ بن عفّان فعلُهُ ... وما ضرَّه ما بعدُ معْ هذه اليد[2]
وقولٌ ألا أبدي حياءً لمن له ... قد استحيتِ الأملاكُ أشرفُ محتد[3]
وبلّغ بشرى الهاشميِّ بأنّه ... من الجنة العليا بأكرمِ مَقْعَد
ولكن على بلوى ، وقال سأرتضي ... وأصبرُ صبر الطائع المتجلد

= تفصيل ذلك في الرياض النضرة ١ : ٢٦١ وما بعدها وانظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤) .
١ في صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمّتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم ؛ قال ابن وهب في تفسيره محدثون : ملهمون . وانظر الرياض النضرة ١ : ٢٦٠ .
٢ من فضائل عثمان أنه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتم الألف بخمسين فرساً (وقيل أكثر من ذلك) وقال فيه الرسول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » - وهو حديث حسن غريب - وأنه اشترى بئر رومة بعشرين ألف درهم (انظر الرياض النضرة ٢ : ١٢٠ - ١٢٢) .
٣ يشير إلى الحديث الذي ينص على أن الرسول (ص) كان مضطجعاً في بيته كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر ثم عمر وهو على تلك الحال، فلما استأذن عثمان جلس وسوى ثيابه، فلما سئل في ذلك قال: « ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤-٢٣٥).

فأظهر يوم الدار صبر أُولي النُّهى ولو شاء لم تظفر بـه يدُ معتد
ولم يرضَ ، صوناً للدماء ، بحربهم وكان متى يستنجد القومَ يُنْجَد
فمات شهيداً صابراً فهو خير من على نفسه في غيرِ حقٍ قد اعتُدي
على بنتي المختارِ أرخى ستوره فناهيك من مجدٍ وعزٍ مجدَّد
ولم يدع ذا النورين إلا لأنّه حوى بيته نورين من نورِ أحمد
وإنَّ لعثمانَ بنِ عفّان رتبةً من المجد تسمو عن سِماكٍ وفرقد

ومما يختص بعلي رضي الله تعالى عنه قوله :

وإنَّ علياً كان سيفَ رسولهِ وصاحبهُ السامي لمجدٍ مشيَّدِ
وصهرُ النبيِّ المجتبى وابنُ عمّه أبو الحسنين المحتوي كُلَّ سؤدد
وزوّجه ربُّ السما من سمائه وناهيك تزويجاً من العرشِ قد بُدي
بخيرِ نساء الجنةِ الغرِّ سؤدداً وحسبك هـذا سؤدداً لمسوّد
فباتا وَحَلْيُ الزهدِ خيرُ حلاهما وقد آثرا بالزاد من جاء يجتدي
فأثرت الجنات من خلل ومن حليٍّ لها رَعْياً لذاك التزهد
وما ضرَّ مَنْ قد بات والصوفُ لبسه وفي السندسِ الغالي غداً سوف يغتدي
وقال رسولُ الله إنّي مدينةٌ من العلم وهو البابُ ، والبابَ فاقصد
ومن كنتُ مولاه عليٌّ وليّه ومولاك فاصدقْ حبّ مولاك ترشد
وإنّك مني خالياً من نبوّة كهرون من موسى وحسبك فاحمد[1]
وقال غداً أعطِ اللواء محبباً إليَّ وللرحمن بالنصر مرتدي
فباتوا وكلٌّ يشتهي أن ينالها إلى أن بدا وجهُ الصباح المجوّد
فنادى علياً ثم أبرأ عينه بتفث كأن لم يمسِ قبلُ بأرمد
فأعطاه إياها وقال له ادعُهم ومهما أبوا فانهد إليهم تؤيد

---

١ أشار في هذا البيت وما سبقه إلى أحاديث في فضائل علي منها : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « من كنت مولاه فعلي مولاه » ومنها « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

فجدّل منهم من جنى عندما دعا | إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرّد
وقاتل طول اليوم والباب ترسه | يجرّ به للقوم في كل مرصد[1]
فأعجزهن الباب من بعد عشرة | فما الظن في هذا القوي المؤيد
وكان من الصبيان أوّلَ سابق | إلى الدين لَمْ يُسبقْ بطائع مرشد
وجاء رسولُ الله مرتضياً لَهُ | وكان عَن الزهراء بالمتشرّد
فمسّحَ عنه الترب إذ مسّ جلده | وقد قامَ منه آلفاً للتفرّد
وقال لهُ قولَ التلطف « قم أبا | تراب » كلام المخلص المتودد[2]
وفي ابنيه قال المصطفى ذانِ سيدا | شبابكُمُ في دار عزٍّ وسؤدد
وأرسله عَنْــهُ الرسول مبلّغاً | وخُصّ بهذا الأمر تخصيصَ مفرد
وقال هل التبليغ عنيَ ينبغي | لمن ليس من بيتي فبالقوم فاقْتَد
وقد قال عبد الله للسائل الذي | أتى سائلاً عنهم سؤالَ مندّد
وأمّا عليّ فالتفِتْ أين بيته | وبيت رسول الله فاعرفه وأشهد
بأمرين من حرٍّ وبرد فلَمْ يجدْ | أذى بردها أو حرّهــا المتوقد
وما زالَ صوّاماً منيباً لربّه | على الحقّ قوّاماً كثيرَ التّعبّد
قنُوعاً من الدنيا بما نال ، معرضاً | عن المال ، مهما جاءه المال يزهد
لقد طلّق الدنيا ثلاثاً ، وكلّما | رآها وقد جاءت يقولُ لها ابْعَدي
وأقربهم للحق فيهــا وكلّهم | أولو الحق لكنْ كان أقربَ مهتد

ومنها في ذكر السِّبْطين رضيَ الله تعالى عنهما :

١ قص في هذه الأبيات إعطاء الراية لعلي يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه » ثم سأل عن علي فقيل : إنه يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع ؛ وفي الهجوم على الحصن طرح ترسه وتناول باباً عند الحصن فترس به نفسه . . . إلخ . (الرياض النضرة ١ : ٢٤٢ – ٢٤٧) .
٢ في سبب تلقيب علي بأبي تراب انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٨ .

وبالحسنين السيدين توسُّلي بجدهما في الحشر عند تفرّدي
هما قرّتا عين الرسول وسيدا شبابِ الورى في جنّة وتخلّد
وقال : هما ريحانتايَ ، أحبُّ مَنْ أحبَّهما ، فاصدقهما الحبَّ تسعد
هما اقتسما شبهَ الرسولِ تعادلاً وماذا عسى يُحْصِيه منهمْ تعددي
فمن صدره شبهُ الحسينِ أجله وللحَسَنِ الأعلى وحسبكَ فاعدد
وللحسن السامي مزايا كقوله هو ابنيَ هذا سيدٌ وابن سيد[1]
سيُصلحُ ربٌّ العالمين به الورى على فُرقةٍ منهم وعظمٍ تبدد
وإن تطلبوا ابناً للنبي فلَن تَرَوْا سواي : مقالٌ منهُ غيرُ مفنَّد
بدا سيداً ظَهرَ الرسول قَدْ ارتقى فَقَرَّ ولم يُعْجِله وهوَ بمسجد
فقالوا لَهُ طال السجودُ فقال لا ولكنما ابني خِفْتُ إن قمتُ يشرد[2]
وكان الحسينُ الصارمَ الحازمَ الذي متى يُقْصر الأبطالُ في الحرب يشدد
شبيهُ رسولِ الله في البأسِ والندى وخيرُ شهيدٍ ذاق طعمَ المهنَّد
لمصرعه تبكي العيونُ وحقُّها فللهِ من جرمٍ وعظمٍ تمرّد
فبعداً وسحقاً لليزيد وشِمْرِهِ ومَنْ سارمَسرَى ذلك المقصدِ الردي

ومنها في ذكر حمزة رضي الله تعالى عنه :

ومن مثلُ ليثِ الله حمزةَ ذي الندى مُبيدِ العدا مأوى الغريبِ المطرَّد
فكم حزَّ أعناقَ العُداةِ بسيفهِ وذبَّ عن المختار كلَّ مشدد
فقال رسولُ الله : هذا أمرته ولي أسدٌ ضَارٍ لدى كلِّ مشهد
وقال أبو جهلٍ : أصبت محمداً بما ساءه فاهتزَّ هِزَّةَ سيّد

---

١ إشارة إلى الحديث : إن ابني هذا سيد وليصلحن الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . (مجمع الزوائد ٩ : ١٧٨) .

٢ انظر الخبر عن الحسن كيف جاء وهو طفل فصعد على ظهر النبي وهو ساجد . (المصدر السابق ص : ١٧٥) .

وأهوى له بالقوس ما بين قومه ، وقال : وأخرى بالحسام المهنّد
وقال لَهُ : إنّي على دينه فإن أطَقْتَ فعرّج عن طريقيَ واردد
فذلّ أبو جهل وأبدى تلطفاً ومن ينصرِ الحقَّ المُبين يؤيد[1]
فعاد وقد نالَ السعادة واهتدى وأضحى لدين الله أكرم مسعد
وفي يوم بدرٍ حثّ عند سؤالهم لما شهدوا من بأســه المتوقّد
لمن كان إعلامٌ بريشِ نعامةٍ يشردنا مثــلَ النعامِ المشرَّد
فذاك الذي والله قد فعلتْ بنا أفاعيــلُه في الحربِ ما لم نُعَوَّد
وفي أحُــدٍ نال الشهادةَ بعدما أذاقَ سباعاً للردى شرَّ مورد
ففاز وأضحى سيدَ الشّهداء في مــلائكةِ الرحمن يسعى ويغتدي
وصلّى رسولُ الله سبعينَ مرّة عليهِ إلى ثنتين عنــد التعدّد
وقال : مصابٌ لن نُصابَ بمثله وإن كان لي يومٌ سـأجزي بأزيد
وأسْمعهُـم لكن حمزة ما له وبشر بالنّار النوائح ما عدي
نوائحُهُ . . . . وقلنَ يا أعين اسعدي[2]
وزاد إلى فضلِ العمومةِ أنّه أخوه رضاعاً هكذا المجدُ فاشهد
وما زال ذا عِرضٍ مصونٍ عن الأذى ومالٍ مهانٍ في العطايا مبــدد
كريمٌ متى ما أوقد النّارَ للقِرى « تجد خير نار عندها خيرُ موقد »[3]

ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه :

---

١ يتحدث عن إسلام حمزة بعد أن سمع أن أبا جهل أساء إلى النبي فجاء إلى أبي جهل بفناء الكعبة ، وجمع يديه بالقوس وضربه بها فيقال إن أبا جهل قال له : « ما كنت يا أبا عمارة فاحشاً » وعلى أثر هذه الحادثة أعلن إسلامه . (مجمع الزوائد ٩ : ٢٦٧) .

٢ تتحدث كتب السيرة بإسهاب عن استشهاد حمزة يوم أحد على يد وحشي ، وحزن النبي عليه ، وصلاته عليه كلما صلى على شهيد من أمته ، وقوله « لكن حمزة لا بواكي له . . . » وقوله « لن أصاب بمثلك أبداً » .

٣ شطر بيت للحطيئة (ديوانه : ٥١) وصدره : متى تأته تعشو إلى ضوء ناره .

وقد بلَغَ العباسُ في المجد رتبةً تقولُ لبدرِ التم : قصَّرتَ فابعدِ
ألا إنّه فَضْلَ السقايةِ قَدْ حوى فكان لوفدِ الله أكرمَ مورد
وكان طويلَ الباع في الباس والندى كريماً متى يسترفدِ القومُ يرفد
ويومَ حُنينٍ ليس يُنْسى ثباته ودعوته مستنجداً كلَّ منجد
وقال رسولُ الله فيه عليٌّ ما عليه وأيضاً مثله في التزيد
ألا إنَّ عمَّ المرء صنو أبيه كي يزيدهم في برّهِ المتأيد
وبَشّره أنَّ الخلافةَ في الورى لأولاده من سيدٍ ومسوَّد
بشيبته استسقوا إذ المحلُ شاملٌ فجاءهُمُ غيثٌ سقى كلَّ فدفد

انتهى ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة ، وليس بيدي الآن ديوان شعره حتى أكتبها بكمالها فإنّها مناسبةٌ لهذا الباب الذي جعلناه ختماً للكتاب كما لا يخفى .

ومن مقطّعات ابن جابر :

شغفتُ بها حيناً من الدهر لم يكنْ سوى سكبِ دمعي في محبتها كسبي
وما أصْلُ هذا كلّه غيرُ نظرةٍ إلى مُقلة منها أضعتُ لها قلبي

وقال :

قَدْ بانَ عذري في مليح لَهُ لحظا رشاً يلحظُ من ذُعْرِ
إنّي على الهجرِ مطيعٌ لَهُ ممتثلٌ في السرِّ والجهْرِ

وقال :

هذا الرشا يقنصُ ليثَ الشرى بنظرةٍ منهُ فلا مَخْلَصُ
لو عارضَ العاذلَ يوماً له لكان من أولِ ما يَقْنصُ

وقال :

ظبيةٌ في ثغرها لَعَسٌ يُجتَنى من رشفه عَسَلُ
سلَكَ التيهُ بمقلتها مسلكاً قد زانه كسلُ

وقال :

رَقَمَ الخالُ خدَّها فرأينا قَمَرَ الأفْقِ فيه نقطةُ ليلِ
قلتُ: أين الكثيبُ والغصنُ؟ قالت : كلٌّ ما قد ذكرتَهُ تحتَ ذيلي

وقال :

إن خفتَ من فتك المهنّد والقنا فإذا رنَتْ وإذا مشتْ لا تقربِ
في قلبِ بُرقعها محاسنُ أنزلت قمرَ السماء لنا بقلبِ العقربِ

وقال :

رأى عذولي حُسْنَها بعدما حقّقَ كوني للهوى جانحا
فقال إن كنتَ محبّاً لها فقد حمدنا رأيك الناجحا

وقال :

ذكرَ اللهُ بالمريّةِ عيشاً لستُ عن ذكره الجميلِ أحولُ
طالَ عهدي بها وما دمتُ حيّاً لا يزيدُ الرجاءُ بل قد يطُولُ

وقال :

مرّتْ ليالٍ بالمريّةِ طالما قَضَّيْتُ من ليلٍ بهنَّ مآربا
لم أسْلُ عن تلك الديارِ وإنّما جُعلَ القضاءُ لكلِّ نفسٍ غالبا

وقال :

لا تَعُقْني عن العقيقِ فإنّي بينَ أكنافه تركتُ فؤادي
وعلى تُرْبه وقفتُ دموعي ولسُكّانه وهبتُ ودادي

وقال :

عرف المنزل الذي دار فيه زمنُ الأنسِ والشبابِ النضيرِ
فشجاه قلبُ التلاقي فراقاً وانثنى عنهُ ذا فؤادٍ كسيرِ

وقال :

جمالُ هذا الغزالَ سحرٌ يا حبّذا ذلك الجمالُ
هلالُ خدّيه لم يُغَيَّبْ عني وإن غُيِّبَ الهلالُ
غزالُ أنس يَصيدُ أُسداً فاعجبْ لما يصنعُ الغزالُ
دلاله دلَّ كلَّ شوقٍ عليَّ إذ زانَهُ الدلالُ
كمالُهُ لا يخافُ نقصاً دام لَهُ الحسنُ والكمالُ
نباله قد رمت فؤادي يا حبّذا تلكم النبالُ
حلالُ وصلي لهُ حرامٌ وحكم قتلي لهُ حلالُ
زُلالُ ذاك الحمى حياتي وأين لي ذلك الزلالُ
قتالُهُ لا يطاقُ لكنْ يعجبني ذلك القتالُ

وقال :

بينَ تلكَ الخيام أكرم حيٍّ طَربَتْ للنّدى عليهم خيامُ
قد أقاموا بينَ العقيق وسلعٍ فحياةُ النفوسِ حيثُ أقاموا

وقال :

إذا جئتَ نجداً كرّم الله عهدَه فسلّم على أهل المنازلِ من نجدِ

لئن حال بُعدُ الدار بيني وبينهم فإنّي لأرعاهُمْ على ذلك البعدِ

وقال :

خَجِلَتْ عندما نظرتُ إليها وانثنتْ وَهْيَ بين تيهٍ ومنعِ
إنّما وَرْدُ خدّها زرعُ طرفي حين مروا فكيف أحرَمُ زرعي

وقال :

لكَ نفسي إذا بدت لكَ نجدٌ فلَقَدْ سرّني الزّمانُ بنجدِ
فلتلكَ الخيامِ عنديَ عهدٌ وأبى الله أن أُضيّعَ عهدي

وقال :

سلْ عن القومِ إن بدتْ لك سَلْعٌ فَفُؤادي عندَ الذين بسلعِ
لي على تلكمُ المعاهدِ دمعٌ كادَ يُغني بها عَنِ اللثِّ دمعي

وقال :

صفحوا عَنْ محبهم وأقالوا من عثارِ النوى ومَنّوا بوصلِ
لستُ أستوجبُ الوصالَ ولكن أهلُ تلك الخيام أكرمُ أهلِ

وقال :

مال الزمانُ بهمْ عنّي وقَدْ بعدوا لم يلهني عنهمُ أهلٌ ولا مالُ
إنّي لأخشى وما الأيامُ طوعُ يدي أنّي أموتُ ولي في القلبِ آمالُ

وقال :

بينَ وادي النقا وبان المُصَلّى ملأ ألبسوا الوجودَ جَمالا
إن يكن قد نوى ليَ الدهرُ قرباً منهمُ فهوَ قدْ كفاني نوالا

وقال :

زرتُ الديارَ عن الأحبةِ سائلاً ورجعتُ إذلالاً بـــدمْعٍ سائلِ
ونزلتُ في ظلّ الأراكةِ قائلاً والرَّبعُ أخرسُ عن جوابِ القائلِ

وقال :

لا أوحشَ اللهُ المنازلَ منهمُ منهمْ غدت تلك الديارُ حسانا
فاشكرْ لدهرك أن أراكَ بحاجرٍ بانَ الحمى وأراكَهُ قد بانا

وقال :

لكَ يا واديَ العقيقِ علَيْنا كلُّ ما شئت من ذمامٍ وثيقِ
فَمن الـــبرّ أنّـني أتــبرّى مِنْ عقوقٍ لمنزلٍ بالعقيقِ

وقال :

يا أهلَ ذي سَلَمٍ بشرى لمستلمٍ ذاكَ الثرى مُقْدمٍ في السير لم ينمِ
يؤمُّ داراً بها خيرُ الورى حسباً الخاتمُ الرسلِ من عُرْبٍ ومن عجمِ

ولنقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضع على هذا المقدار ، وإنّما أطنبت فيه لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيته بحق المذكور وحق رفيقه ، مع أنّه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضاً فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب ، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خبرهما في الشرق أشهر .

[من شعر رفيق ابن جابر]

وأمّا رفيقه شارح بديعيته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع بعضَ حاله وكلامه ، وَلْنَزِدْ هنا ما تيسّر ، فنقول : من نظمه :

لمّا عدا في الناس عقربُ صُدغها　　كَفَتْ أذاهُ من الورى بالبرقعِ
والصبحُ تحتَ خمارها مُتستّرٌ　　عنّا متى شاءتْ تقولُ لَهُ اطلعِ

وقال :

تجنّتْ فجنّ في الهوى كلُّ عاقلٍ　　رآها وأحوالُ المحبِّ جنونُ
وما وَعَدَتْ إلاّ عَدَتْ في مِطالها　　كذلكَ وعْدُ الغانياتِ يكونُ

وقال :

لا تَجِدُوا في الهوى على كَلِفٍ　　نظيرُهُ في الغَرام لَنْ تجدوا
لهفانُ ما يشتكي إلى أحدٍ　　ظمآنُ غيرَ الدموع لا يردُ

وقال :

ربَّ ليلٍ قطعتُهُ بالجزيره　　فتذكرتُ أهْلَنا بالجزيره
قَصَّر الأنسُ ما تطاولَ منهُ　　وكذا أزمُنُ السرورِ يسيره

قال : والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المُسمى بالعاصي ، والثانية جزيرة الأندلس .

وله أيضاً :

وما لي والتزينَ يومَ عيدٍ　　وجيدُ صبابتي بالدمعِ حالي
وقد أرسلتُ أشهبها بَرِيداً　　وبعدَ كميتها ينبي بحالي

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء ، وبالكُمَيْت الدمع المشوب بالدم ، قال رحمه الله في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصّه : قلت : وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ذا قصور محتفّة ، وحدائق ملتفّة ، وبنيان مشيد ، ونخل طلعه نضيد ، وجنات تؤتي أكلها كلّ حين ،

وسواقٍ تجري بــهِ بماء مَعين ، ثم لعبت بهِ أيدي السنين ، وغيرت معالمه فصار عبرةً للناظرين ، فلم يبق من مَعاهده إلا آثارٌ تشهد بحسنه ، ونضرة نعيم تدلُّ على ما سلف من نضارة غصنه ؛ وقد خرجنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا بالمدينة الشريفة ، وهو يتدفّق بمائه ، ويعارضُ بجوهرِ حَبابه أنجم سمائه ، وقد سالتْ شعابه ، وفاض عُبابه ، والناسُ تفرقوا في جهاته ، وافترشوا غضَّ نباته ، والشّيحُ قد توشّحَ بالندى ، والأنس قد راح به وغدا ، والأصيلُ مذهّب الرداء ، والبيداء مخضرة الأنداء ، وبحافته آثارُ قصور ، ليس لها في الحسنِ قصور ، قد بَليَتْ وحسنها جديد ، وخربت وربعها بالأنسِ مَشيد ؛ انتهى .

ومن بديع نظمه قوله :

مهلاً فما شِيَمُ الوفا منقــادةٌ لِمَنِ ابتغى من نيلها أوطــارا
رُتَبُ المعالي لا تُنالُ بحيلةٍ يوماً ولو جهد الفتى أو طارا

وقوله رحمه الله تعالى :

على وادي العقيقِ سكبتُ دمعي بلا عينٍ فيـبدو كالعقيقِ
فكم غُصْنٍ وَرِيقٍ منهُ يحكي قوامَ رشـا شهيّ فمٍ وريقِ

وقال :

سألتك باللهِ يا مَنْ غــدا يصرّفُ بالقلْبِ أفْعالَهُ
تداركْ محبّاً بدرياقِ وصلٍ فإنَّ بعادك أفْعى لَهُ

وقال :

لا تأمَنَنْهُ على القــلو بِ فمنهُ أصلُ غرامها
فلحــاظُــهُ هنَّ التي رَمَتِ الورى بسهامِـهـا

ومن فوائده رحمه الله تعالى في شرح البديعية ما نصّه : ومن غريب ما في

« لَدَى » أن أبا علي حكى في تذكرته عن المفضّل أنها أتت بمعى « هل » وأنشد :

لَدى مِنْ شَبابٍ يُشْتَرى بمشيب وكيفَ شبابُ المرء بعْدَ ذهابِ ؟[1]

رجع – وقال رحمه الله تعالى يتشوّق إلى حَمْراء غرناطة :

ذابَتْ على الحمراء حُمْرُ مدامعي والقلبُ فيما بين ذلك ذائبُ
طالَ المدى بي عنهمُ ولربما قَدْ عاد من بعدِ الإطالةِ غائبُ

وقال :

ما هَبَّ من نحو السَّبيكةِ بارقٌ إلاّ غدا شوقي لقلبي شابكا
والله ما اخترتُ الفراقَ لرَبعها لكن قضاءُ الله أوجبَ ذلكا

وقال :

منازلُ سلمى إن خلَتْ فلطالما بها عمرتْ في القلبِ مني منازلُ
رسائلُ شوقي كلَّ يومٍ تزورها وما ضُيِّعَتْ عند الكرامِ الرسائلُ[2]

وقال :

بِجَوْزِ الوداع لنا موقفٌ أذاب الفؤادَ لأجلِ الوداعِ
فَما أنا أنْسى غَداةَ النوى وحادي الركائب للبينِ داعي

قال : وجور الوداع موضع بظاهر غرناطة ، عادةُ من سافر أن يودَّع هناك .

وقال :

ناولته وردةً فاحمرَّ من خجلٍ وقال : وجهيَ يُغنيني عن الزَّهَرِ

---

١ ق : ذهيب .
٢ ق : الوسائل .

الخدُّ وردٌ ، وعيني نرجسٌ ،وعلى   خدّي عِذارٌ كريحانٍ على نهرِ

وقال رحمه الله تعالى في التشريع :

يا راحلاً يبغي زيارة طيبة   نلتَ المُـنى بزيارةِ الأخيـارِ
حيٌّ العقيقَ إذا وصلت وصف لنا   وادي مِنى بأطايبِ الأخبارِ
وإذا وقفت لدى المعرَّف داعياً   زالَ العنـا وظفرتَ بالأوطارِ

وقال :

يا أولاً في المرسـلين وآخراً   الله خصّكَ بالكمال ليرضيكْ
من قبْلِ آدم قد جُعلتَ نبيّه   قِدماً فقدّمك الإلهُ ليُعليكْ
أوحى إليكَ لكي تكون حبيبهُ   ويتمّ نعمتـهُ عليكَ ويهديكْ

وقال :

صيرتني في هواكَ اليوم مشتهراً   لا قيسُ ليلى ولا غيْلانُ في الأوّلِ
زعمتَ أنّ غرامي فيك مكتسَبٌ   لا والذي خلقَ الإنسانَ من عَجَلِ

وقال :

لا تُعادِ النـاس في أوطانهم   قلّما يُرْعى غريبُ الوطنِ
وإذا ما شئتَ عيشاً بيْنهم   «خالِقِ النـاسَ بخلقٍ حسنٍ»

وقال :

نسختي اليوم في المحبةِ أصْلٌ   فعليها اعتمادُ كلّ عميـدِ
نقَلُوا مرسـلَ المدامعِ منها   وصحيحَ الهوى بغير مزيدِ
قد رواها قبلي جميلٌ وقيسٌ   حينَ هاما بكلّ لحظٍ وجيـدِ

ومن فوائده : أنّه لما أنشد في « طراز الحلة » قولَ سعد الدين محمد بن عربي في ابن مالك :

إنّ الإمام جمالَ الدين فضّله

« إلى آخره » قال ما ملخصه : ولما أورده الصفدي في « فض الختام » قال : هذا في غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى « الفوائد » وإنّما هو « تسهيل الفوائد » فذكر المضاف إليه دون المضاف ، وهي تورية ٌ ناقصة ، قلت : ابن مالك له كتابان : أحدهما « الفوائد » صنعه أولاً ثم صنع « تسهيل الفوائد » بعده ، وكأنّه سَهّلَ فيه كتابَ الفوائد ، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمّى بالفوائد ببلدنا غرناطة ، فلمّا وصلنا إلى هذه البلاد بحثْنا عنه فلم نجده ، وتمادي الأمر على ذلك إلى سنة ٧٦٠ ، فوجدناه في حلب ، وهو الآن عندنا ، وهو عزيزُ الوجود ، ولذلك خفيَ على القاضي صلاح الدين ؛ انتهى وبعضه بالمعنى .

وقال أبو جعفر أحمد المترجم به : كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين خليل الناسخ :

مَدَدْتَ النوى وقَصَرْتَ اللّقا ... أترضى بهـذا وأنْتَ الخليل
وتترك أحمدَ ذا وحشـةٍ ... لديكَ وأنْتَ لهُ ابنٌ جَليل

وقال :

قد كان لي أُنسٌ بطيب حديثكم ... والآن صار حديثكم برسولِ
ولقد مددتُ من النوى مقصورهُ ... إنّ الخليلَ يراه غيرَ جميلِ

وله رحمه الله تعالى :

ما للنوى مُدّتْ وأنْتَ خليلنا ... ولقبلُ قد قصرت برغمِ الكاشحِ
أتبعتَ في ذا مذهباً لا يُرْتَضى ... أبداً وليس الرأيُ فيهِ بصالحِ

ولـهُ :

ولمّا رأى الحسادُ منكَ التفاتةً إلى جانب اللهو الذي كان مرفوضا
أضافوا إلى علْياك كلَّ نقيصةٍ حقيقٌ لدينا بالإضافة خفوضا

ولَهُ :

حُسْنُكَ ما بينَ الورى شائعٌ قد عُرِّفَ الآن بلام العذار
فجاء منـهُ مبتدأً للهوى خبَرُهُ الآسُ معَ الجلّنار

ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى :

وقد قدمنا أن علي بن لسان الدين كان نديمَ السلطان وخاصّتَه ، كما ذكرنا في مخاطبته لابن مرزوق في الباب الخامس قولَهُ : فالسلطانُ يرعاه الله تعالى يوجب ما فوق مزية التعظيم ، والولدُ هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قلَّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصةُ والعامة تعامل بحسب ما بلَغتْه من نصحٍ سليم وترك لمّا بالأيدي وتسليم ، وتدبير عاد على عدوّها بالعذابِ الأليم ، إلا مَنْ أبدى السلامةَ وهو من إبطانِ الحسدِ بحال السليم ، انتهى .

ولقد صدق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصح وغيره .

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان ، ونصّه : « من عبد الله أمير المسلمين محمد وَصَل الله تعالى سعده ، وبلّغه من فضله العميم قَصْدَه ، إلى أوليائنا المخصوصين منّا ومن سلَفنا بذمام الجوار القريب ، والمساكنة التي لا يتطرقُ إلى حقّها الذي بني استرابةُ المستريب ، المعتمدين إذا عُدَّتِ الرعايا ، وذكرت المزايا ، بمزيدِ الاعتناء والتقريب ، من الأشياخ الجلّة الشرفاء والعلماء ، والصُّدور الفقهاء ، والعدول الأذكياء ، والأعيان

الوزراء ، والحُماة المدافعين عن الأرجاء ، والأمناء الثّقات الأتقياء ، والكافة الذين نصل إليهم عوائدَ الاعتناء ، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السّواء ، من أهلِ حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربَضها ، شَرَح الله تعالى لقبول الحكمة والموعظةِ الحسنةِ صُدُورَهم ، وكَنَف بنتائج الاستقامة سرورهم ، وأصلح بعنايته أمورهم ، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم ومأمورهم : سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته .

«أمّا بعدَ حمدِ الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباساً ، والذكرى لبناء المَتاب أساساً ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى الفَوْز العظيم ابتغاء لرحمته والتماساً ، والرضى عن آله الذين اختارهم له ناساً ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباساً ، فإنّا كتبناه إليكم — كتب الله تعالى إعزازكم وحرس أحوازكم ؛ وجعل للعمل الصالح اهتزازكم ؛ وبقبول النصائح امتيازكم — من مستقرنا بمحروسة الحمراء ، حَماها الله سبحانه ، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأقوال والأعمال ، وعناية تحفُّ من اليمين والشمال ، وتوكّل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال ، وأنتم أولياؤنا الذين لا نَدَّخر عنهم نصحاً ، ولا نُهْمل في تدبيرهم ما يثمر نُجْحاً ، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحةٍ ترشدكم إذا غفلتم ، وموعظة نقصُّها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلفتم ، وذب عنكم تارة بسلم نَعْقِدُها ، ومطاولةٍ نُسَدّدُها ، وتارةً بسيوف في سبيل الله تعالى نجدّدها ، وعمارةٍ للشهادة نرددها ، ونفوس بوعد الله نَعِدُها ، ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم ، وبالكَدِّ لتَتَّدِعَ صبيانكم وولْدانُكم ، وباقتحام المخاوف ليتّصل أمانكم ، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا ، أو أمكننا أن لا تفضلكم رعيةٌ بصلاح دينٍ أو دنيا لفعلنا ، هذا شغْل زماننا منذ عرفناه ، ومَرْمى همّنا مهما استهدفناه ، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم ، وملأّنا طاعتكم ، وحرَّم علينا إضاعتكم ،

والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيبة ، وينتجع مَساقط الغمائم الصيّبة ، ويوردها الماء النمير ، ويبتغ لها النماء والتثمير ، ويُصْلح خللها ، ويُداوِ عللها ، قلّ عَدَدُها ، وعدمت غَلّتها وولدها ، فندم على ما ضيعه في أمْسِهِ ، وجنى عليها وعلى نَفْسِهِ .

« وألفيناكم في أيامنا هذه الميامنِ عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه ، وملأت أيديكم مواهبُهُ وقِسَمُهُ ، وشُغل عدوّكم بفتنة قومه فنمتم للعافية فوق مِهاد ، وبَعُدَ عهدكم بما تقدم من جهْدٍ وجهاد ، ومخمصةٍ وسُهاد ، فأشفقنا أن يجركم توالي الرخاء إلى البَطَر ، أو تحملكم العافيةُ على الغفلة عن الله تعالى وهي أخطرُ الخطر ، أو تجهلوا مواقعَ فضله تعالى وكرمه ، أو تستعينوا على معصيته بنعمه ، فمن عرف الله تعالى في الرخاء وجده في الشّدّة ، ومن استعد في المهَل وجد منفعة العدّة ، والعاقلُ من لا يغترُّ في الحرب أو السلم بطول المدة ، فالدهر مُبْلي الجِدّة ، ومستوعب العِدّة ، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شُغِلوا بأنفسهم عن جبركم ، وسلموا لله في نصركم ، ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوّة إلا بالله بثَغْرِكُمْ ، وأهمتهم فتن تركت رسومَ الجهاد خالية خاوية ، ورياض الكتائب الخضر ذابلة ذاوية ، فإن لم تشمّروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون ؟ وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون ؟ وإذا لم تستعدّوا في المهل فمتى تستعدون ؟ لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة بالدون ، فلا تأمنوا مكر الله ﴿ فَلا يأمنُ مَكرَ الله إلا القَومُ الخاسرون ﴾ (الأعراف : ٩٩) .

« ومن المنقول عن المِلَل ، والمشهور في الأواخِر والأول ، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كَسْبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، وانقطعت عنهم الرحمات ، ووقعت فيهم المَثُلات والنقمات ، وشَحّتِ السماء ، وغيض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجَفّت الضُّرُوع ، وأخلفت الرضوع .

«فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التي توقظ من السِّنَة ، ونقرع آذانكم بقوارع الألْسِنة ، فأفزعوا الشيطان بوَعْيها ، وتقربوا إلى الله تعالى برَعْيها ، الصلاةَ الصلاةَ فلا تهملوها ، ووظائفَها المعروفةَ فكملوها ، فهي الركنُ الوثيق ، والعَلَم الماثل على جادّة الطريق ، والخاصة التي يتميز بها هذا الفريق ، وبادروا صفوفَها الماثلة ، وأتبعوا فريضتَها النافلة ، وأشرعوا إلى تاركها أسنّة الإنكار ، واغتنموا بها نواشيء الليل وبوادي الأسحار ، والزكاة أختها المنسوبة ، ولدتها المكتوبة المحسوبة ، فمن مَنَعها فقد بخل على مولاه ، باليسير ممّا أولاه ، وما أحقَّه بذهاب هبة الوهاب وأولاه ؛ فاشتروا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصَّدقات ، وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعافَ النفقات ، وواسُوا سؤالكم كلّما نُصبت الموائد ، وأُعيدت للترفُّه العوائد ، وارْعَوْا حق الجوار ، وخذوا على أيدي الدَّعَرة والفجّار ، وأخرجوا الشَّنَآن من الصدور ، واجعلوا صِلَةَ الأرحام من عَزْم الأمور ، وصونوا عن الاغتياب أفواهكم ، ولا تعوِّدوا السفاهة شفاهكم ، وأقرضوا القرض الحسن إلهكم ، وعلموا القرآن صبيانكم ، فهو أسُّ المبنى ، وازرعوه في تراب ترائبهم فعسى أن يُجْنى ، ولا تتركوا النصيحة لمن استنصح ، وردوا السلام على مَنْ بتحية الإسلام أفصح ، وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، وثابروا على حلق العلم والتعلّم ، وحفوا بمراقي التكلّم ، وتعلّموا من دينكم ما لا يَسَعُكم عند الله تعالى جهله ، ويتبين أنّكم أهْلُه ، فمن القبيح أن يقومَ أحدكم على وقاية بُرّه وشَعيره ، ورعايةِ شاتِه وبَعيره ، ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده ، ويُعِدُّه منجاة ليوم مَعاده ، والله عزّ وجل يقول ولقوله يرحل المتجعون ﴿أفَحَسِبْتُم أنّما خَلَقْناكُم عَبَثاً وأنكُم إلَيْنا لا تُرْجَعُون﴾ (المؤمنون : ١١٥) .

«وانتَفُوا من الحوادث الشنيعة ، والبدع التي تفتُّ في عَضُد الشريعة ، فقد شنَّ علينا الملبّسة بأهلِ التصوّف المغار ، ونال حملتها بل جملتها بإغماضهم

الصغار ، وتؤوّل المعاد والجنّة والنار ، وإذا لم يَغَر الرجل على دينه ودين أبيه فعلى مَنْ يَغار ، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء ، هم أئمةُ الاقتداء ، والكواكبُ التي عيَّنها الحق للاهتداء ، فاحذروا مَعاطبَ هذا الداء ، ودسائس هذه الأعداء .

«وأهم ما صرفتم إليه الوجوه ، واستدفعتم به المكروه ، العملُ بأمره جل وعلا في الآية المتلوّة ، والحكمة السافرة المجلوّة ، من ارتباط الخيل وإعداد القوّة ، فمن كان ذا سَعَة في رزقه ، فليَقُم لله بما استطاع من حقّه ، وليتخذ فرساً يعمر محلّته بصهيله ، ويَقْتنه من أجل الله وفي سبيله ، فكم يتحملُ من عيالٍ يلتمسُ مرضاتهن باتخاذِ الزينة ، والتنافس في ترف المدينة ، ومؤونة الارتباط أقل ، وعلى الهمّة والدين أدل ، إلى ما فيه من حماية الحَوْزَة ، وإظهار العزة ، ومن لم يحسن الرمي فليتدرب ، وباتخاذ السلاح إلى الله فليتقرب ، وقبل الرمي تُرَاش السِّهام ، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام .

« والسكّة الجارية في حوادث نواديكم ، وأثمان العُروض التي بأيديكم ، مَن تحيّف حروفها ، ونكّر معروفها ، أو سامح في قبول زَيْف ، أو مبخوس حيف ، فقد اتّبع هواه ، وخان نفسه وسواه ، قال الله عزّ وجل ﴿ أوفُوا الكَيْلَ وَلا تَكُونُوا من المخْسِرين ، وَزِنُوا بالقِسْطاس المُسْتَقِيم ، ولا تَبْخَسُوا النّاسَ أشياءهُم ولا تَعْثَوا في الأرْضِ مُفسدين ﴾ (الشعراء : ١٨١) ولتعلموا أن نبيكم صلوات الله عليه إنّما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً ، وعن الهفوات حليماً متغاضياً ، فتمسكوا بحَبْلِه ، ولا تعدلوا عن سُبْله ، يُرْوِكم الله تعالى من سَجْله ، ويُراعِكم من أجله ، مُرَاعاة الرجل لنَجْله ، فهو الذي يقول ﴿وما كانَ الله ليعذّبَهُم وأنْتَ فيهم ، وما كانَ الله مُعذّبَهم وهُم يستَغْفرون ﴾ (الأنفال : ٣٣) وإن كان في وطنكم اليوم سَعَة ، وقد ألحفكم أمن من الله تعالى ودَعَة ، فاحسبوا أنكم في بلد محصور ، وبين لحيي أسَدٍ هَصُور ، اكتنفكم

بحرٌ يعبُّ عُبابه ، ودار بكم سُورٌ بيدِ عدوّكم بابه ، ولا يدرى متى ينتهي السِّلم ، وينشعب الكَلْم ، فإن لم تكونوا بناءً مَرْصُوصاً ، وتستشعروا الصبر عموماً وخصوصاً ، أصبح الجناح مقصوصاً ، والرأي قد سلبته الحيرة ، والمال والحريم قد سلبت فيه الضنانة والغيرة ، وإن شاء الله تَهُبُّ ريح الحميّة ، ونصرة النفوس على الخيالات الوهمية ، فإن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله مُتِم نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين ﴿ وكَمْ مِنْ فئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فئَةً كثيرة بإذن الله والله مَعَ الصّابرين ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

« واعتقدوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير ، ولو مثل جراد مزرعة أثارها مثير ، بل بإخلاص لا يبقي لغير الله افتقاراً ، ونفوس توسع ما سوى الحق اقتداراً ، ووعد يصدق ، وبَصائر أبصارها إلى مَثابة الجزاء تحدق ، وهذا الدين ظهر مع الغُرْبة ، وشَظَف التربة ، فلم تَرُعْه الأكاسرة وفيولها ، والقياصرة وخُيولها ، دين حنيف ، وعلم مُنيف ، من وُجُوه شطر المسجد الحرام تولى ، وآيات على سبعة أحرف تتلى ، وزكاة من الصميم تنتقى ، ومعارج ترتقي ، وحج وجهاد ، ومَواسم وأعياد ، ليس إلا تكبير شهير ، وأذان جَهير ، وقوّة تعد ، وثغور تسد ، وفيء يقسم ، وفخر يرسم ، ونصيحة تُهدى ، وأمانة تؤدى ، وصدقة تخفى وتبدى ، وصدور تشرح وتشفى ، وخلق على خلق القرآن تحذى وتقفى ، قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهذا العقد قد سُجِّل ، والوعدُ به قد عُجِّل ﴿ اليَوْمَ أكمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ ، وأتممْتُ عَلَيكُم نِعْمَتي ، ورَضيتُ لكم الإسْلامَ ديناً ﴾ (المائدة : ٣) ولا ينقطع لهذا الفرع عادةُ وَصْلِهِ ، ما دام شبيهاً بأصله ، وإنّما هو حَلَبٌ لكم زبدته المخوضة ، وخلاصته المحوضة ، والعاقبةُ للمتقين ﴿ ولتَعلَمُنَّ نَبأه بَعْدَ حين ﴾ (ص : ٨٨) .

« وحضرتكم اليوم قاعدة الدين ، وغاب المجاهدين ، وقد اخترعت بنا أيامنا هذه وأيام والدنا المقدس الآثار الكبار ، والحسنات التي تنوقلت بها الأخبار ،

وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة ، والمنقبة المبرورة ، وهي بيمارستان يقيم منكم المرضى المطّرحين ، والضعفاء المغتربين منهم والمعترضين في كلّ حين ، فأنتم تطؤونهم بالأقدام ، على مرّ الأيّام ، ينظرون إليكم بالعيونِ الكَليلة ، ويعربون عن الأحوالِ الذليلة ، وضرورتهم غيرُ خافية ، وما أنتم بأوْلى منهم بالعافية ، والمجانين تكثر منهم الوقائع ، وتفشو منهم إماتةُ العهد الذائع ، عار تحظره الشرائع ، وفي مثله تُسَدُّ الذرائع .

«وقد فضلتم أهل مصر وبغداد ، بالرباط الدائم والجهاد ، فلا أقل من المساواة في معنى ، والمنافسة في مبنى ، يذهب عنكم لؤم الجوار ، ويزيل عن وجوهكم سِمات العار ، ويدل على همتكم ، وفضل شيمتكم ، أهلَ الأقطار ، وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع ، وحرص اعتراه على ممنوع ، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع ، ولولا اهتمامنا بمرتزقة ديوانكم ، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم ، لسبقناكم إلى هذه الزُّلْفة ، وقمنا في هذا العملِ الصالح بتحمّل الكُلْفة ، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنّة بنائه ، وأسْهَمْناكم في فريضةِ أجره وثنائه ، فنحن إن شاء الله تعالى نعيّن له الأوقافَ التي تجري عنها المرفقة ، وتتصلُ عليه بها الصدقة ، تأصيلاً لفخركم ، وإطابةً في البلاد لذكركم ، فليشاور أحدُكم هِمّتَه ودينه ، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه ، ونسأل الله تعالى أن يوفّق كلاً لهذا القصد ويُعينه ، ومن وراء هــذه النصائح عزم ينهيها إلى غايتها ، ويجبر الكافةَ على اتباع رأيها ورايتها ، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول ، وتلقّوا داعيَ الله تعالى فيها بالقَبُول ، والدنيا مزرعة الآخرة ، وكم معتبر للنفوسِ الساخرة ، بالعظام الناخرة ﴿يا أيّها النّاس إنّ وَعْدَ اللهِ حَقّ فَلا تَغُرّنّكُم الحَيَاةُ الدُّنيا ، ولا يَغُرّنّكم باللهِ الغَرور﴾ (فاطر : ٥) وأنتم اليوم أحَقُّ النّاس بقبول الموعظة نفوساً زكية ، وفُهُوماً لا قاصرة ولا بَطِيئة ، وموطن جهاد ، ومستسقى غمام

من رحمة الله تعالى وعِهاد ، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن ، وألقوا فيها العَطَن ، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم ، وصحّة إيمانكم ، وتساوي إسراركم وإعلانكم ؟

« اللهمّ إنّا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحمَّلَة ، وبلَّغناهم نصيحتك المكملة ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة ، فيسّرْنا وإياهم لليسرى ، وعرِّفنا لطائفك التي خفي فيها المَسْرَى ، ولا تجعلنا ممّن صَمّ عن النداء ، وأصبح شماتة الأعداء ، فما ذَلّ من استنصر بجنابك ، ولا ضل من استبصر بسنَّتك وكتابك ، ولا انقطع مَنْ توسّل بأسبابك ، والله سبحانه يَصِلُ لكم عوائد الصنع الجميل ، ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، ويصل سعدكم ، ويحرسُ مجدكم ، والسلام الكريمُ يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته » . انتهى .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام :

« الله الله في الهمم فقد خمدَت ريحُها ، والله الله في العقائد فقد خفيَتْ مصابيحُها ، والله الله في الرجولية فقد فُلّ حَدُّها ، والله الله في الغيرة فقد تعسّر جَدُّها ، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله ، والله الله في الحريم فقد مدّ إلى استرقاقه يدَ تأميله ، والله الله في الملّة التي يريد إطفاء سَنَاها ، وقد كمل فضلها وتناهى ، والله الله في الحريم ، والله الله في الدين الكريم ، والله الله في القرآن ، والله الله في الجيران ، والله الله في الطارف والتالد ، والله الله في الوطن الذي توارثه الولد عن الوالد ، اليوم تستأسد النفوس المَهِينة ، اليوم يستنصر الصبر والسكينة ، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذِّمَم ، اليوم يسلك سبيل العزم والحزم والشدّة والشّمم [1] ، اليوم يرجع إلى الله المصرُّون ، اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترُّون ، قبل أن يتفاقم الهول ، ويحق القول ، ويُسد الباب ، ويحيق

[1] اليوم . . . والشمم : سقطت من ق .

العذاب ، ويسترق الكفر الرقاب ، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار ، والطيورُ ترفرف لتحمي الأوكار ، إذا أحست العَيْثَ[1] بأفراخها والإضرار ، تمر الأيام عليكم مرّ السحاب ، وذهابُ اللّيالي لكم ذهاب ، فلا خبر يفضي إلى العين ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كد إلا لزينة يُحلّى بها نحرٌ وجيد ، ولا سعي إلا لمتاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد ، وبالأمس نُدِبْتُم إلى التماس رُحْمى مسخّرِ السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الديمة ، ومحيي البشر والبهيمة ، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء ، واغبرّتْ جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء ﴿وفي السّماء رزْقُكُم وَما تُوعَدُون﴾ (الذاريات : ٢٢) وإليها الأكف تمدون ، وأبوابها بالدعاء تقصدون ، فلم يُصْحِر منكم عدد معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا الصَّدَقة خبر ، وتثوقل عن إعادة الرغبة إلى الولي الحميد ، والغني الذي ﴿إنْ يَشَأ يُذهبْكُم ويأتِ بخَلْقٍ جَديد﴾ (إبراهيم : ١٩) وايم الله لو كان لهواً لارتقبت الساعات ، وضاقت المتسعات ، وتزاحمت على أنديته الجماعات .

« أتعززاً على الله وهو القوي العزيز ؟ أتلبيساً على الله وهو الذي يميز الخبيث من الطيب والشَّبَه من الإبريز ؟ أمعاندة والنواصي في يديه ؟ أغروراً بالأمل والرجوع بعدُ إليه ؟ مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من ينزل الرزق ويفيده ؟ مَنْ يُرْجَعُ إليه في الملمات ؟ مَنْ يُرَجّى في الشدائد والأزمات ؟ من يوجد في المحيا والممات ؟ أفي الله شك يختلج القلوب ؟ أثَمَّ غير الله يدفع المكروه وييسّر المطلوب ؟ تفضلون على اللجإ إليه[2] عوائد الفضل ، ونزه الجهل ، وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب ، وتستكشف بالخضوع لعظمته العقاب ، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب ، وكأنكم عن كرمه

---

١ ق : العيات .
٢ ق : الجالية .

قد استغنيتم ، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم .

«أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله عليه من التبلّغ[1] باليسير ، والاستعداد للرحيل إلى دار الحق والمسير ، ومُداومة الجوع ، وهجر الهجوع ، والعمل على الإياب إلى الله تعالى والرجوع : دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها وبيدها كسرة شعير فقال : ما هذا يا فاطمة ؟ فقالت : يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها ، فقال : يا فاطمة أما إنّه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث . وكان صلى الله عليه وسلّم يستغفر في اليوم سبعين مرّة يلتمس زحماه ، ويقوم وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر حتى ورمت قدماه ، وكان شأنه الجهاد ، ودأبه الجد والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الرُّبى والوهاد ، ومقامات رفقه تحوم على مراتبها الزهاد ، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون ؟ وإذا لم تهتدوا به فبمن تهتدون ؟ وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعتزُونَ إليه وتنتسبون ؟ وإذا لم ترغبوا في الاتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً ، وتقللاً من العَرَض الأدنى وسهاداً ، ففيم ترغبون ؟

«فابتّروا حبال الآمال فكل آتٍ قريب ، واعتبروا بمَثُلات من تقدّم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب ، وتفكروا في مَنابرها التي يعلو عليها واعظ وخطيب ، ومطيل ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة ، المعمورة بأنواع الطاعة ، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم ، وعاقب الجمهور بما أغْضَوْا عنه عيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله تعالى عُقْبى جميعهم ، وذهبت النقمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم ، وأصبحت مساجدهم مناصبَ للصلبان ، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان ، هـذا والناس ناس والزمان زمان .

«فما هذه الغفلة عمن إليه الرجعى وإليه المصير ؟ وإلى متى التساهل في حقوقه

---

[1] ق : التبليغ .

وهو السميع البصير ؟ وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير ؟ وإلى متى نسيان اللجإ إلى الولي النصير ؟ قد تداعت الصلبان مجلبة[1] عليكم ، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم ، أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم ؟ وألسنة الآيات تناديكم ، لم تمح سطورها ، ولا احتجب نورها ، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل ، وصابر فيها كل خطب جليل ، فوالله لو تمحض الإيمان ، ورضي الرحمن ، ما ظهر التثليث في هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأييد ، لكن شمل الداء ، وصم النداء ، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء ؟ والباب مفتوح ، والفضل ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً فهو الغفور الرحيم ، ونستقل مُقيل العثار فهو الرؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم ، سُدت الأبواب ، وضعفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (محمد : ٧) ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) أعدوا الخيل وارتبطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها ، فمن خاف الموت رضي بالدنية ، ولا بد على كل حال من المنية ، والحياة مع الذل ليست من شيم النفوس السنية ، واقتنوا السلاح والعدة ، وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدة ، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم ، واستميتوا من دون أبنائكم ، وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم ، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم ، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم . ذكروا أن امرأة

---

١ ق : مجابة ؛ التجارية : متراكمة .

احتمل السبع ولدهـا وشكت إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة ، فتصدقت برغيف ، فأطلق السبع ولدها ، وسمعت النداء : يا هذه لقمة بلقمة ، وإنا لما استُودِعناه لحافظون .

« واهجروا الشهوات ، واستدركوا البقية من بعد الفوات ، وأفضلوا لمساكينكم من الأقوات ، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات ، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات ، والمواساة في المهمات ، وأيقظوا جفونكم من السِّنات ، واعلموا أنكم رضعاء ثدي كلمة التوحيد ، وجيران البلد الغريب والدين الوحيد ، وحزب التمحيص ، ونفر المَرَام العويص ، فتفقدوا معاملاتكم مع الله تعالى ، ومهما رأيتم الصدق غالباً ، والقلب للمولى الكريم مراقباً ، وشهاب اليقين ثاقباً ، فثقوا بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب ، ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب ، فإنكم في الستر الكثيف ، وكنف[1] الخبير اللطيف ، ومهما رأيتم الخواطر متبدّدة ، والظنون في الله متردّدة ، والجهات التي تخاف وترجى متعددة ، والغفلة عن الله ملامسها متجددة ، وعادة دواعي الخذلان دائمة ، وأسواق الشهوات قائمة ، فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين ، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عُدْوَان إلاّ على الظالمين ، والتوبة تردُّ الشارد[2] إلى الله تعالى والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وهو القائل ﴿ إنّ الحسناتِ يُذهبن السيِّئاتِ ذلكَ ذكرى للذاكرين ﴾ (هود : ١١٤) .

« وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحّت العزائم ، وتوالت على حزب الشيطان الهزائم ، وخملت الدنيا الغريبة في العيون ، وصدقت فيها عند الله الظنون ﴿ يا أيّها النّاسُ إنّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ فَلا تغرّنّكُم الحياةُ الدنيا ولا يغرّنّكم باللهِ الغَرُور ﴾ (فاطر : ٥) وثُوبُوا سراعاً إلى طهارة الثوب ، وإزالة

١ ق : وعظة .
٢ ق : السارح .

الشَّوْب ، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب ، واعلموا أن سوء الأدب معَ الله تعالى يفتح أبواب الشدائد ، ويسد طرق العوائد ، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله فتغشوا إيمانكم ، ولا تعلقوا مَتابكم بالضَّرائر ، فهو علاَّم السرائر ، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنّا أولى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة ــ علم الله تعالى ــ عن صدق القريحة ، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنّما لكم لدينا نفس مبذولة في جهاد الكفار ، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعُقْبى الدار ، والاختيار لله ولي الاختيار ، ومصرِّف الأقدار ، وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد ، والحريم المستضعَف والأولاد ، ونَصْلَى من دونهم نار الجلاد ، ونستوهب منكم الدعاء لمن وَعَدَ بإجابته ، فإنّه يقبل من صرف إليه وَجْهَ إنابته ، اللّهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً ، وعلى أعدائك ظهيراً ، ومن انتقام عَبَدَةَ الأوثان كفيلاً ، اللّهم قوِّ مَنْ ضَعُفَتْ حيلته فأنت القوي المعين ، وانصر من لا نصير لَهُ إلاّ أنْتَ فإيّاك نعبد وإيّاكَ نَسْتَعين ، اللّهم ثبِّتْ أقدامَنا وانْصرنا عند تزلزل الأقدام ، ولا تُسْلِمْنا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يدَ الاستسلام ، اللّهمَ دافع بملائكتك المُسَوَّمين ، اللّهم اجعلنا على تيقّظ وتذكر من ﴿ قالَ لهُم النّاسُ إنَّ النّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوهُم فَزَادَهُم إيماناً وقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عظيم ﴾ (آل عمران : ١٧٣) .

«وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم ، وشكرنا في ذات اللهِ تعالى جهادهم ، بني مَرِين أولي الامتعاض لله تعالى والحميّة ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية ، بعزمهم على الامتعاض لحقّ الجوار ، والمصارخة التي تليقُ بالأحرار ، والنفرة

لانهتاك ذِمار نبيِّهم المختار ، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار ، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار ، والسعي الضمين للعزّ والأجر والفَخار ، والسلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

ومما كتبه ابنُ لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغني بالله تعالى والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته :

« هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور ، مصلحاً بإعانة الله تعالى للأمور ، مُلْحفاً العدل[1] والإحسان الخاصة والجمهور ، يعلم من يسمعه أو يقف عليه ، ومَنْ يقرؤه ويتدبر[2] ما لديه ، ما عاهدنا الله تعالى عليه من تأمين النفوس وحَقْن الدماء ، والسير في التجافي عنها على السَّنَن السّواء ، ورفع التناوب عن البعيد منها والقريب ، والمُساواة[3] في العفو والغفران بينَ البريء منها والمريب ، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محمْل الحبيب ، وترك ما يتوجّه بأمر المطالبات ، ورفض التبعات ، مما لا يعارض حكماً شرعياً ، ولا يناقض سَنناً في الدين مرعياً ، فمن كان رهن تبعة أو طريد تُهَمَة ، أو منبوزاً[4] في الطاعة بريبة توجب أن نريق دَمَه[5] ، فقد سحبنا عليه ظلال الأمان وألحفناه أثواب العفو والغفران ، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق والإحسان ، حكماً عامّاً ، وعفواً تامّاً ، فاشياً في جميع الطبقات ، منسحباً على الأصناف المختلفات ، عاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال ، ولا يضيع السؤال ، واستغفرنا عن نفسنا وعمن أخطأ علينا من رعيتنا ممن يدرأ الشرع غلطته ،

١ ق : ملحفاً جناح الله للعدل .
٢ ق : ويليه .
٣ ق : والمساواة منها .
٤ ق : منبزاً .
٥ توجب . . . دمه : سقطت من ق .

ويَقْبَل الحق فيَأته ﴿ومَنْ يَعْمَلْ سوءاً أو يَظْلِمْ نَفْسَه ثمَّ يَسْتغفر اللهَ يجِدِ اللهَ غفُوراً رَحيماً﴾ (النساء : ١١٠) لما رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمائر ، وخلوص القلوب والسرائر ، في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر ، ومَسّه بتقدم الفتنة الضر ، وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا ، وهيأه بنا في نادينا ، فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة ، ورفع من بأسٍ وإحنة ، وكَشَف من ظلْمة ، وسَدّل من نعمة ، وأصفى من مورد عافية ، وأولى من عصمة كافية ، بعدما تخربت الثغور ، وفسدت الأمور ، واهتضم الدين ، واشتد على العباد كَلَبُ الكافرين المعتدين ﴿ذلك من فضل الله عَلَيْنا وعلى النّاس﴾ (يوسف : ٣٨) فله الحمد دائباً ، والشكر واجباً ، ومن الله نسأل أن يتمم نعمته علينا كما أتمها على أبوينا من قبل إن ربّك حكيم عليم .

« ونحن قد شَرَعْنا في تعيين مَنْ ينوب عنّا من أهل العلم والعدالة ، والدين والجلالة ، للتطوّف في البلاد الأندلسية ، ومباشرة الأمور بالبلاد النّصْرية ، يُنْهُونَ إلينا ما يستطلعونه ، ويبلغون من المصالح ما يتعرفونه ، ويقيدون ما تحتاج إليه الثغور ، وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور ، ونحن نستعين بفضلاء رعيتنا وخيارهم ، والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم ، على إنهاء ما يخفى عنّا من ظلامة تقع ، أو حادث يُبتدع ، ومن اتخذت بجَواره خمر فاشية ، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية ، فنحن نقلده العهد ، ونطوّقه القلادة ، ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهداه ، وإحماد سعي من أبلغه وأداه ، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه ، والتقرب به إليه ، فمن أهدى لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره ، ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » انتهى .

[وصية لسان الدين لأبنائه]

وإذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه الله تعالى من

النصائح والمواعظ والوصايا ، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا ، كَلَّ دون شأوه ، وقصر عن أمده مَديدُ خَطْوه ، وقد تقدم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة ، فلتراجَع في محالها المتكاثرة ، وقد آن أن نسرد في هذا المحل الوصية التي أوصى لسانُ الدين رحمه الله تعالى بها أولاده ، وهي وصية جامعة نافعة ، يحصل بها انتعاش ، لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش ، ونصّها[1] :

الحمد لله الذي لا يروعه الحِمام المرقوب ، إذا شيم نجمة المثقوب ، ولا يبغته الأجل المكتوب ، ولا يفجؤه الفراق المعتوب ، مُلْهم الهدى الذي تطمئن به القلوب ، ومُوضِحِ السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب ، لا سيما للولي المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب ﴿أم كُنتُم شُهَدَاء إذْ حضَرَ يعقوب﴾ (البقرة : ١٣٣) ﴿ووصّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويَعْقُوب﴾ (البقرة : ١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زُرَّتْ على نورهِ جيوبُ الغيوب ، وأشرف مَنْ خُلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تَصِمُه العيوب ، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ، والأمل المسلوب ، والاقتداء الموصل للمرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

وبعد ، فإنّي لما علاني المشيب بقمته ، وقادني الكبر في رمّته[2] ، وادكرت الشباب بعد أُمته[3] ، أسفت لما أضعت ، وندمت بعد الفطام على ما رضعت ، وتأكّد وجوب نصحي لمن لزمني رَعْيُه ، وتعلّق بعيني[4] سَعْيُه ، وأمّلت أن

---

١ قارن نص هذه الوصية بما ورد في أزهار الرياض ١ : ٣٢٠ .
٢ ق : برمته ، والتصويب عن الأزهار .
٣ ق : بهمته .
٤ الأزهار : بسعيي .

تتعدى إليّ ثمرة[1] استقامته وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك — وعسى أن لا يكون ذلك — على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمن عليّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك:

اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضُّلاَّل، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال — أنّي مُودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المَدى، وما عدا ممّا بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة[2] تُعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب مِنْ بَعْدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنوّ قصدي، حسبما تضمَّن وعدُ الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه، وكأنّي بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل السام[3] من كل حدب قد نَسَل، والمعاذ اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء[4] عسكر مَجْر، وغداً شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها

---

١ الأزهار : ثمرات .
٢ الرتيمة : الخيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة .
٣ السام — بتخفيف الميم — : الموت .
٤ الأزهار : آباء .

الآخرة ، والحازم من لم يُتّعظ به في أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو[1] ، فاقتنوها من وصية ، ومرّام في النصح قصية ، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق همَلاً ، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، ولا رضي الدنيا منزلاً ، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلاً .

ولتلقنوا تلقيناً ، وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي ، ويفترش الترابَ جنبي ، ويسح انسكابي ، وتهرول عن المصلّى ركابي ، أحرص مني على سعادة إليكم تُجلَب ، أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتُطلب ، حتى لا يكون في الدين والدنيا أوْرَفَ منكم ظلاً ، ولا أشرف محلاً ، ولا أغبط نَهَلاً وعَلاً ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان ، وتستلمحوا صُبْحَ نصحي فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وإذ قالَ لُقمانُ لابْنِهِ وهوَ يَعِظُهُ: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عَظيم ، يا بُنَيَّ أقمِ الصّلاة ، وَأمُرْ بالمعْرُوف ، وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ، واصْبِرْ علَى ما أصابَكَ ، إنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمُور ، وَلا تُصَعِّر خدّكَ للنّاس ، وَلا تَمْشِ في الأرْضِ مرَحاً ، إنَّ اللهَ لا يحِبُّ كلَّ مُخْتالٍ فَخُور ، واقصِد في مَشْيِكَ ، واغْضُضْ من صوتك ، إنَّ أنكرَ الأصْواتِ لصَوْتُ الحَمير ﴾ (لقمان : ١٣ – ١٩) وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله ، حكم ما تضمنه حكم تنزيله ﴿ يا بنيّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُم الدين فَلا تموتُنَّ إلاّ وأنتُم مُسْلِمُون ﴾ (البقرة : ١٣٢) والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفّاه ، وقرّره مصطفاه ، من قبل أن يتوفّاه ، إذا أعمل فيه انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدم ، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم ، فالله واحد أحد ، فردٌ صَمَد ، ليس له والد ولا ولد ،

---

١ قولة قالتها الزباء حين انتحرت وأبت أن تستسلم لعمرو بن عدي .

تنزه عن الزمان والمكان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ، خالق الخَلْقِ وما يعملون ، الذي لا يُسْأل عن شيء وهم يُسْألون ، الحي العليم المدبّر القدير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيء وَهُوَ السَّميعُ البَصير ﴾ (الشورى : ١١) أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس [1] إلى النجاة من الشقاء ، وتوجّه الحجّة في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ، ثمّ ختم ديوانهم بنبي ملّتنا المرعيّة الهمل [2] ، الشاهدة على الملل ، فتلخصت الطاعة ، وتعيّنت [3] الإمرة المُطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ، ثمّ إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً ، وترك دينه يضم من الأمة نشراً ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه تورّط [4] عنه في متشبه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي : كتاب الله ، وسنّتي ، فعضوا عليهما بالنواجذ » [5] .

فاعملوا يا بني بوصيةٍ من ناصحٍ جاهد ، ومشفقٍ شفقة والد ، واستشعروا حبه الذي توفّرت دواعيه ، وَعُوا مَراشد هديه فيا فوز واعيه ، وصِلُوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به مجملاً أو مفصّلاً [6] على حسبه ، وأوجبوا التجلة لصحبهِ الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أُولي الفضل الشهير ، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعُكم إليها داع ، ولا تَعِ التشاجر بينهم أذنُ واع ، فهو عنوان

-----

١ الأزهار : العباد .
٢ الأزهار : المرعية للهمل .
٣ الأزهار : وتبينت .
٤ ق والتجارية : توط .
٥ هو من حديث العرباض بن سارية السلمي الصحابي عن الرسول ؛ وعضوا عليهما بالنواجذ أي تمسكوا بهما كما يتمسك العاض بجميع أضراسه ، وروي الحديث « فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنّتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين عضوا عليها بالنواجذ » (أسد الغابة ٣ : ٣٩٩) .
٦ أو مفصلا : سقطت من ق والأزهار .

السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اصحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملّة ، وأئمتها الجلّة ، فهم صقلة نصولهم ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم .

واعلموا أنّي قطعت في البحث زماني ، وجعلت النظر شاني ، منذ برّاني الله تعالى وأنشاني ، مع نيل يعترف به الشاني ، وإدراك يسلّمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ، ولا نازع حطام ، ولا متكلّف فطام ، ولا مقتحم بحر طام ، إلاّ وغايته التي يقصدها قد نضلتها[1] الشريعة وسبقتها ، وقرّعت ثنيتها وارتقتها ، فعليكم بالتزام جادّتها السابلة ، ومصاحبة رفقتها الكاملة[2] ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿ ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلَنْ يُقبَلَ منه ، وهوَ في الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ (آل عمران : ٨٥) وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلّغت فأنت خير الشاهدين .

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شوْه الوجوه ونضج الجلود ، واستعيذوا برضى الله من سخطه ، واربأوا بنفوسكم عن غمْطه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم ، واقتنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسَوْا على ما فات وتعذر ، فإنّما هي دُجُنة ينسخها الصباح ، وصفقة يتعاقبها[3] الخسار والرباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها .

---

١ الأزهار و ق : فضلتها ؛ ونضلتها : سبقتها وبذّتها في الرمي .
٢ الأزهار : الكافلة .
٣ الأزهار : يتعقبها .

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل ، وكل ما سوى الراعي همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت[1] أمل ، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة ، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتثلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم .

الله الله في الصلاة ذريعة التجلة ، وخاصة الملّة ، وحاقنة الدم ، وغنى المستأجر المستخدم ، وأم العبادة ، ومحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر وإن[2] عرض الشيطان عرضهما ، ووطّأ للنفس الأمّارة سماءهما وأرضهما ، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر ، وضامنة[3] حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسالمة من الفجار ، والواسمة بسمة السلامة ، والشاهدة للعبد[4] برفع الملامة ، وغاسول الطبع إذا شانه طبَع ، والخير الذي كل ما سواه له تبع[5] ، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثروا على العلية الدنية[6] ، فإن أوقاتها[7] المعينة بالانفلات تنبس[8] ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ، وإذا قورنت[9] بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل ،

---

١ الميت : سقطت من الأزهار .
٢ الأزهار : مهما .
٣ الأزهار : وضابطة .
٤ الأزهار : للعقد .
٥ الأزهار : كل خير له تبع .
٦ وتؤثروا . . . الدنية : سقطت من ق وأصل الأزهار .
٧ ق : فلوقاتها .
٨ تنبس : تسرع .
٩ الأزهار : قرنت .

والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت ، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحقت[1] الكمال ، ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال[2] ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف برئاسه . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلاّ من ضبط نفسه بعقال ، وكان في درج الرجولية ذا انتقال ، واستقاض صدأه بصقال ، وإن تراخى فهقر الباع ، وسرّقته الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولِدتها القريبة ، مفتاح السماحة بالعرض الزائل ، وشكران المسئول على الضدّ من درجة السائل ، وحق الله تعالى في مال مَنْ أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعنّاه ، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه ، ولا علّة إلاّ القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه . فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، في اختيار عرضها ونتاجها ، واستحيُوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلّما عذل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرون أين تسلكون ، فوهب وأقدر ، وأورد بفضله وأصدر ، ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ،

---

١ الأزهار : استحق .

٢ زاد في الأزهار : وثابروا عليها في الجماعات ، وبيوت الطاعات ، فهو أرفع للملام ، وأظهر لشرائع الإسلام وأبر بإقامة ... الخ .

فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نَواله .

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلْفى ، المحوضة لمن يعلم السر وأخفى ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ، والاجتهاد ، وإيثار التهجد[1] على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ، ولواحقه الشرعية ، فبذلك تحسن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب قسوة الطباع ، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع .

والحج – مع الاستطاعة – الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلّم قدره فيما فَرَض عن ربّه وسَنّه ، وقال ليس لَهُ جزاء عند الله إلاّ الجنّه .

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممّن يسمع نفيره ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .

هذه عمد الإسلام وفروضه ، ونقود مهره وعروضه ، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مُبَدّلين ولا مُغَيّرين ، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب ، فعليكم بالعلم النافع ، دليلاً بينَ يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللّباب ، والله عزّ وجلّ يقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُون والذينَ لا يَعْلَمُون ، إنّما يَتَذَكّر أُولو الألْباب ﴾ (الزمر : ٩) والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشَرْطُه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصة الملأ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تُتلى ، والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة ، والذخر الذي قليله ينفع ،

---

١ الأزهار : السهاد .

وكثيره يشفع[1] ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدوّ المناصب ، ولا يبتزّه الدهر إذا مال ، ولا ينبتأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فالتمسوه لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودَرْسِه ، واجعلوا طباعهم ثَرًى[2] لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب جرَّاه ، وسهر يهجر له الجفنُ كَرَاه ، تعقدوا لهم ولايةَ عزّ لا تُعزل ، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحَطّ فارعها ولا يُستنزل ، واختاروا من العلوم التي ينفّقها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت .

وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابتها المَريعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنّما هي آلات لغير ، وأسباب إلى خَيِّرٍ منها وخير ، فمن كان قابلاً لازدياد ، وألفى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة ، المهدي كنوز الكتاب والسنّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرُّب في طرق النظر وتصحيح الأدلّة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملّة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التي هي أسمى ، فليروِ الحديث بعد تَجْوِيد الكتاب وإحكامه ، وليقرإ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم والعلومَ القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتَطْريق الظنون ، وتطويق الاحتقار ، وسِمَةَ الصَّغار ، وخمول الأقدار ، والخَسْف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ، وأوفق[3] من قطع العمر في الجِدال ، هذا ابن رشد قاضي المصر

---

١ الأزهار : والذخر الذي قليله يشفع وينفع وكثيره يعلي ويرفع .
٢ ق : ندى .
٣ ق : وأشفق .

ومُفْتيه ، وملتمس الرشد ومُوليه[1] ، عادت عليه بالسخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخلطوا سامكم بحامها ، إلا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحة ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وضَرَمٌ مسجور ، وممقوت مهجور .

وأمُرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً ، وانهوا عن المنكر نهياً حرِيّاً بالاعتدال حقيقاً ، واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مُفيقاً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنهُ حتى لا تسلكوا منه طريقاً .

وأطيعوا أمر من ولاهُ الله تعالى من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفتنة جَمْراً ، ولا تُدَاخِلوا في الخلاف زيداً ولا عَمراً .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومَنْ أكْثَرَ من شيء عُرِف به . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُوَارَى ، والسوأةُ التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتمارى ، وأقلُّ عقوبات الكذاب ، بينَ يديْ ما أعد الله له من العذاب ، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نَطَق .

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم ، وفي وجه الديانة كُلُوم ، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الحشمة والصّيانة ، ولا تجزوا من أقرضكم دَيْنَ الخيانة ، ولا توجدوا للغدر قَبُولاً ، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً ﴿ وأوفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مسؤولاً ﴾ (الإسراء : ٣٤) ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حَزْن ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن ، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في

---

[1] الأزهار : ومؤتيه .

فُسحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير مُنْسدة ، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه ، ويغمس في الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَناً قويماً ، وجلى من الجهل والضلال ليلاً بهيماً ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عليه ولعَنَهُ وأعدَّ لَهُ عذاباً عظيماً ﴾ (النساء : ٩٣) واجتناب الزنا وما تعلّق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه ، لو لم تتلقَّ نور الله الذي لم يهد شعاعه ، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه ، ولا عدم إقناعه ، ومن غلبت عليه غرائز جهله ، فلينظر هل يحب أن يُزْنى بأهله ، والله قد أعدَّ للزاني عذاباً وبيلاً ، وقال ﴿ ولا تَقْرَبُوا الزنا إنّهُ كانَ فاحِشَةً ومَقْتاً وساءَ سبيلاً ﴾ (النساء : ٢٢) .

والخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطا ، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوّغ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد ، والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد ، وقَرَنَها بالأنصاب والأزلام في مباينة السّداد .

ولا تقربوا الربا فإنّه من مَناهي الدين، والله تعالى يقول ﴿ وَذَرُوا ما بقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنتم مُؤمنين﴾(البقرة: ٢٧٨) وقال : ﴿ فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فأذَنُوا بحربٍ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٩) في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتّى تذهب ريحه ، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه ، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلجأوا إلى المتشابه إلاّ عند عدمه ، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع ، والمحافظ عليه مغبوط ، وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان . والنميمة فساد وشتات ، لا يبقى عليه متات ، وفي الحديث « لا يدخل الجنّة قتّاتٌ »[1] .

---

١ القتات : النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون (النهاية ٣ : ٢٢٧) .

واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود ، والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود . وإياكم وما يُعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها ، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها ، وتفقّدوا أنفسكم مع الساعات ، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات ، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات . وعوّلوا عليه وحده في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نَصَبتم الموائد ، وتقربوا إليه باليسير من ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعوا حقوق الجار ، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ، وتعاهدوا أولي الأرحام ، والوشائج البادية الالتحام ، واحذروا شهادة الزور فإنّها تقطع الظهر ، وتفسد السرّ والجهر ، والرُّشا فإنّها تحط الأقدار ، وتستدعي المذلّة والصَّغار ، ولا تسامحوا في لعبة قمر ، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر . وصونوا المواعيد من الإخلاف ، والأيمان من حِنْث الأوغاد والأجلاف ، وحقوقَ الله تعالى من الإزراء والاعتساف ، ولا تلهجوا بالآمال العِجاف ، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف . واجعلوا العمر بين معاش ومَعاد ، وخصوصية وابتعاد . واعلموا أن الله سبحانه بالمِرْصاد ، وأن الخلق زَرْع وحَصاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم . واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذاية المؤذين ، ولا تَقارضوا مقالات الظالمين ، فالله لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلّما نزلت ، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت ، فكل منقرض حقير ، وكل مُنْقَضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفَرَج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرَج ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح][1] ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجأوا إليه في البأساء والضرّاء ،

---

١ واجنحوا . . . جانح : سقطت من ق وأصل الأزهار .

وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، ويَعْذُب الوارد ، وأسهموا منها للمساكين وافْضُلُوا عليهم ، وعيّنوا الحظوظ منها لديهم ، فمن الآثار « يا عائشة ، أحسني جوار نعم الله ، فإنّها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم » . ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها ، وتلفّكم الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجدّكم حلّبها ، فالله خيرُ الرازقين ، والعاقبة للمتّقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تُذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومُرَاعاة في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُجهل ، وحق لا يُهمل . وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصِلوا التعاهد والتزاور ، تُرْغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة ، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعْظَمَ النساءُ أمراً فاحقِرُوه .

والله الله لا تنسوا مقارضة سَجْلِي ، وبروا أهلَ مودّتي من أجلي ، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القَلِق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلّة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدوّ على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النُّوَب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أوْلى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرّها ، ونفعُها لا يقوم بضرّها ، وأعقاب من تقدّم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومَنْ بُلِيَ بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر معاداة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار[1] ، وليَصُنِ الديانة ، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ، ويسر من رضى

[1] زاد في التجارية : فإنه دأب الغر ، والعبارة ساقطة من ق والأزهار .

الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان ، والزعازع تسالم اللدْن اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ [1] وغِلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً ، فليتلقّ وظائفها بسعة صدره ، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر وإحْنة ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلال بعبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل ، ومزلّة قَدَم ، واستتباع نَدَم ، ومآل العمر كلّه موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممّن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتي التي لربحكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ، وبقدر ما أمضيتم من فروعها ، واستفشيتم من دروعها ، اقتنيتم من المناقب الفاخرة ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القيّم ، استكثرتم من بواعث النّدَم . ومهما سئمتم إطالتها ، واستغزرتم مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعلها الله من وراء خطة النجاة [2] ، ونَفّق بضائعها المزجاة ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيبكم المودع ، والله سبحانه يلأمه حيثُ شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ، ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية الفريدة في حسنها ، الغريبة في فنها ، المبلغة نفوس الناظرين

---

[1] التجارية : المطلوب .

[2] ق والتجارية : جعل . . . خطته النجاة .

فيها فوق ظنّها ، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التآليف العديدة كـ « المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب » – وهو في ست مجلدات [ولو لم يكن له غيره] لكان كافياً ، وله مصنّفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك ، ولم يؤلف في المذهب مثلها – [كثيراً ما يدخل منها في خطبه] [1] .

[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]

رجع إلى ما كنا فيه :

أقول : لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعمالهم باقتفاء النهج الذي يرون فيه السلوك ، وقد وقفت للفقيه الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الجنّان المرسي الأندلسي رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بدّ منه ، فرأيت أن أذكرها هنا تتميماً للفائدة ، ونصها بعد الصدر :

من مجاهد الدين ، وسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكّل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود ، أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بتمكينه ، وأعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه ، إلى صِنْونا المبارك ، وقسيمنا وأخينا المخصوص بتبجيلنا وتكريمنا ، وحُسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا ، الأمير الأعلى ، الموقّر الأسمى ، الميمون النقيبة المحمود السجيّة ، الأحب النيّة ، الأعز علينا ، المتمم بمساعيه الصالحة كل ما نَوَيْنا ، أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده ، وأمضى في الحق قَوَاضبه وصِعاده ، ووالى معونته وإنجاده ، وتولى توفيقه

---

1 قد سقط ما بين معقفين من ق والتجارية ، وزدناه حسب المعنى من أزهار الرياض .

وإرشاده ، سلام طيب كريم زاكٍ يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أمّا بعد – فالحمد لله الذي أوضح للحق سبيلاً ، ومد ظل رحمته على الخلق ظليلاً ، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً ، ونزّل الأحكام على قدر المصالح تنزيلاً ، ونَصَبَ معالم الهدى عَلَماً لمن اقتدى ودليلاً ، وألهم إلى ما يرضاه عملاً ومعتقداً وقيلاً ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصَّيِّبة ، على سيد العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد رسوله الذي فضّله بخلته واصطفاه تفضيلاً ، وبعثه بالحنيفية السمحة فبينها تبييناً وفصّلها تفصيلاً ، ورتبها كما أمره ربّه إباحة ونَدْباً وتحريماً وتحليلاً ، حتى ثبتت سنة الله ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر : ٤٣) وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم بهِ عليه الصلاة والسلام نصّاً وتأويلاً ، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة ، وأحكامهم العادلة ، أساساً للمتقين جليلاً ، ومآثر للمقتفين تَسْبَح الأفهام والأقلام في بحارها سَبْحاً طويلاً ، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً ، ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته ، وحامل أمانته إلى خليقته ، الذي كمل الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً ، وأناله من هدي النبوّة أفضل ما كان للهداة منيلاً ، سيدِنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوّىء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفاً جليلاً ، والمنتخب من بحبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده مُعَرَّساً ومقيلاً ، والدعاء له من لدن العزيز القوي بنصر يأتي لإمداده بعدد الملائكة قبيلاً ، وفتح يؤتي الإيمان من الظهور بغية وتأميلاً – .

فإنّا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزماً لا يزال عَضْبه صقيلاً ، وعزّاً يروق بإظهار الحق غرّة وتحجيلاً ، ورأياً لقداح السداد والنجاح مُجِيلاً ، وسعداً يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلاً ، من حضرتنا بمرسية حرسها الله تعالى ، ونحن نحمد إليكم الله الذي لا إلهَ إلا هو على فضله الذي أناله جسيماً جزيلاً ، ونتوكل عليه ، توكل من يلجأ في كل أحواله إليه ، وكفى بالله وكيلاً ، ونستعينه على أمور

المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعبئاً ثقيلاً ، ونقف بالضراعة بين يديه ، طلباً لما يخلصنا لديه ، عساه أن يجعل لرغبتنا قبولاً وتوسيلاً ، ونعوذ به من كل عمل لا يكون حاصله إلا مآلاً وبيلاً ، وعرضاً من الدنيا قريباً ومتاعاً قليلاً .

إنا — والله المرشد — لنعلم أن هذا الأمر الذي قلدنا الله تعالى منه ما قلده ، وأسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده ، قد ألزمنا من حقوقه الواجبة ، وفروضه الراتبة ، ما لا يستطاع إلا بمعونته أداؤه ، ولا يستتب إلا بتوفيق الله تعالى انتهاؤه وابتداؤه ، فهو المشكور عز وجهه على نعمته ، والمستعان على ما يدني من رضاه ويقرب من رحمته ، وأن كل امرىء بشأنه مشغول ، وعن خويصة نفسه مسؤول ، ونحن بما استرعانا الله تعالى مشغولون ، وعن الكبير والصغير مسؤولون ، وعلينا النصيحة لله في عباده وبلاده ، والنظر لهم بمنتهى جد المجتهد واجتهاده ، ولا قوة إلا بالله عليه توكلنا ، وبه إليه توسلنا ، فعيننا تسهر لتنام للرعية عيونهم ، وتحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم ، وأملنا أن لا نقر فيهم بحول الله تعالى ظلماً ولا هضماً ، ولا نخرم لهم في إقامة حقوق الله ما استطعنا نظماً ، وأنى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته ، من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوز ظلم ظالم في بريته ، ولعل الله الذي حملنا ما حملنا ، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا ، أن يهب لنا توفيقه ، ويسلك بنا إلى هداه طريقه .

ألا وإن من وليناه أمراً من أمور المسلمين فهو مطلوب به ، وموقوف عليه عند ربه ، فلينظر امرؤ في جزئية ما نيط به وكليته ، وليراقب فيما لديه علم خفيته وجليته ، ألا وكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته ، فمن حفظه الله حفظه الله في نفسه وآله ، وقضى له بالسعادة في حاله ومآله ، وأنجاه يوم عرضه وسؤاله ، والخلق عيال الله فأحبهم إليه أحبهم لعياله . العدل العدل فبه قامت السموات والأرض ، وبإقامته أقيمت السنة والفرض ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة : ٨) وأقوى ما تشتد به أركان الدين وتقوى ، أما إن الحق في أن لا تتعدى

أساليب الشرع وقوانينه ، وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه ، وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

ألا وإنّا قد عثرنا لبعض قوّاد الجهات وحكامها على أمور أنكرنا معرفاتها ، واستقبحنا مستوصفاتها ، وبرئنا إلى الله تعالى من متغيراتها ومحرفاتها ، وعلمنا أن منهم أقواماً لا يتورّعون عن الأموال والدماء ، ولا يحذرون فيما يأتون ويذرون جبّار الأرض والسماء ، فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه ، وعجلنا ابتغاء رضاه محقه ومحوه ، وانبعثنا لنظر جديد ، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد ، وتغليظ في المحرمات وتشديد ، واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطاً وضبطاً ، ويفيض على الأمّة بعون الله تعالى عدلاً وقسطاً ، وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كل من استكفيناه بالبلاد ، ووليناه النظر عنّا في مصالح العباد ، بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فصوله ، والاستناد إلى محصوله ، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله :

فأوّل ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كل حال ، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء وانتحال ، والوقوف عند حدود الله التي حدها ، وأرصدها بإزاء موجباته وعدها ، فإنّه لا يتعداها إلاّ من رام تعفّي رسمها وطمسه ﴿ ومَنْ يتَعَدَّ حُدودَ الله فقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه ﴾ (الطلاق : ١) والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة ، والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولي الحياطة المنيعة ، والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء ، والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاقتداء ، والطريقة المثلى ، وآيات الله التي تتلى ، وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى ، وخفض الجناح ، والأخذ بالرفق والإنجاح ، وتوخي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الإصباح ، والحلم والأناة ، والمذاهب المستحسنات ، والأمور البيّنات .

والله الله في الدماء فإنّها أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ، ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل المسلم

لأخيه ، وقد قال مالك الأمر والخلق ﴿ ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حرَّم اللهُ إلا بالحَقّ ﴾ (الأنعام: ١٥١) فتثبتوا فيها فأمرها جليل، وتحريمها لا يدخله تحليل، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكماً أو نظراً ، أو تَكِلُوا إليهم منها مستكثَراً أو مستنزراً ، فإنّه إذا استبدّ بالقضاء فيها كل والٍ ذهبت هَدَراً ، واستباحها الجاهل والجائر أشَراً وبَطَراً ، وربما كان فيهم من في طباعه سَبُعية فيقتل بها الناس قتلاً ذريعاً ، ويتسهّل بذلك من جوره صعباً ويرتكب بجهله شنيعاً ، ويذهل عن قول الله تعالى ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغَيْرِ نَفْس أو فَساد في الأرْضِ فكأنّما قَتَلَ النّاسَ جَميعاً ، ومَنْ أحْياها فكأنّما أحْيا النّاسَ جَميعاً ﴾ (المائدة : ٣٢) فأنّى تحل المسامحة في هذا الشان ، أو يحكم به كل إنسان في نفوس أهل الإيمان ؟ معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه ، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزيله ولا نصرفه ، فسدُّوا هذا الباب سَدّاً ، وصدوا عنه مَنْ أمَّه صدّاً ، وكفوا كل ما كان من الأيدي للدماء ممتدّاً ، ومَنْ وجب عليه القتل شرعاً[1] وتعين ، واتضح موجب القصاص فيه وتبين ، فليس لكم إلا القاعدة الكبرى ، تُتَحَرّى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضي والشهود كما يجب أن يتحرّى ، بعد أن يتثبت في نازلته لديكم ويستجلى ويُستَبْرا ، فلا تحل القضية إلا على بصيرة ، وحقيقة مستنيرة ، فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس ، ويتعذر بعد الإقادة إعادة النفس .

وملاكُ الأمر في انتقاء من يتصرف ، وتولية من لا يضيم ولا يتحيف ، فتخيروا للأنظار والجهات ، مَنْ تُرتَضى سيرته من الولاة ، ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة ، والمصرين على الراحة والبطالة ، فإنّهم إذا استرعوا أضاعوا ، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا ، وميلوا باختياركم إلى المتّسمين بالصلاح ، المرتسمين في ديوان الكفاة النصاح ،

١ شرعاً : سقطت من ق .

وأطيلوا مع ذلك التنقير عنهم والتنقيب ، ولا تغفلوا عن التعهد بالبحث البعيد منهم والقريب ، ومَنْ عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال ، وإضاعة للحقوق وإهمال ، فخلوا على يده ، وجازوه بفاسد مَقْصِده ، وأنزلوه بالمنزل الأقصى ، وعاملوه معاملة من أوصِيَ بتقوى الله فما استوصى .

واصرفوا نظركم إلى القُضاة فإن مدار الشريعة إنّما هو على ما يستند إليهم ، ويقصر من الأحكام عليهم ، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة ، وذوي النزاهة والصيانة ، أمسكهم الورع بزمامه ، وبلغ العهد بهم غاية تمامه ، وإذا كانوا بضدّ هذا قبلوا الرشوة ، وأوطأوا العشوة ، وأطالوا النشوة ، وأحلّوا من الدماء والفروج محرمها ، وطمسوا من السنّة بالميل والمين معلمها ، وحكموا بالهوادة والهوى ، وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى ، فانتقوهم فهم أوْلى بالانتقاء ، وشَرُّ جاسِرِهم وجاهلهم أحقّ بالاتقاء ، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل ، ولكن قدموهم بتورعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل .

وممّا نؤكد عليهم فيه أمر الشهود ، فإن شهادة الزور هي الداء العُضال ، والظُّلمة التي يتستّر بها الظُّلَمة والضُّلاَّل ، والحجّة الداحضة التي بها يحلّل الحرام ويحرم الحلال ، وقد كثر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة ، فتقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لا يقبلوا إلاّ مشهوراً بزكاء وعدل ، موفوراً حظّه من رجاحة وعقل ، ومن كان مغموزاً عليه في أحواله ، منبوزاً بالاستّرابة في شهادته وأقواله ، فلتُرَدُّ شهادته على أدراجها ، وليبطل ما يكون من حِجاجها . وأكدوا عليهم عند تعارض العقود في الترجيح ، والنظر في التعديل والتجريح ، لتجري أمور المسلمين على مستوى الحقّ المستبين ، وتبدو المَعْدَلَةُ مشرقةَ الغُرَّةِ مؤتلقة الجبين .

وممّا نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ، ولا تولّوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضيّ الأعمال ، ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين المرعية ، ناصحاً لبيت المال

رفيقاً بالرعية ، وكان في أمانته حائداً عن الجادة السوية ، قائلاً كما قال قبله ابن اللتبية [1] ، فليُعَوِّض منه غيره ، وليُرْفع عن الجانبين ضيره ، فإنّه ما كانت الخيانة قط في شيء إلا أهلكته ، ولا وضعت في إنسان طبيعة سوء إلا ملكته .

وإنّما هو مال الله تعالى الذي يرزق منه الحماة ، وبه تُسد الثغور المهمات ، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته في كلّه وبعضه ، فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين ، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والقصد والاعتماد الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن تظلّم من أحدهم متظلم ، واشفوا شكوى كل متشك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بحرمة الدماء لاحقة ، وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » .

وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة ، إن هذه أمتكم أمّة واحدة ، وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ، ولا يؤخذن أحد بجريرة أحد ، ولا يجني ولد على والد ولا والد على ولد ، فكتاب الله تعالى أولى بالاتباع وأحرى ، لقول الله عزّ وجلّ ﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ (الأنعام : ١٦٤) [2] اللّهم إلاّ من آوى محدثاً فإنّه مأخوذ بما أجرم ، وملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلمّ .

فارفعوا — أعاننا الله تعالى وإياكم — للعدل بكل علم مناراً ، واتخذوا الرفق بالإمامة شعاراً ، فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم « إن الرفق لا يكون

---

١ يسمى عبد الله بن اللتبية بن ثعلبة الأزدي ، قال ابن حجر في الإصابة (٤ : ١٢٣) : مذكور في حديث أبي حميد الساعدي في الصحيحين أن النبي (ص) بعث رجلا على الصدقات يدعى ابن اللتبية وذكره الفيروزابادي في تحفة الأبيه (ص : ١٠٧) باسم عمر بن اللتبية وقيل الأتبية الأول قول ابن دريد والثاني قول ابن الكلبي .

٢ وردت الآية أيضاً في سورة الإسراء : ١٥ وفاطر : ١٨ والزمر : ٧ .

في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلاّ شانه » وقد نصّ الكتاب والسنّة على مواضع اللين والاشتداد ، ونبها على منازع المقاربة والسّداد ، فلا غضب لأمر إلاّ بما غضب لَهُ الله عز وجل ، ولا رضًى به إلا إذا استقر فيه رضى الله تعالى وحل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم « الذي يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عزّ وجل : عبدي ، لمَ جلدت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : رب غضبت لغضبك ، فيقول : أكانَ ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي ؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبديَ ، لمَ قصرت عمّا أمرتك به ؟ فيقول : ربّ رحمته ، فيقول : أكانَ ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي ؟ » قال : فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي ، إلا أنّه قال : صيروهما إلى النّار ، أعاذنا الله تعالى منها بفضله ورحمته ! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع ، واحتاطوا في الرعية فإنّه رأس المال ، والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال ، ومع توفيقكم لما سطرناه ، في هذا الكتاب وشرحناه ، من أبواب الخير المسعد في المآب والمآل ، فاستوفوا ضروب الصالحات واستقصوها ، واعملوا أعمال البر وخصوها ، واذكروا آلاء الله وقصوها ، ﴿وإنْ تعدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها﴾ (إبراهيم : ٣٤) واشتدوا في تغيير المنكرات كلّها ، واحسموا أدواءها من أصلها ، ورغّبوا الناس في الطاعات واندبوهم إليها ، ووضحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها ، وانتهوا في كل سعي ناجح ، ورأي راجح ، إلى أفضل ما ينتهي إليه المنتصحون ، ﴿ولتَكُن منكُم أمّةٌ يَدْعُون إلى الخيرِ ويأمُرُون بالمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأولئكَ هُمُ المُفْلحون﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وخذوا بعمارة مساجد الله التي هي بيوت الأتقياء ، ومحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء ، إنّما يعمر مساجد الله مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

ومُرُوهم بأن يعلّموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفيء غضبَ

الرَّب ، ونعم الشفيع يوم القيامة ، والمتوسل فيما يتوج القاريء وأباه تاجَ الكرامة ، وأرشدوا للخير ما استطعتم ، واتبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم ، والله ولي التوفيق والإرشاد ، والملجيء بالهداية إلى طريق الفوز والسداد .

وهذه أوامرنا إليكم امتثلنا أمر الله تعالى فامتثلوها ، وأحضروها في خواطركم مع كل لحظة ومثلوها ، وإنّا لما يكون منكم فيها لمستمعون ، ولآثاركم فيما يوفيها لمتطلعون ، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمتنا في التذكير ، ونهجنا لكم منها التقديم والتأخير ، والله تعالى يعلم أنّا إنّما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب ، وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب ، لنرعى حقّه سبحانه فيمن استرعانا ، ونسعى في صلاح الأمّة عسى الله تعالى أن ينجح فيه مسعانا .

اللّهم عَبْدُك يضرع إليك ، ويخضع بين يديك ، في أن تلهمه إلى ما يجمل قصداً ومعتمداً ، وتهب لـه من لدنك رحمة وتهييء له من أمره رشداً . اللّهم منك المعونة على ما وليت ، ولك الشكر على ما أوليت ، فالمهديُّ من هَدَيْتَ ، والخير كلّه فيما قضيت . اللّهم من أعاننا على مرضاتك فكن له مُعيناً ، وأورده من توفيقك عذباً مَعيناً ، إنّك الولي النصير ، العلي الكبير .

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصُّوه[1] على الناس مفصلاً ومجملاً ، وأظهروا مضمونه لهم قولاً وعملاً ، واسلكوا بهم من مراشده سَنَناً مستجملاً ، إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه يديم علاكم ، ويصل إعادتكم في كل مَحْمَدٍ وإبداكم ، ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم ، بمنّه وكرمه لا ربَّ سواه . والسّلام الأكرم الأزكى يخصّكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة ؛ انتهى .

---

١ ق : فنصوه .

[ترجمة ابن الجنان]

وهذا ابن الجنان[1] له الباع المديد في النظم والنثر ، ومن شعره رحمه الله تعالى في مرضه الذي توفي فيه ، وهو آخر كلامه :

جهل الطبيبُ شكايتي ، وشكايتي ... أنّ الطبيبَ هوَ الذي هو ممرضي
فإن ارتَضى برئي تَداركَ فضلَهُ ... وإن ارتضى سَقَمي رضيتُ بما رضي
ما ليَ اعتراضٌ في الذي يقضي بهِ ... لكنْ لرحمتهِ جعلتُ تعرُّضي

ومن نظمه رحمه الله تعالى ملغزاً في بطيخة :

وحُبْلى بأبناءٍ لها قد تمخّضُوا ... بأحشائها من بعدِ ما ولدوها
كسوها غداةَ الطلقِ بُرْداً معصفراً ... على يَقَقٍ أزرارها عقدُوها
ولمّا رأوها قَدْ تكاملَ حُسنها ... وأبدرَ مِنْها طالعٌ حَسَدُوها
فقدُّواقميصَ البدرِ بالبرقِ واجتلوا ... أهِلّتَها من بعدِ ما فقدوها
ولو أنصفوا ما أنْصَفوا بدر تمّها ... ولا أعدموا الحسناء إذ وجَدوها

وقال أيضاً ملغزاً في الميل ، وهو المِرْوَد :

مسترخص السوم غالٍ ... عالٍ لهُ أيُّ حظوه
ما جاوز الشبر قدراً ... لكنّهُ ألفُ خطوه

وهذا استخدام ما به باس ، لأنّه اكتسى من الحسن خير لباس ، وكم لهذا

---

١ كتب حيثما ورد في ق والتجارية « ابن الجيان » — بالياء — وهو خطأ ؛ فقد ذكره ابن عبد الملك في مواضع من الذيل والتكملة (٤ : ١٠٨ و ٥ : ٣٢٧ . . .) بالنون ؛ ونسخة الجزء الخامس من الذيل والتكملة مضبوطة مصححة . وكذلك ثبت اسمه في المصادر التي ترجمت له (انظر الإحاطة ٢ : ٢٥٦ — ٢٦٤ وعنوان الدراية : ٢١٣) . وله في الذيل والتكملة (٥ : ٣٢٧) رسالة إلى أبي عبد الله ابن عابد ، وفي (٤ : ١٠٨) تعزية في أستاذه سهل بن مالك ، والجزء الذي ترجم له فيه ابن عبد الملك لا يزال مفقوداً ، وعنه ينقل لسان الدين .

الكاتب من محاسن ، ماؤها غير آسن .

وقد عرّف لسان الدين في الإحاطة بابن الجنان ، وأطال في ترجمته ، ونشير إلى بعض ذلك باختصار .

وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية ، أبو عبد الله ابن الجنان .

كان محدثاً راوية ضابطاً ، كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً ، رائق الخط ، ديّناً فاضلاً ، خيراً ذكياً ، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرم من ذلك ويقلق[1] منه ، ثم خلصه الله تعالى منه ، وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القَماءة ، حتى يظن رائيه الذي استدبره أنّه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها ، متناسب الخلقة ، لطيف الشمائل وقوراً ، خرج من بلده حين تمكن العدوّ من قبضته سنة ٦٤٠ ، فاستقرّ بأريولة إلى أن دعاه إلى سبتة الرئيسُ أبو علي ابن خلاص[2] ، فوفد عليه ، فأجلّ وفادته ، وأجزل إفادته ، وحَظِـيَ عنده حُظْوة تامّة ، ثم توجّه إلى إفريقية ، فاستقر ببجاية ، وكانت بينه وبين كتّاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته ، وروى ببلده وغيره عن أبي بكر ابن خطاب وأبي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع ابن سالم وأبي عيسى ابن أبي السداد وأبي علي الشلوبين وغيرهم ، وكان له في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلّم بدائع ، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيراً ؛ انتهى مختصراً ، وإلا فترجمته في الإحاطة متسعة ، رحمه الله تعالى .

ولمّا كتب له أبو المطرف ابن عميرة برسالته الشهيرة التي أوّلها « تحييك الأقلامُ تحية كسرى ، وتقف دون مَداك حَسْرَى » وهي طويلة ، أجابه بما

---

١ الإحاطة : ويضيق .

٢ هو الحسن بن خلاص تولى سبتة سنة ٦٣٧ ثم ثار فيها في زمن السعيد أبي الحسن ابن المعتضد بالله من خلفاء الموحدين سنة ٦٤١ وبايع للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب تونس . وكانت وفاته سنة ٦٤٦ (ابن عذاري ٣ : ٣٥٩ ط . تطوان) .

نصّه : « ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية ؟ أتنكيتٌ من الأقلام ؟ أو تبكيتٌ من الأعلام ؟ أو كلا الأمرين توجّه القصدُ إليه ، وهو الحق مصدقاً لما بين يديه ؟ وإلاّ فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه[1] ، ويترامى للغاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانت أنابيبُه للعاجم ، ودانت أعاريبه للأعاجم ؟ واعَجبًا لقد استنوق الجمل ، واختلف القول والعمل ، لأمرٍ ما جَدَعَ أنفَه قصير[2] ، وارتد على عقبِه الأعمى أبو بصير ، أمْسِ أستسقي من سَحابِه فلا يسقيني ، وأستشفي بأسمائه فلا يشفيني ، واليوم يُحلّني محلَّ أنوشروان ، ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان[3] ، ويزعم أنّي أبطلت سحره ببئر ذروان[4] ، ويخفي في نفسه ما الله مبديه[5] ، ويستجدي بالأثر[6] ما عند مستجديه ، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة ، والشريعة المبتدعة ؟ أيظن أن مُعَمّاه لا ينفك ، وأنّه لا ينجلي هذا الشك ؟ هل ذلك منه إلا إمحاض التّيه ، وإحماض تَفَتّيه ، ونشوة من خمر الهزل ، ونخوة من ذي ولاية آمنٍ من العَزْل ؟ تالله لولا محلّه من القسم ، وفضله في تعليم النّسَم ، لأسمعته ما ينقطع به صَلَفه ، وأودعته ما ينصدع به صَدَفه ، وأشرت بطرف المشرفي وحدّه ، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجدّه ، ولكن هو القلم الأوّل ، فقوله على أحسن الوجوه يُتَأوّل ، ومعدود في تهذيبه ، كل ما لسانه يهذي به ، وما أنسانيه إلا الشيطان أياديه أن أذكرها[7] ، وإنّما أقول :

---

١ أي من الملق .
٢ هذا مثل يرد في قصة الزباء وجذيمة .
٣ الزيدية : أتباع زيد بن علي ، وقد قتله الأمويون في زمن هشام بن عبد الملك .
٤ بئر ذروان : بناحية المدينة ، وفي حديث هشام بن عروة أن لبيد بن الأعصم سحر الرسول وخبأ السحر في تلك البئر .
٥ إشارة إلى الآية : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس » .
٦ ق : بالأسد ؛ التجارية : بالأشر .
٧ من الآية : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » .

ليت التحية كانت لي فأشكرها[1]

ولا عتب إلاّ على الحاء ، المبرحة بالبرحاء ، فهي التي أقامت قيامتي في الأندية ، وقامت عليّ قيام المتعدية ، يتظلم وهو عين الظالم ، ويُلين القول وتحته سم الأراقِم ، ولعمر البراعة وما رضعت ، والبراعة وما صنعت ، ما خامرني هواها[2] ، ولا كلفت بها دون سواها ، ولقد عرَضَتْ نفسها عليّ مراراً ، فأعرضتُ عنها ازوراراً ، ودفعتها عني بكل وَجْه ، تارة بلطفٍ وأخرى بنَجْه[3] ، وخفتُ منها السآمة ، وقلت : انكحي أسامة ، فرضيت مني بأبي جهم[4] وسوء ملكته ، وابن أبي سفيان وصَعْلكته[5] ، وكانت أسرع من أم خارجة للخِطْبة ، وأسمح من سجاح[6] في استنجاح تلك الخطبة .

« ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عشرتها ، واستثقال الاجتماع من عترتها ، وأرى من الغبن والسفاه ، أخذها وترك بنات الأفواه والشفاه[7] ، إذ هي أيسر مؤونة ، وأكثر معونة ، فغلطني فيها أن كانت بمنزل تتوارى صوناً عن الشمس ، ومن نسوة خفرات لا ينطقن إلا بالهمس ، ووجدتها أطوع من البنان للكف ، والعنان للكفّ[8] ، والمعنى للاسم ، والمغنى للرسم ، والظل للشخص ، والمستدل للنص ، فما عرفت منها إلاّ خيراً أرضاه ، وحسبتها من الحافظات

---

١ من شعر كثير عزة ؛ وتمامه : مكانك يا جمل حييت يا رجل .
٢ الضمير عائد إلى « الحاء » ولعله يعني قصيدة أو رسالة بنيت على تكرير الحاء في كل كلمة .
٣ النجه : الرد القبيح .
٤ في ق والتجارية : أبو جهل ، وهو خطأ ، انظر التعليق التالي .
٥ يشير إلى قصة فاطمة بنت قيس أخت الضحاك حين خطبها معاوية وأبو جهم : أما معاوية فوصف بأنه صعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه (أي يضرب النساء) ، وتزوجت فاطمة بعد ذلك أسامة بن زيد .
٦ قصة زواج سجاح من مسيلمة مشهورة ؛ وقد ضرب بها المثل في الإسماح .
٧ بنات الأفواه والشفاه من الحروف مثل الباء والميم . . . إلخ .
٨ الكف : الكبح والمنع .

للغيب بما حفظ الله ، فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها ، ونشزت فنشرت ما استكتمها بعلها ، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن أبي عُبَيْد[1] ، وضربت في الأرض تسعى عليّ بكل مكر وكيد ، وزعمت أن الجيم خدعها ، والآن أخْدَعَها ، وأخبرها أن سيبلغ بخبرها الخابور[2] ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور[3] .

« فقد جاءت إفكاً وزوراً ، وكثرت من أمرها متزوراً ، وكانت كالقوس أرنَّتْ وقد أصمت القنيص ، والمُرَاوِدة قالت ﴿ مَا جَزَاء ﴾ وهي التي قَدَّتِ القميص[4] ، وربما يظن بها الصدق وظن الغيب ترجيم ، ويقال : لقد خفضت الحاء بالجوارِ لهذا الجيم ، وتنتصر لها التي خيمت بين النرجسة والريحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبي على الله سبحانه ، فإن امتعضت لهذه التكلمة ، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة ، فأنا ألوذ بعدلها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها ، وتعمل بمقتضى ﴿ فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أهْلِهِ وحَكَماً مِنْ أهْلِها ﴾ (النساء : ٣٥) .

« على أن هذه التي قد أبدت مَيْنها ، ونسيت الفضل بيني وبينها ، إن قال الحكمان : منها كان النشوز ، عادت حَرورية[5] العجوز ، وقالت : التحكيم في دين الله تعالى لا يجوز ، فعند ذلك يحصحص الحق ، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق ، ويصيبها ما أصاب أروى ، من دعوة سعدية حين الدعوى ، ويا ويحها أرادت أن تجني عليّ فجنت لي ، وأناخت لي مركب السعادة وما ابتغت إلا ختلي ، فأتى شرها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضير ، أتراها علمت

---

١ المختار بن أبي عبيد الثقفي الثائر للمطالبة بدم الحسين؛ حوالي ٦٥ هـ . لم يكن ثابت الرأي مخلص النية .
٢ أي سيبلغ خبرها إلى مكان ناء ، والخابور من روافد الفرات .
٣ يعني سابور ذا الأكتاف ويقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يد قيصر .
٤ إشارة إلى قصة امرأة العزيز « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » وعندما انفضح الأمر قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . . الآية » .
٥ أي ترفض التحكيم وتقول : لا حكم إلا لله .

بما يثيره اعوجاجها ، وينجلي عنه عجاجها ، فقد أفادت عظيم الفوائد ، ونظيم الفرائد ، ونفس الفخر ، ونفيس الدر ، وهي لا تشكر أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب .

« وإنّما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذي يتضوع نسيماً ، الذي شرف إذ أهدى أشرف السحاءات ، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات ، فإنّه وإن ألمّ بالفكاهة ، بما أملّ من البداهة ، وسمّى باسم السابق السُّكَيْت ، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت ، وتلاعب في الصفات تلاعب الصفاح والصَّبا بالبانة ، والصِّبا بالعاشق ذي اللُّبانة ، فقد أغرب بفنونه ، وأغرى القلوب بفتونه ، ونفث بخفية الأطراف ، وعبث من الكلام المشقّق بالأطراف ، وعلم كيف يمحض البيان ، ويخلص العقيان ، فمن الحق شكره على أياديه البيض ، وإن أخذ لفظة من معناه في طرف النقيض .

«تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المستمطر ، والحبر الذي يشفي سائله ، والبحر الذي لا يرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المسلك ، ومن أين حصل ذلك النور لهذا الحلك ، وصح أن يقاس بين الحداد والملك ؟ إنّه لتواضع الأعزّة ، وما يكون عند الكرام من الهزّة ، وتحريض الشيخ للتلميذ ، وترخيص في إجازة الوضوء بالنبيذ ، لو حضر الذي قُضيَ له بجانب الغربيّ أمرُ البلاغة ، وارتضى ما له في هذه الصناعة ، من حسن السبك لحليها والصياغة ، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان ، واتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان ، لأذعن كما أذعنت ، وظعن عن محل الإجادة كما ظعنت ، وأنّى يضاهي الفرات بالنغبة ، ويباهي بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة ، وأي حظ للكلالة بالنشب ، وقد اتصل للورثة عمود النسب ، هيهات والله المطلب ، وشتان الدر والمَخْشَلَب ، وقد سيم الغلب ، ورجع إلى قياده السلب .

« وإن كنّا ممّن تقدّم لشدة الظمإ إلى المنهل ، كمن أقدم إلى عين تبوك بعد النهي للعلل والنهل ، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزةُ عياناً ، وملأ ما هنالك جناناً ،

وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم ، ولكن علمنا أن آخر الشَّرْبِ ساقي القوم ، وإن أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز ، فلكم قصيرات الحجال ، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال ، وإكثارنا في قلّة ، وجارنا من الفقر في فقر وذلة ، ومَنْ لنا بواحدة يشرق ضياؤها ، ويخفي النّجوم خجلها منها وحياؤها ؟ إن لم تطل فلأنّها للفروع كالأصل ، وفي الجموع كـليلة الوَصْل ، فلو سطع نورها الزاهر ، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت نفحات ريّاها في أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرعت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم النَّفْر ، وسار خبرها وسرى فصار حديث المقيمين والسَّفْر ، وما ضرَّ تلك الساحرة في تجليها ، الساحرة بتجنيها ، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل ربيئتها ، هذه التي سبقتني لما سقتني بسَيْئَتها[1] ، ووجدت ريحها لما فَصَلَتْ من مصر عيرها ، وحين وصلت لم يدلني على ساريها إلا عَبيرُها ، وكم رامت أن تستتر عني بليل حبرها في هذه المغاني[2] ، فأغراني بهاؤها[3] وكل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ والمعاني ، وهل كان ينفعها ، تلفحها بمرطها وتلفعها ؟ إذ نادتّها المودة ، قد عرفناك يا سَوْدَة ، فأقبلت على شم نشرها وعَرفها ، ولَثْم سطرها وحرفها ، وقريتها الثناء الحافل ، وقرأتها فزينت بها المحافل ، ورمت أمر الجواب ، فعزني في الخطاب ، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزي واشية ، وإليكم مني على استحياء ماشية ، وإن رقَّ وجهها فما رقت لها حاشية ، فمنوا بقبولها على عللها ، وانقعوا بماء سماحتكم حَرَّ غُلَلها ، فإنّها وافدة من استقر قلبه عندكم وثَوَى ، وأقر بأنّه يلقط في هذه الصناعة ما يُلقى للمساكين من النوى ، بقيتم سيدي للفضل والإغضاء ، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء ، واقتضيتم السعادة

---

١ السيئة : اللبن قبل نزول الدرة .
٢ ق : أن يستر عني الليل خبرها في هذه المعاني .
٣ ق : بها .

المتصلة مدة الاقتضاء ، بيُمن الله سبحانه » انتهى .

ومن نثر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلّم :

« لمحمد خير الأنام ، ولَبِنَةِ التمام، عليه أفضل الصّلاة والسلام ، خيرة المفاخر ، يتضاءل لعظمتها المُفاخر ، والمعالي ، يتصاغر لعزّتها المعالي ، والمكارم ، يعجز عن مساجلتها المُكارم ، والمناقب ، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب ، والمحامد ، لا يبلغ مداها الحامد ، والمماجد ، لا يتعاطى رتبهن المُماجد ، والمناسب ، سمت بجلالهن المناصب ، والعناصر ، طيّبها الشرف المتناصر ، والفضائل ، تفجرت في أرجائهن الفواضل ، والشمائل ، تأرّجَتْ بعرفهن الجنائب والشمائل ، فلا مُجاريَ لسيد البشر ، الآتي بالنذارات والبُشَر ، فيما حباه الله تعالى به وخصّه ، وقصّه علينا من خلقه العظيم ونَصّه ، عند رسم مدائحه يوجد المعوّل ، وفي الثناء عليه يُستَقْصَرُ الكلام المطوّل ، هو الآخر في ديوان الرسالة والأوّل ، ولَهُ في الفضيلة ، وقبول الوسيلة ، النص الذي لا يؤوّل ، نوره صدع الظُّلَم ، وظهوره رفع لدين الله تعالى العَلَم ، بدأه الوحي وهو بحراء ، وأسرّ إليه سر تقدم الإسراء ، حتى إذا نصب له المعراج ، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج ، ناجى الحبيب حبيبه ، وجلا عن وجه الجلاء جلابيبه ، فتلقى ما تلقى ، لما علا وترقى ، ثم صدر عن حضرة القدس ، وجبين هدايته يَبْهَرُ سنا الشمس ، فشق لمعجزاته القمر ، ونهى بأمر ربّه وأمر ، وأزال الجهالة ، وأزاح الضلالة ، وكسر منصوب الأوثان ، ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان ، وبنى الملّة على قواعدها الخمس ، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفاتاً بالرمس ، فرفلت الحنيفية البيضاء في بردة الجدّة ، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودّة ، وانتشرت الرحمة بنبيها ، ومطرت المرحمة من سحب حيها ، وافتنت الآيات الباقيات البينات في مساقها واتساقها ، وإشراقها في آفاقها وائتلاقها .

« وشهد الحجر والشجر ، والماء من بين البنان يتفجر ، والظبية والضب ، والجذع المشتاق الصب ، والشاة والبعير ، والليث إذا هدأ أو سمع منه الزئير ،

والحي والجماد ، والقَصْعة والزّاد ، بأن محمداً رسول الملك الحق ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق ، وصاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، والقول المسموع ، والذكر المرفوع ، والصدر المشروح ، والفخر الباهر الوضوح ، والأنوار المتناقلة ، والآثار المتداولة ، والنبوّة التي عَهْدُها تقادم ، من قبل خلق آدم ، والمزية المعروف قدرها الجليل ، المقبول فيها ما دعا بهِ الخليل ، والرتبة التي استشرفَ إليها الكليم ، حتى قال لهُ ﴿وكُنْ مِنَ الشاكرين﴾ (الأعراف: ١٤٤) ربُّه الكريم ، والبشارة التي كان بها يصيح حين يسيح ، روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح ، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ، ويقرع بها الباب المرتج المبهم ، فما لنبينا المختار ، من علوّ المقدار ، واصطفاء الجبار ، والاختصاص بالأثرة ، والاستخلاص للحضرة ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

«وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والجود الذي لم يزل عظيماً ، أن بعث الله تعالى فيه رسولاً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً ، عزيزاً على ربّه الكريم كريماً ، بسرّه سجدت الملائكة لآدم تعظيماً ، وبذكره ينتظم سلك المادح لحضرته العلية تنظيماً ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليماً ، صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبّته.فكان مزاجه تَسْنيماً ، وسلاماً يتزل دار دارين فيرسل ببضائعها إلى روضة الرضى نسيماً» .

ومن خطبه المرتجلة قوله سامحه الله تعالى :

«الحمد لله الذي حَمْدُه من نعمائه،وشكره على الآئه من آلائه ، أحمده حَمْدَ عارف بحق سنائه ، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه ، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آنائه . وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدهُ لا شريكَ لَهُ المتوحّد بعظمته وكبريائه ، المتقدس عمّا يقوله الملحدون في أسمائه . وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه ، محمد المفضل على العالمين باجتبائه

واصطفائه ، المنتقى من صميم الصميم وصريح الصريح بجملة[1] آبائه ، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه ، أرسله الله للناس كافة عموماً لا يتخصص باستثنائه ، وفَضَّله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونُظرائه ، ورقّاه إلى الدرجات العلا وأنهاه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه ، وحبّاه بالخصائص التي لا يضاهي بها بهاء كماله وكمال بهائه ، وردّاه رِداء العصمة فكانت عناية الله تكنفه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه[2] ، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بعزيته على الليث والغيث في إبائه وانهمائه ، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه ، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندفاق أنوائه ، وسلّم تسليماً » .

ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلّم ، وهي :

« السلام العميم الكريم ، والرحمة التي لا تبرح ولا تَرِيم ، والبركة التي أوّلها الصلاة وآخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيدة بالعصمة والأيْدِ والقوة ، ومَثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صَفاً ومَرْوَة ، مقام سيد العالمين طُرّاً ، وهاديهم عبداً وحُرّاً ، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألفوا العيش ضنكاً والدهر مُرّاً ، ومقر الأنوار المحمدية ، والبركات السرمدية ، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها ، وكلاءة ظلالها العلية وأفيائها ، وأقر عين عبدها بلثم ثراها ، والانخراط في سلك من يراها .

« السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، سلام من يمدّ إليك يد الغريق ، ويَرْجُو الإنقاذ ببركتك من نكد المَضِيق ، ويتقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلّما ازدلف إليك فريق ، وعمرت نحوك طريق ،

---

١ ق : بجد . _
٢ ورداه . . . ورائه : سقطت من ق .

ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق .

« كتبته يا رسولَ الله وقد رحل المجدون وأقمت ، واستقام المستعدون وما استقمت ، وبيني وبين لثم ثراك النبوي ، ولمح سناك المحمدي ، مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه ، بماء توْبه ، وستر وصْم عيبه ، بظهر غيبه ، فكلما رُمْت المتاب رُددت ، وكلما يممت الباب صُددْت ، وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك ، والوفادة عليك ، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تُثْني وتُبْعِدُ ، والأيام لا تُدْني ولا تُسعد ، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المُقيم المُقْعِد ، ولئن كنت ممن خلّفته عيوبه ، وأوبقته ذنوبه ، ولم يرض للوفادة وهو مدنس ، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس ، فعندي من صدق محبتك ، وحُبّ صحبتك ، والاعتلاق بذمتك ، ما يُقَدمني وإن كنت مبطئاً ، ويقربني وإن كنت مخطئاً .

« فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى ، وتوسل لي إلى مَوْلًى بيَّنَ فضيلتك ، وتقبَّل وسيلتك ، في النقلة من هناك إلى هنا ، واقبلني وإن كنت زائفاً ، وأقبلْ عليّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفاً ، فأنت عماد أمتك جميعاً وأشتاتاً ، وشفيعهم أحياء وأمواتاً . ومن نأت به الدار ، وقعدت بعزمه الأقدار ، ثم زار خطَّه ولفظُه ، فقد عظم نصيبه من الخير وحَظُّه ، وإن لم أكن سابقاً فعسى أن أكون مُصَلّياً ، وإن لم أعدَّ مقْبلاً فلعلي أُعد مُولياً ، وحقك وهو الحق الأكيد ، والقسَم الذي يبلغ به المُقْسِم ما يريد ، ما وَخدَت إليك ركاب ، إلا وللقلب إثرها التهاب ، وللدمع بعدها سَحّ وانسكاب ، ويا ليتني ممن يزورك معها ولو على الوجنتين ، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين ، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال ، ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال ، والله تعالى يمن على كتابي بالوصول والقبول ، وعلي بلحاقي ببركتك ولو بعد طول .

« ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا سيد الخلق ، وأقربهم من الحق ، ولولاه بإحراز قصب السَّبْق ، ومن طهَّر الله تعالى مثواه وقدَّسه ، وبناه على

التقوى والرضوان وأسسه ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفَسَه ، وعلى ضجيعيك السابقين لمهاجريك وأنصارك ، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك ، وعلى أهل بيتك المطهرين أوائلَ وأواخرَ ، الشهيرين مناقب ومفاخر ، وصحابتك الذين عزروك ووقروك ، وآووك ونصروك ، وقدموك على الأنفس والأموال والأهل وآثروك ، وأقرئك سلاماً تنال بركته مَنْ مضى من أمّتك وغبَر ، ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسَطّر ، إن شاء الله تعالى .

« كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى ، اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى ، المتأخر جسماً المتقدم نطقاً ، فلان ، والسلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلّم تسليماً كثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وله من خطبة طويلة : « ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الصفوة المجتبى ، الكريم أمّاً طاهرة وأبا ، المختار من الطيبين مباركاً طيبا ، المصطفى نبيّاً إذ كان آدم بين الماء والطين مُتَقَلّبا ، المتقدم بمقام تأخّر عنه مقام الملائكة المقربين ، انتخبه الله وانتجبه ، وأظهره على غيبٍ عن غيره حَجَبَه ، وشرفه في الملإ الأعلى وأعلى رُتَبَه ، وخَطّ اسمه على العرش سطراً وكتبه ، فهو وسيلة النبيين ، والمرشّح أولاً لإمامة المرسلين ، بعثه ربّه لختم الرسالة ، ونعته بنعت الشرف والجلالة ، وأيده بالحجّة البالغة والدلالة ، وجعله نوراً صادعاً لظلام الضلالة ، وأثنى في ذكره الحكيم ، على خُلقه العظيم ، فما عسى أن يبلغ بعدُ ثناءُ المُثْنين ، بفضله التصريح وإليه الإشارة ، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى البشارة ، وعليه راقت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة ، وهو المخيّر بين المُلْك والعبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة والاستشارة ، فبتواضعه حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه ، ووفد أكرم وفادة عليه ، وأدناه قاب قوسين لديه ، ووضع إمامة الرسالة العظمى في يديه ، وقال له ﴿ اصدَعْ بما تُؤمَرُ وأعرِض عَنِ المُشركين ﴾ (الحجر : ٩٤) فصدع بأمر الله

صَدْعاً ، وأوتي من المثاني سبعاً ، ومن الآيات البينات آلافاً وإن كان أوتي موسى تسعاً .

«فما مشيُ الشجرِ إليه يجر عروقَهُ إلا كرجوع العصا حية تسعى ، وما تفجُّر الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعا ، فارتوى منه خمسمائة وقد كان يكفي آلافاً فكيف المثين ، وكم لَهُ عليه الصلاة والسلام من معجزة تبهر ، وآية هي من أختها أكبر ، رجعت لَهُ الشمس وانشقَّ القمر ، وكلّمه الضب وأخبر به الذئب وسلّم عليه الشجر والحجر ، وكان للجذع عند فراقه إعلاناً بوجده واشتياقه أنّة وحنين ، أعطي من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ، وكانت له في الغار آيات بيّنات خفي بها على القوم الأثر ، وارتج لمولده إيوان كسرى وخمدت نار فارس وكان ضرمها يتسعر ، وأتته أخبار السماء فما عمي في الأرض الخبر ، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين ، وجعل له القرآن معجزة تُتْلَى ، يَبْلَى الزمانُ وهي لا تَبْلَى ، وتعلو كلماتها على الكلم ولا تُعْلَى ، وتجلى آياتها في عين آيات الشمس حين تُجْلَى ، فيتوارى منها بالحجاب حاجب وجبين ، بهر إعجاز التنزيل العلي ، وظهر به صدق النبي العربي ، فكم نادى لسان عزّه في النّديِّ ، بأهل البديهة من الفصحاء والرويِّ : قل فأتوا بسورة من مثله فلم يكونوا لها مستطيعين .

«لقد خص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر ، والدلالات الواضحة الغُرَر ، والمقامات السامية المظهر ، والكرامات المخلّدة للمفخر ، فهو سيد الملإ النبوي والمعشر ، وحامل لواء الحمد في المحشر ، وصاحب المقام المحمود والكوثر ، والشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لرب العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وذريته المباركين ، وصحابته الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، صلاةً موصولة تتردد إلى يوم الدين ، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتاباً في عِلِّيِّين ، وسلّم تسليماً .

ومن نثره في خطبة قوله : «أيّها الناس ، رحمكم الله تعالى ، أصيخوا

أسماعكم لمواعظ الأيام ، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام ، وأحْضِرُوا لفهم موادّها أوعى القلوبِ وأصَحَّ الأفهام ، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النُّوَّام ، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام ، ولا تسبينكم خُدَعُها المموّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام ، فهي دار انتياب النوائب ، ومصاب المصائب ، وحدوث الحوادث وإلمام الآلام ، دار صفوها أكدار ، وسلمها حرب تدار ، وأمنها خوف وحذار ، ونظمها تفرق وانتشار ، واتصالها انقطاع وانصرام ، ووجودها فناء وانعدام ، وبناؤها تَضَعْضُعٌ وانهدام ، ينادي كل يوم بناديها منادي الحِمام ، فلا قرار بهذه الغرّارة[1] ولا مُقام ، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام .

«فبئست الدار داراً لا تدارى ، ولا تُقيل لعاثرِها عِثارا ، ولا تقبل لمعتذر اعتذارا ، ولا تقي من جورها حليفاً ولا جارا ، وليس لها من عهد ولا ذِمام ، كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام ، كم نازلت بنوازلها من قِباب وخيام ، كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسَقام ، كم رمت أغراض القلوب بمُصْميات[2] السِّهام ، كم جردت في البرايا للمَنايا من حُسام ، كم بددت بأكف النائبات الناهبات من عطايا جسام ، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلام . لا تبقي على أحد ، ولا ترثي لوالد ولا ولد ، ولا تخلد سروراً في خَلَد ، ولا يمتد فيها لآمل أمد ، بينا يقال قد وجد ، إذ قيل قد فقد . بُعْداً لها قد طُبعت على نكد وكمد ، فالفرح فيها تَرَح ، والحبرة عبرة ، والضحك والابتسام ، بكاء وأدمع سِجام . تفرق الأحبة بعد اجتماعهم ، وتسكن الوحشة مؤنس رباعهم ، وتبيح بالحِمام حمى الأعزّة فلا سبيلَ إلى امتناعهم ، وتستحثُّ ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم ، إلى مصيرهم إلى الله عزّ وجل وارتجاعهم ،

---

١ ق : القرارة .

٢ ق : بمزاياها بمصميات .

فيسيرون طوع الزمام ، ويلقون مقادة التذلل والاستسلام ، حتّى يلجأوا بالرغام ، وينزلوا بطون الرجام ، ويحلّوا الوهد بعد المقام السام ، فلا ناج من خطبها العظيم ولا سليم ، يتساوى في حكم المنية الأغر والبهيم ، والأعز والمضيم .

«ولو أنّه ينجو من ذلك مجد صميم ، وجدّ كريم ، وحظ عظيم ، ومضاء وعزيم ، ومزية وتقديم ، وحديث في الفضل وقديم ، وشرف لسمك السّموات مُسام ، وعلُى على ساق العرش المجيد ذُو ارتسام ، لنجا حبيبُ الملك العلام ، وسيّد السادات الأعلام ، وصفوة الصفوة الكرام ، وخاتم الأنبياء ولَبِنة التمام ، وصباح الهدى ومصباح الظلام ، والأبيض المُسْتَسْقى به غيثُ الغمام ، ثمال الأرامل وعصمة الأيتام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لكن مع قدره الجليل وفضله الجلي ، أقدم الموت على جانبه العلي ، وتقدم ملك الموت لقبض روحه القدسي وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي ، وتغيض ماء السّماء والندى ، للملك السماحة النبويّة والندى ، وأصيب المسلمون وأعْظِمْ بها مصيبة بنبيّهم العربي ، الهاشمي القرشي ، فيا له وللإسلام ، من مصاب أسلمنا للحزن أيّ إسلام ، وأسال مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام ، وأرانا أن الأسى في رزية لخير البرية واجب وأن التأسي حرام .

«وهل يسوغ الصبر الجميل ، في فقيد بكته الملائكة وجبريل ، وكثر له في السموات السبع النحيب والعويل ؟ انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل ، وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف[1] والتمثيل ، غداة أقفر منه الرَّبع المُحيل ، وأوحش من أنسه السفح والنخيل ، وكان من تلك الروح الطاهرة الوداع والرحيل ، وقامت البَتُولُ تندب أباها بقلب قريح وجفن دام ، وتنادت الأمّة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام ، وحارت الألباب والعقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام . ولمّا نُعيت إليه صلى الله عليه

---

١ الوصف : سقطت من ق .

وسلّم نفسه ، وآن أن تأفل من تلك المطالع شمسه ، آذن أمّته بالفراق وأعلمهم ، وناشدهم في أخذ القصاص وكلّمهم ، مخافة أن يمضي إلى الملك الحق ، وعليه تباعة لأحد من الخلق ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، من صفات جائرٍ للأمّة ظلاّم ، ولكنّه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام ، ثم استمر به صلوات الله وسلامه عليه وتمادى ، وزاد به السقم المنتاب وتهادى ، حتّى واراه ملحَده ، وخلا منه ربعه ومسجده ، فعمّ الحزن والاكتئاب ، وتوارى النور فأظلم الجناب ، وعاد الأصحاب ، وكأنّما دموعهم السحاب ، فقالت فاطمة وقد رابها من دفن أبيها الكريم ما راب : أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم التراب ؟ فكأن كلامها للقلوب المفجعة كِلام ، وللعيون المفجرة بالدموع انسفاح وانسجام .

«وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع ، المشيد بذكر الأشجان المذيع ، كانت وفاة هذا النبي الهادي الشفيع ، وانتقاله إلى الملإ الأعلى والرفيق الرفيع ، حين ناداه ربّه إلى قربه ، فلبى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع ، وحنّ إلى حضرة القدس فانتظم حين حل بها ما كان من شمله الصديع ، وانتظر من صنع الرب جميلَ الصنيع ، وإنجاز وعد الشفيع في الجميع ، إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام ، ووقف على الحوض ينادي : هلموا إليّ أروكم من العطش والأوام .

«اللّهم اسقنا من حوضه المورود ، وشرّفنا بلوائه المعقود ، وشفّعه فينا في اليوم المشهود ، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحود ، اللّهم اجعله لنا تعزية من كل مفقود ، وأوجد لنا من بركاته أشرفَ موجود ، وجازه عنّا بما أنت أهله من فضل وإحسان وجُود ، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الرُّكّع السُّجود ، واجعلنا معهم في الجنّة دار الخلود ودار السلام . واخصصهم عنّا بأكرم تحيّة وأفضل سلام ، وصلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيّ استلام ، وتنتظم له كرامات إحسانك أيّ انتظام .

«فصلوات الله عليه ، وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه ، وأجزل بركاته ،

ما تجدد في ربيع ذكر وفاته ، وتمهد كهف القبول لطالبي فضله وعُفاته ، وتعزى به كل مصاب في مصيباته ، وتَرَجّى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته ، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنباته ، حظوظ من بِرّ الله تعالى وأقسام ﴿ إنَّ اللهَ وَمَلائكَتَهُ يُصَلّونَ على النبيّ يا أيّها الذينَ آمَنُوا صلّوا عَلَيه وسلِّمُوا تسليماً ﴾ (الأحزاب: ٥٦) اللّهم صلِّ عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، اللّهم صلِّ عليه من نبي أوجبتَ حبه وعظّمته تعظيماً ، اللّهم صلِّ عليه من نبي صليت عليه تَجِلة وتكريماً ، وأمرتنا بالصلاة عليه إرشاداً وتعليماً ، فلنا بأمرك اقتداء وائتمام ، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام ، وكلامك يا ربّنا أشرف الكلام ، ولوَجْهِك وحده البقاء والدوام ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ ويَبْقى وجهُ ربّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرَام ﴾ (الرحمن : ٢٧) ﴿ هُوَ الحيُّ لا إلهَ إلا هُوَ فادْعُوهُ مُخْلِصين لهُ الدين ، والحَمْدُ لله ربّ العالمــين ﴾ (غافر : ٦٥) » انتهى .

وترجمة ابن الجنان واسعة جداً ، وكلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل ، رحمه الله تعالى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ما صورته : ومحاسنه عديدة ، وآماده بعيدة ، ثم قال : إنّه انتقل إلى بجاية فتوفّي بها في عشر الخمسين وستمائة ؛ انتهى .

وقال صاحب « عنوان الدراية » في حق ابن الجنّان المذكور ما ملخصه[1] : الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الأديب ، أبو عبد الله ابن الجنان ، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف ابن عميرة المخزومي ، وكثيراً ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ، ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ، ونثره ونظمه

---

١ عنوان الدراية : ٢١٣ .

كلّه حسن ، ونظمه غزير ، وأدبه كثير ، ومن ذلك قصيدته الدالية الّتي مطلعها :

يا حاديَ الركبِ قفْ بالله يا حادي   وارحمْ صبابةَ ذي نأيٍ وإبعادِ

وله أيضاً :

تركُ النزاهةِ عندنا   أدى إلى وصفِ النزاهه
ما ذاكَ إلا أنّها   تدعو الوقورَ إلى الفكاهه
وإذا امرؤ نبذ الوقا   رَ فقد تلبّسَ بالسفاهه

[مخمسات من المدائح النبوية]

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد الوجود ، صلى الله عليه وسلّم ، وشرف وكرم[1] :

اللهُ زاد محمداً تكريما
وحَباهُ فضلاً من لدنهِ عَظيما
واختصّه في المرسلين كريما

ذا رأفةٍ بالمؤمنين رحيما   صلّوا عَليهِ وسلّموا تسليما

جلّت معاني الهاشميّ المرسَلِ
وتجلّتِ الأنوارُ منهُ لمجتلي
وسَما بهِ قدرُ الفخارِ المعتلي

فاحتلّ في أفقِ السّماء مُقيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

[1] وشرف وكرم : سقطت من ق .

حازَ المحامدَ والمادحَ أحمدُ
وزكت مناسبُه وطابَ المحتدُ
وتأثَّلَتْ علياؤه والسؤددُ

مجداً صميماً حادثاً وقديما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

شمسُ الهداية ، بدرُها الملتاحُ
قطبُ الجلالة ، نورها الوضّاحُ
غيثُ السماحة للندى يرتاحُ

يروي بكوثره الظماء الهيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

تاجُ النبوّة ، خاتمُ الأنباء
صفوُ الصريح ، خُلاصةُ العلياء
نجلُ الذبيح ، سلالةُ العلماء

بُشرى المسيح ، دعاء إبراهيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

فخرٌ لآدم قد تقادم عصرُهُ
من قبل أن يدرى ويجرى ذكرُهُ
سرٌّ طوَاهُ الطينُ فتمَّ نشرُهُ

معنى السجودِ لآدمٍ تفهيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

لله فضلُ المصطفى المختارِ
ما إن لَهُ في المكرمات مُجاري
ولا مبارٍ باختصاص الباري

بالحقِّ قدّم مجدهُ تقديما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

أوصافُ سيّدنا النبيِّ الهادي
ما نالها أحـدٌ من الأمجادِ
فالرُّسل في هدي وفي إرشادِ

قَدْ سلّمُوا لنبيِّنـا تسليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

آياته بَهَرَتْ ســنا وسناء
وأفادت القَمرين منهُ ضياء
وعلَتْ بأعلامِ الظهور لواء

فهدى بهِ الله الصراط قويما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

دنتِ النجومُ الزُّهرُ يومَ ولادتهْ
ورأت حليمةُ آيةً لسيادتهْ
وتحدثَتْ سعدٌ بذكرِ سعادتهْ

فتَفـاءلوا نعمَ اليتيمُ يَتيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

لمّـا ترعرع جاءهُ الملَـكانِ
بالطستِ فيها حكمة الرحمنِ
فاستخرجا القلْبَ العَظيمَ الشانِ

منـهُ وطَهّرَ ثمَّ عادَ سليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

كرمتْ مناقبِ أحمد خيرِ الورى
وجرى له القلم العليُّ بما جرى
ما كان ذلكمُ حديثاً يُفترى

لكنّهُ الحقُّ الجليُّ رسـوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ما زالَ برهانُ النبيِّ يلوحُ
يغدُو بهِ الإعجازُ ثمَّ يروحُ
حتى أتاهُ بعدَ ذاكَ الروحُ

يوحي لهُ وحي الإلهِ حكيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

شهدتْ له بمزية التفضيلِ
سُوَرٌ وآياتٌ من التنْزيلِ
وصلاةُ خالقِهِ أدلُّ دليلِ

فافهَمْهُ واسْمع قولَهُ تعظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

إنَّ الرسولَ المعتلي المقدارِ
لمؤيَّدٌ منْ ربِّهِ القهّارِ
بالمعجزاتِ جلَتْ عمى الأبصارِ

وشفت مِنَ أدواءِ الضلال سقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

كَمْ شاهدٍ لمحمّدٍ بنبوّتهْ
في أيْدِ تأييدِ الإلهِ وقوّتهْ
فبذاك أعْلى الله دعوةَ حجّتهْ

فمضت حساماً صارماً وعزيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

البدرُ شُقَّ لهُ ليُظهرَ صدقَهُ
والشمس قد وقفت تعظّمُ حقّهُ
والمزنُ أرسلَ إذ توسّلَ ودقَهُ

فاخضرَّ ما قد كان قبلُ هشيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

والماءُ بينَ بَنانهِ قد سالا
عذباً مَعيناً سائغاً سلسالا
كنداهُ يمنحُ رفدهُ من سالا

ويُنيلُ راجيهِ النوالَ جَسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

بركاتُهُ أرْبَتْ على التعدادِ
كم أطعمتْ من حاضرين وبادي
مِنْ قصعةٍ أو حثيةٍ من زادِ

رزقاً كريماً للجيوشِ عميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

سجد البعير له سجودَ تذللِ
وشكا إليهِ بحرقةٍ وتململِ
والشاةُ قال ذراعها : لا تأكلِ

منّي فإنّي قَدْ ملئتُ سموما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

والغصنُ جاء إليهِ يمشي مُسْرعا
والصخرُ أفصحَ بالتحيّةِ مسمعا
والظبيةُ العجماءُ فيها شُفّعا

والضبُّ كلّم أحمداً تكليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

والجذعُ حنَّ لهُ حنينَ الوالهِ
يبدي الذي يخفيه من بلبالهِ
أفلا يحنُّ متيّمٌ بجمالهِ

يشتاقُ وجهاً للنبيِّ وسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ما بالنا نسلو وحبُّ حبيبنا
يقضي بثَّ غرامنا ونحيينا
لو صح في الإخلاص عقد قلوبنا

لم ننسَ عهداً للرسولِ كريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أين الدموع نُفيضُها هتّانا
أين الضلوعُ نُقِضُّها أشجانا
حتّى نقيمَ على الأسى برهانا

لتممِ إرشادنا تتْميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أوَليس هادينا إلى سُبُلِ الهدى
أوَليس منقذنا مِن أشراكِ الردى
أوَليس أكرمَ من تعمّم وارتدى

أوَلَمْ يكُن أزكى البريّةِ خيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ذاكَ الشفيعُ مقامه محمودُ
ولواؤه بيدِ العلا معقودُ
فإذا توافَتْ للحسابِ وفودُ

قالوا : تقدَّمْ بِالأنام زعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

فيقومُ بالبابِ العليّ ويسجدُ
ويقولُ : يا مولايَ آنَ الموعدُ
فيجابُ : قلْ يُسْمَعْ إليك محمدُ

ونُريكَ منّا نَضْرَةً ونعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أعظِمْ بعزٍّ محمّدٍ وبجاهِهِ
أكرِمْ بهِ متوسلاً لإلهِهِ
شربتْ كرامُ الرُّسل فضلَ مياهِهِ

فغدتْ تعظِّمُ حقّـهُ تعظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا سامعي أخباره ومفاخرِهْ
ومُطالعي آثاره ومآثرهْ
ومؤملي وافي الثوابِ ووافرهْ

إن شئتمُ فوزاً بذاك عظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

قلت : وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس ، وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح النبوية مَقيل وتَعْريس ، وهي قصيدة ميلادية كأنّما لم ينظمها مؤلفها إلاّ مقدّمة لهذه القصيدة الفريدة ، وهي :

اسمعْ حديثاً قد تضمَّن شَرْحُهُ روضاً من الإيناس أينعَ دوحُهُ
فيه الشفاءُ لمن تكاثر بَرْحُهُ وافى ربيعٌ قَدْ تعطَّرَ نفحُهُ
أذكى من المسكِ الفتيق نسيما

شهرٌ حوى بوجود أحمد أسْعُدا بالمصطفى بينَ الشّهورِ تفرَّدا
يا ما أجلّ سنا عُلاه وأمجدا لولادةِ المختار أحمد قد غدا
يزهو بهِ فخراً تراه عظيما

يا مَنْ بأدمع مُقْلتيه يَغْتَذي كمْ ذا تنادي حسرة : مَن مُنقذي
وتقول للزفراتِ : هل من منفذ بُشرى بشهر فيهِ مولده الذي
سر[1] الزمان علوّهُ تعظيما

[1] ق : بز .

يا ليلةً رُفعت بأحمدَ حُجْبُها   لمَّا دنا بعد التباعدِ قربها
وتطلعتْ للسعدِ فينا شُهبها   ضاءت لها شرقُ البلادِ وغربها
وتأنَّقتْ أرجاؤها تنعيما

أسدى إليك الدهرحُسْنَ صنيعه   وحَباك من غضّ الجنى ببديعه
وافى هلال محمدٍ بربيعه   فاعتزَّ أمر الله عند طلوعه
وغدا بهِ دين الإلهِ قويما

نظم الزمانُ بجيد عمرك درَّهُ   فاشكرْ مآثره وواصل بِرّهُ
وافاكَ بالسرِّ المصون فسُرَّهُ   واعرف لهذا الشهر حقّاً قدرهُ
فلقدْ غدا بين الشهور كريما

يا صاح جاءت بالأماني أسعدُ   وأطلَّ بالبشرى الكريمةِ مولدُ
هذا ربيع فيه أنجز موعدُ   شهرٌ كريمٌ جاء فيه محمدُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثم قلت أنا عند ختم دَرْس « الشفا » ، موطئاً لقصيدة ابن الجنان المذكور ولعذب براعتها مرتشفا ، ما نصه والأعمال بالنيات :

انْشقَ أزاهرَ عن فنونِ رياضِ   للعلم واكرَعْ من عذابِ حياضِ
واسقِ الرياضَ بذكره الفيّاضِ   واحفظْ كلاماً للإمام عياضِ
قدْ تمت أقسامه تتميما

لله روضٌ منهُ أينعَ دوحهُ   يجنى بهِ منْ الكريم ومَنْحهُ
فهو الشفاء لمَنْ تكاثر بَرْحهُ   مسكُ الختام بهِ تعطر نفحهُ
فشذاه في الأرجاء صار شميما

فاضتْ علينا من هداه عوارفُ   زهــرٌ وأنوارٌ وظلٌّ وارفُ
ونمارقٌ مصفوفة ومطارفُ   يا حُسْنَ ما أبْداه فذٌّ عارفُ
دُرّاً بأسلاك الحديث نظيما

لمْ لا وبالملكِ الشّفيع تشرّفا   خيرُ البريّةِ ركن أرباب الصفا
من أسعد الراجي وقصداً أسعفا   طهَ النبيّ الهـاشميّ المصطفى
صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة ابن الجنان المذكور في رويّ تلك القصيدة غير مخمسة مستقلة بنفسها ، وهي قوله رحمه تعالى :

صلّوا على خيرِ البريّةِ خيما   وأجلّ مَنْ حـازَ الفخار صميما
صلوا على من شُرِّفَتْ بوجوده   أرجاءُ مكّةَ زمزماً وحطيما
صلوا على أعلى قريشٍ منزلاً   بذَرَاه خيِّمتِ العُلا تخييما
صلوا على نور تجـلّى صبحه   فجلا ظلاماً للضـلال بهيما
صـلّوا على هادٍ أرانا هديه   نهجاً من الدين الحنيف قويما
صلّوا على هــذا النبيِّ فإنّه   من لم يزلْ بالمؤمنين رحيما
صلوا على الزاكي الكريم محمدٍ   ما مثله في المرسلين كريما
ذاكَ الذي حاز المكارمَ فاغتدتْ   قد نُظِّمتْ في سلكه تنظيما
من كان أشجعَ من أسامةَ في الوغى   ولدى الندى يحكي الحيا تجسيما
طَلْقُ المحيّا ذو حيـاءٍ زانهُ   وسطَ النّـديِّ وزاده تعظيما
حكمتْ له بالفضلِ كلُّ حكيمةٍ   في الوحي جاء بها الكتابُ حكيما
وبدت شواهد صدقه قد قسّمت   بدرَ الدُّجى لقسيمه تقسيما
والشمسُ قد وقفت لهُ لمّا رأتْ   وجهـاً وسيماً للنبي وسيما
كَمْ آيةٍ نطقتْ تصدّقُ أحمدا   حتى الجمـادُ أجابه تكليما

والجذعُ حنَّ حنينَ صبٍّ مغرمٍ أضحى للوعاتِ الفراق غريما
جلّت مناقبُ خاتمِ الرُّسل الذي بالنّور ختّم والهدى تختيما
وسمت به فوق السماء مراتبٌ بمقام صدق عزَّ فيه مقيما
فلهُ لواء الحمدِ غيرَ مدافَعٍ وله الشفاعةُ إذ يكون كليما
نرجوه في يوم الحسابِ ، وإنّما نرجو لموقفهِ العظيم عظيما
ما إنْ لَنا إلاَّ وسيلةُ حبّهِ وتحيّةٌ تذكو شذىً وشميما
ولخير ما أهدى امرؤ لنبيّه أرَجُ الصلاة مع السلام جسيما
يا أيّها الراجون منهُ شفاعةً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلاء إدريس بن موسى القرطبي [1] في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقف عليها أبو عبد الله ابن الجنان المذكور وقرّظها بما سنذكره بعدها قريباً ، وهي :

أهلاً بكم يا أهل هذا النادي أهلَ اعتقادِ الوعدِ والميعادِ
أهدوا الصلاة إلى النبي الهادي وصِلُوا السلامَ له مع الآبادِ
يندى نسيماً مذكراً تسنيما

هو أولُ الشفعاء يومَ المحشرِ وسواه بينَ تقدُّمٍ وتأخُّرِ
بهت الحضورُ لهول ذاك المحضرِ والكلُّ في الخطب العميم الأكبرِ
قدْ هيّمَتْ ألبابهم تهييما

ذاك المقامُ الأشهرُ المحمودُ هو للنبيِّ محمّد موعودُ
فيه الشفاعةُ ذخرها موجودُ درك المراد وحوضهُ المورودُ
فضل الكليمَ بهِ وإبراهيما

---

[1] هو إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي ، مال إلى العربية والآداب وأقرأ ذلك بقرطبة إلى أن تملكها الروم فخرج إلى سبتة وأقرأ هنالك ؛ وكانت له مشاركة في النظم والنثر مع غلبة الانقباض عليه والصلاح ؛ توفي آخر سنة ٦٤٧ (التكملة : ١٩٧) .

عيسى وموسى والخليل مروَّعٌ   من هولِ مطّلعٍ هنالك يَفْظَعُ
فيقال أحمدُ قلْ فإنكَ تُسْمَعُ   فيقومُ يحـــمد ربَّه فيشفَّعُ
فضلاً من الرب العظيم عظيما

يا أمّةَ المختار أنتُم أمّته   والهولُ قَدْ عمَّ البسيطة يمّه
والأنبياء ســـواه كلٌّ همّه   تخليصُ مهجته وليس بهمّه
مَنْ كان في الدنيا عليه كريما

صلى الإله على الذي صلى عليهْ   عشراً بواحدة يزكّيها لديهْ
وأراه في الدارَيْنِ قُرَّةَ ناظريهْ   يا قاصدين إلى وصولكم إليهْ
راجين من أرَجِ القبول نسيما

لولا وصيّـةُ صاحبِ التنزيل   أن لا يقالَ لَهُ غُلُوَّ القيــل
قولُ الغــلاةِ لصاحبِ الإنجيل   لغلوتُ في التعظيم والتبجيل
عظمُ المكانةِ يوجبُ التعظيما

طوبى لقلب قد تلالا إذ صَفا   بالسرِّ منهُ قد تثبتَ إذ هفا
خُطَّت به آياتُ حبِّ المصطفى   فغَـدا لصاحبه بذلك مصحفا
يهدي إلى نهجِ النّجـاة قويما

فاقتْ علا ذكراه إذ راقتْ حُلى   ملأَ النبوّة أمهم حـين اعتلى
في ليلةِ الإسراء أعلى معتلى   كتب الإله له التقدم في العلا
وعلَيْهمُ التفويضَ والتسـليما

وكذاك يسلم في الشفاعة كلُّهمْ   ومحلُّهم عنـد الإلهِ محاهم
ظلُّ النبيِّ محمدٍ هو ظلهم   يمشون تحت لوائه فيدلهم
يندى عليهم بهجةً ونعيما

أوصافه من كل حسنٍ أبهجُ العَرْفُ ينفحُ والسنا يتبلَّجُ
فتأرج الأرجاءُ منهُ وتبهجُ فاقَ الزواهرَ نورها يتوهَّجُ
والزهرُ نفّاح النسيم وسيما

طَلْقَ المحيّا منهلٌ للنائلِ أنحى على الدنيا بزهدٍ كاملِ
هو مثَّلَ الدنيا بظلٍّ زائلِ لم تُرْضِهِ حالُ النَّعيم الحائلِ
ما حاول الترفيـــهَ والتنعيما

ما ورَّث المختارُ مالَ مؤمّلِ إلا جواهرَ في الكتاب المنزلِ
أشهى لقلبِ الناظر المتأمّلِ وأقرّ إعجاباً لعينِ المجتلي
من كلٍّ قيمةِ مقتضٍ تقويما

وقَفْتَ يا مَنْ لم يخالف نَصَّهُ حزتَ الكمال وليس تخشى نَقصَهُ
نهج الهدى قولُ النبيِّ اقتصَّهُ بالوحي شرَّفه الإله وخَصَّهُ
شرفاً على شرفِ السناء صميما

سبحان مُوحٍ لا يحدُّ له الكلامْ من قال ذات كلام خلاق الأنام
خَلْقٌ فذلك آثم كلَّ الأثام ذاك الذي في الدين ليس له ذمام
إلا ذمامٌ لا يزال ذميما

ضَلَّ الذي يبغي الهدى ممّا سواه وهوى به في كلِّ مهواة هَوَاه
من فارق الفاروقَ قد تبَّت يداه حيران لم يُهْدَ السبيلَ إلى هداه
لا يعرف التحليل والتحريما

بالمدح مجـد المصطفى يمّمته من حَلْيِ أوصافٍ لهُ نظمته
لَمْ أبلغِ المشارَ إذ أحكمته بعضاً نسيتُ وبعضه ألهمته
قلَّـــدتهُ جيـد الزمان نظيما

لو فزتُ بالإحسانِ من حسّانِ ... وسحبتُ أذيالي على سَحبانِ
أو أيدتني لُسْنُ كلِّ زمانِ من كلِّ ذي زعم عظيم الشانِ
ما كنتُ بالمعشار منهُ زعيما

إدريسُ حَفّتك الحقوقُ حفوفا هلاّ خففتَ إلى الرسول خفوفا
وقريتَ بالعزم الهموم ضيوفا وشدوت أن هال الزمان صروفا
مَهْلاً كفاكَ معلّمي التعليما

ثقةً بفضلِ الواحدِ القهّار ملك الملوك مصرّف الأعصار
جعلَ النبي مكرم الآثار وأمَدّهُ بالنصر والأنصار
وأتمَّ نعمتَهُ لَهُ تتميما

هَلْ أجلون بصري بكحل سناه يا سعد من كحلَتْ به عيناه
ظفرت يداه ، وساعدته مناه لله ذاكَ الأفق ما أسْناه
كرم المحلّ فيقتضي التكريما

ونَصُّ تقريظ ابن الجنان على هذه القصيدة هو قوله :

ما زالَ كلُّ حليفِ لله أضحى وليّا
وللعلومِ خليلاً وعَنْ سواها خليّا
يصوغُ عِقْيانَ مدحٍ للهاشميِّ حليّا
ويوجبُ الحقَّ فيه إيجابَهُ الأوليّا
ويقتفي في رضاه نهجاً جليّاً جليّا
والكلُّ أحظاهُ حظٌّ فالفوزُ يُلْفَى مليّا
لكنَّ إدريسَ منهم حاز المكانَ العليّا

ولا يخفاك أنّه التزم في هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء ، رحمه الله تعالى .

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجنان المذكور السابق أولاً في البحر والروي والمنحى الذي لا يضل قاصده ، وكيف لا وهو مدح[1] الجناب الرفيع العظيم النبوي .

فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي ، فإن بعضاً ذكر أنّها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والاتّهام[2] :

جعل المهيمنُ حبّ أحمد شيمةً
وأتى به في المرسلين كريمةً
فغدا هواه على القلوب تميمةً

وغدا هداه لهديهم تتميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أبدى جبينُ أبيه شاهدَ نوره
سَجعتْ به الكهّانُ قبل ظهوره
كالطير غرّدَ معرباً بصفيره

عن وجهِ إصباحٍ يطلُّ نسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أنْسُ الرسالةِ بَعْدَ شدّة نفرةٍ
مَنْجَى البرية وهي في يدِ غمرةٍ
محيي النبوّة والهدى عن فترةٍ

فكأنّما كفلَ الرشاد يتيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

١ مدح : سقطت من ق .
٢ لم أجد هذه المخمسة منسوبة لابن سهل الإسرائيلي إلا في النفح ، ولم ترد في ديوانه (ط . صادر ١٩٦٧) .

اللهُ أوضحَ فضْلـهُ فتوضّحا
والله بيّنَ حبّه في (والضحى)
والجذعُ حنّ لهُ هوًى فترنّحا

والمـــاءُ فاض بكفّه تسنيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ريّا الروايةِ عَنْ عُلاه زكية
نجـــواهُ ربّانيـــةٌ ملكية
أوصافُـهُ عُـــلويّةٌ فلَكية

فالخالُ شعري عندها تنجيما[١]   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

احتثّ في السبعِ الطباق بُرَاقَهُ
والأرضُ ولجمة تخاف فراقَهُ
سبحانَ من أدنى سُرَاه فساقَهُ

شخصاً على ملكِ الملوك كريما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

فاشمّ ريحانَ القلوب الطيّبا
ودَنا فأسْمع يا محمدُ مرحبا
إنّي جعَلتك جار عرشي الأقربا

إن كنتُ قبلكَ قد جعلت كليما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا ليلةً يجري الزمانُ فتسبقُ
الحجبُ فيها والأرائجُ تُفْتَقُ
ما كانَ مسكُ الليلِ قبلك يعبقُ

١ ق : تفخيما ، وما أثبته أنسب .

بُشْرى محمد استفاد نسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

حتّى إذا اقتعدَ البراقَ لينزلا
نادتهُ أسرارُ السمّواتِ العُلا
يا راحلاً ودَّعْتهُ لا عن قِلى

ما كان عهدك بالغيوبِ ذميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صعد النجودَ وسارِ في الأغوارِ
سمك السما طوراً وبطنَ الغارِ
متقسّماً في طاعةِ الجبّارِ

ما أشرف المَقْسوم والتقسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

الشافعُ المتوسلُ المتقبّلُ
القانتُ المدَّثّرُ المزَّمّلُ
وافى وظَهرُ الأرضِ داجٍ ممحلُ

فجلا البهيمَ بهِ وأروى الهيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

دفعتْ كرامتُه الزنوجَ عن الحرمْ
ودعاه جبريلُ المنزه في الحرمْ
وعزتْ لهُ آياتُ نونٍ والقلَمْ

خُلقاً به شَهِدَ الإلهُ عظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

طاوٍ يُفيض الزاد في أصحابهِ
غيثٌ ولكن كان يُستَصْحى بهِ
طابَتْ ضمائرُ قَلْبهِ وترابهِ

مِنـهُ بسرّ لم يكن مكتوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا شوقيَ الحامي الى ذاك الحمى
فمتى أقضيه غـراماً مغـرما
ومتى أعانقه صعيداً مكرما

بضَمير كلِّ موحّـــدٍ ملثوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ومن ذلك قول بعض الوعاظ ، وأظنه من أهل المشرق :

جلَّ الذي بعَثَ الرسول رحيما
ليردَّ عنّا في المَعادِ جحيما
وبِـهِ نُرَجّي جنةً ونعيمـا

أضحى على الباري الكريم كريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ما ضلَّ عن وحي الإله وما غوى
حاشا رسول الله ينطق عن هوى
الصادقُ الثقةُ الأمينُ بما روَى

قَدْ نال من رب السماء عـلوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

وافى لَهُ الروحُ الأمين مبشّـرا
نادى به يا خيرَ مَنْ وطيء الثرى
أجِبِ المهيمنَ يا محمدُ كي ترى

ملكاً كريماً في السماء عَظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

فأجابه المختارُ حينَ دعا بـهِ

ربُّ السموات العُلا لخطابه
ركبَ البراقَ وقد أتى لجنابه

أمسى لَهُ الروحُ الأمين نديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

فمتى أرى الحادي يبشّرُ باللّقا
ويضمّه بانُ المحصَّبِ والنَّقا
وأرى ضريحَ المصطفى قد أشرقا

مولى حليماً لَنْ يزالَ رحيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

وأقول للزوّار قد نلتُ المُنى
يهنيكمُ طيبُ المسرةِ والهَنا
فاستبشروا من بعد فقرٍ بالغنى

فالله زادكمُ بـهِ تكريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ثمَّ الرضى عَنْ آله الكرماء
وكذاك عَنْ أصحابه الخلفاء
فهواهمُ ديني وعقد ولائي

قوماً تراهم في المعاد نجوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ومنها قول بعض فضلاء المغاربة رحمه الله تعالى :

يا أمةَ الهادي المبارك أحمدِ
يهنيكمُ نيلُ الأماني في غدِ
بمحمدٍ فزتم ومَنْ كمحمدِ

إن شئتمُ أن تدركوا التتميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على البدرِ المنيرِ الزاهرِ
صلّوا على المسكِ الفتيقِ العاطرِ
صلّوا على الغصنِ البهيِّ الناضرِ

وتنعّموا بصلاتكم تنعيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ بالنبوّة زُيِّنا
صلّوا على من بالكمال تمكّنا
بمحمّد فزنا بإدراك المُنى

فضلاً منحنا حادثاً وقديما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا على البدرِ المنيرِ اللائحِ
صلّوا على الهادي الحبيبِ الناصحِ
صلّوا على المسكِ الفتيق الفائحِ

للرشدِ فَهّمَ والهدى تفهيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ مجدُهُ قد أُسسا
والماءُ بينَ بنانهِ قد بُجّسا
وأتت إليه سَرْحةٌ حتّى اكتسى

بفروعها إذ خيمتْ تخييما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصرُ من قفا
وعليهِ سلّمتِ الجنادلُ والصّفا
والذئبُ قال صدقتَ أنت المصطفى

وشكا إليهِ بازلٌ قد ضيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريقِ
عينَ الضرير ولدغةَ الصدّيقِ
وأعاد طعمَ الماء مثلَ رحيقِ

إذ مجَّ فيهِ العنبر المختوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ بالملائك جيّشا
وغدتْ تظلله الغمامُ إذا مشى
حُرِستْ سماءُ الله لمّا أن نَشا

ليكونَ سرُّ حبيبهِ مكتوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا عليهِ كلَّ حينٍ تربحــوا
وبهديه مهما اهتديتم تفلحوا
والأجر يشملكم فجدُّوا تنجحوا

وإذا أردتم أن يكون عظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا بجمعكمُ على شمسِ الهدى
صلّوا على بدرٍ يزينُ المشهدا
صلّوا عليهِ بهِ الرشادُ تمهّدا

والذكرُ بيّنَ فضلهُ تفخيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا بإخلاصٍ على خير البشرْ
صلّوا على من فاق حسناً واشتهرْ
ونمتْ فضائلهُ وشُقَّ لهُ القمرْ

ولكَمْ دليل في علاه أُقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ قد رأى الرحمانا
بالقلبِ أو بالعينِ منهُ عيانا
عن قاب أو أدنى مقام كانا

فخذِ الفوائدَ كي تفادَ علوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا عليه كلُّكمْ لا تسأموا
وتبركوا بصلاتِهِ وتنعّموا
فعليه صلّى الأنبياءُ وسلّموا

شرفاً لهم إذ أمَّهُمْ تقديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا حاضرين بلَغْتُمُ كلَّ المنى
عن جمعكم من فضلهِ ذهب العنا
وإليكم واللهِ قد وجبَ الهنا

بمحمدٍ كُرِّمْتُمُ تكريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

قولوا برغم معاندين وحُسَّدِ
كي ترغمُوا أنفاً لكلِّ مفنّدِ
صلى الإلَهُ على النبيِّ محمدِ

أبداً وزاد لقدره تعظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا ربِّ يا ذا المنِّ والإحسانِ
جُدْ بالرضى والعفوِ والغفرانِ
للوالدين ومنشدِ الأوزانِ

والسّامعين أنلهمُ تنعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلى عليهِ اللهُ ما اجتمع المَلا
صلى عليهِ اللهُ ما قطع الفَلا
صلى عليهِ اللهُ ما انتجعَ الكلا

أبداً وما رعت السَّوَامُ هَشيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ومن ذلك قولُ الإمام العالم الشهير الأديب مالك بن المرحل المالقي ثم السبتي ، وهي من غرر القصائد ، وفيها لزومَ ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم بجعلها بدأ ورويّاً على اصطلاح المغرب :

ألف   أجلُّ الأنبياء نبيء
بضيائهِ شمس النّهار تضيء
وبهِ يؤمّلُ محسن ومسيء

فضلاً من اللهِ العظيم عظيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

باء : بدا في أفقِ مكّةَ كوكبا
ثمّ اعتلى فجلا سناهُ الغيهبا
حتّى أنار الدهرُ منهُ وأخصبا

إذ كان فيضُ الخيرِ منه عميما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

تاء   تبيّنتِ الهدى لمّا أتى
فنفى الشريكَ عن القديم وأثبتا
أحَديّةً مَنْ حاد عنها قَدْ عتا

وتلا كلاماً للكريم كريما   صلّوا عليه وسلّمُوا تسليما

ثاء : ثوى في الأرض منهُ حديثُ

في كلِّ أفقٍ طيبُـهُ مبثوثُ
داعٍ بأنواعِ الهدى مبعوثُ

يتلُو نجوماً أو يهـز نجوما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

جيم : جَلَا بسراجه الوهاجِ
ما جنّ من ليلِ الظّلام الداجي
وسقَى القلوب بمائهِ الثجّاجِ

فأصارها بعدَ الغموم غميما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

حاء : حمى دين الهدى بصفائحِ
وسَما بِشُمٍّ كالجبالِ أراجحِ
من كلِّ أزهرَ هاشميٍّ واضحِ

لولا نَداهُ غدا النبات هشيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

خاء : خبَتْ نيران جهل شامخ
آيات عـلم للرسالة راسخ
مِنْ مُثبت ماح ومنس ناسخ

قد خص بالذكر الحكيم حكيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

دال : دعا فأجاب كلُّ سَعيدِ
وأتى بوعـدٍ صادقٍ ووعيدِ
حتى أقرَّ الناسُ بالتوحيدِ

وتجنّبوا الإشراك والتجسيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ذال : ذُبابُ حسامه مشحوذُ
للناكثين ، وعهدهم منبوذُ
أمّا السعيدُ فبالنبيّ يلوذُ

فيدال من ذُلّ الشقاء نعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

راء : روينا عن ذوي الأخبار
أنّ الندى والبأس مع إيثار
بعض صفات المصطفى المختار

كَمْ قد تقدم بالأنام زعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

زاي : زعيمٌ بالنزال عزيزُ
وبليغُ معنى في المقالِ وجيزُ
فلقوله من فعلهِ تعزيزُ

ولربما عادَ الكلام كُلُوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

طاء : طويلُ السيفِ متسعُ الخُطا
رحبُ الذراع ومن يمد لهم سطّا
يردي العدا وإذا ارتدى متخمطا

يبري عذاباً إذ ألام أليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ظاء : ظهير للعبـاد حفيظُ
حظ لدى ربّ العبادِ حظيظُ
حقّ لهُ التأبينُ والتقريظُ

ميتاً وحيّاً ظاعناً ومُقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

كاف : كريمُ العنصرين مباركُ
متفردٌ بالجـاه ليس يشاركُ
فهوَ الذي بمقامـهِ يتداركُ

والهولُ يغـدو مُقْعِداً ومقيما صلّوا عليهِ وسلـّمُوا تسليما

لام : لـَهُ عقـد اللواء الأحفلُ
ولَـهُ الشفاعةُ في غد إذ تسألُ
وإذا دعا فدعاؤه متقبـَّلُ

حق الرحيم بأن يرى مرحوما صلّوا عليهِ وسلـّمُوا تسليما

ميم : ملائكة الإلهِ تسلـّم
فَوْجاً عليهِ إذ بَدا وتعظـّم
ويمرُّ جـبريل بهـا يتقـدّم

فيضاعف التعظيم والتّكريما صلّوا عليهِ وسلـّمُوا تسليما

نون : نـبيٌّ جاءنا ببيـانِ
وبمعجـزاتٍ أبـرزتْ لعيانِ
وبحسبه أن جـاء بالقـرآنِ

يشفي قلوباً تشتكي وجسوما صلّوا عليهِ وسلـّمُوا تسليما

صاد : صَفـيٌّ للإلهِ ومخلصُ
ومقرَّبٌ ومُفضَّلٌ ومُخَصَّصُ
ذَهَبٌ سبيك وزنه لا ينقصُ

قد طاب خيماً في الورى وأرُوما صلّوا عليهِ وسلـّمُوا تسليما

ضاد : ضمينٌ نصحه ممحوضُ
ضافي القراءة بالعُلوم يفيضُ
إن غاض ماءُ البحر ليس يغيضُ

لمّـا استمرَّ زلالُهُ تسنيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

عين : عزيزٌ ذكرُهُ مرفوعُ
في الأنبياء وقولُـــهُ مسموعُ
مشروح صدر حبُّه مشروعُ

من لا يدينُ بذاك كانَ ذميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

غين : غزا من زاغ عنه ومن طغى
وغدا يشبُّ لمَن طغى نار الوغى
حتّى أقامت من عصى بعد الصغا

وتُقَوِّمُ النارُ العَصا تقويما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

فاء : فواتحُ سورةِ الأعرافِ
وبراءة والرعدِ والأحقافِ
أحْظَتْهُ بالأقسامِ والأوصافِ

فمَتى توفّي حقّهُ منظوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً

قاف : قوافي النّظمِ عنهُ تضيقُ
أيطيقُهُ الإنسانُ ليس يطيقُ
فالخلقُ في التقصير عَنْهُ خليقُ

ولَوَ آنهم ملأوا الفضاء رقوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

سين : سلام كالنَّفيس تنفَّسا
وقد اجتنى ورداً وصافحَ نرجسا
أهدى إليهِ في الصباح وفي المسا

بقصائدٍ كادت تكون نسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

شين : شمائله الكريمة تعطشُ
من كان من سكر المحبّة يرعشُ
لكن أضاعَ العمرَ فيما يوحشُ

فغدَت ندامتهُ عليهِ نديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

هاء : هو الهادي الذي اقتدح النُّهى
فتفكرت في ملك من رفع السُّها
وقضى بجدّ للأمور ومنتهى

فأفادها النظر السديد عموما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

واو : وَهى ركن التجلد، بل هوى
لمَّا ثوى في التربِ من بعد التَّوى
فحوى الضريح الرحب نجماً ما غوى

أجرى من الدمع السجوم سجوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

لام : لأجلك فاض دمعي جدولا
فاخضَرَّ آس أساك إذ يبس الكَلا
يا خيرَ من كلأ المكارم والعُلا

وحمى الحمى ورمى فأعمى الروما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ياء : يحيّيه ويسقيه الحيَا
ربُّ العبـاد مجازياً وموفيا
ومشـــرفاً ومسـلماً ومصليا

يا مُسلمين ورثْتُمُ التسليمـا صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي حسبما نقلته من المجلّد الخامس والعشرين من كتاب « منتهى السول في مدح الرسول »[1] للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بقصده ، وهي أيضاً مرتبة على حروف المعجَم ما عدا الابتداء وبيوت الانتهاء ، غير أن ترتيب حروف المعجم في آخر الأشطار ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما فعل مالك بن المرحل ، رحمه الله تعالى :

الله زادَ المصطفى تعظيمـــا
وقَضى لَهُ التفضيلَ والتقديما
وأنالَهُ شَرَفاً لـديهِ جَسيما

فَهوَ المُتَمَّم فَخْرُهُ تتميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ خُصَّ بالأنباء
وأبوهُ ما بينَ الثرى والمـــاء
ثُمَّ استمرَّ النّورَ في الآباء

فَتوارَثُوه كريمـة وكريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

١ قد ذكرت في المقدمة نقلا عن رحلة العياشي قول هذا الرحالة إن المقري لم يطلع على كتاب « منتهى السول » وهذا هو المؤلف يذكر اطلاعه على الجزء الخامس والعشرين منه ؛ وبما أن الكتاب كثير الأجزاء فكلام العياشي يظل يعني أن المقري لم ير الجزء الذي ذكر فيه مدح النعل النبوية .

صلّوا على بدرٍ بدا من يثربِ
فأضاء بالأنوار أقصى المغربِ
وجلا عن الدنيا دياجي الغيهبِ

فبدا لنا نهج الرشاد قويما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من بالشرائع قد أتى
وأباد أحزاب الطغاة وشتّتا
وأبان أسباب النجاة ووقّتا

للأمّةِ التحليــلَ والتحريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من بالغيوب يحدّثُ
وبروعهِ الروح المقدس ينفثُ
محبوبنا وشفيعنا إذ نُبعثُ

في يوم لا يدري الحميم حميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على صبح الهدى المتبَلّج
صلّوا على بحر الندى المتموج
صلّوا على روضِ الجمالِ المبهج

كيما تنالوا الفوز والتنعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على غيثِ الأنامِ السافح
صلّوا على المسك الذكيّ النافح
أزرتْ روائحه بكلّ روائح

فالأرض طبّقها شــذاه نسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ عهده لا يُفسخ
صلّوا على من شرعه لا يُنسخ
صلّوا على من حزْبه لا يُمسخ

نبأ يُفهمّ فضلـه تفهيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من فخره لا ينفد
صلّوا على من فضله لا يجحد
أنّى وكتب الرُّسل طُرّاً تشهد

تنبي اليهود بفضْلِهِ والروما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَن قد حَمى عنا الأذى
ومن الغواية والضلالة أنقذا
صلّوا على من ذكره نعم الغذا

وبمدحهِ نروي القلوب الهيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا بإخلاص على خيرِ البشر
من قبلِ نشأته المُباركة اشتهر
كم كاهن عنه أبان وكم خبر

ولكَم دليل في علاه أقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من جلّ مولده وعز
ضاءت قصور الشام لمّا أن برز
وتدانت الشُّهب الثواقب كالخرَزْ

أو كاللآلي نُظّمت تنظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من يوم مولده سطا
بجميع آلهة الضلالة والخطا
وهوى له عرش اللعين وأسقطا
والفرس هدَّم صرحهم تهديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من ليس فظّاً غالظا
لأخيه في الإرضاع كان محافظا
فاعجب لذلك كيف كان ملاحظا
للعدلِ فينا مرضعاً وفطيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صَلّوا على مَنْ شأوه لا يدركُ
صلّوا على من شأوه لا يشركُ
موسى وعيسى والخليل تبركوا
بلِقائهِ وعَنَوْا لَهُ تسليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَن خلْقه صلى الرسل
شرف على تمكين عزّته يدل
فإذن فقل هوَّ سيدٌ لهم ودل
لا تخش توبيخاً ولا تحشيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على من قد سرَى نحو السما
ليلاً وعاد وما برحنا نوّما
بالروح والجسم المطهَّر قَدْ سما
قُلْهُ وراغِمْ من أبى ترغيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على مَنْ قد رأى الرحمانا
بالقلبِ أو بالعين منهُ عيانا
من قاب أو أدنى مكان كانا

فخذ الفوائد واحذر التجسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على مَنْ بالمحبّة خُصصا
والقلبُ منهُ شُقَّ حتى خلّصا
من حظ إبليس اللّعين ومحّصا

وأعيدَ ما إن يشتكي تثليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من بالسيادة قد حضي
وانشقَّ إكراماً لهُ البدر المضي
ولكَم دليل كالصباح الأبيضِ

فاسمع وكن بالمعجزات عليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ كلّمته ذراعُ
وبفضله كَفَتِ المئينَ الصاعُ
والجذعُ حنّ لهُ وما الأجذاعُ

بأرقَّ منّا أنفُساً وفُهُوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على من مدحُهُ لا يفرغُ
ماذا عسى مُدّاحه أن يبلغوا
فإلهنا يُثني عليــه ويبلغُ

فاقرأ تجــده محكماً تحكيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ كان يبصر بالقفا
وعليهِ سلّمت الجنادل والصَّفا
والذئب قال صدقت أنت المصطفى

وشكا إليهِ بازلٌ قد ضيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على من قد شفى بالريقِ
عين الضرير ولدغة الصدّيقِ
وأعاد طعم الماء مثلَ رحيقِ

إذ مجَّ فيهِ العنبر المختوما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من مجده قد أسسا
والمـــاء بينَ بنانه قد بجسا
وأتتْ إليهِ سرحةٌ حتى اكتسى

بفروعهـا إذ خيمت تخييمـا   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على مَنْ بالملائك جيّشا
وغدت تظلّله الغمام إذا مشى
حرست سماء الله لمَّا أن نَشا

ليكون سرّ حبيبه مكتوما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على مَنْ قد حبّـاه إلهُهُ
بالكوثر المروي لنـا أمواهـهُ
في يوم حشر الخلق يظهر جاههُ

إذ يقدم الرُّسلَ الكرامَ زعيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على من خُصَّ بالحوض الرَّوِي
وكذاك خصّص بالمقام وباللوا
نوحاً وآدم والكليم قد احتوى

وابن البتول حوى وإبراهيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلى عليهِ الله ما قُطِـع الفَلا
صلى عليهِ الله ما اجتمعَ الملا
صلى عليه الله ما انتُجعَ الكلا

أبداً ، وما رعت السوام هشيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلى عليهِ الله ما هطل الحيـا
صلى عليهِ الله ما التمعَ الضـيـا
فلقد شفى الدنيا من الداء العيّا

ولقد حمَى عنّا لظى وجحيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما[1]

* * *

للهِ سيدنا النـبيُّ الأكمل
للهِ برقُ جَبينه المتهلل
للهِ جودُ يمينـه المتهطّل

أحيا وأغـنى بالنوالِ عَديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

١ قد انتهت المدحة النبوية بحسب الترتيب الهجائي ولا أدري هل هذه البقية منها أو من قصيدة جديدة .

للهِ منهُ ذاته وحقيقتُــــه
للهِ منهُ خلقه وخَليقتُه
للهِ منهُ شرعه وطريقتُه

فلقد جلت بشموسها التغييما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا أمة الهادي النبيِّ المصطفى
بالله لو كنّا نعامل بالوفا
متنا عليهِ حَسْرة وتلهُّفا

حتّى نؤدي حقّه المحتوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ما كان أولانا بطول نحيبنا
ما كان أوجبنا بفرط وجيبنا
أفنستطيع الصبر عن محبوبنا

ما الصبر عن لقياه إلاّ لُوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

لم لا نُفيضُ على اللوام دموعنا
لم لا نقضُّ من الغرام ضلوعنا
لم لا نخــلي أهلنّا وربوعنا

حتّى نعاين من ذَرَاه رســوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أولم يكن يحنو علينا مشفقا
أولم يكن متعطفاً مترفقــا
أولم يعالجنـــا بأنواع الرُّقى

حتى اغتدى منّا العليلُ سليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

من مثله ما إن يضرُّ وينفع
من مثله يَدْرَا العذاب ويدفع
مَنْ مثله لذوي الكبائر يشفع

مَنْ مثلهُ بالمؤمنين رحيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا ويح نفسي كم أرى ذا صبوة
ومسامعي عن واعظي في نبوة
فعسى الرسول يُقيلني من كبوة

فلَكَمْ رجاه عاثرٌ فأقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا رب بالهادي الرفيع المحتد
اغفر لعبدك أحمد بن محمد
فلقد توسل إذ رجاك بسيد

ما رُدَّ معتلق بهِ محروما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ناشدتكم يا سامعي هذا الثنا
قولوا متى أسمعتموه تديّنا
اغفر لقائله المقصر ما جنى

بمديحه خير الورى المعصوما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

قلت : وإنّي لأسأل الله تعالى بلسان لم أعص به وهو لسان هذا المادح ، إذ قال « يا رب بالهادي » فإنّي أحمد بن محمد بلّغه الله أمله من غفرانه بمنّه وكرمه آمين .

رجع — ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن القاسم

الإشبيلي الشهير بابن القصير ، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدّمة من بعض الوجوه ، رحم الله تعالى الجميع :

اللهُ أكرم أحمــداً تكريما
فَغَدا رسولاً للعباد كريما
فاشكر غفوراً للذنوب رحيما

أرضى النبي بقوله تعليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

لله منه هــدى نبيّ مرتضى
بالبعث منه لنا قضى لطف القضا
ملأت فضائله المَهارق والفضا

ودجا الوجودُ فعند مبعثه أضا صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

عجبت لنا منه ملائكة السما
أن كان بالإسراء ليلاً قد سما
ورقى البراق بهِ وجبريل لما

قَدْ سرّه سرّاً وجهراً سلما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أعْظِمْ بهِ من مرسل قَدْ بشّرا
بوجوده البشر السعيد ويسّرا
لليسر فهوَ أجلُّ مبعوث يُرى

بهداه أمته زَهَتْ بينَ الورى صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

مَنْ جاء بالقرآن معجزة لَــهُ
أعيا الورى مِنْ بَعْدهِ أو قبلَهُ
اللهُ كرّمــه وفضّل فضلَــهُ

وأجلُّ مِنْهُ فرعَهُ وأصلَهُ صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

مَنْ سبّحت صُمُّ الحصى في كفّه
والبدر شقّق نصفَهُ عن نصفه
ليرى بهِ إعجاز من لم يُصفه

حزنا بمعجز ذكره أو وصفه صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يكفيه أن يتلى آسمه ويكرّر
مع إسم خالقه إذا ما يُذكر
هذا الذي بمقاله لا يفجر

أبداً ولا لخـلافهِ يتصوّر صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

العبد أسرف يـا نبي اللهِ
في الذنبِ ساهٍ عن تُقاه لاهي
فاشفَعْ لَهُ من مذنبٍ أوّاهِ

يرجو كريماً منكَ جَمّ الجاهِ صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

أنأى الزّمان وصولة أو سوله
فاستصحب الأبيات منهُ رسوله
فأنِلْ بفضلك للمراد حصوله

حسبي ثناً وازنت منه فصوله صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ابن القصير أطالَ فيكَ نظامه
ليرى لذاكَ مسلماً إسـلامه
وترى مطاوع أمره وكـلامه

لا زال يُقربكَ الإلهُ سلامه   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

وما أحسن قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه الله تعالى :

فَضَلَ النّبيين الرسول محمد   شرفاً يزيد ، وزادهم تعظيما
درٌ يتيمٌ في الفخار ، وإنّما   خيرُ اللآلي ما يكون يتيما
سادَ النبيين الكرام وكلُّهم   صلّوا عليه وسلموا تسليما
والله قَدْ صلى عليه كرامة   صلوا عليه وسلّموا تسليما

[مسدسات في مدح الرسول]

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاء الدين محمد بن عفيف الدين الايجي الحسني الصفوي الزينبي — رحمه الله تعالى — ممّا رتبه على حروف المعجم والتزم الحرف أول الأشطار الأربعة وآخرها :

اللهُ أحمد أحمداً إذ يبرأ   أوْضَى وضيء نوره يتلألأ
أنواره كـلّ العوالم تمـلأ   أكوانهُ لولاهُ لم تكُ تنشأ
إن كنتمُ انقدتم لَهُ تسليما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

بدرٌ بَدا من نوره يتطلبُ   بحر بجورُ الجود منه تركبُ
برٌ وبرهان جـلا يتقلّبُ   بالمصطفى ممّن صفا أتقربُ
بادر بمـا يجدي لكم تنعيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

تالله مثلُ محمّد لا يثبت   تم الكمال المنتهى ونبـوّة
تاج العُلا بالمصطفى يتثبت   تاهت عقول للذي هو ينعت
تحف الصلاة بهِ عليه أديما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ثق بالذي يوماً يقومُ ويُبعث ثبــة البريّة بالنّبي تغوّث
ثبت الشّفاعة للورى يتحدث ثرة الطوائف للذي يتشبث
ثبتَ لزام الباب فيــهِ مقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

جـاء النّبيُّ عوالمــاً يتبلج جاهٌ لَهُ مَنْ جاءه يتبهج
جاهٌ ينجّي من لظى تتوهّج جاءت لَهُ الأشجار أرضاً تفرج
جاور نبيَّ اللهِ نلتَ نَعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

حقّاً هو الحقُّ المُبين[1] الأوضحُ حبٌّ حبـاهُ حبّهُ يترنّحُ
حسناته حَسَنَاتُـهُ[2] تُسترجحُ حتّى القُلوب بحبّهِ ترجّحُ
حوت العُلوم لذاتهِ تكريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

خَيرُ البرايا دينهُ هوَ ناسخ خيرٌ لَهُ خيرُ الخيور رواسخ
خرَّ الذي عَن دينهِ هو بازخ[3] خالٍ خليٌّ عن نقائص باذخ
خُذْ باتباعٍ فعاله ترسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

دلَّ الأنامَ على الإلهِ محمّدُ دامتْ سعادة من بأحمد يسعدُ
دارٌ لَهُ مأوى المحامد تحمدُ دان الوجود به ومن هو أحمدُ
داوم على باب لَهُ تخييما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ذكرُ الحبيبِ أحقُّ ما يتأخّذُ ذخراً ليومٍ بالنواصي يؤخَذُ
ذاكَ الشّفيعُ لمَنْ بهِ يتعوّذُ ذاكَ الذي بجنـابه يستنقذُ
ذلوا لَهُ ولبــابهِ تغنيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

١ ق : المحقيق .
٢ ق : حسناته .
٣ البازخ : المتقاعس .

رب النبيّ محمد هو يذكر رتّبَ الحبيبِ كتابه متذكّر
راثي محيا أحمد هوَ ينظر روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روّح بذكراه المريح نديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

زيّنُ البرايا بالوجــود معزّز زانَ العوالم حُسنهُ يتفوّز
زن فضله عن كلّهم يتميز زد ذكره عن زلة يتحرز
زلفى أنله بالمُــنى تتميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما.

سبقَ الأنامَ بفضله هو أنفس سادَ الجميعَ بسؤدد يترأس
سُبحان من أسرى به يتأنّس سرُّ الحبيب بسرّه يتقدّس
سمعَ الكلام من الإلهِ كليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

شمس الهدى بدر الدجى يتبشش شرفُ الحبيب من الوجوه يفتش
شكراً لمولانا عليه وأبهش شوقي إليــهِ وافرٌ أتعطش
شغل للبك[1] بالحبيب أديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صفة الكلام لذاته هو أخلص صفة الكتاب كمالُهُ يتلخص
صفةُ القلوب بحبّه تتخلص صفه صبا صبّ وأنّى يخلص
صل بالصّلاة جنابَهُ تكليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ضَفتِ الفيوض من الحبيب تفيّضُ ضعفي إليــهِ آملاً يتعوّضُ[2]
ضري وضيري كلّه يتقوّضُ ضلّ الذي في بابه لا ينهضُ
ضمن الحبيبُ لذاكريهِ زعيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما.

[1] ق : لسانك .
[2] ق : يتفوض .

طوبى لمَنْ بحبيبه يتنشّط   طابت به أحواله والمنشط
طال اشتياقي طيبة أتبسط   طالَ الإلـهُ علي طولاً يبسط
طوبى بمدحته يطيبُ نَسيما   صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

ظلُّ الهدى بهُداه قد يتحفظ [1]   ظلمات شرك قد جلت تتدلظ [2]
ظلي لظلّ ودادهِ يتحفّظ   ظهري ظَهيري حبّه أتحفّظ [3]
ظني بهِ يغدو العقاب عديما   صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

علت المعالي بالنّبي وترفع   عزّ علاه للذي هوَ يتبع
عمّتْ عطاياه لكل ينفع   عرش العظيم قد ارتقى يترفع
عرَجَ الإلـهُ بهِ إليه عليما   صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

غوث الورى ذا المصطفى هو سابغ   غيثُ الندى هو في البرايا سائغ
غمر النّدى أقصَى النهاية بالغ   غزر الحيا شمسٌ وبدرٌ بازغ
غنماً نما بالمؤمنينَ رحيما   صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

فخرٌ وذخرٌ بالمفاخرِ يشرف   فردٌ وحيدٌ في العوالم أشرف
فتح الوجود وكل كون مردف   فازَ الفقير بلطفه يتلطف
فاح النسيمُ من الحبيب جسيما   صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

قسم الإلهُ بعُمره فيفوّق   قسمت وجوه الحسن منه فيسبق
قمرٌ وشمسٌ نوره متألّق   قَمِنٌ بذكراهُ الدعاء معلق
قطب لدائرة الوجود كريما   صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

---

١ ق : يتيقظ .
٢ تتدلظ : تسرع في مرورها .
٣ ق : أتحظظ .

كتب الإلَهُ ثَناءهُ ما يدرك   كتبَ اسمَهُ قرب اسمه يتبرك
كلُّ الكمال لَهُ بهِ يستدرك   كُنْهُ الكمالات التي لا تدرك
كيف كفى درُّ الثناء يتيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

لمعات نورِ محمّدٍ هي تخجل   للشمسِ والبدر المُنير فتخمل
لذات ذكر محمّد هي أكمل   لذوي الحوائج لاثذ متكفّل
لذ خذ بجد منك تُلْفَ حكيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

من مثلهُ في العالمين معظم   من مثلهُ في العالمين مكرّم
مَنْ للإلهِ لَدَى اللّقاء يكلم   مَنْحاً حَبَاهُ منهُ قد يتعلّم
مَنُّ الإلَهِ لديهِ صار عميما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

نور لَــهُ في آدم يتبــين   نَقْلاً إلى آبائــهِ يتعــين
نأي العوالم إذ أتى متعين   نار المجوس تخمدت تتهوّن
نعماه جمتْ[1] إذ تعم كريما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

وجه بهِ كلُّ الوجوهِ إليه هو   وجهُ الوجاه بكله يتوجّهوا[2]
ووجاهه وجهُ المرامِ فوجّهوا   وجهٌ إليكَ نبيّنا فتوجّهوا
وَجِّهْ إلينا نظرة تكريما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

هو مصطفى عندَ الإله الأوجه   هادٍ لَنا وبوجههِ من أوجه
ها إنّهُ وجهي لهذا أوجه   هيه هَنيئاً وجههُ بالأوجه
هامَ الفؤادُ بحبّـهِ تتييما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

١ ق : جلت .
٢ ق : بوجهه قد أوجهوا .

لا مثل للمختار أعلى من علا لاجيه ناجٍ قدْ نجا كل البلى
لاذ الصفيُّ به يتوب فأقبلا لاقى النبي محمد أن يقبلا
لازم محبّاً للحبيب نديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا أكرم الخلق الذي هو ملجئي يأتي محمّد العفيفي الذي
يده يمدُّ إليك مرتجياً وفي يقن بصفوته الصفي ويكتفي
يمناً لذكرك يبْتدي تحتيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

وله أيضاً رضي الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه ، وقد نظمها بعدها نفع الله تعالى بنيته ، وبلّغه غاية قصده وأمنيته ، وهي هذه :

أحسن بطلعة أحمد هي أضوأ أعلن بلمحته العوالم تمــلأ
أزين بهِ لمّا أتى يتــلألأ أبين بآياتِ لــهُ فتنبــأ
الله قدّمَهُ بهــا تقــديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

بدأ الإلهُ بنُـوره فيعقّب بدء الذي بالمصطفى يتقلّب
فيهِ لذي الحاجات إذ يتطلب بدء بذكراه بهِ يستوهب
بل هو إلى الأرَبِ انتفع تعميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

تلت العلاماتُ التي هي تثبت تبّ العِدا تبّاً وعَنْهُ تتبت
تمتْ لهُ الآيات فيك تبكت توراة موسى ناطقاً هي تنعت
توقيع حاجات صفوا تسليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ثبت الكمال له ومنهُ يورث ثبت الورى لو لم تكن لا تحدث
ثبت بذكرى المصطفى يتحنث ثبت الذي بجنابه يتشبّث
ثبت بذكر قد تراهُ قديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

جاء العــوالم نورهُ يتبلّج   جاد العوالم بحره يتموّج
جاز السّمَوات العُلا يتعرج   جاب الجميع بسامه يتفرج
جار لَهُ جارى لَهُ تنعيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

حار العقول لمدحهِ إذ يمدح   حيا الحياء بريّه يستروح[1]
حي لَهُ فضل بهِ يسترجح   حي لَهُ حامى حمى فتروّح
حي الحمى الحامي تصير سليما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

خلقٌ لَهُ كلٌ بهِ يتشمّخ   خلَق لَهُ بالنقصِ لا يتلطّخ
خلقٌ لَهُ أحسن به هو أبذخ   خلق يحقٌ لَهُ الثّناء الأرسخ
خلقٌ إلهيٌّ بذاكَ تميما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

دار الحبيب أحقٌ ما يتعمّد   دارت بها كل السعادة تسعد
دانت أهاليها بما هو يرشد   دارٌ بحسنى طيبة لا تبعد
دارك سكوناً بالسكون مقيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ذكر الحبيب محمد هو ينقذ   ذكر لما ينسي رسولاً ينفذ
ذكر الإلَه ثناؤه ويلذذ   ذكراهُ تنفعُ سامعاً يتلذذ
ذيل النبي خذ اعتصم تعظيما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ربّ الورى سُبحانهُ هو أكبر   ربّ النّبيّ محمّد فيكبر
ربّ الرؤوف حبيبه فيدبر   ربّي اصطفاهُ من الورى فأكبر
ربّ ارتجاه للمُنى تدويما   صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

[1] ق : يتروح .

زانَ العــوالمَ إذ أتاها يبرز	زاد الإلهُ عُروجه فيبرزْ
زادت معاليه عروجاً ينشز	زاد لأخرى حبّه يتحرّز
زعمَ الشفاعةَ ذاكريهِ زعيما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

سادَ الجميع إذا أتى هو أنفس	سارَ السّمَوات العُلا يستأنس
سأل الإلـه وزاد ما يتنافس	سامي ذراهُ للمُحبِّ تؤنس
سارعْ إلى ذاك الذرا تحييما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

شرف لأمّتـهِ بهِ يتفايش	شرق لأشرق شرقه يتفرّش
شرقاً وغرباً فيهِ عقل يدهش	شوقاً إليهِ قد إليهِ أجهش
شكراً على النعمى تزيد نعيما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صفة لهُ ذات لَهُ هو أخلص	صفة عن الشيء الذي يتنقص
صفة له حارت عقول تفحص	صفة شريعته النقائص تخلص
صفة لَهُ وبربهِ لتـديما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ضاعَ المديح لأحمد يتروّض	ضاع الذي عن ذكره هو يعرض
ضاف حباه كفّه ليفضفض	ضاف بذكراهُ المُنى يتعرّض
ضاعف لهُ الآمال صلْهُ مديما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

طالَ العوالمَ إذ أتى هو يقسط	طابَتْ مدائحهُ فطاب المغبط
طالت به النعمى وطاب المنشط	طام لَهُ بحـر الألى يتنشّط
طالب مطالب كلّها تتميما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

ظهر النبي وربّ [أحمد يلحظ]	ظهر لأمّتـهِ ظَهير ملحظ
ظَهروا على الأمم افتخار ملحظ	ظـلّ لهُ ظلوا به يتحفّظُوا
ظلت الظلال إذا ذكرت نديما	صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

عـد المحاسن للنبي يستتبع   عـد لـه آياته تتنوع
عداه مولاه إليه فيطلع   عد لذكراه غداة يشفع
عُدْ باب مَنْ بالمؤمنين رحيما   صلوا عليه وسلموا تسليما

غزرت له الآيات هُنَّ نوابغ   غزر الحيا عزّ الورى هو سائغ
غمر الردا بحر الندى يترفغ   غمر البلاد بذكره يستفرغ
غمر بذكراه الفؤاد وسيما   صلوا عليه وسلموا تسليما

فاض الجمال وفاض منهُ يوسف   فازَ المحبُّ بذكره لا يوسف
فاضتْ عليه فيوضه يترلف   فاشٍ لهُ الآيات لا يتكلّف
فاد لهُ كلٌّ بهم تقديما   صلوا عليه وسلموا تسليما

قمر بدا من أفقه هو فائق   قمرٌ يجاب بذكره ويعلق
فمقام كلّ الأنبياء وسائق   فمقام جود عمَّ كلاً يرفق
قم بابه مستنجحاً ومقيما   صلوا عليه وسلموا تسليما

كلاً به فتحَ الوجود ويدرك   كلّ الكمالات احتوى لا يشرك
كَلّ اللسان عن البيان ويمسك   كُلِّيء الذي بجنابه يتمسّك
كِلْ مرتجاكَ إليه ثق تكريما   صلوا عليه وسلموا تسليما

لمحمّدٍ هوَ مصطفى ومؤمل   لمحمّدِ بن محمد ما يأمل
لمحت عليه بروقه يتحمّل   لمعان نور وداده يستكمل
لم لاأصيب من الحبيب شميما   صلوا عليه وسلموا تسليما

من مثل ذاك المصطفى يتعظم   من كلّ وجهٍ للكمال ليعظم
مَنٌّ علينا من إلهٍ أعظم   منه العروج إليه وهو يعظم
من كان للربّ العظيم كليما   صلوا عليه وسلموا تسليما

نور الإلهِ حبيبه يتمكّن نادى الإلّه حبيبه يتمكّن
نالَ نوالاً شرحه لا يمكن ناد لَهُ طوبى لمَنْ يتمكن
نادى الحبيب بذكره تكليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

والله مثل محمد لا يشبه والله مولاهُ العوالم كيف هو
وجه الوجود بذاته وبهِ لَهُ وجه علا وبوجهه فتوجهوا
وجدوا وجاد من النجاة مقيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

هو أكمل من كل وجه أوجه هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
[...] فأولى طيبهُ وأوجه هول من الأرضِ المُكثر أوجه
هانا بنار الشوق صرت سقيما صلّوا عليه وسلّمُوا تسليما

لا ريب لا مثل له والله لا لاحتْ له الآيات عرشاً قد علا
لاقى ارتقاء ربّه فتوصلا لاجٍ بهِ نالَ المُنى إلى الألا
لازم لباب جنابه تقسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

يا أكرماً كلٌّ إليهِ يَلْتجي يأتي محملكَ العفيفي الذي
يقنا توسّل بالصفي ويحتذي يدهُ إليكَ [يمدُّ] فقراً ترتجي
يمن افتتاح باسمه تختيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

قلت : وإنّما أثبتُّ هاتين القصيدتين في جملة ما سردته ، وإن كان فيهما من التكلف ما لا يخفى[1] لأوجه ، أحدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له ويتبرك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه ؛ الثاني : أنهما مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وعليه من الله أزكى صلاته وأتم سلامه ، الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه في البحر والروي والمعنى ،

١ لفظة التكلف هنا قاصرة ، إذ هذا النمط من السداسيات خارج على طبيعة اللغة ودلالات اللفظ .

لأن بعضاً من العلماء ذكر لي أنّه لم يطلع في ذلك إلاّ على قصيدة ابن الجنان ، فأحببت أن أتعرض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه ، على أن القصد الأعظم ما هو إلا التلذذ بذكر أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، خصوصاً المقتبس فيها قوله تعالى ﴿ صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما ﴾ .

وقد كنت نويت أن أؤلف في ذلك بالخصوص كتاباً أسمّيه « روضة التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصّه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم » والله تعالى المسؤول في التيسير ، فلنزد عليه يسير .

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب « درر الدرر »[1] للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد[2] بن أحمد بن أبي بكر العطار الجزائري من جزائر بني مزغنة ، وهي المشهورة الآن بالجزائر :

أنْوار أحمد حُسنها يتلألأ ... المصطفى بحلى الكمال يحَـلَّأ
الشمس تخجل وهو منها أضوأ ... النّور منهُ مقسَّم ومجزأ
قد زان ذاك النّور إبراهيما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على المسك الفتيق الأطيبِ ... صلوا على الوِرد المعين الأعذبِ
صلّوا على نور ثوى في يثربِ ... صلوا عليهِ بمشرق وبمغربِ
ما زال في الرسل الكرام كريما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على زهر الكمال النابت ... صلوا على طَـوْد البهاء الثابت
صلوا على من فاق نعت الناعت ... خير الورى من ناطق أو صامت
وأعزّهم نفساً وأطهر خيما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

١ سيورده باسم « نظم الدرر » بعد قليل .

٢ بن عبد . . . محمد : سقطت من ق .

صلوا على طيب يفوح ويمكث ... صلّوا على من عهده لا يُنكث
صلوا على من بالهدى يتحدث ... عنه المعارف والحقائق تورث
أضحى يعلمنا الهدى تعليما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من نُورهُ يتبلج ... صلّوا على من عَرْفه يتأرّج
للحضرة العَلياء لَيْلاً يعرج ... صلّوا على من حازَ مجداً يبهج
وبها على العرش المجيد مقيما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على البدر المُنيرِ اللائح ... صلّوا على صبح الرّشاد الواضح
صلوا على المسكِ الذكي الفائح ... صلوا على الهادي النبي الناصح
الرشدَ فَهمَّمَ والهدى تفهيما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من شرعه لا يُنسخ ... صلّوا على من عهده لا يُفسخ
صلوا على مَنْ بالثّناء يضمخ ... علياؤه عليا الكمال تؤرخ
نالَ المفاخر والكمال قديما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على الهادي لأعذب مورد ... صلوا على خيرِ الأنام الأوحد
صلّوا على بَدر التّمام الأسعد ... بمحمّد فُزنا ، ومــن كمحمد
اللهُ عَظّمَ قــدره تَعْظيما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا عَلى مَنْ بالنّبوّة ينفذ ... صلّوا عليه فللسّعادةِ يجبذ
صلّوا على من حبّهُ لا يُنبذ ... أبصارنــا طرّاً بــأحمد لوّذ
في موقف يُنْسِي الحميمَ حميما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على البَدْرِ المُنير الزاهر ... صلوا على الروض البهي الناضر
صلّوا على بحر العلومِ الزاخر ... صلوا على المسك الفتيق العاطر
وتنَعّمُوا بصــلاتكم تنعيما ... صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على نُور يَلوح ويبرز صلوا على مسك يفوح ويحـرز
بمحمّد حلل الكمال تُطـرَز ولمجده درر السّيادة تُفرز
قد نُظِّمت لكماله تَنْظيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على مَن بالبهاء يخطط صلّوا على وَرْدٍ بمسك يخلط
للمصطفى بُسُطُ الكرامة تُبسط ولَهُ يواقيت السّناء تقسط
وبنوره أضحى الزمان وسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من بالمهابة يلحظ صلّوا على من بالنبوّة يلحظ [1]
صلّوا على من بالهداية يلفظ لعُصاتهِ نار الجَحيم تغيظ
ورضاه هَبَّ لنا وطاب نسيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من قدره لا يُدرَك صلّوا على من باسمه يُتبرك
صلّوا على من حبُّه لا يُترك صلّوا على من للهدى يتحرّك
وبـه تحـلى ظاعناً ومقيمـا صلّوا عليه وسلّمُوا تسليمـا

صلوا على البدرِ المُنير الأكمل صلوا على الروض البهيّ الأجمل
صلوا على الهادي النبيّ الأحفل المصطفى الأرقى لأنزه محفل
فيهِ تقدّم وحدهُ تقديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على زهرٍ أنيقٍ باسمٍ صلّوا على عَرْفٍ ذكيٍّ ناسمٍ
صلّوا عليه فهو بدرُ مواسمٍ من جودهِ نلنا بخيرِ مَقاسمٍ [2]
أنْوارهُ قَـدْ تمت تتميما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

١ ق : يحفظ .
٢ ق : صلوا على من المقاسم قاسم .

صلّوا على مَن بالنّبوّة زيّنا　　صلّوا على من بالكمال تمكنا
صلّوا على هادٍ أبانَ وبيّنا　　بمحمّد فزنا بإدراك المُنى
للخلقِ أرسل رحمةً ورحيما　　صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على من بالكمال يخصص　　صلّوا على مَنْ نورُهُ لا ينقص
صلّوا عليه على الدوام وأخلصوا　　ظلٌّ ضفا بالأمن لا يتقلص
شمل الورى طرّاً وطاب عميما　　صلّوا عليه وسلّمُوا تسليما

صلّوا على صبح تبلج بالرضى　　وقضى على ليل الضلالة فانقضى
صلّوا على مَنْ بالنجاة تعرّضا　　صبح تذهّبَ نُوره وتفضضا
وعلا وخيّم ضوءه تخييما　　صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على البدر المنير الساطع[1]　　صلّوا على الروض الأنيق اليانع
صلّوا على الصبح المنير اللامع　　صلّوا على المسك الفتيق الذائع
ووقاه في وهج الهجير مغيما　　صلّوا عليه وسلّمُوا تسليما

صلّوا على النُّور الأعم السابغ　　صلّوا على البدرِ الأتم البازغ
صلّوا على المسك الذكيِّ البالغ　　صلوا على الوِرْدِ المَعينِ السائغ
للواردين بهِ غدا تتميما　　صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على من بالتقرب يوصف　　صلّوا على من بالمحبّة يُعرف
صلّوا على مَن بالعُلا يتشرف　　صلّوا عليه بهِ الكمال يزخرف
المجد فَخَّمَ ذكره تفخيما　　صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على مسك يطيب لناشقِ　　صلوا على الروض الأنيقِ الرائقِ
إشراقه بمغاربٍ ومشارقِ　　صلّوا على البدر الأتم الفائقِ
بادٍ تنسّمَ حُسنهُ تنسيما　　صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

---

١ ق : الطالع .

صلوا على الدرّ النفيس الأنفسِ صلوا عليه فهو روض الأنفُسِ
صلّوا عليهِ فهوَ زين المجلسِ ومُنى الجليس ونزهة المتأنّسِ
راق النفوس شذاً وطاب شميما صلّوا عليه وسلّمُوا تسليما

صلوا على المختار أفضل من مشى صلوا على النور الذي قد أدهشا
بمحمد عَرْفُ القرنفل قد فشا ورد لظمآن إليــه تعطّشا
يُبرِي الضنى أبداً ويروي الهيما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على الهادي النبيّ الأنزه بدر التّمام وروضة المتنزه
في فضلهِ كلّ الشهادة تنتهي أبَداً بلثم ثـراه فخر الأوجه
في حبهِ أضحى الغرام غريما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلّوا على نور بطّيبة قد ثوى فعلا وفاض على البسيطة واحتوى
صلوا عليه فليس ينطق عن هوى صلوا عليه فهو يُنْجي منْ هوى
في مَوْقفٍ يذرُ السّليم سليما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على نور تلألأ واعتلى صلّوا على صبح مبين يجتلى
صلّوا على مسك يخالط مَنْدلا صلّوا على درٍّ تزان به الحلى
وبهِ المعـالي خيمت تخييما[1] صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

صلوا على مَنْ نالَ مجداً عاليا وسَما وحازَ مفاخراً ومعاليا
صلّوا على نور تبدّى حاليا وبمدحـه الرحمنُ زين حاليا
وإذا سما المخدوم زان خديما صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليما

وقد توارد في بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التي أولها :

---

[1] ق : ختمت تختيما .

يا أمّة الهادي المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمّل ، والذي في ظني أن صاحب « يا أمة الهادي » متأخر عن ابن العطار فهو الذي أخذ منه ، والله سبحانه أعلم .

وتوارد أيضاً في عدّة أبيات مع تخميس الكاتب أبي العباس ابن جمال الدين المتقدم ذكره وأوّله :

الله زادَ محمداً تعظيما

وهما على منوال واحد ، غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس ، وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخاً ، فيحتمل أن يكون ألمّ بكلام ابن جمال الدين ، أو ذاك من توارد الخاطر .

ورأيت في هذا الكتاب تسديساً آخر لم يرتبه على حروف المعجم ، وجعل روي الشطرين الأخيرين حرف اللام ، فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح المصطفى عليه أجلّ الصلاة والسلام ، وهو :

نُورُ النّبي المُصطفى المختارِ   أربت محاسنهُ على الأنوارِ
مرآه يُخجل بهجة الأقمار   نُورٌ يُنجّي من عذاب النّار
قد زان ذاكَ النّور إسماعيلا   صلّوا عليهِ بُكْرَةً وأصيلا

صلّوا على البدر المُنير المشرقِ   صلّوا عليه بمغرب وبمشرقِ
صلّوا على غصن الكمال المورقِ   بالمصطفى المختار برق الأبرقِ
يهدي غراماً للنفوسِ دخيلا   صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلوا على مَنْ قد تناهى فخره   صلّوا على من قد تعاظم قدره
صلّوا على مَنْ قد تأرج نشره   صلّوا على من قد تناسق درّه
عقد السّناء لمجده إكليلا   صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلّوا على خيرِ الأنامِ المرسَلِ ... صلّوا على البدرِ المَعين السلسل
صلّوا على أسنَى سَنا المتوسل ... صلّوا على نور الهدى المسترسل
ظلٌّ علينا لا يزال ظليلا ... صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلّوا على النّور الأتمّ الأكبر ... صلوا على مَنْ فاقَ عَرْفَ العنبر
صلّوا عليهِ فهو أصدق مخبر ... كم زان ذكر المصطفى من منبر
وأراح من داء الضّلال عليلا ... صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلّوا على النّور الأتمّ الأنور ... صلّوا على من فاقَ كلَّ مبشّر
صلّوا عليهِ هُديتمُ من معشر ... صلوا على بدر يُرى في المحشر
حازَ الجمال فلا يزال جميلا ... صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلّوا على النّور البهيّ المغرب ... صلّوا عليهِ بمشرقٍ وبمغرب
صلّوا على الورْدِ الشهيِّ المشرب ... بالفكرِ يُشربُ ويحَ من لم يشرب
منهُ ، وينقعُ بالورودِ غليلا ... صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلّوا على من فخره لا يُنكر ... صلّوا على من في النجاة يفكّر
صلّوا على من بالنبوّة يُذكر ... صلّوا على من بالهداية يُشكر
شكراً على مرِّ الزمان حفيلا ... صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلّوا على من بالسّيادة قد سما ... صلّوا على من في الكمال تقسّما
صلّوا على صبح بَدا متبسما ... صلّوا على طيب سرى وتنسّما
وغدا وراح معطّراً وبليلا ... صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلّوا على مسك يخالط عنبرا ... صلوا عليه سرى وفاح وما انبرى
صلوا عليه حوى الكمال الأكبرا ... لبسَ الجمال مطرزاً ومحبرا
وبذاك قد خصّ الجليل جليلا ... صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلّوا على من بالنبوّة تُوّجا صلّوا على صبح بدا وتبلجا
صلوا عليه لقد أضاء وأبهجا ومحا برونق نوره ظُلَم الدجى
نور يعود الطرف منهُ كليلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلّوا على نُورٍ تبلّج لائحا صلّوا على نَوْرٍ تبرّج واضحا
صلوا على مسك تأرّج فائحا وبطيبه ملأ الوجود روائحا
وبحبّه يستوجبُ التبجيلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلوا على من نورهُ ملأ الفضا صلوا عليه لقد أضاء وما انقضى
صلوا على من خُصّ حقّاً بالرضى لنجاتنا خيرُ الأنام تعرّضا
وهدى إلى نيل الرشادِ سبيلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلّوا على بدرٍ يدوم كماله باقٍ على مرّ الزمان جماله
صلّوا على من قد تعاظم حاله ودنا إلى وِرد الرضى ترْحاله
وإلى الورود به أجدّ رحيلا صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلوا بأجمعكم على شمس الهدى صلّوا على بدر يزين المشهدا
صلّوا عليه فمن رآهُ تشهدا صلّوا عليه به الرشاد تمهدا
أرضى التزيل وبيّنَ التنزيلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلوا على من قد تأثل[1] مجدُهُ فسما به غَوْرُ الحجاز ونَجْدُهُ
ما زهرهُ لولاه أو ما وَرْدُهُ بالمصطفى المختار يعذب وِرْدُهُ
في تربهِ ما أعذب التقبيلا صلّوا عليهِ بُكرةً وأصيلا

صلّوا على محبوبنا مطلوبنا صلّوا عليهِ فهو روض قلوبنا
صلّوا عليه فهو عطر جيوبنا صلّوا على مطلُوبنا محبوبنا
لا نرتضي عن حبّه تبديلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

---

1 ق : تأصل .

صلّوا على خير الأنام الأطهر صلّوا على النور الأتم الأزهر
صلوا على الصبح المنير الأشهَر صلّوا عليهِ باتصال الأشهر[1]
الله فَضَّلَنا بـهِ تفضيـلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

صلوا على من قد تناهى في العلا صلوا على من كان أكمل أجملا[2]
صلّوا على درٍّ تزان بهِ الحلى المجدُ ألبسه الكمال مكمَّلا
والله كمَّلَ مجدَهُ تـكميلا صلّوا عليهِ بُكرَةً وأصيلا

وأظن أنّي رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي ، وهو متأخر .

[قصائد ومقطعات في مدح الرسول]

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربي ، وهي :

أهدت لنا طيبَ الروائح يثربُ فهبوبُها عندَ التنسم يطربُ
رقت فرقٌ من الصبابة والأسى قلب بنيران البعـاد يعذَّبُ
شوقاً إلى أسنى نبيَّ حبّهُ يحلو على مرِّ الزمان ويعذبُ
المصطفى أعلى البرية منصباً قد جل في العلياء ذاك المنصبُ
فُزْنا بهِ بينَ الأنام بديعـة أبداً علينا بالأماني تسكبُ
حاز السيادةَ والكمالَ محمدٌ فإليه أشتاتُ المحامدِ تُنْسَبُ
محبوبُنـا ونَبيُّنـا وشَفيعنا يُدني إلى وِردِ الرضى ويقرّبُ
بضيائه الملتاح أشرق مشرقٌ وبنوره الوضاحِ أغرب مغربُ
وبه وردنا الأمنَ عذباً صافياً وبه ترقى في المعالي يشجبُ

---

١ ق : من نبي أنور .
٢ ق : صلوا عليه فما أتم وأجملا .

صبح الهدى أنواره بنبيِّنا صبحاً تروق الناظرين وتعجبُ
إن طابت الأنفاس من زهر الرُّبى ريّاه أذكى في النفوس وأطيبُ
صيَّرتُ أمداحَ النبيِّ المصطفى لي مذهباً يا حبّذاك المذهبُ
فعليٌّ من أمداح أحمدَ خلعةٌ مَوْشيَّةٌ ولها طرازٌ مذهبُ
وبمدحه شمس الرضى طلعت على أفقي تضيء ونُورها لا يغربُ
أترى يبشرني البشيرُ بقربه وأبثُّ أشواقَ الفؤادِ وأندبُ
ويُقال لي بشراك قد نلت المُنى يا مغربيُّ إلى متى تتغربُ
هذا مقرُّ الوحي هذا المصطفى هذا الذي أنواره لا تُحجبُ
رِدْ ورِدْ طيبة واشف من ألم النوى قلباً على جمر الأسى يتقلبُ
كم ذا التواني عن زيارة موردٍ عَذُبَ المقامُ بهِ ولذَّ المشربُ
منّا السلامُ على النّبيِّ محمدٍ ما أسفرت شمسٌ وأشرق كوكبُ

وقد سمي هذا الكتاب بـ « نظم الدرر في مدح سيد البشر » و « الورد العذب المعين في مولد سيّد الخلق أجمعين » وليس هو بابن العطار المشرقي [1] الذي كان معاصراً لابن حجّة الحموي ، فإن ذلك متأخر عن هذا ، وهذا مغربيّ وذاك مشرقي ، فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان ، سوى اشتراكهما في الشهرة بابن العطار .

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته : ممّا أنشأه الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف العطار ، رواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهري ، قرأتُ هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة

1 يعني بابن العطار المشرقي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدنيسري ، وله في المدائح النبوية « عنوان السعادة » (الدرر الكامنة 1 : 287) .

بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية – حرِستْ – في دُول متفرقة ، وآخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائة ، ونصُّ ما كُتب على نص قراءتي عليه : صحيحٌ ذلك ، وكتبه محمد بن عبد الله ابن محمّد بن محمد بن العطار ، والحمد لله رب العالمين ؛ انتهى .

ورأيت أثر ما تقدم بخط الأقشهري ما صورته : سمع من لفظي جميعَ « نظم الدرر في نسب سيد البشر » لجامعه ، القاضي المذكور أعلاه القاضي شمسُ الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشبي وولدُه أبو محمد عبد الدائم وابنُ أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفص[1] بن أبي بكر البوري وغيرهم ، نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطّار سنة سبع وسبعمائة ، قالَهُ راسمه الأقشهري ؛ انتهى .

ومن قصائد هذا الكتاب قوله :

أبداً تَشَوُّقُك أو تروقك يثربُ ... فإلى متى يقصيك عنها المغربُ
هي جنةٌ في النفس يعذبُ ذكرها ... والقربُ منها والتداني أعذبُ
المسك معترفٌ بأنَّ نسيمها ... أسمى وأسرى في النفوسِ وأطيبُ
والعنبر الورديُّ دان لطيبها ... منهُ التعطر والتأرج يطلبُ
جيشُ الصبابة شنَّ غارات الأسى ... من بعدها فالصبرُ منها ينهبُ
والشوقُ يثنينا إليها كلّما ... وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
حتى النسيمُ إذا سرى من ربعها ... يثني من الروض الغصونَ ويُطربُ
حيّا فأحيا المستهامَ بطيبه ... فنفوسُنا بهبوبهِ تتطيّبُ
يا حبّذا في رَبْع طيبةَ وقفةٌ ... بينَ الركائب والمدامع تُسكبُ

---

[1] ق : أبي حفص .

حتى يرقّ للوعَـتي وصبابتي ... ودموع عيني كُلُّ من يتغربُ
شوقاً لمن زان الوجودَ ، وحبه ... يدني إلى ربٍّ الرضى ويقرِّبُ
سادَ الأنامَ المصطفى بكماله ... فإليه أجناس السيادة تُنسبُ
بالنّور زان حُلّى علا آياته ... وبحسن ذاكَ النور أعرب معربُ
الشمسُ يغربُ نورها وضياؤها ... أبداً ونورُ المُصطفى لا يغربُ
الله أرسلَهُ إلينا رحمـــةً ... فبجاهه عنّا الرضى لا يُحجبُ
بمحمّدٍ فزنا بإدراك المُنى ... فالوقتُ طابَ لنا وطابَ المشربُ
خير الورى محبوبنـا ونبيّنــا ... حزْنا به الجاهَ الذي لا يُسلبُ
روضُ النفوسِ محمدٌ ونعيمها ... وبه يُفَضض حَلْيها ويُذَهَّبُ
شرفٌ تقادم قبلَ آدمَ عهدهُ ... للنّور أطنابٌ عليـهِ تطنَّبُ
منّا عليهِ مدى الزمانِ تحية ... يثني عليهـا المندليُّ ويطنبُ

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

طلعت ، وقارنها البهاءُ ، بُدورُ ... أبداً على قطبِ السعود تدورُ
من نورِ أحمدَ يُستمدُّ ضياؤها ... وبهاؤها ، يا حبذاك النّور
ويزيدُ ذاكَ النّور حسناً فائقاً ... يومَ القيامةِ والأنامُ حضور
محبــوبنا أسمى البريّة منصباً ... يومَ النّشور لواؤه منشور
فزنا بخير العالمين محمدٍ ... وجرى بوفق مرادنا المقدور
لاحَتْ لنـا أنواره فزماننا ... نورٌ ، وأُنسٌ دائمٌ وسرور
بالمصطفى المختار قابلنـا الرضى ... بينَ الأنامِ فسعينا مشكور
الله فضّلهُ على كلِّ الورى ... فهوَ الحبيبُ ، وفضله مشهور
القربُ خَصّصَهُ وعظّم قدره ... فسما ببهجــةِ نـوره ناحور
خيرُ النبيّين الكرام نبيّنا ... بالنور في العرش اسمه مسطور

يا صاحبيَّ نداءَ صبٍّ مغرمٍ ... قلبي بحبِّ المصطفى معمور
عوجا عليَّ بوقفةٍ وبعطفةٍ ... إنّي على ألم الفراق صبور
إن لم أزرْ بالجسم قبرَ المصطفى ... فالقلبُ من بُعدِ المزار يزور
نيرانُ قلبي بالبعادِ توقّدت ... ومدامعي خَدّي بها ممطور
فمن الفراقِ الحتْم نيران لها ... لهب ، ومن فيض الدموع بحور
فمتى أفوز بوقفة في طَيبة ... والقلبُ مني فارحٌ مسرور
ويقال لي إنزلْ بأكرم منزلٍ ... وابشر فأنت على النوى منصور
إن جاد دهري بالوصول لطيبة ... بعد المطال فذنبه مغفور
هي جنّة مَنْ حلّها نال المنى ... وسما وسادَ وصافحته الحور
حتّى النسيم إذا سرى من نحوها ... يصبو إليهِ المسك والكافور

ومنها قوله رحمهُ الله تعالى :

أمّا النّسيم فقد حيّاك عاطره ... وبارق المُنْحَنَى أحياك ماطره
خاطِرْ بروحك في نيل الوصال[1] فكم ... من نازح نال طيب الوصل خاطره
زهر الرُّبى باسِمٌ تَنْدَى كمائمه ... رقَّ النّسيمُ بها إذ راق ناظره
ما حلَّ روض المنى الغض الجنى دنفٌ ... فاستضحكتْ فيه من عُجب أزاهره
والنهرُ أبرز للبدر الأتم حلّى ... والبدرُ طرز ماء النهر زاهره
والغصن تلعبُ أنفاسُ الرياحِ به ... والطلُّ قد نُثِرتْ منهُ جواهره
والليلُ قد رقمت بالشُّهب حلته ... والبرق يبسم في الظلماء ساهره
والنور مخضُ جنّى فوق الندى درر ... وعقدها زيّنَ الأغصانَ دائره
وملبس الروض قد زانته خضرته ... والليل بالفجر قد شابَتْ غدائره
والصبح سَلّ على جيش الظلام ظُبىً ... وعندما سلّها ولّتْ عساكره

---

[1] ق : الوصول .

للزهر سرٌ وعَرْفُ الروض فاضحه والمسكُ إن فُضَّ لا تخفى سرائره
هل زار طيبة ذاك العرفُ حين سرى فتربها أبداً مسك يخامره
طابت بطيبِ رسولِ الله فهي بهِ سَمَتْ وراقت بمن فاقت مفاخره
به معَدٌّ تسامى للعلا ، وبهِ حازَ المكارمَ واعتزت عشائره
أسنى النبيِّين قدراً نوره أبداً يزيدُ حسناً على الأقمار باهره
وأفضلُ الخلقِ من عُرْبٍ ومن عجم أربتْ على الرمل أضعافاً مآثره
إن كان للرُّسل عقدٌ وَهْوَ آخرهم نظماً فقد زانِ عقدَ الرُّسل آخِرُه
روضٌ من الحلم غضٌّ راق منظره بحرٌ من العلمِ عذبٌ فاض زاخره
إن جاد صاحِ بلقياهُ الزمانُ فمِلْ إلى مقامِ حبيبٍ أنت زائره
وصِفْ له حال صبٍّ مغرمٍ دنفٍ رامَ الدنوَّ فأقصتْهُ جرائره
واذكر هناك بعيدَ الدار غَرَّبَهُ غربٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
أهدى السّلام بلا حدٍّ ولا أمدٍ إلى محلٍّ رسولِ الله عامره

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أمنزلَنا جادتْ ثَراكَ السحائبُ وإلا فجادته الدموعُ السواكبُ
ووشّاك وَسْميٌّ الغمام بدرِّه وحلّى محلاً حلَّ فيه الحبائب
وحيّا نسيمُ الريح بالجزع آنساً فما عاب ذاك الأنسَ بالجزع عائب
فيا عهدنا بالخيفِ هَلْ أنت عائدٌ ويا أُنسنا بالجزع هَلْ أنت آيب
وهل راجعٌ عصرُ الشبابِ الذي انقضى وقد شيبتْ سودَ الشعورِ الشوائب
وهيهاتَ أنْ يُقضى لنا برجوعهِ كما كان غصناً مورقاً وهو ذاهب
وقد سلب الدهرُ المفرقُ أنسنا وأودى بهِ والدهر للأنس سالب
فما وهبَ الإيناس إلا مغالطاً وأي بخيلٍ للنفائس واهب
أطالبُ أيام العقيق بعَوْدة وقد عزَّ مطلوبٌ لَهُ أنا طالب
فيا صاحبي كن مُسْعدي في صبابتي وإلا فما أنت الصديقُ المصاحب

إذا ما بدا برقُ الحجازِ فأدمعي ... تفيض إلى الورّاد منها المشارب
أعاتبُ أيــام البعــاد ، وقلّمــا ... يبرّدُ حرَّ الشوق بالعتب عاتب
وأبخلُ بالصبر الجميـل ، وإنّه ... لينهبه من وارد البيـن ناهب
ولمّا بدتْ أعلامُ طيّبة قصّرتْ ... من الشوق ما قد طولته السباسب
وقفنـا وسلمنا وفاضتْ دموعنا ... وحنّتْ إلى ذاك الجناب الركائب
نزلنا وقبّلنا من الشوقِ تربهــا ... وطابتْ بذاكَ الترب منّا الترائب
فللعينِ من تلك المعاهدِ نزهةٌ ... وللقلب في تلك الرسومِ مـآرب
حوَتْ سيد الرسل الذي جلّ قدره ... له في مقام القرب تقضى المطالب
بهِ غالبٌ حازَ المفاخر ســالفاً ... ولا شرفٌ إلا الذي حاز غالب
بهادي الورى طرّاً مَناصبُهُ سَمَتْ ... وراقت بخير الرُّسل تلك المناصب
محمدٌ الهــادي بإشراق نوره ... تمزقَ من ليل الضلال غياهب
ترقّى إلى السبع الطباقِ وما بدا ... له في ترقّيه من الحجبِ حاجب
وخاطبه في حضرة القدس ربُّهُ ... وأدناه في حال الخطاب المخاطب
نبيٌّ بدتْ أنواره وتلألأت ... فمنهـا تضيءُ النيراتُ الثواقب
لقد أشرقتْ شمسُ النهار بنوره ... وبدر الدجى لمّا بَدا والكواكب
أُعلّل قلْبي بالوصول لقــبره ... وإن غبتُ ما قلبي وحقّك غائب
وإنّي أناديه وإن كنتَ نازحاً ... نداء غريبٍ غرّبتــهُ المغارب
إذا كنتَ لي يا سيدَ الرُّسلِ شافعاً ... فما أنا من نيلِ السعادة خائب
بمدحك يا من جلّ قدراً وحظوة ... وجاهاً وتمكينـاً تُنالُ المواهب
فيا معشرَ الأحبابِ إنّ نبيّنا ... إلى فوزنا داعٍ وساعٍ وخاطب
ألا فاذكروه كلّ حين وسلّموا ... عليه ، بذاك الذكر تَسْمُ المراتب
وقوموا على أقدامكم عند ذكره ... فذلك في شرع المحبّة واجب

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

شمسُ الهدى وضحت بأشرف مرسلِ ودحت دُجى ليل الضلال المسبلِ
من وجه عبد الله كانَ ظهورها للخَلْقِ طــرّاً في ربيع الأول
خلعتْ على الآفاق أشرفَ ملبس وبدت فأيُّ دُجُنَّــة لم تنجل
فالنيّرانِ المشــرقان كلاهما للمُصطفى اعترفا بعجـز مجمل
فالشمسُ لمّـا أنْ بدتْ أنواره أومَتْ إليـهِ بالسّلام الأحفل
والبدرُ قابله بحسنٍ كامــلٍ فانْشقَّ للبـدرِ الأتمِّ الأكمـل
ولليـلة الإسراء أجمل منظر بجمال إسراء الحبيب الأجمـل
فضلَتْ على الأيام منْ شرفٍ لما حازتهُ من شرف النبيِّ الأفضل
وبدا بها نور النّبيِّ المُصطفى وبدت لَنا نار الكليم المصطلي
إذ جاءه الروح الأمــين مسلّماً ومبشّـراً بورود أعــذب منهل
فسرى إلى أسنى محلٍّ وارتقى والجفنُ منـهُ بنومه لم يكحل
رفعتْ له حجبُ الجلال بأسرها فرأى جـلالاً لم يكن بممثَّل
حتّى انتهى الروحُ الأمـينُ لحـده وبحيثُ يذهلُ عقلُ من لم يذهل
ناداه لمّـا أن ترقّى وحده : لك يا محمدُ ذا التقربُ ليس لي
ارقا إلى الأفقِ المُبـين مشــاهداً واترك حظوظك بالحضيض الأسفل
واسعد بزورة من تعـاظم ملكُهُ واصعدْ إلى عرْش الحَبيب الأول
فسما فشاهد حضرةَ القدسِ التي سبُحاتها تغشى حِجى المتأمِّل
وبدا الكمالُ له ونوديَ مقبلاً : أهلاً وسهلاً بالحبيب المُقبل
أنت المُرادُ لسرنا ولوحينــا أقبلْ إلينــا يا محمد تقبل
والْبَسْ بحضرة قدسنا خِلع الرضى منّا وجُرَّ الذيل منهـــا وارفل
ولك الوسيلة يا محمد عنــدنا وبها نجيب وسيلَــةَ المتوسل
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى وانزلْ بأنْوارِ الكتاب المنزّل

فيهِ شفاءٌ للصـــدورِ فبرؤها بمفصَّلٍ منهُ وغيرِ مفصَّلِ
يا نفسُ هل تشفيك زورةُ طَيبةٍ فرســومُها بــرءٌ لـكلِّ مقبِّلِ
وَلّى زمانك في التصابي والمُنى فدعي التصابي والأماني وارحلي
يا قلبُ ، روعاتُ الجوى هل تنقضي عني ؟ ولوعاتُ الجوى هل تنجلي ؟
وأزور قـبرَ الهــاشميِّ محمدٍ قبل الرحيل وقبل عذل العُذَّل
إنّي وإن بخلَ الـزّمانُ بقربه فبلوعتي وبــدمعتي لـمْ أبخل
أسقي الثرى تسكابها ، فمَعينُها يهمي ، ونارُ صبابتي ما تأتلي
لهفي على بعـد المزار متى أرى يقضي الزمان بقرب ذاك المنزل ؟
ومتى أُبشَّر بالمُنى ، ويقال لي : هـذا مقرُّ الوحي دونك فانزل ؟
وتهبُّ تلقائي نواسمُ طَيبــةٍ إنّي أجـودُ بها إليك وحقَّ لي
فلقد بليت بلـوعةٍ وبدمعـةٍ وهبوبك الأزكى شفاءُ المُبتلي
خيلت قربك برءَ داء صبابتي ضمن البعــاد بــه فطــال تخيّلي
شوقاً إلى خـير الأنام بأسرهم سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي
فيهِ أنا متوسّل في مقصدي أسنى التوسلِ بالرسول المرسلِ
وبجاههِ عنـد الأنامِ مآربي ووسائـلي تُقْضَى وإن لم أسأل
وبهِ الأماني قد حللن بساحتي وحوادثُ الحدثانِ صرن بمعزل
بشراكِ نفسي فالأماني أعجلت نحوي تبشّرني بخـــير معجَّلِ
بمديحه أضحى الـزّمانُ مُسالمي تندى أسرَّة وجهـهِ المتهلّلِ
فبه إلهي قد رجوتك راغبــاً دون الأنام فبابُ جـودك موئلي
وإليك ربّي رغبتي وتوسُّلي وعليك في كلِّ الأمورِ توكُّلي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته : قال محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم : كان الفراغ من إكمال هذا الفصل وإتمامه ، حسب نثره ونظامه ، ضَحْوة يوم الجمعة الثاني من

شعبان المكرم سنة ست وتسعين وستمائة ، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها ، فإنّها تقدمت على إنشائه ، أودعتها فيه ، والله سبحانه المستعان ، وذلك بمدينة الجزائر – جزائر بني مزغنة – من أقصى إفريقية من أرض متيجة ، صانها الله تعالى ؛ انتهى .

ونبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصّه : تأليف الفقيه العالم الأديب البارع أبي عبد الله محمد بن العطار الجزائري ؛ انتهى .

وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر ، فالله تعالى يجازي صاحبه أفضل الجزاء ، بمنّه وكرمه .

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة على ما ذُكر هنا فنقول : قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب « مطالع الأنوار ومنابع الأسرار » :

وحقّك يا محمّدُ إنّ قلبي ... يحبك قربــة نحو الإلهِ
جرتْ أمواهُ حبك في فؤادي ... فهامَ القلبُ في طيب المياه
فصرتُ أرى الأمور بعين حقّ ... وكنت أرى الأمور بعين ساهي
إذ شغف الفؤادُ به وداداً ... فهل ينهاهُ عن ذكراه ناهي ؟
يهيمُ بذكره ويحنّ شوقاً ... حنينَ المستهام إلى الملاهي
يخامره ارتياحٌ منــهُ حتى ... يقول أولو الجهالة : ذاك لاهي
وما هو حقّ فضلٍ قد رآهُ ... فصارَ يجدّ في طلب الملاهي
فسوف ينال في الدنيا سروراً ... وفي الدار الأخيرة كلّ جـاه
ويعطى ما تمنى من أمانٍ ... كما قد حبّ محبوبَ الإلــهِ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يا عاذلي في طلابي ... دعني من العذل دعني
سأُعمِلُ العيسَ شوقاً ... بالعزمِ دونَ التأنّي

إلى ضريــح رسول مصدِّقٍ حسن ظني
أشدو على كلِّ فجٍ حينَ الحمامُ يغني
يا أطهرَ الخلقِ إنّي بذِلَّتي عبــدُ قِنٌ
فأعتقِ اليومَ رقّي وانْظرْ بعطفكَ منّي
فأنْتَ أنــتَ مَلاذي إيّاكَ - إيّاكَ أعــني
إن غبتَ عن عينِ جسمي ما غبتَ عن عينِ ذهني
لولاكَ كنّا أُناســاً أشرَّ من كلِّ جنٍّ
فإذ بُعثتَ رسولاً فخيرُ فضلٍ ومَنٍّ
للهِ خالصُ شكري عَســاهُ يصفحُ عني
فإنّــني عبدُ ســوءٍ قلبتُ ظَهْرَ المجنِّ

وقال في خاتمة ذلك الكتاب [١] :

صلّى الإلهُ على النبيِّ الهادي ما لاذتِ الأرواحُ بالأجسادِ
صلّى عليه الله ما اسودَّ الدجى فكسا محيّا الأفقِ بُرْدَ حِدادِ
صلّى عليهِ اللهُ ما انبلج السنا فابيضَّ وجهُ الأرض بعد سوادِ
صلى عليه اللهُ ما همع الحَيا فسقى البلادَ برائحٍ أو غادي
صلى عليهِ الله ما هفَتِ الصَّبا وشدا على فنَنِ الأراكةِ شادي
صلى عليهِ الله ما ألفَ الكرى جفنٌ فخامرهُ لذيذُ رقادِ
صلى على المختار أحمدَ ربُّه ما استمسكتْ نارٌ بطيِّ زنادِ
صلى على خيرِ الأنامِ محمدٍ مَنْ خصّهُ بالنورِ والإرشادِ
صلى الإله على رسولٍ حاشرٍ حُشِرَ الأنامُ لديهِ في الميعــادِ
صلى الإله على رسولٍ عاقبٍ في الدهرِ وهو بفضله كالهادي

١ ق : وقوله رحمه الله تعالى . . . الباب .

صلى الإله على رسولِ خاتمٍ ختَمَ النبوّةَ بالكتابِ الهادي
صلى الإله على المقَفّى ما اقتفى بشرٌ نبوّتَهُ بغيرِ عنــادِ
صلى على ماحي الضلالِ إلهُهُ ما غردتْ طيرٌ على الأعوادِ
صلى الإله على رسولٍ فاتحٍ فتحَ الظلام بنورهِ الوقّادِ
صلى الإله على نبيٍّ راحمٍ بالملّةِ الغرّاء ، بعد فسادِ
صلى الإله عـلى نبيٍّ طالعٍ رحمَ الإلهُ بهِ من الإبعــادِ
صلى الإله على نبيٍّ طالعٍ بملاحمٍ قَصَمَتْ فؤادَ العادي
صلى عليهِ الله فهو نبيُّهُ ناداهُ بالإرشادِ خيرُ منادِ
صلى عليهِ الله فهو رسولهُ أعطاهُ رايةَ عزمةٍ ورشادِ
صلى عليهِ الله فهو خليلُهُ أسدى إليهِ منه كلَّ سدادِ
صلى عليه الله فهو صفيّهُ صَفّى سريرته من الأحقادِ
صلى عليه الله فهو وليّهُ والاهُ في الإصدارِ والإيرادِ
صلى عليه الله فهو المصطفى منْ كلِّ حضّارِ العبادِ وبادي
صلى عليهِ الله فهو المجتبى يُجْبى إليهِ الخيرُ دونَ نَفـادِ
صلى عليهِ اللهِ فهو المنتقى نورُ الزمانِ وواحدُ الآحادِ
صلى عليه مَنْ براه مطهّراً واختاره طوداً من الأطوادِ
صلى عليهِ من براه بفضله وأعادهُ حيّاً لغيرِ مَعــادِ
صلى عليه مَنْ أراه جلالهُ وأناله من ذاكَ كلَّ مرادِ
صلى عليهِ من أحلَّ فؤاده في ظلِّ عرشٍ ثابتِ الأوتادِ
صلى عليهِ مَنْ غَذّاهُ بنعمة فتضاعفتْ كتضاعفِ الأعدادِ
صلى عليهِ مَنْ كساه عوارفاً واختصهُ منــهُ بخيرِ أيــادِ

وقال الشيخ أبو عبد الله ابن عمران مادحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلّم

مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب ، كما تقدم :

ألف : أيا خيرَ البريّةِ هذي ... مِدَحي ، وما أنا في مقالي هاذي

باء بها أظهرتُ صدق محبّتي ... وبذلكَ الجاه الكريم لِياذي

تاء تخذْتُ وسيلةً ما حكتهُ ... وجعلتهُ يومَ المعادِ عيـاذي

ثاء : ثنائي ليس يحصرُ فضلكَ الـ ... زاهي ولا يحويهِ باستحواذِ

جيم : جلالك جلَّ طورُ فخاره ... عن شبهِ مثلٍ أو لحاقِ مُحاذي

حاء : حُبيتَ بمعجزاتٍ ذكرها ... يولي ذوي الإيمانِ كلَّ لذاذِ

خاء : خصصتَ بها بفضل عناية ... منها لجأتَ إلى أجلِّ ملاذِ

دال : دحضتُ بحقّها مستقرياً ... إبطالَ زورٍ مشعوذٍ ملأَذِ

ذال : ذراعُ الشاة أفصحَ مخبراً ... عمّا يحاذرُ ضره بنفـاذِ

راء : رميتَ عصائباً قد ألّبوا ... فَعَموا ولمّـا يُنصروا بلواذِ

زاي : زعيم بالوجاهة أنتَ إذْ ... كلٌّ بجاهكَ عاذ كلَّ عياذِ

طاء : طلابهم لديكَ شفاعةً ... فيهـا بذذتَ الجمعَ أيَّ بذاذِ

ظاء : ظماؤهم بحوضك سُوِّغوا ... ريّاً كأنَّ بهِ مذاقةَ ماذي

كاف : كفلتَ بما تلته (والضحى) ... لجماعةِ الجارين باستنقـاذِ

لام : للدعوتك المجابة أسبلت ... ثرواتُ هتّانِ الحيا بهمـاذِ

ميم : مَعين يديك إذ غلب الظّما ... أروى الورى من توأمٍ وفذاذِ

نون : نجاركَ أصلهُ متخيَّرٌ ... من بطنِ ذاتِ علاً وأطهرِ حاذي

صاد : صعدت ذرا لموقف زلفة ... تركَ السعود مقطَّع الأفلاذِ

ضاد : ضويت إلى جلالٍ كافلٍ ... لكَ بالرضى درَّ الجلالةِ غاذِ

عين : علا ذكر افتخاركَ وارتقى ... عن غمزِ مغتابٍ وزورِ الباذي

غين : غمام قد علاك مظلّلاً ... يمشي بمشيكَ دائماً ويحاذي

فاء : فصاحتك البليغة أعجزت ... للقوم ٍ من قربى ومن شُذَّاذِ
قاف : قواعد صرح كسرى زلزلت ... لولادة ٍ أوهتْ قوى ابن قباذِ
سين : سبقت بكل فضل يغتدي ... جفنُ المعالي منهُ ليس بقاذِ
شين : شأوتَ مفاخراً كل الورى ... وتركتهم غرقى بلجّة ِ آذي
هاء : هتفت على تنائي شُقّتي ... بعلاك هذي ، ما نحلتك هذي
واو : ولو أني استطعت لسابقتْ ... قلمي خطا قدميّ بالإغذاذ
لا : لا أكيّف قدر شوق باعث ... لعزائمي مستنهض ٍ شحّاذ
ياء : يميناً لو قدرتُ إذنْ لماً ... أخرَّتُ سعيَ مبادرٍ حذحاذِ
دامتْ عليك صلاة ربك ما همتْ ... ديمٌ بوبل ٍ هــاطل ٍ ورذاذِ

رجع إلى الكاتب أبي عبد الله ابن الجنان الأندلسي :

قال ِ — تقبل الله تعالى منه — يمدح النبي صلى الله عليه وسلّم :

يا مَن تقدّس عن أن ... يحيطَ وصفٌ بذاتِهْ
ومَنْ تعالى جَلالاً ... عن مُشبه ٍ في صفاتهْ
ومَنْ قبولُ ثنائي ... إليه ِ أسنى هباتهْ
صلى على مَنْ تبدّى ... نور الهدى من سماتهْ
ومَنْ علا الفخرَ لمّا ... نمى إلى مَعلُواتِهْ
محمدٌ خيرُ هاد ِ ... بحلمــه ِ وأناتــهْ
محمّدٌ خيرُ داع ٍ ... بالصدق ِ من كلماتهْ
محمّدٌ خيرُ مُبْد ِ ... لنا سَنا معجزاتهْ
أكرِمْ به ِ من نبيٍّ ... همتْ سما مكرماتهْ
أعززْ به من رسول ... سمتْ عُلا درجاتهْ
وخصّهُ الله منهُ ... بالفضل ِ من تكرماتهْ

لمّا حباه بأوفى صلاته في صَلاته

وقال :

يا ربّ بلّغْ سلامي لأحمدٍ ذي الشّفاعة
لخاتمِ الرُّسلِ أعني إمامَ تلك الجماعه
لأبهرِ الخلقِ مجداً يحكي الصباحَ نصاعه
لمنْ صفاتُ علاهُ تُعجزُ أهلَ البراعه
لسيّدٍ لسناهُ يزُهى السنا واليراعه
لمرشدٍ بهداهُ قد فاز عبدٌ أطاعه
شمسُ النبوّةِ معطٍ شمسَ السماء شعاعه
وناظمِ الحسنِ نظماً قد ضمّ منه شعاعه
وسرُّ سركَ يا منْ أرى العيون اطّلاعه
ومنْ حبا بذكاه خلالَهُ وطباعه
ومدّ في كلّ فضلٍ لصفوةِ الرُّسلِ باعه
فزدهُ يا ربّ فخراً وزدْ محبّيهِ طاعه

وقال أيضاً غيره :

لقد رفع الإله عن البرايا ببعثِ محمّدٍ محنَ الصروفِ
أتى والناسُ في الآفاقِ نهبٌ لسُمرِ الخطِّ أو بيضِ السيوفِ
فأنقذهمْ ، ولولاهُ لكانوا لقًى بين الضلالةِ والحتوفِ
نبيٌّ لا يغلُّ عليهِ إلاّ سخيفُ العقلِ ذو رأيٍ مؤوفِ
كأغمارِ اليهودِ أو النصارى أوِ الفلكيّ أو كالفيلسوفِ
فبعضٌ للتجاهلِ والتعامي وبعضٌ للتحيُّرِ والوقوفِ
زعانفُ لا يهلُكُ لها رُواءٌ فإنَّ الجهلَ ماثحةُ الظروفِ

إذا جارى بمختلٍّ ضعيفٍ فإنَّ صحاحنا فوقَ الألوفِ
فبرهانُ النبوّةِ مستفيضٌ ندلُّ بهِ على رغم الأنوفِ
شفوفُ الرُّسلِ متضحٌ ولكن لأحمدِ الشفوفُ على الشفوفِ
حروفُ الخطِّ أصلٌ للمعاني وللألفِ التقـــدُّمُ للحروفِ

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى :

لـولا النـــبيُّ محمَّـــد هلكَ الورى في سوء[1] حالَهْ
أعلى الورى قدراً وأكـ رمهم وأظهرهم دَلالَهْ
ختمَ الإله بـــهِ النبـ وّةَ والطهـــارةَ والرسالهْ
واختصَّـــهُ دونَ الـبر يّةِ بالمكانةِ والجلالهْ
بدرُ الرسالـــةِ والصحا بةِ حول ذاك البدر هالهْ
قذَفَ الحصى في أعينِ الـ كفّارِ فاعتنقوا الجهالهْ
وتـــدرعوا ثوبَ الكـــآ بةِ بعد إظهار الجزالهْ
فأصـــغْ إلى أنبـــائهِ تعلَمْ بأنَّ المنتهى لهْ
وإذا ابتغيتَ وسيلَـــةً ومدحتَهُ ومدحتَ آلَهْ
فاقطعْ بـــأنّكَ آمنٌ يومَ القيامةِ لا محالهْ

وقال أبو القاسم سعد بن محمد رحمه الله تعالى :

أطلقْ لسانكَ بالصلاة على الـ نبيِّ الأبطحيِّ الهاشميِّ محمدِ
واجعل شعارك ذاك تنجُ به غداً إنَّ النجاةَ بذكرِ يومٍ للغدِ

ولأبي اليمن ابن عساكر رحمه الله تعالى :

---

[1] ق : كل .

يا ربِّ صلِّ على النبي وآله ... صلواتنا ما دامت الأيامُ
واخصص ختومَ سلامنا بجنابهِ ... كالمسك يعبق فَضٌّ عنه ختامُ
واحرس شريعته وأوضح سبلها ... تبدو بها للسالك الأعلامُ
وأدِمْ كرامته وأعلِ منارَهُ ... وأنِلْهُ أعلى ما لديكَ يُرامُ
وارفع له الدرجات في رُتَبِ العلا ... فهو الذي للمرشدينَ إمامُ
وأقمه بين يديك زلفى موقف ... للحمدِ ما لسواه فيه مقامُ
وأنِلْ شفاعته وأوردْ حَوْضَهُ ... مَنْ لو أتاه [...] منه أُوامُ
يشتاقهُ ويعوقهُ عُلَقٌ بهِ ... لزمانِـهِ وزمانةٌ وسقامُ
فبهِ إليهِ غُلَّةٌ ما تشتفي ... إلاّ بلقياهُ ، وعَزَّ مرامُ
وله عليه في الأصائلِ والضحى ... تُهْدى إليهِ تحيّةٌ وسلامُ
وبهِ إلى تقبيلِ موطىءِ نَعْلِهِ ... وَجْدٌ له بين الضلوعِ أُوامُ

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

ألا إنَّ الصلاة على الرسولِ ... شفاءٌ للقلوبِ من الغليلِ
فصَلِّ عليه ؛ إن الله صلّى ... عليهِ ولا تكونَنْ بالبخيلِ
وصلِّ عليه قد صلّتْ عليهِ ... ملائكةُ السماءِ بجبرئيلِ
ألا إنَّ الصلاةَ عليه نورٌ ... لدى الظلمات في اليوم المهولِ
وتثقيلٌ لميزانٍ خفيفٍ ... وتخفيفٌ من الوزر الثقيلِ
إذا صلّيتَ صلّى الله عشراً ... بواحدةٍ عليك على الرسولِ
وتحظى بالشفاعة يوم تضحى ... وما لك من مُقيل أو منيلِ
فأكثر أو أقِلَّ فأنت تجزى ... بذلك من كثيرٍ أو قليلِ
فصلِّ عليه تجز جزاء ضعف ... وتجز مضاعف الأجرِ الجزيلِ
وأولى الناس أكثرهم صلاة ... عليهِ بهِ وأحرى بالقبولِ

وأنجاهم من الأهوال عبدٌ بها لهجٌ بَدَلَ [1] قال وقيلِ
فكنْ لهجاً بذكراه حفيّاً بلقياهُ ومنصبهِ الجليلِ
وصلِّ صلاة مشتاقٍ إليهِ وداوِ بذكره سقَمَ العليلِ
وصلِّ مدى الزمان على رسولٍ كريمٍ مصطفى بَرٍّ وصولِ
وصلِّ على حبيبٍ فاق فضلاً مدى شأوِ الكليم مع الخليلِ
فصلّى الله أفضل من يصلّي عليه في الصباح مع الأصيلِ
وآتاهُ الوسيلةَ مستجيباً وبلّغهُ نهايةَ كلِّ سُولِ
وأزلفهُ وشفّعهُ ليأوي إليه الناسُ في ظلٍّ ظليلِ
وأطّد شرعهُ وحمى حماهُ وأيّدهُ بواضحةِ الدليلِ
وشرّفه ولم يبرح شريفاً فيجمع جملة المجد الأثيلِ
وزادَ محبَّهُ شرفاً وفخراً بتفضيلٍ وتنويلٍ جزيلِ
وزاد علاه منه بطول عمرٍ قصيٍّ من مواهبهِ طويلِ
وأوردنا عليه الحوض وفداً لنروى بالرَّوى من سلسبيلِ

وله رحمه الله تعالى :

أدمِ الصلاةَ على النبيِّ المصطفى تخلصْ بذاك من الجحيم ونارها
وتولَّ إقبالاً عليهـا كلّما هتف المؤذنُ مشعراً بشعارها
فالفخرُ أجمعهُ له فتلقّهُ من نوبةِ الأسحارِ فوق منارها

فهذه عدة قصائد في مدحه صلّى الله عليه وسلّم ، أرجو من الله سبحانه أن تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللّغو ، فإن ذلك والله قول لا فعل له ، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر

---

١ كذا بالتسكين ، وفي هذه القصائد تسامح أحياناً في اللغة والإعراب لم نشر إليه .

وغير واحد ممّن ألف في الأدب وجمعه .

ولا بأس أن نعززها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحُقَّ لمن توسل بسيدِ الوجود صلّى الله عليه وسلّم أن لا تضيع وسائله ، وكيف وهو صاحب المقام المحمود والشفاعة والسيادة ، فمنها قول ابن الجنان المذكور آنفاً رحمه الله تعالى :

إلى أحمدَ المختارِ نُهدي تحيّةً ... تفاوحُ روضَ الحَزْنِ بلله المزنُ
إذا نافحتْ مغناه زاد تأرجاً ... وإن لثمتْ يمناه قابلهُ اليُمن
أُسيّرُ أشواقي رسولاً بعَرفها ... لتسعدها منه العوارفُ والمن
وأرجو لديه الفضلَ فهو مُنيله ... وما خاب لي فيه الرجاءُ ولا الظن
عليه اعتمادي حين لا ليَ حيلةٌ ... إليه استنادي حين ينبو بيَ الركن
به وثقتْ نفسي الضعيفةُ بعدما ... أضرَّ بها من ضعفِ قوتها الوهن
إليه صلاتي قد بعثتُ مُشفّعاً ... سلاماً به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى :

أيذهبُ يومٌ لم أكفّر ذنوبهُ ... بذكرِ شفيعٍ في الذنوبِ مشفّعِ
ولم أقضِ في حقّ الصلاة فريضةً ... على ذي مقام في الحساب مرفّع
أُرجّي لديه النفعَ في صدق حبّه ... ومن يرتج المختارَ لا شك ينفع
وأُهدي إلى مثواه مني تحيّةً ... إذا قصدت باب الرضى لم تُدفّع

وقوله رحمه الله تعالى :

يا أرحمَ الخلق يوم الحشرِ والندمِ ... ارحمْ عبيدك يا ذا الطَّوْل والنعمِ
إني توسلتُ بالمختار ملجأنا ... الطاهرِ المجتبى من خيرةِ الأممِ
إليك مِنْ سيئاتي إنها عظمتْ ... يا واحداً لم يزلْ فرداً ولم يَنمِ
عليهِ منه صلاةٌ كلما طلعتْ ... شمسٌ وما خطٌّ في الأوراق بالقلمِ

فهو الشفيعُ الذي أرجو النجاةَ به ۔ من الجحيم إذ الكفارُ كالحمَمِ

وقوله أيضاً رحمه الله تعالى :

بحبيبِ القلوبِ معتمدِ الخلا ق ِ أبي القاسمِ النبيِّ الشفيعِ
قد تشفّعتُ من ذنوبي إلى ذي الـ ـعزةِ الواحدِ العليِّ السميعِ
فاشفعْ اشفع يا خاتم الرُّسل يومَ الـ ـحشرِ والمشهدِ العظيمِ الفظيعِ
لظَلومٍ لنفسهِ قد تناهى في الخطايا وكلِّ فعلٍ شنيعِ
فإذا ما تذكر الذنبَ فاضتْ مقلتاهُ واغرورقتْ بالدموعِ
لا تخيّبْ رجاءه إنّهُ مِنْ ربِّهِ خائفٌ كثيرُ الخشوعِ
وعليكَ الصلاةُ بدءاً وعوداً ما أضاءتْ ذُكاءُ عندَ الطلوعِ

وقوله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

يا ربِّ إنَّ شفيعي من ذنوبيَ في يومِ القيامةِ خيرُ الخلقِ والنسمِ
محمّد خاتم الرُّسلِ المبلِّغ للـ ـدينِ الحنيفي والإسلام للأمم
عليه مني صلاةٌ كلما سجعَ الـ ـحمامُ فوق غصونِ البانِ والسَّلم
وبعد ذلك أعدادُ الجبالِ ورمـ ـل الأرض والطيرِ والحيتانِ والنَّعم
كذاك أيضاً سلامي طيّبٌ عطرٌ عليهِ ما قام عبدٌ في دجى الظُّلَم
للهِ وهو كئيبٌ خائفٌ وجِلٌ من الذنوبِ حزينُ القلبِ ذو ألم

وقول الشيخ الإمام أبي زيد الفازازي رحمه الله تعالى :

كملتْ بنعتِ محمّدٍ خيرِ الورى غُرَرُ القصائد كلُّها وحجولها
واختصَّ دون الأنبياء بدعوةٍ وسع العبادَ عمومها وشمولها
فاضتْ على الثَّقَلين منه أشعّةٌ طلعتْ وما عقبَ الطلوعَ أفولها
فالإنسُ تعلمُ أنّهُ مقصودها والجنُّ توقنُ أنّهُ مأمولها

كم آيةٍ بالصدقِ كان ظهورها كمْ آيةٍ بالسَّبْقِ كان نزولها
وكفاك هذا الوحيُ فهو شهادةٌ لمحمّدٍ لزمَ العبادَ قَبولها
جمعَ الإلهُ المكرماتِ لأمّةٍ هذا النبيُّ الهاشميُّ رسولها

وقوله رحمه الله تعالى :

أيُّ نورٍ كشف الله بهِ سُدَفَ الباطل عنّا أجمعينْ
ختمَ الله بهِ أنوارَهُ عندما أكمل سنَّ الأربعينْ
وأتـــانا بدليـلٍ بيّنٍ عجزتْ عنه دواعي المدعينْ
فهو للناسِ جميعاً مرشد وهو باللهِ تعالى مستعينْ
تركتْ دعوته وهوَ الرضي سائرَ الخلقِ إليها مُهطعينْ
فأعِدْ أنباءهُ فهو مُنى أنفُسِ القائلِ والمستمعينْ
والذي يهدى إلى شرعته فهو مجّاجٌ من العذبِ المعينْ
والذي يرغبُ عن سنّته فهو من شيعةِ إبليس اللعينْ

وقوله وهو كما قبله لزومي :

أصخْ فلخيرِ العـــالمين مناقب تدل على التمكين والشرف الأسرى
أتى والورى أسرى فكان غياثهم بنور سماء ينقلوه عن الإسرا
وعفّى رسوم الكافرين وأهلها فلا قيصر من بعد ذاك ولا كسرى
تقدّمَ كلَّ العالمين إلى مدًى تظلّ بهِ الأوهام ظالعةً حسرى
وخُصّ بتشريف على الناس كلهم ومن لم يقل هذا تقوّله قَسْرا
ترقّى إلى السبع الطباق ترقّياً حقيقاً ولم يعبر سفيناً ولا جسرا
وبالجسم أسرى الله وهو دلالةٌ يمحّلها من لا يُيَسَّر لليسرى
فسبحان من أسرى إليهِ بعبدهِ وبورك في الساري وبورك في المسرى
وكم عجب أوحى إلى عبده بهِ فلونك تجميلاً ولا تطلب الفَسْرا

وقوله رحمه الله تعالى :

هاك عن هذا النبيِّ المصطفى ... خبراً يقبَلهُ مَنْ سمِعَهْ
سبَّحتْ صمُّ الحصى في كفّه ... ثمّ في كفّ الهداة الأربعهْ
وإذا أبدى نبيٌّ عبرةً ... فهو لا ينكر فيمن تبعهْ
أيّ نطقٍ قد روى إعجازهُ ... عن سماع كلّ من كان معهْ
حُججُ الرُّسلِ التي قد سلفتْ ... أصبحتْ في أحمدٍ مجتمعهْ
فاعتقدْ صحتَّها واعمل بها ... فدعــاوى ضدها منقطعهْ
ممكناتُ العقلِ لا يجحدها ... غيرُ أهلِ الطبعِ والمبتدعهْ

وقوله رحمه الله تعالى :

إذا أمَّلتَ من مولاك قرباً ... فجدِّدْ ذكرَ خيرِ الأنبياء
وصلِّ عليه أولَ كلِّ قولٍ ... وآخره بصبحٍ والمساء
فإنَّ محمّداً أعلى البرايا ... علاً في السيادةِ والعلاء
لواء الحمدِ في يمنى يديهِ ... وكلُّ الناس من دون اللواء
فحدثْ عن دلائلهِ فضيها ... شفاءُ النُّهى من كلِّ داء
ولستُ بناقلٍ للعشرِ منها ... وهل تفنى الزواخرُ بالدلاء
فقل للسامعين قفوا فهذا ... محالٌ ليسَ يحصرُ بانتهاء
براهين البسيطة ليس تحصى ... فدونكمُ براهينَ السماء

وقوله رحمه الله تعالى :

أمّا يمينُ محمّدٍ ... ويسارهُ فهما سماءْ
كلتاهما إن صوّح الـ ... ـمرعى لنا طعمٌ وماء
وإذا أضرَّ بنا السقا ... مُ وغيره فهما شفاء

فاعجب لكف في الورى فيها عن المزن اكتفاء
فاقطعْ بأنَّ محمّداً في الخلق ليس له كفاء
فإذا أصخت لآيةٍ فالنورُ فيها والضياء
هذا الصباحُ الهاشميُّ بدا فليس به خفاء
فالأرض قد فتحتْ بمبعثه وفُتِّحت السماء
سبقَ القضاء بسبقِه والله يفعلُ ما يشاء

وقوله رحمه الله تعالى :

بركاتُ رسل الله غير خفيةٍ ومحمدٌ خيرُ البريّةِ أبركُ
هذا النبيُّ الهاشميُّ هو الذي هُديَ الأنامُ به وبان المسلك
كم آيةٍ لمحمدٍ كم حجةٍ عزَّ الوليُّ بها وذلّ المشرك
دعواته مسموعةٌ مرفوعةٌ والحس ليس يصح فيه تشكك
لا شيء أعجب من دليل واضح يحيا به بعضٌ وبعضٌ يهلك
أمسك بحبل محمد خير الورى تظفر بقصدك أيها المستمسك
وإذا عجبتَ لغايةٍ في رفعةٍ فمحلُّ أحمدَ غاية لا تدرك

وقوله رحمه الله تعالى :

قَبّحَ الإلـه الملحدين فإنهم جحـدوا الضروره
والمعجـزاتُ تواتـرتْ عن أحمدٍ في كلّ صوره
والله أعـلى كعبـهُ في خلقه وأتمّ نوره
كثر الطعامُ مع الشرا بِ بكفه عند الضروره
وتـكنّفتْـهُ عنايـةٌ من ربه أعلتْ أموره
نـادى البريّةَ فـالقلو بُ إلى إجابته مصوره

وحمى الشريعةَ بالدليـ ـل فدعْ معاندها وزُورَهْ
قل للمشكِّك حين يبـ ـدي في تشككه قصورهْ
بيني وبينكـمُ الكتا بُ فدونكم فأتوا بسورهْ

وقال رحمه الله تعالى :

إذا بهرتْ للهاشميّ دلالةٌ فكم حججٍ في طيها ودلائلِ
فكم مرة آتى الغنى كفَّ سائلٍ وكم مرة أعطى المنى فكر سائلِ
له تحتَ أستارِ الغيوبِ شهادةٌ مُعدَّلة لم تُبقِ قولاً لقائلِ
يحدثُ عما كان أو هو كائنٌ فقس آخراً من صدقه بالأوائلِ
إذا الصدق لم يعوزك في غدواته فلا شكَّ في تصديقه بالأصائلِ
وحسبك في الأنباء بالغيبِ أنهُ ستسمعها بالنقلِ من قول قائلِ

وقوله رحمه الله تعالى :

يا ذا المعنّى بهذا الذكرِ تسمعهُ في المدح تأثره في سيد الناسِ
هذا النبيُّ ، ومَن آياتُ أثرته في الطيب والطّول لا تجري بمقياس
قد انقضتْ معجزات الغيب وافيةٌ صحيحةٌ باستفاضاتٍ وإحساس
وهاكَ نوعاً من الإعجاز منتزهاً عن نقد منتقدٍ أو صفح قرطاس
لا نعدم النقلَ عن آثار سيدنا فإنما نحنُ فيها بين أعراس
تَنَقّلُ الأنفِ في النوّار ينشقهُ من ياسمينٍ إلى وردٍ إلى آس
إنَّ القلوب إذا اعتلّتْ خواطرها فذكر أحمدَ فيها المبرىء الآسي

وقوله رحمه الله تعالى :

تأدبْ إذا ذُكرَ المصطفى بصمتِ اللسانِ وغضِّ البصرْ
فإنَّ التأدبَ عند السماعِ يفهّم في النطقِ أو في النظرْ

ورددْ أحـــاديثها إنهـــا دليلٌ على صدقِ خيرِ البشرْ
وصَلِّ عليهِ مدى ذكره فذلكَ أفضلُ مـــا يُدّخرْ
ولا تسترِبْ في براهينـــه فتسلكَ مسلك قوم أُخرْ
فكمْ آيةٍ ظهرتْ للنبيِّ وكمْ أثر عنده قد ظهرْ
ومَنْ شكَّ في نور برهانه على أنَّ برهانه قد بهرْ
فكبِّرْ على عقله أربعـــاً وقلْ فوق طورك هذا الخبرْ

وقوله رحمه الله تعالى :

اعمـــل بـــآثار النبـ ـيِّ فإنها النورُ المبينُ
واقْبَلْ نصيحتهـا ففيـ ـها العزُّ والشرفُ المكينُ
واشدد يمينك بالشريـ ـعة إنها السببُ المتينُ
خيرُ البريّةِ أحمد والحقُّ يصحبه اليقينُ
ذو قوّةٍ عند الإلـ ـهِ مقرّبٌ منه مكينُ
زانَ النبيّون الورى ومحمّدٌ لهمُ مزينُ
هادٍ إلى طرقِ النجا ةِ مؤيدٌ فيها أمينُ
والهجْ بمدحِ الهاشمـ ـيِّ فإنه الحصن الحصينُ
ولئن فعلتَ فلن تفو تك بعد ذا دنيا ودينُ

وهذا تسديس جعلته للكتاب مسك الختام :

وللنّاس أعمالٌ فخير وضدّه وما يحسنُ الأعمالَ غيرُ الخواتم

وإلاّ فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له ، وفيها النثر والنظام ، زاده الله شرفاً وحباه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجلّ أبي الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري الأندلسي – نفعه الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية أمنيته – وترتيبها على

حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم ، وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً ، وهذا نصه بحروفه ما عدا حرف الواو فإني لم أجده وكملته على منواله :

حلّ في طَيبةٍ رسولٌ كريمُ فعليـــهِ الصلاةُ والتسليمُ

صفوة الخلقِ خاتمُ الأنبياء مرشدُ الناس للطريق السَّواء
والعمادُ المـــلاذُ في اللأواء وشفيعُ العصاة يوم الجزاء

يوم يبلو لديهِ جاه عظيمُ فعليهِ الصـــلاةُ والتسليمُ

أذهَبَ الغيَّ نورُهُ والغياهب فأضاءت مشارقٌ ومغارب
وغدا الحقُّ غالباً للأكاذب وبدتْ منه للأنام عجائب

صدَقَ أقواله بها معلومُ فعليـــهِ الصلاة والتسليمُ

لبراهينِ صدقهِ معجزاتُ حيثما حلَّ حلّتِ البركاتُ
وسَمَتْ أربُعٌ بهِ وجهاتُ فبه قـــد تعرفتْ عرفاتُ

وبهِ تاهَ زمزمٌ والحطيمُ فعليـــهِ الصلاة والتسليمُ

لم يزل هادياً صدوقَ الحديثِ ووفيّاً بالعهدِ غير نكوثِ
ومجيبـاً لـــدعْوَةِ المستغيثِ وكريماً نداهُ فوقَ الغُيوثِ

ويداهُ بالجودِ جوْدٌ سَجومُ فعليـــهِ الصلاة والتسليمُ

بهج الحق أوضح الابتهاجِ سيد نوره أضاء الدياجي
خصّهُ اللهُ ليلةَ المعراجِ باصطفـاء ورفعةٍ ونتاجِ

وبتكليمـــهِ له التكريمُ فعليـــهِ الصلاة والتسليمُ

مصطفى مجتبى كريمٌ صفوحُ للنبيِّينَ جـاهُهُ ممنوحُ
فلإكرامِهِ أجير الذبيحُ ونجـا آدم وخُلِّصَ نوحُ

وكذاكَ الخليلُ إبراهيمُ فعليـهِ الصلاة والتسليمُ

كلُّ دينٍ بدينـهِ منسوخُ سوى ما قضى بهِ مفسوخُ
لهداهُ بكلِّ قلبٍ رسوخُ فالورى مادحٌ له ومصيخُ

كلهم في هوى النبي يهيمُ فعليـهِ الصلاة والتسليمُ

بعثه كان رحمـةً للعبادِ دلّهم بالهدى طريق الرشادِ
ونفى كلَّ باطلٍ وعنـادِ ودعا للإله دعوة هادي

فإذا الحق واضحٌ مستقيمُ فعليـهِ الصلاة والتسليمُ

أمّهُ بالشكاةِ ظبيٌ أخيذُ مستجيراً بجـاههِ يستعيذُ
وبهِ كانت الوحوشُ تلوذُ ولهُ خاطبَ الذراعُ الحنيذُ

لا تذقني فإنني مسمومُ فعليـهِ الصلاة والتسليمُ

أشبع الجيشَ والطعامُ يسيرُ ودعا نخلةً فجاءت تسيرُ
وهمى من يديه عذب نميرُ وله البدرُ شُقَّ وهو منيرُ

معجزاتٌ تحارُ فيهـا الفهومُ فعليـهِ الصلاة والتسليمُ

حجب النور في السموات جازا فاحتوى الفضل والعلاء وحازا
فبهِ في غدٍ ننال المفازا وكفى أمّةَ الرسولِ اعتزازا

أن تمنى يكون منها كليمُ فعليـهِ الصلاة والتسليمُ

إنما الحكمُ منه عدل وقسطُ — لم يجُرْ في القضاء والحكم قطُّ
حبه في بلوغ قصديَ شرطُ — وبأمــداحــه ذنوبي تحطُّ

ويزولُ العنا وتجلى الهمومُ — فعليــه الصلاة والتسليمُ

قد حمى ديننا برعيٍ ولحظِ — ونفى روعنا بأمنٍ وحفظِ
وحبانا بما لدى الربّ يُحظي — هادياً راحماً لنا غير فظٍّ

مثل ما نصَّه الكتاب الكريمُ — فعليــه الصلاة والتسليمُ

نور برهانه جلا كلّ شركِ — وهداهُ أجار من كلّ هلكِ
أخيَرُ العالمين من غير شكٍّ — فلكم رامَهُ العُداة بشكٍّ

وهو في كلّ حالةٍ معصومُ — فعليــه الصلاة والتسليمُ

ما لخيرِ الأنام منهم عديلُ — إنــهُ مجتبّى نبيٌّ رسولٌ
ما عسى مادح الشفيع يقولُ — وبأمــداحه أتى التنزيلُ

وثنــاهُ خلالهُ مرسومُ — فعليــه الصلاة والتسليمُ

نحن لولا اتّباعه لشقينــا — نورُ برهانه أرانا يقينا
وغدا ما نخاف منه يقينا — وكؤوساً بحوضه قد سقينا

من رحيقٍ مزاجُهُ مختومُ — فعليــه الصلاة والتسليمُ

أحمد عند ربه ذو اختصاصِ — جاههُ كاملٌ بغير انتقاصِ
عدة للمسيء يوم القصاصِ — وشفيعٌ لكل جانٍ وعاصي

يوم يجفو الحميمَ فيه الحميمُ — فعليــه الصلاة والتسليمُ

بيديه حوائجُ الكلِّ تُقضى ويجازي الذي أجاز وأمضى
وينادي الحبيب أنتَ المرضى سوف نعطيك ما تحب وترضى

فتحكّم يمضي لك التحكيمُ فعليهِ الصلاة والتسليمُ

فاق بالمولد السعيد ربيع إن فيهِ بدا الجلال الرفيع
من هو الذخر والعماد المنيع فملاذ للمذنبين شفيع

ورؤوف بالمؤمنين رحيمُ فعليهِ الصلاة والتسليمُ

أفصح الناس في حديثٍ وأبلغْ بيّنَ الوحي للأنام وبلّغْ
طيب الحل قد أباح وسوّغْ ولكمْ نعمة من الله سوّغْ

فلإحسانُهُ علينا عميمُ فعليهِ الصلاة والتسليمُ

كان بالحقّ والهدى معروفا أجود الناس بالندى موصوفا
شرّف الله قدره تشريفا هادياً مرشداً رسولاً شريفا

مجده في العلاء مجدٌ صميمُ فعليهِ الصلاة والتسليمُ

وجههُ بالبها أضاء وأشرقْ مجده في صميمه الأصل أعرقْ [1]
مسّ في كفه قضيباً فأورقْ باصبع قد أشار للبدرِ فانشقّ

ثمّ قد عادَ وهو بدرٌ سليمُ فعليهِ الصلاة والتسليمُ

جاءه الوحي أنت خير الناسِ بلّغ الأمر لا تخف من باسِ
وخذ العفو للأنام وواسِ واحمهم من مكايد الوسواسِ

---

[1] هذا البيت واثنان بعده سقطت من ق .

فعليــك البلاغ والتعليمُ فعليــهِ الصلاة والتسليمُ

كان في الله أثبت الناس جاشا ليس من غيره يخاف ويخشى
فبكفّ من الحصى فلّ جيشا وعيون العُداة بالترب أعشى

فنجا المصطفى وخابَ الظلومُ فعليــهِ الصلاةِ والتسليــمُ

قد سما قدره بغيرِ تناهي وعلا جاهه على كلّ جاهِ
آمرٌ بالتُّقى عن الشرِّ ناهي مَنْ يُطِعْهُ ينل ثوابَ الإلهِ

ولهُ عنــدهُ النعيمُ المقيمُ فعليــهِ الصلاة والتسليمُ

عمدة الخلقِ للمفاخرِ حاوي بحماهُ يلوذ كلٌّ وياوي
مبلغ المعتفي الذي هو ناوي كيف يحصي ثناء أحمد راوي

وعليه أثنى الكتابُ الحكيمُ فعليــهِ الصلاة والتسليمُ

حسنه كالصباحِ بل هو أجلى وندى كفّه من الشهد أحلى
واعتلا قدره من السبع أعلى مدحه في الكتاب ما زال يُتلى

فلهُ الفخرُ والثناء العظيمُ فعليــهِ الصلاة والتسليمُ

خصّهُ الله من رسولٍ نبيٍّ في جميع الورى بقدر عليٍّ
وحباهُ منهُ بنورٍ بهيٍّ فهدى الخلق للصراط السَّويِّ

وصراط الهدى سويٌّ قويمُ فعليــهِ الصلاة والتسليمُ

[خاتمة الكتاب]

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقري المالكي ، وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب ، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى

الإصر والعتاب : هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذي يكون إلى ما وراءه من الطُّرَف الأدبية خير دليل ، ووضعته والقلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة ، وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجى سواه ، أن يجعل بناءه ثابتاً بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه ، وأن يكون ما جلبته فيه من الهزل بالجد المذكور فيه مكفراً ، وأن ينفع به من وجّه إليه وجهته ، فإني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف الفرا .

يا مَنْ عليه اتكالي ومن إليهِ متابي
جُدْ لي بعفوكَ عنّي إذا أخذتُ كتابي

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر ، وفيه من حكايات الأولياء والعلماء ، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك . وفيه من الوعظ والاعتبار ، ما لم ينكره المنصف عند الاختبار ، وكفاه أنه لم يُرَ مثله في فنه فيما علمت ، ولا أقوله تزكية له ، ويعلم الله تعالى أني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ، ولو لم يحُزْ من الشرف إلاّ ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة ، ذات الظلال الوريفة ، لكان كافياً شافياً ، وها أنا أجعل آخره تشبيهاً للّيب ، قول ابن حبيب :

يا خـيـرَ مبعوثٍ له طلعةٌ نورُ الهدى منها أقرَّ العيونْ
جئتُ إلى ناديكَ أرجو القِرى من غيث كفّيكَ المغيث الهتونْ
كنْ لي شفيعاً فارتكابُ الهوى أوقعني بين الشّجا والشجونْ
صلّى عليكَ الله سبحـانهُ ما هزّتِ الريحُ قُدودَ الغصونْ

وقول النواجي :

لقد أفرطتُ في حسنِ ابتداء وزمتُ تخلُّصي يومَ الزحامِ
فبالمختارِ أرجو عفوَ ربي ليرشدني إلى حسن الختامِ

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسْفِر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف ، بالقاهرة المحروسة ، والحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها ؛ فيكون جميعه آخر الحجة تتمة سنة تسع وثلاثين وألف ، وصلّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم ، دائماً أبداً إلى يوم الدين ، آمين .

وجاء في ختام النسخة « ق » :

قال محرر هذه النسخة المباركة العبد الفقير ، الضعيف الحقير ، الراجي من الله سبحانه العفو والغفران ، أحمد بن محمد الحموي العطار ، غفر الله ذنوبه ، وستر في الدارين عيوبه ، كان الفراغ من كتابته عشية يوم الأربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين لذي القعدة الحرام من شهور سنة ثلاثين ومائة وألف ، حامداً لله مصلياً ومسلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم طالباً لمؤلفه المغفرة رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين وعن الأربعة الأئمة المجتهدين وعن مقلديهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا وعن والدينا ومشايخنا ، ومن علمنا ومن هدانا ومن أسدى إلينا معروفاً ، وعن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، من أهل السنة والجماعات ، إنه غفور رحيم ، شكور حليم ، ... وقد تمت هذه النسخة الميمونة المباركة المصونة بعون الله وإرادته القادرة ومشيئته الصادرة برسم افتخار السادة الأشراف ... مولانا وسيدنا السيد محمد عاصم أفندي ابن المرحوم السيد عبد المعطي أفندي الشهير نسبه بالفلاقنسي ... وذلك بمنزلي العامر الكائن بمحلة القيمرية من دمشق الشام (ثم قصيدة قالها الناسخ في تقريظ الكتاب مؤرخاً قل تم عرف الطيب أبهج به وعدي: ١١٣٠) .

انتهى المجلد السابع وبه تمّ الكتاب

ويليه المجلد الثامن في الفهارس العامة

محتويات المجلد السابع

الباب الخامس
(تتمة)

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن